علوم القرآن

السيد محمد باقر الحكيم

---

[١]

مجمع الفكر الاسلامي ٢٢ علوم القرآن تأليف السيد محمد باقر الحكيم الطبعة الثالثة منقحة ومزيدة

---

[٢]

قم - ص. ب ٣٦٥٤ / ٣٧١٨٥ الهاتف: ٧٣٧١١٧ الكتاب: علوم القرآن المؤلف: آية الله السيد محمد باقر الحكيم الناشر: مجمع الفكر الاسلامي الطبعة: الثالثة / ربيع الثاني ١٤١٧ هـ. ق تنضيد الحروف: مجمع الفكر الاسلامي الليتوغراف: نگارش - قم المطبعة: مؤسسة الهادي - قم الكمية: ٣٠٠٠ نسخة جميع الحقوق محفوظة لمجمع الفكر الاسلامي

---

[٣]

بسم الله الرحمن الرحيم

---

[٥]

كلمة المجمع القرآن الكريم هو الوحي الالهي المنزل على خاتم الانبياء محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وآله) لفظا ومعنى واسلوبا والمكتوب في المصاحف والمنقول عنه بالتواتر. وهو سند الاسلام الحي ومعجزته الخالدة التي تحدت ولا زالت تتحدى جموع البشرية على مر القرون. وهو دستور إلاسلام الجامع لكافة مبادئ الحياة الانسانية تجاوبا مع الفطرة وانبثاقا من صميم الانسانية. وللقرآن الكريم هيمنته الخارقة على نفوس بشرية أبت الرضوخ لغير الحق فاستسلمت لقيادته الحكيمة، فأقبلت على دراسته بشوق وشغف وتقديس. وكان الرسول الاعظم (صلى الله عليه وآله) هو النمير العذب للعلوم الاسلامية فأحاط به اصحابه الاجلاء يقبسون منه سناء العلم ويستضيئون بهداه. وكان أمير المؤمنين علي بن ابي طالب (عليه السلام) الرجل الاول الذي احرز قصب السبق في مضمار تدوين القرآن وتفسيره وبيان علومه وقد برع في هذا المجال حتى روي عنه انه أملى ستين نوعا من انواع علوم القرآن، وذكر لكل نوع مثالا يخصه. وكان للائمة من أهل البيت (عليهم السلام) وأصحابهم أبلغ الاهتمام بالقرآن العظيم وعلومه بعد أن كان القرآن يمثل الهدى الالهي، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وبعد أن كان القرآن بحق هو المفجر للعلوم البشرية بل هو عماد العلوم الاسلامية وأساسها. واستمر العلماء في اغناء المكتبة الاسلامية طيلة القرون الاربعة عشر الماضية

بصنوف المؤلفات والابحاث التي تدور حول القرآن الكريم الذي يمد البشرية بأنوار الهداية والرشاد ويدلهم على الطريق المستقيم والحياة الحرة الكريمة. ومن جملة ما الف للتعرف على علوم القرآن الكريم وحاز قصب السبق في عصرنا الحاضر هو كتاب (علوم القرآن) الذي كتب شطرا منه آية الله العظمى الشهيد الصدر رضوان الله تعالى عليه ثم أكمله تلميذه البارع والاستاذ المحقق آية الله السيد محمد باقر الحكيم دام ظله. وقد روعي فيه العمق ووضوح العرض والمنهجية في الطرح والحداثة التي نجدها في اكثر ما قدمه الشهيد الصدر من بحوث وأفكار ورؤى، مع مراعاة المستوى العلمي لطلاب الجامعات والاهتمام بالموضوعات ذات العلاقة بالنهضة الثقافية الاسلامية المعاصرة وحركة الامة الاسلامية نحو التجديد في تطبيق الاسلام النقي المستنبط من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة. وقد اعاد النظر سيدنا المؤلف في هذه الطبعة الثالثة للكتاب وأضاف إليه موضوعات مهمة بلغت حوالي ثلث الكتاب حجما مع التصحيح والتنقيح وإعادة الترتيب بالشكل الذي يتناسب مع المناهج الدراسية المطلوبة في الحوزات العلمية والجامعات الاسلامية. ونحن إذ نشكر للمؤلف جهوده ونبارك له خطاه، نسأله تعالى أن يتغمد شهيدنا الصدر برحمة منه ورضوان ويمن علينا بالسير على خطاه في الاهتمام بعمق الدراسات الاسلامية واصالتها وتميزها بالتجديد والابداع وتلبية حاجات العصر. وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين مجمع الفكر الاسلامي

مقدمة الطبعة الثالثة: بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين والصلاة على نبيه سيد المرسلين محمد، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وأصحابه المنتجبين. اللهم اهدنا بالقرآن، ووفقنا لفهمه وتدبره والعمل به، وثبتنا على هداه، وأعنا على تحمل اعبائه وابلاغه (... ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين) (١) وبعد... هذه محاضرات كنت قد وفقت لالقائها على طلبة كلية اصول الدين في بغداد منذ بداية تأسيسها في عام ١٣٨٤ هـ)١٩٦٤ م)، وكان قد كتب الجزء الاول منها - وهو ما يخص طلبة الصف الاول وبداية الصف الثاني - سيدنا آية الله العظمى الشهيد الصدر رضوان الله عليه، وقد راعى هذا التدوين المستوى العلمي البسيط لهذه المرحلة، ولكن مع ذلك جاءت هذه الكتابة مشتملة على لفتات علمية وابتكارات نظرية في هذا العلم الشريف. وقد اكملت المنهج للسنوات الاخرى، حيث كنت اواكب في التدوين مسيرة التدريس. وقد حاولت الاستفادة فيها مما دونه أو ذكره أعاظم العلماء في هذا الفن

---

(١) البقرة: ٢٨٦. (*)

أو بعض الباحثين الذين كانت له ممارسات في هذا المجال، مراعيا في ذلك النقاط التالية: ١ - غزارة المادة وعمقها. ٢ - وضوح العرض ومنهجيته والتركيز على النقاط المهمة والاساسية. ٣ - طرح الافكار

الصحيحة والاصيلة وتهذيبها. ٤ - مراعاة المستوى العلمي المطلوب لطلاب الكليات المختصة، وللاوساط العلمية في الحوزات والمدارس الدينية التقليدية على مستوى مرحلة (المقدمات) و (السطح الاولي). ٥ - الاهتمام بالموضوعات ذات العلاقة بالنهضة الثقافية الاسلامية المعاصرة وحركة الامة نحو التجديد في التطبيق مع التمسك بالاسلام الاصيل النقي المستنبط من الكتاب الكريم والسنة النبوية. ٦ - الالتزام بالمنهج العلمي الذي يتسم بالاحترام والدقة الموضوعية في القضايا ذات الطابع المذهبي والابتعاد عن اثارة المشاعر والحساسيات المذهبية أو الطائفية وبالشكل الذي لا يضر ببيان الحقائق العلمية. وقد كانت الظروف الموضوعية السياسية والاجتماعية الخاصة والعامة - عند كتابة هذه المحاضرات - لا تسمح لي بأن اعطي الوقت الكثير لهذه الاوراق، ولذا تم اعدادها في البداية بسرعة وفي وقت محدود، الامر الذي جعل توثيق المصادر بالطريقة الفنية أمرا عسيرا خصوصا فيما كتبه أستاذنا الشهيد الصدر رضوان الله عليه وان هذه الكتابة لم تعد للنشر. ولكن قامت كلية اصول الدين في البداية بنشرها من خلال مجلتها (رسالة الاسلام) في مجموعة من أعدادها وبشكل تدريجي، فكان هذا النشر يمثل (الطبعة الاولى) لهذه المحاضرات.

وبالرغم من أني كنت قد أدخلت الكثير من التعديلات والملاحظات عليها من خلال تكرار تدريسها في الكلية المذكورة، وطبعت هذه الملاحظات في (الملازم) الخاصة بالطلبة، إلا أنها لم تأخذ طريقها الى (المجلة). ولم تتم لي في حينه مراجعة (المجلة) عند الطبع، فجاءت هذه الطبعة - بالرغم من فائدتها والعمل المشكور الذي قامت به المجلة - مليئة بالاخطاء وأحيانا سقوط بعض الفقرات فضلا عن الجوانب الفنية الاخرى. ثم قام المجمع العلمي الاسلامي الذي يشرف عليه سماحة العلامة السيد مرتضى العسكري مؤسس وعميد كلية اصول الدين سابقا، بطبع هذه المحاضرات مرة اخرى على شكل كتاب، حيث تم استنساخه وتصويره على اساس اوراق المجلة آنفة الذكر مع ايجاد تطوير لها في جانبين: احدهما: هو تقديم وتأخير بعض الموضوعات بافتراض ان ذلك أكثر انسجاما مع المنهج التدريسي، ومن اهتمامات المجمع هو اعداد وطبع الكتب الدراسية للحوزات والمدارس الدينية. والاخر: وضع فهارس جيدة في آخر الكتاب للايات والاحاديث والاعلام والامكنة والشعوب والنحل والكتب وغيرها. وباعتبار أن السادة الافاضل في المجمع كان هدفهم تقديم الخدمات المجانية بقصد كسب مرضاة الله تعالى وهو هدف مشترك، كما أن هذه المحاضرات لهم حق الاشتراك فيها فقد قاموا بطبعها بدون مراجعتي، ولعله مراعاة لظروفي الخاصة التي لم تكن تسمح لي - بسهولة - مراجعة الكتاب، أو اعطاء النظر فيه مرة اخرى. فجاءت (الطبعة الثانية) مفيدة ونافعة ولكنها ناقصة. وقد طلب مني بعض الاخوة الاعزاء، ومنهم الاخوة في مجمع الفكر الاسلامي... طبعها مرة اخرى، وكنت أطلب منهم تأجيل ذلك حتى تسمح لي

الفرصة باعادة النظر في هذه المحاضرات علما بأن الملاحظات السابقة قد افتقدتها بسبب ظروف الهجرة والمطاردة ومصادرة الكتب وجميع الممتلكات من قبل سلطات البعث العفلقي، حتى تمكنت اخيرا - والحمد لله - باقتطاف فرصة قصيرة ومحدودة وعلى السرعة من اعادة النظر فيها، فأدخلت فيها - مع مراعاة النقاط المذكورة آنفا

في أصل الاعداد - التعديلات التالية: أولا: تم تنقيح الكتاب على مستوى التصحيح والتوضيح بالنسبة الى مجموع المحاضرات، واضافة بعض النقاط أو حذفها بالنسبة الى القسم الذي كنت قد دونته. ثانيا: اضافة بعض الموضوعات المهمة أو تكميلها مثل موضوع (نزول القرآن باللغة العربية) و (الهدف من نزول القرآن) و (التفسير بالرأي) و (مرجعية أهل البيت (عليهم السلام) الفكرية) و (التفسير عند أهل البيت (عليهم السلام)) وبعض الموضوعات ذات العلاقة بالقصص القرآني، والفصل الثاني من خلافة الانسان وغيرها من الاضافات المهمة. ثالثا: تمت اعادة ترتيب الكتاب مرة اخرى بالشكل الذي يتناسب مع التدرج في الموضوعات والمستوى العلمي لها. وقد قسمت الكتاب الى اربعة اقسام: يتناول القسم الاول موضوعات عامة حول القرآن. والقسم الثاني يتناول أبحاثا حول بعض الموضوعات القرآنية كالمحكم والمتشابه والنسخ، وكذلك معالجة بعض الشبهات المهمة التي اثيرت حول القرآن الكريم. والقسم الثالث تناول موضوع (التفسير والمفسرون) كأبحاث معنى التفسير والتأويل وشروط المفسر والتفسير بالرأي وتأريخ التفسير والتفسير عند أهل البيت (عليهم السلام).

والقسم الرابع تناول موضوع التفسير الموضوعي، حيث عرفناه، وبينا أهميته وميزته الرئيسة، ثم تناولنا ثلاثة موضوعات بالبحث وهي: القصص القرآني، والحروف المقطعة في أوائل بعض السور القرآنية، وخلافة الانسان. وقد لوحظ في اعادة الترتيب والتقسيم المستوى العلمي المتدرج، بحيث يتطابق مع تطور الدرس عند الطالب. رابعا: لاحظنا في كتابة البحث ان يكون العرض مدرسيا، ولذا استخدمنا التقسيم الى نقاط ومقاطع وفصول تسهيلا للدارسين. خامسا: حاولنا - بقدر الامكان - الاحتفاظ بكتابة استاذنا الشهيد الصدر رضوان الله عليه إلا بقدر محدود من التوضيح والتعديل مع الاشارة الى نسبة الكتابة إليه في الهامش، ويمكن الرجوع لمعرفة النص الدقيق لما كتبه الى الطبعة الاولى والثانية. وختاما أسأله تعالى أن يجعل هذا الكتاب نافعا للاخوة المطالعين والدارسين، وأن يتفضل علي بالقبول ويصلح لنا نياتنا وأعمالنا، ويجعله ذخيرة لنا في الاخرة ويوفق المسلمين للمزيد من الاهتمام بالقرآن والعمل به ويحقق النصر لهم على اعدائهم. والحمد لله رب العالمين. محمد باقر الحكيم ١٥ جمادى الثانية ١٤١٤ هـ

مقدمة الطبعة الثانية بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الانبياء وسيد المرسلين محمد وآله الطاهرين. وبعد فان كلية اصول الدين ببغداد كانت قد قدمت مناهج علوم القرآن الى سماحة آية الله العظمى الشهيد الصدر رضوان الله عليه ليكتب موضوعاتها ثم يلقيها على الطلبة استاذ علوم القرآن فيها حجة الاسلام السيد محمد باقر الحكيم، فكتب بعضها هو (قدس سره) وأتم تأليف الباقي السيد الحكيم، وكانت مجلة الكلية " مجلة رسالة الاسلام " تنشر تلك البحوث في اعدادها. ولما رأينا ضرورة تدريس تلك البحوث في السنوات الاربع الاولى من الدراسات الحوزوية، طبعنا تلك البحوث بـ)الافست) من " مجلة رسالة الاسلام " ونشرناها في ما يلي، راجين من الاساتذة الكرام أن يوافونا بملاحظاتهم القيمة لننتفع بها في الطبعات القادمة ان شاء الله تعالى. لجنة تنظيم الكتب الدراسية لطلاب العلوم الاسلامية المجمع العلمي الاسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم (ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم اجرا كبيرا) (١). (وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة اعدت للكافرين * وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات ان لهم جنات تجري من تحتها الانهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل واتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون) (٢).

---

(١) الاسراء: ٩. (٢) البقرة: ٢٣ - ٢٥. (*)

القسم الاول موضوعات عامة حول القرآن تمهيد نزول القرآن الكريم أسباب النزول الهدف من نزول القرآن المكي والمدني ثبوت النص القرآني

تمهيد القرآن وأسماؤه (١) القرآن الكريم هو الكلام المعجز المنزل وحيا على النبي (صلى الله عليه وآله) المكتوب في المصاحف، المنقول عنه بالتواتر المتعبد بتلاوته. وقد اختار الله تعالى لهذا الكلام المعجز الذي اوحاه الى نبيه أسماء مخالفة لما سمى العرب به كلامهم جملة وتفصيلا. فسماه الكتاب قال تعالى: (ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين) (٢). وسماه القرآن: (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين) (٣). والاهتمام بوضع أسماء محددة ومصطلحات جديدة للقرآن الكريم، يتمشى مع خط عريض سار عليه الاسلام، وهو تحديد طريقة جديدة للتعبير عما جاء به من مفاهيم وأشياء. وتفضيل ايجاد مصطلحات تتفق مع روحه العامة على استعمال الكلمات الشائعة في الاعراف الجاهلية وذلك لسببين: أحدهما: أن الكلمات الشائعة في الاعراف الجاهلية من الصعب أن تؤدي المعنى الاسلامي بأمانة، لانها كانت وليدة التفكير الجاهلي وحاجاته، فلا تصلح

---

(١) كتبه الشهيد الصدر: ١ - ٦. (٢) البقرة: ٢. (٣) يونس: ٣٧. (*)

للتعبير عما جاء به الاسلام، من مفاهيم وأشياء لا تمت الى ذلك التفكير بصلة. والاخر: أن تكوين مصطلحات واسماء محددة يتميز بها الاسلام، سوف يساعد على ايجاد طابع خاص به، وعلامات فارقة بين الثقافة الاسلامية وغيرها من الثقافات. وفي تسمية الكلام

الالهي بـ " الكتاب " اشارة الى الترابط بين مضامينه ووحدتها في الهدف والاتجاه، بالنحو الذي يجعل منها كتابا واحدا. ومن ناحية اخرى يشير هذا الاسم الى جمع الكلام الكريم في السطور، لان الكتابة جمع للحروف ورسم للالفاظ. وأما تسميته بـ " القرآن " فهي تشير الى حفظه في الصدور نتيجة لكثرة قراءته، وترداده على الالسن، لان القرآن مصدر القراءة، وفي القراءة استكثار واستظهار للنص. فالكلام الالهي الكريم له ميزة الكتابة والحفظ معا، ولم يكتف في صيانته وضمانه بالكتابة فقط، ولا الحفظ والقراءة فقط لهذا كان كتابا وقرآنا. ومن أسماء القرآن أيضا (الفرقان). قال تعالى: (نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والانجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان...) (١). (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا) (٢). ومادة هذا اللفظ تفيد معنى التفرقة، فكأن التسمية تشير الى أن القرآن هو الذي يفرق بين الحق والباطل، باعتباره المقياس الالهي للحقيقة في كل ما يتعرض

---

(١) آل عمران: ٣، ٤. (٢) الفرقان: ١ (*)

له من موضوعات. ومن أسمائه أيضا " الذكر ". قال تعالى: (... وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون) (١). (وهذا ذكر مبارك أنزلناه...) (٢). ومعناه الشرف، ومنه قوله تعالى: (لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم...) (٣). وهناك الفاظ عديدة اطلقت على القرآن الكريم على سبيل الوصف لا التسمية، كالمجيد، والعزيز، والعلي، في قوله تعالى: (بل هو قرآن مجيد) (٤). (... وانه لكتاب عزيز) (٥). (وانه في ام الكتاب لدينا لعلي حكيم) (٦). علوم القرآن: وعلوم القرآن هي: جميع المعلومات، والبحوث التي تتعلق بالقرآن الكريم،

---

(١) النحل: ٤٤ (٢) الانبياء: ٥٠. (٣) الانبياء: ١٠. الظاهر من استعمالات الذكر في القرآن انه يراد منه الوحي الالهي أو التذكير - المؤلف. (٤) البروج: ٢١. (٥) فصلت: ٤١. (٦) الزخرف: ٤. (*)

وتختلف هذه العلوم في الناحية التي تتناولها من الكتاب الكريم. فالقرآن له اعتبارات متعددة، وهو بكل واحدة من تلك الاعتبارات موضوع لبحث خاص. وأهم تلك الاعتبارات، القرآن بوصفه كلاما دالا على معنى، والقرآن بهذا الوصف، موضوع لعلم التفسير. فعلم التفسير يشتمل على دراسة القرآن باعتباره كلاما ذا معنى، فيشرح معانيه، ويفصل القول في مدلولاته، ومقاصده. ولاجل ذلك كان علم التفسير من أهم علوم القرآن وأساسها جميعا. وقد يعتبر القرآن بوصفه مصدرا من مصادر التشريع، وبهذا الاعتبار يكون موضوعا لعلم آيات الاحكام، وهو علم يختص بآيات الاحكام من القرآن، ويدرس نوع الاحكام التي يمكن استخراجها بعد المقارنة لجميع الادلة الشرعية الاخرى من سنة، واجماع، وعقل. وقد يؤخذ القرآن بوصفه دليلا لنبوة النبي محمد (صلى الله عليه وآله) فيكون موضوعا لعلم اعجاز القرآن، وهو علم يشرح: أن الكتاب الكريم وحي الهي ويستدل على ذلك بالصفات والخصائص التى تميزه عن الكلام البشري. وقد يؤخذ القرآن باعتباره نصا عربيا جاريا وفق اللغة العربية فيكون موضوعا لعلم اعراب

القرآن، وعلم البلاغة القرآنية، وهما علمان يشرحان مجئ النص القرآني وفق قواعد اللغة العربية في النحو والبلاغة. وقد يؤخذ القرآن بوصفه مرتبطا بوقائع معينة في عهد النبي (صلى الله عليه وآله) فيكون موضوعا لعلم أسباب النزول. وقد يؤخذ القرآن باعتبار لفظه المكتوب، فيكون موضوعا لعلم رسم القرآن، وهو علم يبحث في رسم القرآن، وطريقة كتابته.

وقد يعتبر بما هو كلام مقروء، فيكون موضوعا لعلم القراءة، وهو علم يبحث في ضبط حروف الكلمات القرآنية وحركاتها، وطريقة قراءتها الى غير ذلك من البحوث التي تتعلق بالقرآن. و (علوم القرآن) جميعا تلتقي وتشترك في اتخاذها القرآن موضوعا لدراستها، وتختلف في الناحية الملحوظة فيها من القرآن الكريم. تأريخ علوم القرآن: كان الناس على عهد النبي (صلى الله عليه وآله) يسمعون الى القرآن، ويفهمونه بذوقهم العربي الخالص، ويرجعون الى الرسول (صلى الله عليه وآله) في توضيح ما يشكل عليهم فهمه، أو ما يحتاجون فيه الى شئ من التفصيل والتوسع. فكانت علوم القرآن تؤخذ وتروى عادة بالتلقين والمشافهة، حتى مضت سنون على وفاة النبي (صلى الله عليه وآله)، وتوسعت الفتوحات الاسلامية وبدرت بوادر تدعو الى الخوف على علوم القرآن، والشعور بعدم كفاية التلقي عن طريق التلقين والمشافهة، نظرا الى بعد العهد بالنبي نسبيا واختلاط العرب بشعوب اخرى، لها لغاتها وطريقتها في التكلم والتفكير، فبدأت لاجل ذلك حركة، في صفوف المسلمين الواعين لضبط علوم القرآن ووضع الضمانات اللازمة لوقايته وصيانته من التحريف. وقد سبق الامام علي (عليه السلام) غيره في الاحساس بضرورة اتخاذ هذه الضمانات، فانصرف عقيب وفاة النبي (صلى الله عليه وآله) مباشرة الى جمع القرآن. ففي " الفهرست " لابن نديم (١)، أن عليا (عليه السلام) حين رأى من الناس عند وفاة النبي ما رأى أقسم أنه لا يضع عن عاتقه رداءه حتى يجمع القرآن، فجلس في بيته

(١) كتاب الفهرست لابن النديم: ٣٠ بتصرف. طبعة طهران. (*)

ثلاثة أيام، حتى جمع القرآن، وسيأتي البحث عن ذلك في البحث عن جمع القرآن. وما نقصده الان من ذلك، أن الخوف على سلامة القرآن والتفكير في وضع الضمانات اللازمة، بدأ في ذهن الواعين من المسلمين، عقيب وفاة النبي (صلى الله عليه وآله)، وأدى الى القيام بمختلف النشاطات، وكان من نتيجة ذلك (علوم القرآن)، وما استلزمته من بحوث وأعمال. وهكذا كانت بدايات علوم القرآن، واسسها الاولى على يد الصحابة والطليعة من المسلمين في الصدر الاول الذين أدركوا النتائج المترتبة للبعد الزمني عن عهد النبي (صلى الله عليه وآله) والاختلاط مع مختلف الشعوب. فأساس علم إعراب القرآن وضع تحت اشراف الامام علي (عليه السلام)، إذ أمر بذلك أبا الاسود الدؤلي وتلميذه يحيى بن يعمر العدواني رائدي هذا العلم والواضعين لاساسه، فان أبا الاسود هو: أول من وضع نقط المصحف، وتروى قصة في هذا الموضوع، تشير الى شدة غيرته، على لغة القرآن، فقد سمع قارئا يقرأ قوله تعالى: (... ان الله برئ من المشركين ورسوله...) بجر اللام من كلمة (رسوله) فأفزع هذا اللحن أبا الاسود الدؤلي وقال: عز وجه الله أن يبرأ من رسوله، فعزم

على وضع علامات معينة تصون الناس في قراءتهم من الخطأ، وانتهى به اجتهاده الى أن جعل علامة الفتحة نقطة فوق الحرف، وجعل علامة الكسرة نقطة أسفله، وجعل علامة الضمة نقطة بين أجزاء الحرف، وجعل علامة السكون نقطتين (١). الحث على التدبر في القرآن: وقد ورد الحث الشديد في الكتاب العزيز، والسنة الصحيحة على تدارس القرآن والتدبر في معانيه، والتفكر في مقاصده وأهدافه.

---

(١) سير اعلام النبلاء ٤: ٨١ - ٨٣ للذهبي. (*)

قال تعالى: (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) (١). وفي هذه الاية الكريمة توبيخ عظيم على عدم اعطاء القرآن حقه من العناية والتدبر. وفي حديث عن ابن عباس، عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال: " اعربوا القرآن والتمسوا غرائبه " (٢). وعن أبي عبد الرحمن السلمي قال: " حدثنا من كان يقرئنا من الصحابة أنهم كانوا يأخذون من رسول الله (صلى الله عليه وآله) عشر آيات فلا يأخذون العشر الاخرى حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل " (٣). وعن علي بن ابي طالب (عليه السلام) انه ذكر جابر بن عبد الله ووصفه بالعلم، فقال له رجل: جعلت فداك، تصف جابرا بالعلم وأنت أنت. فقال: إنه كان يعرف تفسير قوله تعالى: (ان الذي فرض عليك القرآن لرادك الى معاد...) (٤). ولعل أروع ما قيل في هذا المجال كلام الامام علي (عليه السلام) قال: " واعلموا ان هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغش، والهادي الذي لا يضل، والمحدث الذي لا يكذب، وما جالس هذا القرآن احد إلا قام عنه بزيادة أو نقصان: زيادة في هدى، أو نقصان من عمى. واعلموا أنه ليس على احد بعد القرآن من فاقة ولا لاحد قبل القرآن من غنى فاستشفوه من ادوائكم واستعينوا به على لاوائكم، فان فيه شفاء من اكبر الداء وهو الكفر والنفاق والغي والضلال، فاسألوا الله به وتوجهوا إليه بحبه ولا تسألوا

---

(١) محمد: ٢٤. (٢) و (٣) بحار الانوار ٩٢: ١٠٦. (٤) قريب منه في تفسير القمي ٢: ١٤٧ (القصص: ٨٥). (*)

به خلقه أنه ما توجه العباد الى الله تعالى بمثله... فانه ينادي مناد يوم القيامة: " الا إن كل حارث مبتلى في حرثه وعاقبة عمله غير حرثة القرآن " فكونوا من حرثته واتباعه واستدلوه على ربكم واستنصحوه على انفسكم، واتهموا عليه آزاءكم واستغشوا فيه اهواءكم... " (١). وعن علي أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال: " ألا لا خير في علم ليس فيه تفهم، ألا لا خير في قراءة ليس فيها تدبر، ألا لا خير في عبادة ليس فيها تفقه " (٢). وعن الزهري قال سمعت علي بن الحسن (عليه السلام) يقول: " آيات القرآن خزائن العلم، فكلما فتحت خزائنه فينبغي لك أن تنظر فيها " (٣). والاحاديث في فضل التدبر في القرآن ودفع المسلمين نحو ذلك كثيرة، وقد ذكر شيخنا المجلسي طائفة كبيرة من هذه الاحاديث (٤). ومن الطبيعي أن يتخذ الاسلام هذا الموقف، ويدفع المسلمين بكل ما يملك من وسائل الترغيب الى دراسة القرآن والتدبر فيه، لان القرآن هو الدليل

الخالد على النبوة، والدستور الثابت من السماء للامة الاسلامية في مختلف شؤون حياتها، وكتاب الهداية البشرية الذي اخرج العالم من الظلمات الى النور، وانشأ امة، واعطاها العقيدة، وامدها بالقوة، وأنشأها على مكارم الاخلاق، وبنى لها اعظم حضارة عرفها الانسان الى يومنا هذا.

---

(١) نهج البلاغة. د. صبحي الصالح - الخطبة: ١٧٦. (٢) بحار الانوار ٩٢: ٢١١. (٣) المصدر السابق: ٢١٦. (٤) بحار الانوار: الجزء ٩٢، طبعة دار احياء التراث العربي. (*)

نزول القرآن الكريم (١) نزول القرآن عن طريق الوحي: تلقى النبي (صلى الله عليه وآله) القرآن الكريم عن طريق الوحي، ونظرا الى أنه (صلى الله عليه وآله) كان يتلقى الوحي الالهي من جهة عليا معنوية وهي الله سبحانه يقال عادة: إن القرآن نزل عليه، للاشارة باستعمال لفظ النزول الى علو الجهة التي اتصل بها النبي عن طريق الوحي وتلقى عنها القرآن الكريم. والوحي لغة هو: (الاعلام في خفاء)، اي الطريقة الخفية في الاعلام، وقد اطلق هذا اللفظ (الوحي) على الطريقة الخاصة التي يتصل بها الله تعالى برسوله، نظرا الى خفائها ودقتها وعدم تمكن الاخرين من الاحساس بها. ولم يكن الوحي هو الطريقة التي تلقى بها خاتم الانبياء وحده كلمات الله، بل هو الطريقة العامة لاتصال الانبياء بالله، وتلقيهم الكتب السماوية منه تعالى، كما حدث الله بذلك رسوله في قوله عز وجل: (انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وعيسى وايوب ويونس وهارون وسليمان...) (٢).

---

(١) كتب هذا البحث آية الله الشهيد الصدر (قدس سره). (٢) النساء: ١٦٣. (*)

صور الوحي: ويبدو من القرآن الكريم أن الوحي هذا الاتصال الغيبي الخفي بين الله واصفيائه له صور ثلاث: الاولى: القاء المعنى في قلب النبي أو نفثه في روعه بصورة يحس بانه تلقاه من الله تعالى. والثانية: تكليم النبي من وراء حجاب، كما نادى الله موسى من وراء الشجرة (١) وسمع نداءه. والثالثة: هي التي متى اطلقت انصرفت الى ما يفهمه المتدين عادة من لفظة الايحاء حين يلقي ملك الوحي المرسل من الله الى نبي من الانبياء ما كلف القاؤه إليه، سواء انزل عليه في صورة رجل ام في صورته الملكية، وقد اشير الى هذه الصور الثلاث في قوله تعالى: (وما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء انه علي حكيم) (٢). وتدل الروايات على ان الوحي الذي تلقى عن طريقه الرسالة الخاتمة وآيات القرآن المجيد كان بتوسيط الملك في كثير من الاحيان، وبمخاطبة الله لعبده ورسوله من دون واسطة في بعض الاحيان، وكان لهذه الصورة من الوحي التي يستمع فيها النبي الى خطاب الله من دون واسطة أثرها الكبير عليه، ففي الحديث أن الامام الصادق سئل عن الغشية التي كانت تأخذ النبي أكانت عند هبوط جبرئيل فقال: لا وانما ذلك عند مخاطبة الله عز وجل إياه بغير ترجمان وواسطة.

(١) المقصود من وراء الشجرة، أن الكلام سمع من الشجرة وما حولها. (٢) الشورى: ٥١. (*)

نزول القرآن الكريم على النبي (صلى الله عليه وآله) مرتين (١): في رأي عدد من العلماء أن القرآن الكريم نزل على النبي مرتين، احداهما: نزل فيها جملة واحدة على سبيل الاجمال، والاخرى: نزل فيها تدريجا على سبيل التفصيل خلال المدة التي قضاها النبي في امته منذ بعثته الى وفاته. ومعنى نزوله على سبيل الاجمال: هو نزول المعارف الالهية التي يشتمل عليها القرآن وأسراره الكبرى على قلب النبي لكي تمتلئ روحه بنور المعرفة القرآنية. ومعنى نزوله على سبيل التفصيل هو نزوله بألفاظه المحددة وآياته المتعاقبة والتي كانت في بعض الاحيان ترتبط بالحوادث والوقائع وفي زمن الرسالة بدون كذلك مواكبة تطورها. وكان انزاله على سبيل الاجمال مرة واحدة، لان الهدف منه تنوير النبي وتثقيف الله له بالرسالة التي أعده لحملها. وكان انزاله على سبيل التفصيل تدريجا، لانه يستهدف تربية الامة وتنويرها وترويضها على الرسالة الجديدة، وكذلك تثبيت النبي في مواقفه وتسديده فيها، وهذا يحتاج الى التدرج. وعلى ضوء هذه النظرية في تعدد نزول القرآن يمكننا أن نفهم الايات الكريمة الدالة على نزول القرآن بجملته في شهر رمضان، أو انزاله في ليلة القدر بصورة خاصة نحو قوله تعالى: (شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان...) (٢) وقوله: (انا انزلناه في ليلة القدر) (٣) وقوله: (انا انزلناه

(١) كتبه الشهيد الصدر (قدس سره). (٢) البقرة: ١٨٥. (٣) القدر: ١. (*)

في ليلة مباركة انا كنا منذرين) (١) فان الانزال الذي تتحدث عنه هذه الايات ليس هو التنزيل التدريجي الذي طال اكثر من عقدين، وانما هو الانزال مرة واحدة على سبيل الاجمال. كما ان فكرة تعدد الانزال بالصورة التي شرحناها تفسر لنا أيضا المرحلتين اللتين أشار اليهما القرآن الكريم في قوله تعالى: (... كتاب احكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) (٢) فان هذا القول يشير الى مرحلتين في وجود القرآن، اولاهما: إحكام الايات، والثانية: تفصيلها وهو ينسجم مع فكرة تعدد الانزال فيكون الانزال مرة واحدة على سبيل الاجمال هي مرحلة الاحكام، والانزال على سبيل التفصيل تدريجا هي المرحلة الثانية اي مرحلة التفصيل. التدرج في التنزيل (٣): استمر التنزيل التدريجي للقرآن الكريم طيلة ثلاث وعشرين سنة، وهي المدة التي قضاها النبي (صلى الله عليه وآله) في امته منذ بعثته الى وفاته، فقد بعث (صلى الله عليه وآله) لاربعين سنة من ولادته، ومكث بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه، ثم هاجر الى المدينة وظل فيها عشر سنين، والقرآن يتعاقب ويتواتر عليه حتى مات وهو في الثالثة والستين من عمره الشريف. وقد امتاز القرآن عن الكتب السماوية السابقة عليه بانزاله تدريجا بخلاف ما يشير إليه القرآن الكريم من انزال التوراة على شكل الواح دفعة واحدة أو في مدة زمنية محدودة.

(١) الدخان: ٣. (٢) هود: ١. (٣) كتبه الشهيد الصدر. (*)

وكان لهذا التدرج في انزاله أثر كبير في تحقيق أهدافه وإنجاح الدعوة وبناء الامة. كما أنه كان آية من آيات الاعجاز في القرآن الكريم، ويتضح كل ذلك في النقاط التالية: ١ - مرت على النبي والدعوة حالات مختلفة جدا خلال ثلاث وعشرين سنة، تبعا لما مرت به الدعوة من محن وقاسته من شدائد وما احرزته من انتصار وسجلته من تقدم، وهي حالات يتفاعل معها الانسان الاعتيادي وتنعكس على روحه وأقواله وأفعاله ويتأثر باسبابها وظروفها والعوامل المؤثرة فيها، ولكن القرآن الذي واكب تلك السنين بمختلف حالاتها في الضعف والقوة، في العسر واليسر، في لحظات الهزيمة ولحظات الانتصار، والتنزيل تدريجا خلال تلك الاعوام كان يسير دائما على خطه الرفيع لم ينعكس عليه أي لون من ألوان الانفعال البشري الذي تثيره تلك الحالات. وهذا من مظاهر الاعجاز في القرآن التي تبرهن على تنزيله من لدن علي حكيم، حيث لا يمكن ان توجد الانفعالات أو التأثيرات الارضية على الذات الالهية، ولم يكن القرآن ليحصل على هذا البرهان لولا انزاله تدريجا في ظروف مختلفة وأحوال متعددة (١). ٢ - إن القرآن بتنزيله تدريجا كان امدادا معنويا مستمرا للنبي (صلى الله عليه وآله) كما قال الله تعالى: (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا) (٢). فإن الوحي إذا كان يتجدد في كل حادثة كان أقوى للقلب وأشد عناية

(١) سوف نتعرف على مزيد من التوضيح لهذا المعنى في بحث اعجاز القرآن. (٢) الفرقان: ٣٢. (*)

بالمرسل إليه، ويستلزم ذلك نزول الملك إليه وتجدد العهد به وتقوية أمله في النصر، واستهانته بما يستجد ويتعاقب من محن ومشاكل. ولهذا نجد أن القرآن ينزل مسليا للنبي مرة بعد مرة مهونا عليه الشدائد كلما وقع في محنة، يأمره تارة بالصبر أمرا صريحا، فيقول: (واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا) (١) وينهاه تارة اخرى عن الحزن كما في قوله: (ولا يحزنك قولهم ان العزة لله جميعا) (٢) ويذكره بسيرة الانبياء الذين تقدموه من اولي العزم، فيقول: (... فأصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل...) (٣) ويخفف عنه احيانا، ويعلمه ان الكافرين لايجرحون شخصه ولا يتهمونه بالكذب لذاته، وانما يعاندون الحق بغيا كما هو شأن الجاحدين في كل عصر كما في قوله: (قد نعلم انه ليحزنك الذي يقولون فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) (٤). ٣ - إن القرآن الكريم ليس كتابا كسائر الكتب التي تؤلف للتعليم والبحث العلمي، وانما هو عملية تغيير الانسان تغييرا شاملا كاملا في عقله وروحه وإرادته، وهدفه الاساس هو صنع امة وبناء حضارة، وهذا العمل لا يمكن ان يوجد مرة واحدة وانما هو عمل تدريجي بطبيعته، ولهذا كان من الضروري ان ينزل القرآن الكريم تدريجا، ليحكم عملية البناء وينشئ أساسا بعد اساس، ويجتث جذور الجاهلية ورواسبها بأناة وحكمة. وعلى أساس هذه الاناة والحكمة في عملية التغيير والبناء نجد أن الاسلام تدرج في علاج القضايا العميقة بجذورها في نفس الفرد أو نفس المجتمع، وقاوم

(١) المزمل: ١٠. (٢) يونس: ٦٥. (٣) الاحقاف: ٣٥. (٤) الانعام: ٣٣. (*)

بعضها على مراحل حتى استطاع ان يستأصلها ويجتث جذورها، وقصة تحريم الخمر وتدرج القرآن في الاعلان عنها من أمثلة ذلك، وكذلك الموقف من مختلف قضايا الاخلاق والقتال والشريعة، فلو ان القرآن نزل جملة واحدة بكل احكامه ومعطياته الجديدة لنفر الناس منه، ولما استطاع أن يحقق الانقلاب العظيم الذي أنجزه في التأريخ.
٤ - إن الرسالة الاسلامية كانت تواجه الشبهات والاتهامات والمواقف السياسية والاطروحات الثقافية والاثارات والاسئلة المختلفة من قبل المشركين، وكان النبي (صلى الله عليه وآله) بحاجة الى أن يواجه كل ذلك بالموقف والتفسير المناسبين، وهذا لا يمكن أن يتم إلا بشكل تدريجي، لان طبيعة هذه المواقف والنشاطات المعادية هي طبيعة تدريجية وتحتاج الى معالجة ميدانية مستمرة، وهذا لعله المراد من سياق قوله تعالى: (ولا يأتوك بمثل الا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا) (١). نزول القرآن الكريم باللغة العربية: لقد نزل القرآن الكريم باللغة العربية دون غيرها من اللغات، وهذه الظاهرة قد يكون سببها الميزات التي تختص بها اللغة العربية من بين اللغات الاخرى، مما يجعلها أشرف اللغات وأقدرها على استيعاب أوسع المعاني أو التعبير عنها، كما قد يوحي ذلك بعض النصوص، أو تنتهي إليه دراسات علم اللغات وخصائصها. ولكن الشئ الذي يمكن ان يستفاد من القرآن الكريم - وكذلك التأمل في هذه الظاهرة - هو تفسيرها على اساس ارتباط هذه الظاهرة - أيضا - بالهدف التغييري الذي أشرنا إليه، ولا ينافي هذا الارتباط شرف اللغة العربية وخصائصها البلاغية.

(١) الفرقان: ٣٣. (*)

فبالرغم من أن القرآن نزل هداية للعالمين، ومن أجل أن يرسم الطريق لكل البشرية، ولا يختص بقوم دون قوم، ولكن باعتبار أن الجماعة الاولى التي كان يراد مخاطبتها بالقرآن هم عرب، واستهدف القرآن الكريم أن يخلق ضمن هذه الجماعة القاعدة التي ينطلق منها الاسلام - كما أشرنا الى ذلك سابقا - اقتضى ذلك نزول القرآن باللغة العربية، ولولا ذلك لامكن ان نفترض - والله العالم - نزول القرآن بلغة اخرى، وبذلك ترتبط هذه الظاهرة بقضية الهدف التغييري، وإلا لامكن أن نفترض أن الهداية والمضمون يمكن أن يعطيا بأي لغة اخرى. ولما كانت ضرورات التغيير - الذي يريد القرآن أن يحققه في البشرية - اقتضت أن يكون منطلق هذا التغيير هو الجزيرة العربية (١)، لذا أصبح من الضروري أن يكون القرآن باللغة العربية للاسباب التالية التي أشار القرآن الى بعضها في تفسير هذه الظاهرة: أ - اللغة العربية عامل مؤثر في استجابة العرب الاوائل للقرآن: إن القرآن لو نزل بغير اللغة العربية لكان من الممكن ان لا يستجيب العرب لهدايته ونوره بسبب حاجز (الانا) والتعصب الذي كان يعيشه العرب في الجاهلية، كما تشير الى ذلك بعض الايات القرآنية: (لو نزلناه على بعض الاعجمين * فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين) (٢). (ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي قل هو

للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى اولئك ينادون من

---

(١) هذه القضية لا بد أن نأخذها في هذا البحث كبديهية مسلمة، واثباتها يحتاج الى بحث آخر تناولناه في بعض محاضراتنا عن البعثة النبوية واختصاص الجزيرة العربية ومكة والمدينة بالذات بها. (٢) الشعراء: ١٩٨، ١٩٩. (*)

مكان بعيد) (١). ب - التفاعل الروحي أفضل مع لغة القوم: إن التفاعل الروحي والنفسي الكامل مع الهداية والنور والمفاهيم القرآنية انما يتحقق إذا كان الكتاب بلغة القوم الذين يراد ايجاد التغيير الفعلي فيهم، لان إثارة العواطف والاحاسيس انما تكون من خلال التخاطب باللغة نفسها، وأما المضمون فهو يتفاعل مع العقل والتفكير المنطقي، وتبقى العواطف والاحاسيس محدودة على الاقل في مجال التفاعل وبعيدة عن التأثير. ولعل هذا السبب يمثل خلفية السنة الالهية في اختيار الانبياء لكل قوم من اولئك الافراد الذين يتكلمون بلغة القوم نفسها، حتى تكون الحجة بهؤلاء الرسل أبلغ على أقوامهم، وحتى تكون قدرتهم على التأثير أكثر: (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم) (٢). (وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق في الجنة وفريق في السعير) (٣). ج - التحدي انما يكون بلغة القوم: إن القرآن الكريم كان معجزة ببيانه واسلوبه - إضافة الى المضمون - وهذا الجانب من الاعجاز لا يمكن ان يتحقق إلا إذا كان بلغة القوم، لان (التحدي) - الذي هو محتوى الاعجاز - انما يكون مقبولا إذا كان باللغة التي يتكلم بها الناس، وإلا فلا معنى لان نتحدى من يتكلم بلغة أن يأتي بكتاب من لغة اخرى:

---

(١) فصلت: ٤٤. (٢) ابراهيم: ٤. (٣) الشورى: ٧. (*)

(وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين) (١). (أم يقولون افتراه قل فاتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) (٢). (أم يقولون افتراه قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) (٣). وقد كان التحدي في هذا الجانب من الاعجاز باعتبار ما كان يوليه ذلك العصر من أهمية خاصة للبلاغة والبيان، الامر الذي كان له أثر كبير في الخضوع النفسي لهؤلاء العرب لبلاغة القرآن وبيانه. وقد لا يكون للمضمون في منظور بعض أولئك الجاهلين الاميين مثل هذه الاهمية الخاصة للبيان، ولعله لهذا كان القرآن يتهم بأنه شعر وسحر. د - اللغة طريق التصور الكامل للرسالة: إن التصور الكامل لابعاد المضمون واستيعابه بحدوده لا يمكن أن يتم - خصوصا في المرحلة الاولى من الرسالة - بلغة أخرى للتخاطب خصوصا إذا أخذنا بنظر الاعتبار أن الكثير من المضامين القرآنية ترتبط بقضايا وآفاق بعيدة عن تصورات وآفاق الانسان الجاهلي المعاصر لنزول القرآن، إما لارتباطها بعالم الغيب أو لطرحها مفاهيم عقائدية أو اجتماعية وانسانية تمثل طفرة في النظرة المحدودة لذلك الانسان وللعلاقات الاجتماعية والانسانية.

ونحن نلاحظ أن القرآن الكريم يضطر - احيانا - من اجل أن يشرح المفهوم أو

---

(١) البقرة: ٢٣. (٢) يونس: ٣٨. (٣) هود: ١٣. (*)

يقربه لاذهان أولئك الجاهليين الى أن يستخدم صورا متعددة أو يكرر صورة واحدة بأساليب مختلفة. وحينئذ يصبح استخدام لغة التخاطب نفسها ضرورة من أجل خلق القاعدة المستوعبة ولو نسبيا للرسالة ومفاهيمها، لتكون منطلقا لنشرها في الامم والاقوام الاخرى. ولعل تأكيد القرآن وصفه باللسان العربي إنما هو باعتبار الاشارة الى أهمية لغة التخاطب في توضيح الحقائق والالتزام بالحجة والتأثير النفسي: (وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم * ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين) (١). ومن الظاهر أن المراد من الذين ظلموا في هذه الاية هم المشركون من أهل الحجاز، لان القرآن الكريم يعبر عن الشرك بالظلم كما ورد في قوله تعالى: (... يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم) (٢). وكذلك ما يفهم من الاشارة الى كتاب موسى والاتهام بالافك. ويزداد ذلك وضوحا إذا لاحظنا أن وصف القرآن بالعربي جاء في القسم المكي من السور فقط، الامر الذي يؤكد التفسير القائل بأن قضية التغيير كانت منظورة في ذلك، لان مرحلة المكي هي مرحلة تأسيس القاعدة وانطلاق التغيير. وقد اقترن هذا الوصف بوصف آخر وهو وصف (مبين): (وانه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الامين * على قلبك لتكون من

---

(١) الاحقاف: ١١، ١٢. (٢) لقمان: ١٣. (*)

المنذرين * بلسان عربي مبين) (١). كما انه جاء في آيات كثيرة وصف القرآن بأنه الكتاب المبين، والقرآن المبين (٢). وهذا ما يؤكد قضية الوضوح في القرآن التي جاءت لتتناسب في كونها بلغة التخاطب نفسها مع القاعدة التي يريد أن يحدثها في التغيير فعلا. ونجد النقاط الاربع السابقة كلها تصب في مهمة الهدف التغييري للقرآن الكريم الذي يهتم بخلق القاعدة للانطلاق كقضية مركزية وأساسية بالنسبة الى المهمات الاخرى التي اهتم بها القرآن الكريم، وأشار إليها في مجمل الاهداف.

---

(١) الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥. (٢) تراجع سورة المائدة: ١٥، والانعام: ٥٩، ويونس: ٦١، وهود: ٦، ويوسف: ١، والشعراء: ٢، والنمل: ١، والقصص: ٢، وسبأ: ٣، ويس: ٦٩، والزخرف: ٢. (*)

أسباب النزول (١) معنى سبب النزول: نزل القرآن الكريم لهداية الناس وتنوير أفكارهم وتربية أرواحهم وعقولهم، وكان في نفس الوقت يحدد الحلول الصحيحة للمشاكل التي تتعاقب على الدعوة في مختلف مراحلها، ويجيب عن ما هو جدير بالجواب من الاسئلة التي يتلقاها النبي من المؤمنين أو غيرهم، ويعلق على جملة من الاحداث والوقائع التي كانت تقع في حياة الناس، تعليقا يوضح فيه موقف الرسالة من تلك الاحداث والوقائع كما ذكرنا آنفا. وعلى هذا الاساس كانت آيات القرآن الكريم تنقسم الى قسمين: أحدهما: الايات التي نزلت لاجل الهداية والتربية والتنوير دون وقوع سبب معين - في عصر الوحي - أثار نزولها، كالايات التي تصور قيام الساعة ومشاهد القيامة وأحوال النعيم والعذاب وغيرها، فإن الله تعالى أنزل هذه الايات لهداية الناس من غير أن تكون إجابة عن سؤال، أو حلا لمشكلة طارئة، أو تعليقا على حادثة معاصرة. والاخر: الايات التي نزلت بسبب مثير وقع في عصر الوحي واقتضى نزول القرآن فيه، كمشكلة تعرض لها النبي والدعوة وتطلبت حلا أو سؤالا استدعى الجواب عنه، أو واقعة كان لا بد من التعليق عليها، وتسمى هذه الاسباب التي

---

(١) كتبه الشهيد الصدر (قدس سره). (*)

استدعت نزول القرآن باسباب النزول، فأسباب النزول هي: امور وقعت في عصر الوحي واقتضت نزول الوحي بشأنها. وذلك من قبيل ما وقع من بناء المنافقين لمسجد ضرار بقصد الفتنة، فقد كانت هذه المحاولة من المنافقين مشكلة تعرضت لها الدعوة واثارت نزول الوحي بشأنها، إذ جاء قوله تعالى: (والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين...) (١). وكذلك سؤال بعض أهل الكتاب مثلا عن الروح من النبي فقد اقتضت الحكمة الالهية ان يجاب عنه في القرآن فنزل قوله تعالى: (... قل الروح من أمر ربي وما اوتيتم من العلم الا قليلا) (٢) وبهذا أصبح ذلك السؤال من أسباب النزول. وكذلك أيضا ما وقع من بعض علماء اليهود، إذ سألهم مشركو مكة من أهدى سبيلا محمد وأصحابه أم نحن ؟ فتملقوا عواطفهم وقالوا لهم: أنتم أهدى سبيلا من محمد وأصحابه، مع علمهم بما في كتابهم من نعت النبي المنطبق عليه، وأخذ المواثيق عليهم أن لا يكتموه، واشتراكهم مع المسلمين بالعقيدة الالهية والايمان بالوحي والكتب السماوية واليوم الاخر، فكانت هذه واقعة مثيرة أدت على ما جاء في بعض الروايات الى نزول قوله تعالى: (ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا) (٣). وكذلك المعارك التي خاضها المسلمون واعدوا في بدر وأحد والاحزاب والحديبية وحنين وتبوك وغيرها.

---

(١) التوبة: ١٠٧. (٢) الاسراء: ٨٥. (٣) النساء: ٥١. (*)

فهذه قضايا وقعت في عصر الوحي، وكانت داعية الى نزول الوحي بشأنها، فكانت لاجل ذلك من أسباب النزول. ويلاحظ في ضوء ما

قدمناه من تعريف لاسباب النزول أن احداث الامم الماضية التي يستعرضها القرآن الكريم ليست من أسباب النزول، لانها قضايا تأريخية سابقة على عصر الوحي وليست أمورا وقعت في عصر الوحي واقتضت نزول القرآن بشأنها، فلا يمكن ان نعتبر حياة يوسف وتآمر اخوته عليه ونجاته وتمكنه منهم سببا لنزول سورة يوسف، وهكذا سائر المقاطع القرآنية التي تتحدث عن الانبياء الماضين وامهم فانها في الغالب تندرج في القسم الاول من القرآن الذي نزل بصورة ابتدائية ولم يرتبط باسباب نزول معينة. الفائدة من معرفة السبب: ولمعرفة أسباب النزول أثر كبير في فهم الاية وتعرف اسرار التعبير فيها، لان النص القرآني المرتبط بسبب معين للنزول تجئ صياغته وطريقة التعبير فيه وفقا لما يقتضيه ذلك السبب، فما لم يعرف ويحدد قد تبقى أسرار الصياغة والتعبير غامضة عنه، ومثال ذلك قوله تعالى: (ان الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه ان يطوف بهما...) (١) فان الاية ركزت على نفي الاثم والحرمة عن السعي بين الصفا والمروة دون أن تصرح بوجوب ذلك، فلماذا اكتفت بنفي الحرمة دون أن تعلن وجوب السعي ؟ إن الجواب عن هذا السؤال يمكن معرفته عن طريق ما ورد في سبب نزول الاية من أن بعض الصحابة تأثموا من السعي بين الصفا والمروة، لانه من عمل الجاهلية فنزلت الاية الكريمة، فهي اذن بصدد نفي هذه الفكرة من اذهان الصحابة

---

(١) البقرة: ١٥٨. (*)

والاعلان عن أن الصفا والمروة من شعائر الله، وليس السعي بينهما من مختلقات الجاهلية ومفترياتها. وقد أدى الجهل بمعرفة سبب النزول في هذه الاية عند بعضهم الى فهم خاطئ في تفسيرها... إذ اعتبر اتجاه الاية - نحو نفي الاثم بدلا من التصريح بالوجوب - دليلا على أن السعي ليس واجبا وانما هو امر سائغ، إذ لو كان واجبا لكان الاجدر بالاية ان تعلن وجوبه بدلا من مجرد نفي الاثم، ولو كان هذا يعلم سبب النزول والهدف المباشر الذي نزلت الاية لتحقيقه، وهو ازالة فكرة التأثم من اذهان الصحابة لعرف السر في طريقة التعبير، والسبب في اتجاه الاية نحو نفي الاثم والتركيز على ذلك. تعدد الاسباب والمنزل واحد والعكس: قد يتفق وقوع عدة اشياء في عصر الوحي كلها تتفق في اشارة واحدة وتستدعي نزول القرآن بشأنها، كما إذا تكرر السؤال - من النبي مثلا - عن مشكلة واحدة، فان كل سؤال يقتضي نزول الوحي بجوابه، ويقال في هذه الحالة إن الاسباب متعددة والمنزل واحد. ومن هذا القبيل ما يروى في أن النبي سئل مرتين عمن وجد مع زوجته رجلا كيف يصنع، سأله عاصم بن عدي مرة، وسأله عويمر مرة اخرى، واتفق في مرة ثالثة أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي بشريك بن سمحاء، فكانت هذه اسبابا متعددة تستدعي نزول الوحي لتوضيح موقف الزوج من زوجته إذا اطلع على خيانتها، وما إذا كان من الجائز له أن يقذفها ويتهمها بدون بينة أو لا يجوز له ذلك الا ببينة، فان اتهم بدون بينة استحق حد القذف، كما هو شأن غير الزوج إذا قذف امرأة اخرى، ولاجل ذلك نزل قوله تعالى: (والذين يرمون ازواجهم ولم

يكن لهم شهداء الا انفسهم فشهادة احدهم اربع شهادات بالله انه لمن الصادقين) (١) فكان السبب متعددا والمنزل واحد. وفي حالة تعدد السبب قد يوجد فاصل زمني كبير بين أحد السببين والاخر، فيؤدي السبب الاول الى نزول الاية فعلا، ثم يتجدد نزولها حينما يوجد السبب الثاني بعد ذلك بمدة، فيكون السبب متعددا والنزول متعددا وان كانت الاية النارلة في المرتين واحدة. ويقال: إن سورة الاخلاص من هذا القبيل إذ نزلت مرتين، احداهما: بمكة جوابا للمشكرين من اهلها، والاخرى بالمدينة جوابا لاهل الكتاب الذين جاورهم النبي (صلى الله عليه وآله) بعد الهجرة. وكما يتعدد السبب والمنزل واحد كذلك قد يتفق كون السبب واحدا لايات متفرقة فقد روي أن ام سلمة قالت للنبي (صلى الله عليه وآله) يا رسول الله لا اسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشئ فنزل قوله تعالى: (فاستجاب لهم ربهم اني لا اضيع عمل عامل منكم من ذكر أو انثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا واخرجوا من ديارهم واوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لاكفرن عنهم سيئاتهم ولادخلنهم جنات تجري من تحتها الانهار ثوابا من عند الله والله عنده حسن الثواب) (٢) ونزل قوله تعالى: (ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات...) (٣). فهاتان آيتان متفرقتان نزلتا بسبب واحد ادرجت احداهما في سورة آل عمران، والاخرى في سورة الاحزاب، وبذلك كان السبب في النزول واحدا وهو حديث ام سلمة مع النبي والمنزل متعدد.

---

(١) النور: ٦. (٢) آل عمران: ١٩٥. (٣) الاحزاب: ٣٥. (*)

وعلى هذا الاساس يجب أن لا نسرع الى الحكم بالتعارض بين روايتين تتحدثان عن اسباب النزول إذا ذكرت كل منهما سببا لنزول آية يغاير السبب الذي ذكرته الرواية الاخرى لنزول نفس تلك الاية، أو إذا تحدثت الروايتان عن سبب واحد فذكرت كل منهما نزول آية بذلك السبب غير الاية التي ربطتها الرواية الاخرى به لان من الممكن في بعض الموارد فهم الاختلاف بين الروايتين والتوفيق بينهما على اساس امكان تعدد سبب النزول لاية واحدة أو تعدد الايات النازلة بسبب واحد فلا يوجد بين الروايتين تعارض على هذا الاساس. العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب: إذا نزلت الاية بسبب خاص، وكان اللفظ فيها عاما فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فلا يتقيد بالمدلول القرآني في نطاق السبب الخاص للنزول أو الواقعة التي نزلت الاية بشأنها، بل يؤخذ به على عمومه، لان سبب النزول يقوم بدور الاشارة لا التخصيص، وقد جرت عادة القرآن أن ينزل بعض احكامه وتعليماته وارشاداته على اثر وقائع واحداث تقع في حياة الناس وتتطلب حكما وتعليما من الله، لكي يجئ البيان القرآني أبلغ تأثيرا وأشد أهمية في نظر المسلمين وان كان مضمونه عاما شاملا، فآية اللعان مثلا تشرع حكما شرعيا عاما لكل زوج يتهم زوجته بالخيانة وان نزلت في شأن هلال بن امية، وآية الظهار تبين حكم الظهار بصورة عامة وان كان نزولها بسبب سلمة بن صخر. وعلى هذا الاساس اتفق علماء الاصول على أن المتبع هو مدى عموم النص القرآني وشمول اللفظ فيه، وأن سبب النزول مجرد سبب مثير لنزول الحكم العام وليس تحديدا له في نطاقه الخاص، لان مجرد نزول حكم اللعان عقيب قصة هلال ابن امية مثلا لا يدل اطلاقا على أن الحكم يختص به، ولا يبطل عموم اللفظ

وشمول النص لسائر الازواج. وقد جاءت نصوص عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) تعزز هذا المعنى وتؤيده، ففي تفسير العياشي عن الامام محمد بن علي الباقر (عليه السلام) أنه قال: "... إن القرآن حي لا يموت، والاية حية لا تموت، فلو كانت الاية إذا نزلت في الاقوام ماتوا فمات القرآن، ولكن هي جارية في الباقين كما جرت في الماضين " (١). وعن الامام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) أنه قال: " إن القرآن حي لم يمت وإ نه يجري كما يجرى الليل والنهار، وكما تجري الشمس والقمر، ويجري على آخرنا كما يجري على أولنا " (٢) "... فلا تكونن ممن يقول للشئ: إنه في شئ واحد " (٣).

---

(١) تفسير العياشي ٢: ٢٠٣. (٢) المصدر السابق. (٣) الكافي ٢: ١٥٦، الحديث ٢٨. (*)

الهدف من نزول القرآن (١) المقدمة: أهمية الموضوع: يحسن بنا قبل الدخول في بحث أصل الموضوع (الهدف من نزول القرآن) أن نتناول أهمية البحث فيه. ويمكن أن نشير بهذا الصدد وبشكل مختصر الى النقاط التالية: الاولى: ان فهم القرآن الكريم يتأثر بمجموعة من القضايا: كأن تكون الرؤية في تفسيره إسلامية، ومن منطلق أنه وحي إلهي وليس نتاجا بشريا، وأن نعرف الظروف التي نزل فيها القرآن الكريم، وأسباب النزول التي تمثل القدر المتيقن من المصداق في المفهوم القرآني. ومن أهم هذه القضايا التي تؤثر في فهم القرآن الكريم معرفة الهدف من نزوله، لان الهدف بطبيعة الحال يلقي بظلاله على المعنى القرآني، بحيث يكون احدى القرائن العامة المنفصلة التي تكتنف النص. فعندما يتحدث القرآن الكريم عن الكتاب أنه تبيان لكل شئ (... ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) (٢)، يمكن ان نفهم (كل شئ) هنا على ضوء (الهدف من نزول القرآن)، فالمراد من التبيان هو التبيان الشامل لما يرتبط بهذا الهدف، وهكذا في الموارد الاخرى.

---

(١) لخصنا هذا الموضوع من كتابنا الهدف من نزول القرآن. (٢) النحل: ٨٩. (*)

الثانية: ان معرفة الهدف القرآني سوف تساهم في تفسير مجموعة من الظواهر القرآنية، حيث قد يختلف تفسير الظاهرة باختلاف تفسير الهدف من القرآن، كما في تكرار القصة الذي يتجه بعضهم الى تفسيره على اساس بلاغي، بينما قد يكون الاساس التربوي هو التفسير الصحيح. الثالثة: ان القرآن الكريم يحظى بقدسية واهتمام بين المسلمين، باعتباره الوحي الالهي الذي لا يأتيه الباطل بين يديه ولا من خلفه، وباعتباره الصيغة والنص الالهيين لهذا الوحي والمضمون. ولذا لا بد للمسلمين أن يبقوا متفاعلين مع القرآن دائما، كما كانوا كذلك في مختلف عصور التأريخ الاسلامي وإن كان بمستويات متفاوتة. ولتشخيص الهدف من نزول (القرآن) أثر كبير على طبيعة هذا الاهتمام والتفاعل ومستواه ومضمونه، إذ إن الاهتمام والتفاعل يكونان تارة على مستوى حفظ النص القرآني

وسلامة تركيبه، وأخرى على مستوى الاهتمام بالمضمون القرآني وفهمه، وثالثة على مستوى التعرف على هداية القرآن الكريم والحقائق العلمية والتأريخية والاجتماعية و... التي احتواها القرآن الكريم، ورابعة على مستوى طرحه كشعار للانسان المسلم، يتزين به ويردده في الصباح والمساء من خلال الاذاعات أو المناسبات أو المجالس الدينية. يبقى الاهم من ذلك أن يكون التفاعل والاهتمام بالقرآن على مستوى تحقيق الهدف الحقيقي منه، الذي يجسد التفاعل والاهتمام الروحي الحقيقيين، ويشمل في الوقت نفسه مختلف المستويات الاخرى، التي هي بمنزلة المقدمة أو الطريق للوصول الى هذا الهدف.

القرآن وتشخيص الهدف من نزوله: قد يكون من الافضل الرجوع الى القرآن الكريم نفسه لتشخيص الهدف من نزوله، ومن خلال استعراض الايات القرآنية التي فسرت نزول القرآن. وفي مراجعة للقرآن الكريم نجد مجموعة كبيرة من الايات والظواهر يمكن أن تلقي الضوء على الهدف من نزول القرآن، ولكن هذه الايات قد تبدو وكأنها تتحدث عن أهداف متعددة أو مختلفة، وسوف نشير الى نماذج من هذه الايات والاحتمالات المتعددة لها، ثم نستخلص من خلال المقارنة الهدف الرئيسي المركزي من نزول القرآن: ١ - ورد في القرآن الكريم بصدد تشخيص الهدف أنه جاء (للانذار والتذكرة) مثل قوله تعالى: (... وأوحي إلي هذا القرآن لانذركم به ومن بلغ...) (١). ٢ - وفي آيات أخرى جاء القرآن لضرب الامثال والعبر والدروس مثل قوله تعالى: (ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل...) (٢). (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل...) (٣). ٣ - وفي مكان آخر يبدو وكأن الهدف من القرآن هو إقامة الحجة والبرهان والمعجزة، كما في قوله تعالى: (وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون * أن تقولوا إنما أنزل

---

(١) الانعام: ١٩. (٢) الاسراء: ٨٩. (٣) الزمر: ٢٧. (*)

الكتاب على طائفتين من قبلنا...) (١). (يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا) (٢). ٤ - وفي مواضع أخرى يبدو القرآن وكأنه كتاب دستور وشريعة وتفصيل للاحكام: (... ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) (٣). ٥ - وفي مواضع أخرى من القرآن الكريم أنه جاء من أجل الحكم وفصل الخلاف والتفريق بين الحق والباطل: (وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) (٤). ٦ - كما نجد في مواضع أخرى أن الهدف من القرآن هو تصديق الرسالات السابقة وإمضاؤها وتصحيحها والهيمنة عليها، وبذلك يكون له دور تصحيحي وتكميلي: (وانزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) (٥). وبالرغم من أن هذه الاهداف التي أشرنا إليها قد تكون متداخلة يؤثر بعضها

(١) الانعام: ١٥٥، ١٥٦. (٢) النساء: ١٧٤. (٣) النحل: ٨٩. (٤) النحل: ٦٤. (٥) المائدة: ٤٨. (*)

بالاخر ويرتبط به في وجه من الوجوه، إلا أنها تبدو متعددة عندما تطرح في الايات الكريمة، ونريد أن نفسر الظاهرة القرآنية ونسعى الى تشخيص الهدف الاساس لها، بحيث يفهم أن القرآن الكريم جاء لتحقيق غايات وأهداف عديدة، تتوزع على أيات القرآن وسوره ومضامينه. ومن أجل أن نكون أكثر وضوحا في تحديد محور البحث لا بد لنا أن نطرح السؤال كالتالي: ما هو الهدف الاساس الذي سعت الظاهرة القرآنية الكريمة الى تحقيقه من خلال وجودها، بحيث يفسر لنا هذا الهدف كل آية في القرآن الكريم مهما كان مضمونها ومحتواها وصيغتها ؟ ومن خلال استعراض الاهداف السابقة والمقارنة بينها، يمكن أن نخرج بنتيجة واضحة للجواب عن السؤال السابق، حيث نلاحظ أن القرآن الكريم استهدف من نزوله تحقيق هدف واحد رئيس، له أبعاد ثلاثة، وساهمت بقية الاهداف الاخرى بشكل أو بآخر في تحقيق هذا الهدف الرئيس. بل أشار القرآن الكريم أحيانا الى هذه المساهمة والترابط بين هذا الهدف الرئيس وبقية الاهداف كما سنلاحظ ذلك فيما بعد. وهذا الهدف الرئيس هو ايجاد التغيير الاجتماعي (الجذري) للانسانية، من خلال رسم (الطريق والمنهج) لهذا التغيير، و (خلق القاعدة الثورية) التي تميزت بهذا المنهج والتزمت وتغيرت على اساسه. ابعاد الهدف الرئيس من نزول القرآن: أ - التغيير الجذري: (فالبعد الاول) هو (التغيير الجذري) وهو ما يعبر عنه بلغة العصر: بالثورة

وعبر عنه القرآن بعملية الاخراج من الظلمات الى النور: (... يخرجهم من الظلمات الى النور...) (١) على اساس قاعدة: (... ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم...) (٢). (ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم...) (٣). وقد أشار القرآن الكريم الى هذا البعد في آيات عديدة تضمنت الهدف الاصلي من القرآن، كما تضمنت أيضا الهدف الاصلي من مهمة النبي (صلى الله عليه وآله): (... قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين * يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور بإذنه ويهديهم الى صراط مستقيم) (٤). (الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد) (٥). (هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات الى النور وان الله بكم لرؤوف رحيم) (٦). ففي هذه الايات يشير القرآن الكريم الى أن عملية التغيير الجذري التي يعبر عنها بعملية الخروج من أحد القطبين المتناقضين الى القطب الاخر (النور والظلمات)، ليست فقط من الاهداف التي يحققها ويتصف بها، كما في الاية الاولى، بل هي الهدف من أصل نزول القرآن، كما في الاية الثانية والثالثة.

(١) البقرة: ٢٥٧. (٢) الرعد: ١١. (٣) الانفال: ٥٣. (٤) المائدة: ١٥، ١٦. (٥) ابراهيم: ١. (٦) الحديد: ٩. (*)

ويؤكد هذا ما جاء في القرآن الكريم من وصف الله سبحانه بأنه: (نور السماوات والارض) الذي يعني أن هذا النور هو (الله) سبحانه، فيكون الهدف من القرآن تغيير هذا الانسان تغييرا يجعله مرتبطا بالله تعالى: (الله نور السماوات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الامثال للناس والله بكل شئ عليم) (١). ومما يلقي الضوء على أن عملية التغيير الجذري (الاخراج من الظلمات الى النور) هي الهدف الرئيس، ما أشير إليه في القرآن الكريم من ربط هذه العملية بشكل متضاد ومتعاكس بتوجهات علاقات الانسان المؤمن والكافر بالقطبين (الله) و (الطاغوت) في مختلف مجالات حياته وممارساته ونتائج مسيرته: (الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا) (٢). (والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا الى الله لهم البشرى فبشر عباد * الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الالباب) (٣). كما جاء في القرآن الكريم أن الهدف الرئيس الذي وضع على عاتق الرسل هو تحقيق هذا الهدف: (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الارض فانظروا كيف كان

---

(١) النور: ٣٥. (٢) النساء: ٧٦. (٣) الزمر: ١٧، ١٨. (*)

عاقبة المكذبين) (١). وانما كان الامر كذلك لان ولاء الله يعني الخروج من الظلمات الى النور، وولاء الطاغوت هو الخروج من النور الى الظلمات، و (الصيرورة) الى الجنة والنار، انما تكون على أساس هذا الولاء: (الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) (٢). ولعل التعبير بالمفرد عن النور، وبالجمع عن الظلمات للاشارة الى أن طريق الله واحد، والطريق الى الطاغوت يأخذ اشكالا متعددة، لان الله واحد والطاغوت متعدد.
شمولية عملية التغيير الاجتماعي: وقد أشار القرآن الكريم الى الابعاد الشمولية لعملية التغيير هذه، بحيث يكون لنا صورة عن اعماق الجذور التي تتناولها هذه العملية التغييرية: (يخرجهم من الظلمات الى النور)، وذلك عندما تحدث عن مهمة النبي محمد (صلى الله عليه وآله) تجاه أهل الكتاب: (الذين يتبعون الرسول النبي الامي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والاغلال التي كانت عليهم، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون) (٣).

---

(١) النحل: ٣٦. (٢) البقرة: ٢٥٧. (٣) الاعراف: ١٥٧. (*)

وكذلك عندما تحدث عن مهمة النبي تجاه (الاميين) من الناس: (هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) (١). أولو العزم ومهمة التغيير الاجتماعي: ولعل هذا البعد هو الذي يميز مهمة الانبياء أولي العزم من الرسل عن غيرهم من أنبياء الرسالات، حيث قد يكون المقصود من تلاوة الايات: (يتلو عليهم آياته) هذا البعد من العملية التغييرية. وقد تكون الاية التي وردت في سورة إبراهيم بشأن موسى (عليه السلام) تشير الى هذه الحقيقة: (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات الى النور وذكرهم بأيام الله إن في ذلك لايات لكل صبار شكور) (٢). خصوصا إذا أخذنا بنظر الاعتبار أنها وردت في سياق قوله تعالى: (ألر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور بإذن ربهم الى صراط العزيز الحميد) (٣). حيث قد يكون المقصود هو المقارنة بين المهمة الاصلية للنبي محمد (صلى الله عليه وآله) من خلال القرآن ومهمة موسى (عليه السلام) التغييرية. ب - المنهج الصحيح للتغيير: وهذا التغيير الجذري بطبيعة الحال يحتاج الى (منهج صحيح) وطريق مستقيم يمثل (البعد الثاني) للهدف، ويتمثل هذا المنهج بالكتاب والحكمة: (ويعلمهم

---

(١) الجمعة: ٢. (٢) ابراهيم: ٥. (٣) ابراهيم: ١. (*)

الكتاب والحكمة): " الكتاب " الذي يمثل الشريعة والدين، و " الحكمة " التي تمثل معرفة الحقائق الكونية والروحية والقوانين والسنن العامة التي تتحكم في الوجود، وفي تأريخ الانسان وحركته وتطوره، وتؤثر على سعادته وشقائه. ومن هنا جاء القرآن الكريم ليرسم هذا الطريق، فهو المنهج الشامل الذي يحدد العلاقات العامة في هذا الكون - ويمثل الانسان المحور الرئيس فيه - ويتعرض لكل مناحي حياة الانسان ويتناول تفاصيلها، كما أنه يحدد المواقف تجاه كل القضايا، ولا يختص بجماعة من الناس دون اخرى، بل يتكفل مسيرة الانسانية، حاضرها ومستقبلها. (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا) (١). (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا) (٢). (... ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) (٣). وهذا المنهج الصحيح هو الذي يعبر عنه القرآن الكريم في مواضع عديدة بالصراط المستقيم، والذي يمثل الطريق الى الكمال الانساني، وتمام النعمة للبشرية، ومنتهى طموحاتها وآمالها: (اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) (٤).

---

(١) الاسراء: ٩. (٢) الاسراء: ٨٢. (٣) النحل: ٨٩. (٤) الفاتحة: ٦، ٧. (*)

(قل إنني هداني ربي الى صراط مستقيم دينا قيما ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين) (١). (ان ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يكن من المشركين * شاكرا لانعمه اجتباه وهداه الى صراط مستقيم) (٢). ج - خلق القاعدة الثورية: إن عملية التغيير

الاجتماعي الجذري تحتاج أيضا - بطبيعة الحال - الى خلق (القاعدة الثورية) التي تمثل (البعد الثالث) للهدف، ولعل هذا هو المراد بما أشير إليه في عدة آيات من القرآن الكريم بالتزكية " ويزكيهم ". ولذلك سعى القرآن الكريم الى خلق هذه القاعدة الثورية، وأعطى ذلك أهمية خاصة، واهتم بمعالجة القضايا الانية والمستجدة التي يعيشها الرسول بشكل خاص، وتابع الاحداث التي كانت تواجه الرسالة، واتخذ المواقف تجاهها ليحقق هذا الهدف العظيم. ومن الواضح أن خلق هذه القاعدة وتكوينها في الوقت الذي يمثل مهمة صعبة وبالغة التعقيد، كذلك يمثل دورا ذا أهمية في مستقبل الرسالة وقدرتها على البقاء والاستمرار، إضافة الى قدرتها على الشمول والانتشار. فإضافة الى البعد الكيفي في عملية التغيير التي استهدفها القرآن، كان هناك بعد كمي في الهدف يتوخى بشكل خاص أن يقوم النبي ببناء القاعدة للرسالة بحيث يمكن لهذه الرسالة بعد ذلك - أي بعد وفاة الرسول وانقطاع الوحي - أن تستمر وتنتشر من خلال هذه القاعدة التي أولاها القرآن الكريم أهمية خاصة، وأعطاها قسطا كبيرا وحظا وافرا، كما نلاحظ ذلك في مجمل الايات التي تناولت الاحداث

---

(١) الانعام: ١٦١. (٢) النحل: ١٢٠، ١٢١. (*)

في عصر الرسالة وتفصيلاتها، وكذلك بعض التقاليد والعادات والقوانين، إضافة الى عنصر اللغة وأساليبها في القرآن. فهناك توجه خاص في القرآن الكريم الى سكان الجزيرة العربية: (... أم القرى ومن حولها...) (١) من أجل أن يخلق منهم القاعدة الثورية للانطلاق بالرسالة. وهذا التوجه الخاص ليس على اساس وجود الامتياز لابناء الجزيرة على غيرهم من البشر، وانما هو على أساس تحقيق الهدف الكمي (المرحلي) للرسالة الاسلامية، باعتبارهم مجال عمل النبي والجماعة التي بدأت الرسالة فيها (٢): (وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون وبالاخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون) (٣). (وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق في الجنة وفريق في السعير) (٤). (هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) (٥). وفي مجال آخر يؤكد القرآن استمرار مسيرة التغيير نحو الاصلح ووراثة عباد الله الصالحين للارض:

---

(١) الانعام: ٩٢. (٢) لتفسير نزول القرآن في هذه المنطقة دون غيرها بحث آخر تناولناه في محاضراتنا القرآنية حول البعثة، كما أشرنا الى ذلك في نزول القرآن باللغة العربية. (٣) الانعام: ٩٢. (٤) الشورى: ٧. (٥) الجمعة: ٢. (*)

(كتب الله لاغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز) (١). (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد) (٢). (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادي الصالحون) (٣). ولكن هذه المسيرة التأريخية للانسان لا تتقيد أو ترتبط بجماعة معينة من الناس أو أحد من البشر: (يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه

فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم...) (٤). (... وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) (٥). ومن المحتمل جدا أن احد خلفيات تأكيد مجموعة من القضايا والمفردات في القرآن الكريم هو قضية هذا التوجه الخاص لابناء الجزيرة والاهتمام بهم، ويمكن أن نلاحظ ذلك في قضية تأكيد ابراهيم (عليه السلام)، وكذلك تأكيد (الوحي) ومعالجته بشكل خاص، وتأكيد رفض الاصنام، وكذلك قضية اللغة العربية والاسلوب في القرآن أهمية خاصة كما نشاهده في السور القصار، الى غير ذلك من المفردات والقضايا. وفي ضوء هذا التفسير للهدف القرآني الرئيس، يمكن ان نفهم دور الاهداف الاخرى التي استعرضناها في تحقيق هذا الهدف، اضافة الى موقعها الاصلي من

---

(١) المجادلة: ٢١. (٢) المؤمن: ٥١. (٣) الانبياء: ١٠٥. (٤) المائدة: ٥٤. (٥) محمد: ٣٨. (*)

الهدف الرئيس، فضلا عن أن يكون كل واحد منها هو الهدف الرئيس.
١ - فالانذار والتذكير اللذان ورد في القرآن ذكرهما كهدف لنزوله، كما في بعض الايات التي استعرضناها، كذلك ورد ذكرهما كمهمة يتولاها الانبياء في عملهم، هذا الانذار يمثل جزءا من مهمة الانبياء، وجانبا من الهدف القرآني والاسلوب الرئيس لتحقيق عملية التغيير الاجتماعي. ويتضح ذلك عندما نلاحظ (الانذار) مذكورا الى جانب قضايا اخرى يتكفلها القرآن والنبي: (... قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين) (١). فالموعظة الى جانب الشفاء والهدى والرحمة. (الذين يتبعون الرسول النبي الامي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث...) (٢). فالامر بالمعروف والنهي عن المنكر الى جانب تحليل الطيبات وتحريم الخبائث ورفع الاصر والاغلال. كما أن الانذار يقترن في كثير من الايات بالبشارة: (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين اوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم) (٣).

---

(١) يونس: ٥٧. (٢) الاعراف: ١٥٧. (٣) البقرة: ٢١٣. (*)

ولعل هذ الاية الكريمة تلقي الضوء بشكل واضح على دور الانذار في القرآن وعمل النبيين، وأن الانذار مهمة يقوم بها النبي الى جانب الكتاب الذي يحكم بالحق ويحل الاختلافات ويهدي الى المنهج والصراط المستقيم. وإذا عرفنا أن المعادلة الاصلية للدين تتوقف على قضية (الانذار) بالعقاب و (البشارة) بالثواب في الدار الاخرة، عرفنا السبب في تأكيد القرآن الانذار هدفا لنزوله ومهمة للانبياء، ذلك أن صورة الحياة ومقاييسها التي يعتمدها الدين في القسط والميزان ترتبط بشكل رئيس بقضية الحياة الاخرة والبشارة بالثواب والانذار بالعذاب فيها. وإقامة الحجة على الناس تجاه القضايا التي يطرحها

الدين والنبي تدخل كعنصر اساسي في هذه المعادلة، ولذا أكد القرآن هذا المفهوم. كما أن تأكيد مهمة النبي هي (الانذار) أو (البلوغ) أو (اقامة الحجة)، وحده يمكن ان يكون لمعالجة نفسية للنبي الذي قد يتصور أن تحقيق التغيير - الخارجي - من مسؤوليته، بحيث عندما لا يتحقق هذا التغيير في الخارج يكون النبي أمام موقف حرج عند الله، بالرغم من بذله لكل ما في طاقته من الجهد لتحقيقه، ولذا جاء تأكيد القرآن: أن مهمة النبي والرسول تنتهي عند تحقيق الانذار والبلاغ الافضل: (لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين * إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين) (١). وحينئذ يحدد القرآن المسؤولية بـ)الانذار)، وهناك فرق بين المسؤولية وبين المهمة والهدف الذي يتولاه النبي، فالنبي عليه ان يبذل كل طاقته، وهو مسؤول عن الانذار وإقامة الحجة.

---

(١) الشعراء: ٣، ٤. (*)

وأما التغيير فهو وإن كان هدفا له ومن المهمات التي يسعى إليها، ولكنه ليس مسؤولا عن النتائج الخارجية له وعن تحقيق الهداية، وانما عليه أن ينجز (المقدمات الاساسية لها) وهما الانذار والبلاغ: (انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء...) (١). كما أن تأكيد قضية الانذار أحيانا، لتوضيح أن النبي ليس له طمع في السلطان والجاه والاجر المادي، وانما يريد القيام بواجبه وبمسؤوليته وهي الانذار: (واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم ان كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا الي ولا تنظرون * فان توليتم فما سألتكم من أجر إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين) (٢). ٢ - وضرب الامثال في القرآن انما جاء من أجل الانذار والتذكير، كما أشارت الى ذلك بعض الايات: (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون) (٣). ٣ - وعندما يكون القرآن حجة وبرهانا ومعجزة، فهو يساهم في عملية الانذار والهداية، ولذلك نجد أن البرهان يقترن بالهداية والنور والصراط المستقيم في القرآن نفسه: (يا ايها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نورا مبينا * فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطا مستقيما) (٤).

---

(١) القصص: ٥٦. (٢) يونس: ٧١، ٧٢. (٣) الزمر: ٢٧. (٤) النساء: ١٧٤، ١٧٥. (*)

---

٤ - وتفصيل الاحكام يمثل المنهج الذي تعتمد عليه عملية التغيير بصورة اساسية - كما أشرنا الى ذلك - ولذا يقترن تبيان كل شئ بالهداية والرحمة في القرآن، الهداية التي تمثل المنهج والصراط المستقيم: (... ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) (١). ٥ - وهكذا هدف الفصل وحسم الخلاف والتفريق بين الحق والباطل، حيث إن هذا جزء من المنهج العام والهدى والنور (٢). ٦ - (وتصديق) الرسالات وتكميلها الذي أشير إليه في بعض الايات هدفا للقرآن، لا يعني أن التغيير ليس (جذريا) في المجتمع، لان الانحراف الاجتماعي قد يصل الى مستوى بحيث يكون

المجتمع بعيدا عن منظور الرسالات السابقة وتأثيرها فضلا عن الرسالة الجديدة، وهذا ما يؤكده القرآن الكريم في مناسبات عديدة، خصوصا عند مناقشته لاهل الكتاب وتعصبهم وانحرافهم وشرائهم بآيات الله ثمنا قليلا، فالقرآن في الوقت الذي يكمل الرسالات السابقة ويصدقها ويهيمن عليها في عملية الاصلاح والكمال، يقوم أيضا بعمل (جذري) تجاه المجتمع الذي ابتعد (عمليا) عن منظور تلك الرسالات ومفاهيمها، ويبين تلك الرسالات التي تعرضت للتحريف على مستوى (النظرية) والافكار والمفاهيم، إضافة الى بعد المجتمع عنها على مستوى الواقع العملي، اي على مستوى (النظرية) و (التطبيق) معا. وتصبح عملية التصديق للرسالات والهيمنة عليها جزءا من الهدى والصراط المستقيم الذي يمثل عمل كل الانبياء والرسل. كما أشرنا الى ذلك في الهدف الاساس للقرآن الكريم:

---

(١) النحل: ٨٩. (٢) كما ورد في سورة البقرة: ٢١٣. (*)

(قل انني هداني ربي الى صراط مستقيم دينا قيما ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين) (١). وبهذا نجد أن كل الاهداف الاخرى على أهميتها، انما هي أهداف فرعية بالنسبة الى الهدف الاساس، وهي تساهم في تحقيقه الى حد بعيد، وهذا ما حصل بالفعل في تأريخ القرآن. القرآن الكريم يحقق الهدف من نزوله (٢): عندما نراجع مسيرة القرآن الكريم في عصر النبوة، نجد أنه استطاع أن يحقق هذا الهدف التغييري بكل أبعاده الثلاثة، حيث تمكن ان يوجد الامة الاسلامية التي هي خير امة اخرجت للناس والتي حملت اعباء الرسالة الى العالم أجمع. ابعاد التغيير في مجتمع الجزيرة العربية: ويمكن ان نلاحظ ابعاد التغيير الذي احدثه القرآن الكريم في مجتمع الجزيرة العربية لنعرف هذه الحقيقة القرآنية، وذلك من خلال مراجعة الابعاد الثلاثة التالية: أ - تحرير القرآن للانسان من الوثنية: كان العرب - الذين نزل القرآن الكريم على النبي (صلى الله عليه وآله) في حوزتهم - يعتقدون في الله أنه خالق، مدبر للعالم: (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله...) (٣) ولكنهم افترضوا - لضعف تفكيرهم، وبعد عهدهم من النبوة والانبياء - وجود وسطاء

---

(١) الانعام: ١٦١. (٢) كتبه الشهيد الصدر (قدس سره). (٣) الزخرف: ٨٧. (*)

وهميين بينهم وبين الله تعالى، وزعموا لهؤلاء الوسطاء الذين تخيلوهم قدرة على النفع والضر، فجسدوهم في أصنام من الحجارة، وأشركوا هذه الاصنام مع الله في العبادة، والدعاء حتى تطورت فكرة الوساطة في أذهانهم الى الاعتقاد بالوهية الوسطاء، ومشاركة تلك الاصنام لله في تدبير الكون: (الا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون...) (١). وكادت تمحى بعد ذلك فكرة التمييز بين الوسطاء والله تعالى، وسادت الوثنية بأبشع أشكالها، وانغمس العرب في الشرك وعبادة الاصنام، وتأليهها، فكان لكل قبيلة أو مدينة صنم خاص، بل كان لكل بيت صنم خصوصي، فقد قال الكلبي: " كان لاهل كل دار من مكة صنم في دارهم يعبدونه فإذا أراد أحدهم

السفر كان آخر ما يصنع في منزله أن يتمسح به، وإذا قدم من سفر كان أول ما يصنع إذا دخل منزله أن يتمسح به ايضا " (٢)، وقد كان في جوف الكعبة وفي فنائها ثلاثمائة وستون صنما. وأدى الامر بالعرب الى تقديس الحجارة بصورة عامة، وإسباغ الطابع الالهي عليها، ففي صحيح البخاري عن أبي رجاء العطاردي قال: " كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجرا هو خير منه ألقيناه وأخذنا الاخر، فإذا لم نجد حجرا جمعنا جثوة من تراب ثم جئنا بالشاة فحلبنا عليه ثم طفنا به " (٣)، وقال الكلبي: " كان الرجل إذا سافر فنزل منزلا أخذ أربعة أحجار فنظر الى احسنها فاتخذه ربا

---

(١) الزمر: ٣. (٢) الاصنام للكلبي: ٣٣. (٣) صحيح البخاري ٥: ٢١٦. (*)

وجعل ثلاث أثافي لقدره وإذا ارتحل تركه " (١). ولم يقتصر العرب على عبادة الاحجار، بل كان لهم آلهة شتى، من الملائكة والجن والكواكب، فكانوا يعتقدون أن الملائكة بنات الله، واتخذوا من الجن شركاء له وآمنوا بقدرتهم وعبدوهم: (ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون * قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون) (٢). ويروى عن حمير عبادة الشمس، وعن كنانة عبادة القمر، وعن لخم وجذام عبادة المشتري، وعن اسد عبادة عطارد، وعن طي عبادة سهيل (٣). وكان في العرب يهود ونصارى الى جانب تلك الكثرة من المشركين، ولكن اليهودية والنصرانية لم يكن بامكانها أن تصنع شيئا بعد أن منيت هي نفسها بالتحريف والزيغ، واصبحت مجرد شعارات وطقوس، وبعد أن امتزجت المسيحية العالمية بوثنية الرومان، وأضحت لونا من ألوان الشرك، فلم تكن النصرانية أو اليهودية في بلاد العرب الا نسختين من اليهودية في الشام، والنصرانية في بلاد الروم والشام، تحملان كل ما منيت بها هاتان الديانتان من نكسات وزيف. وهذه الصورة العامة عن الوثنية والشرك في بلاد العرب، تكفي لكي نتصور ما بلغه الانسان الجاهلي من ضعة، وميوعة، وتنازل عن الكرامة الانسانية، حتى اصبح يدين بعبادة الحجر، ويربط وجوده وكل آماله وآلامه بكومة من تراب.

---

(١) الاصنام: ٣٣. (٢) سبأ: ٤٠، ٤١. (٣) الاصنام: ٢٢ للكلبي. (*)

وما من ريب في أن عبادة الاصنام، والاحساس بالعبودية والذلة بين يديها، والسجود أمامها، كل ذلك يترك في النفس من الاثار الروحية والفكرية ما يفقد الانسان كرامته، ويجمد فيه طاقاته المتنوعة، ويجعله أقرب للخضوع والخنوع والاستسلام، لكل قوة أو قوى ما دام يستسلم لاخس الكائنات واتفهها. ولم يكن وضع العقيدة والعبادة، في سائر ارجاء العالم أحسن حالا منه في بلاد العرب، لان الوثنية بمختلف اشكالها كانت هي المسيطرة، اما بصورة صريحة، كما في الهند والصين وإيران، أو بصورة مبطنة، كما في اوروبا المسيحية التي تسللت فيها وثنية الرومان الى النصرانية وشوهت معالمها. والعبادة للاصنام، أو للملوك، ولارباب الاديان، كانت في كل مكان فلا تجد الا انسانا يعبد نظيره أو ما هو أخس منه من الكائنات، أو انسانا يزعم

لنفسه العبادة والحق الالهي في الطاعة والسيادة. في هذا الجو الوثني المسعور جاء القرآن الكريم ليرتفع بالانسان من الحضيض الذي هوى إليه، ويحرره من أسر الوثنية ومهانتها، ومختلف العبوديات المزيفة التي مني بها، ويركز بدلا منها فكرة العبودية المخلصة لله وحده لا شريك له، ويعيد للانسان إيمانه بكرامته وربه. فانظروا الى هذه النصوص القرآنية التالية لتجدوا كيف يؤكد القرآن فكرة العبادة لله وحده، ويهيب بالانسان الى التحررمن كل عبادة سواها: (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب * ما قدروا الله حق قدره ان الله لقوي عزيز) (١). (قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به

---

(١) الحج: ٧٣، ٧٤. (*)

شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله...) (١). (اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا الا ليعبدوا الها واحدا لا اله الا هو سبحانه عما يشركون) (٢). وقد استطاع القرآن أن ينتصر على الوثنية وألوانها المختلفة، ويصنع من المشركين امة موحدة تؤمن بالله، لا ايمانا نظريا فحسب بل ايمانا يجري مع دمائها وينعكس في كل جوانب حياتها. وقد كان لهذا الايمان الذي زرعه القرآن في النفوس مثل فعل السحر، فما يدخل في قلب الانسان الا حوله انسانا آخر، في مشاعره وعواطفه وقوة نفسه وعظمة أهدافه واحساسه بكرامته، وفي المثالين التاليين نستطيع ان نتبين ذلك بوضوح: ١ - عن ابي موسى قال: " انتهينا الى النجاشي وهو جالس في مجلسه، وعمرو ابن العاص عن يمينه وعمارة عن يساره والقسيسون جلوس سماطسن وقد قال له عمرو وعمارة: انهم لا يسجدون لك، فلما انتهينا، بدرنا من عنده من القسيسين والرهبان: اسجدوا للملك، فقال جعفر: لا نسجد الا لله عز وجل " (٣). ٢ - أرسل سعد قبل القادسية ربعي بن عامر رسولا الى رستم قائد الجيوش الفارسية واميرهم، فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق والزرابي الحرير، وقد جلس على سرير من ذهب وعليه تاجه المزين باليواقيت واللالئ الثمينة، ودخل ربعي بثياب صفيقة، وترس وفرس قصيرة، ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد، وأقبل وعليه سلاحه ودرعه

---

(١) آل عمران: ٦٤. (٢) التوبة: ٣١. (٣) البداية والنهاية ٣: ٨٩. (*)

وبيضته على رأسه. فقالوا له: ضع سلاحك فقال: ان تركتموني هكذا والا رجعت، فقال رستم: ائذنوا له، فأقبل يتوكأ على رمحه، فقال له: ما جاء بكم فقال: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا الى سعتها، ومن جور الاديان الى عدل الاسلام (١). هكذا استطاع القرآن عن طريق زرع الايمان بالله وتربية المسلمين على التوحيد والشعور بالعبودية لله وحده، استطاع عن

هذا الطريق أن يجعل من اولئك الذين كانوا يخضعون للحجارة، ويدينون بسيادتها امة موحدة لا تخضع الا لله، ولا تتذلل لقوة على وجه الارض ولا تستكين لجبروت الملك وعظمة الدنيا، ولو في أحرج اللحظات وتمتد بأهدافها نحو تغيير العالم، وهداية شعوب الارض الى التوحيد والاسلام، وانقاذها من أسر الوثنية، ومختلف العبوديات للالهة المزيفة والارباب المصطنعة. ب - تحرير القرآن للعقول: كانت الاساطير والخرافات شائعة بين العرب، نظرا لانخفاض مستواهم الفكري وأميتهم بصورة عامة، فكانوا يعتقدون - مثلا - أن نفس الانسان طائر ينبسط في جسم الانسان، فإذا ما مات أو قتل يكبر هذا الطائر حتى يصير في حجم البوم، ويبقى ابدا يصرخ ويتوحش ويسكن في الديار المعطلة والمقابر ويسمونه الهام. كما كانوا يعتقدون بالغيلان ويؤمنون بأساطيرها، ويزعمون أن الغول يتغول لهم في الخلوات، ويظهر لخواصهم في أنواع من الصور، فيخاطبونها وربما ضيفوها، وكانت لهم أبيات من الرجز يتناقلون حفظها، ويعتقدون أن فائدتها هي طرد الغيلان إذا اعترضتهم في طريقهم واسفارهم، الى غير ذلك من العقائد الخرافية التي كانوا يؤمنون بها.

---

(١) البداية والنهاية ٧: ٤٦. (*)

وقد جاء القرآن الكريم برسالة الاسلام، فحارب تلك العقائد والخرافات، ومحا تلك الاوهام عن طريق تنوير عقول العرب والدعوة الى التفكير الاصيل، والتدبر والاعتماد على العقل، والمطالبة برفض التقليد، وعدم الجمود على تراث السلف، بدون تمحيص أو تحقيق، قال الله تعالى: (وإذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله قالوا بل نتبع ما الفينا عليه اباءنا أو لو كان اباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون) (١). وقد أدت هذه الدعوة من القرآن الى تعريض كل الافكار السابقة والموروثة الى الامتحان من جديد في ضوء المنطق، والعقل، وعلى هدى الاسلام، فأسفر ذلك عن اضمحلال تلك الخرافات، وزوال تلك العقائد الجاهلية، وتحرر العقول من قيودها، وانطلاقها في طريق التفكير السليم. وقد حث القرآن بصورة خاصة على التفكير في الكون، والتأمل في أسراره، واكتشاف آيات الله المنتشرة فيه، ووجه الانسان هذه الوجهة الصالحة بدلا من التشاغل بخرافات الماضين وأساطيرهم: (قل انظروا ماذا في السماوات والارض) (٢). (قل سيروا في الارض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الاخرة ان الله على كل شئ قدير) (٣). (أفلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) (٤).

---

(١) البقرة: ١٧٠. (٢) يونس: ١٠١. (٣) العنكبوت: ٢٠. (٤) الحج: ٤٦. (*)

(افلا ينظرون الى الابل كيف خلقت * والى السماء كيف رفعت * والى الجبال كيف نصبت * والى الارض كيف سطحت) (١). ولم يكتف القرآن بالحث على دراسة الكون وما فيه من اسرار بل ربط ذلك بالايمان بالله واعلن ان العلم هو خير دليل للايمان بالله وان الايمان يتأكد كلما ازداد اكتشاف الانسان وتقدم في ميادين العلم

لانه يطلع على عظيم آيات الله، وحكيم صنعه وتدبيره، قال الله تعالى: (سنريهم آياتنا في الافاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق أولم يكف بربك انه على كل شئ شهيد) (٢). وبذلك أعطى القرآن مفهوم مواكبة الايمان للعلم، وأن العقيدة بالله تتمشى مع العلم على خط واحد، وأن اكتشاف الاسباب والقوانين في هذا الكون يعزز هذه العقيدة بأنه يكشف عن عظيم حكمة الصانع وتدبيره. وعلى أساس هذا الموقف القرآني، وما رفضه من التقليد، وما شجع عليه من التفكير والتدبر كانت الامة التي صنعها الكتاب الكريم مصدر العلم والثقافة في العالم، بدلا من خرافات البوم والغيلان، حتى اعترف المؤرخون الاوربيون بهذه الحقيقة أيضا، فقال الدوري الوزير والمؤرخ الفرنسي: " إن النبي جمع قبائل العرب امة واحدة رفعت أعلام التمدن في اقطار الارض، وكانوا في القرون المتوسطة مختصين بالعلوم، من بين سائر الامم، وانقشعت بسببهم سحائب البربرية التي امتدت على اوربا ". ج - تحرير القرآن للانسان من عبودية الشهوة: كما حرر القرآن عقيدة الانسان من الوثنية وعقله من الخرافة كذلك حرر إرادته من سيطرة الشهوة، فصار الانسان المسلم - نتيجة لتربية القرآن له - قادرا

---

(١) الغاشية: ١٧ - ٢٠. (٢) فصلت: ٥٣. (*)

على مقاومة شهواته وضبطها والصمود في وجه الاغراء وألوان الهوى المتنوعة، وفيما يلي نموذج قرآني من نماذج تغذية هذا الصمود وتركيزه في نفوس المسلمين: قال الله تعالى: (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب * قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد) (١). بهذا وغيره من نماذج التربية والترويض استطاع القرآن والاسلام ان يحررا الانسان من العبودية لشهواته الداخلية التي تختلج في نفسه، لتصبح الشهوة اداة تنبيه للانسان الى ما يشتهيه، لا قوة دافعة تسخر إرادة الانسان دون ان يملك بازائها حولا أو طولا، وقد اطلق الرسول الاعظم (صلى الله عليه وآله) على عملية تحرير الانسان هذه من شهواته الداخلية اسم " الجهاد الاكبر ". وإذا لاحظنا قصة تحريم الخمر في الاسلام استطعنا أن ندرك - من خلال هذا المثال - مدى نجاح القرآن في تحرير الانسان المسلم من أسر الشهوة وتنمية إرادته وصموده ضدها، فقد كان العرب في الجاهلية مولعين بشرب الخمر معتادين عليها، حتى أصبح ضرورة من ضرورات الحياة بحكم العادة والالفة، وشغلت الخمر جانبا كبيرا من شعرهم وتأريخهم وأدبهم، وكثرت اسماؤها وصفاتها في لغتهم، وكانت حوانيت الخمارين مفتوحة دائما ترفرف عليها الاعلام، وكان من شيوع تجارة الخمر أن أصبحت كلمة التجارة مرادفة لبيع الخمر في مثل هذا الشعب المغرم بالخمر نزل القرآن الكريم بقوله تعالى: (يا ايها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) (٢).

---

(١) آل عمران: ١٤، ١٥. (٢) المائدة: ٩٠. (*)

فما قال القرآن (اجتنبوه) الا وانطلق المسلمون الى زقاق خمورهم يشقونها بالمدي والسكاكين يريقون ما فيها، يفتشون في بيوتهم لعلهم يجدون بقية من خمر فاتهم ان يريقوها، وتحولت الامة القرآنية في لحظة الى امة تحارب الخمر وتترفع عن استعماله، كل ذلك حدث لان الامة كانت مالكة لارادتها، (حرة) في مقابل شهواتها، قادرة على الصمود امام دوافعها الحيوانية، وأن تقول بكل صرامة وجد حين يدعو الموقف الى ذلك، وبكلمة مختصرة كانت تتمتع " بحرية (حقيقية) تسمح لها بالتحكم في سلوكها ". وفي مقابل تلك التجربة الناجحة التي مارسها القرآن الكريم لتحريم الخمر نجد أن أرقي شعوب العالم الغربي مدنية وثقافة في هذا العصر فشل في تجربة مماثلة، فقد حاولت الولايات المتحدة الاميركية في القرن العشرين أن تخلص شعبها من مضار الخمر فشرعت في سنة (١٩٢٠) قانونا لتحريم الخمر، ومهدت لهذا القانون بدعاية واسعة عن طريق السينما والتمثيل والاذاعة ونشر الكتب والرسائل، وكلها تبين مضار الخمر مدعومة بالاحصائيات الدقيقة والدراسات الطبية. وقد قدر ما انفق على هذه الدعاية (٦٥) مليونا من الدولارات، وسودت تسعة آلاف مليون صفحة في بيان مضار الخمر والزجر عنها، ودلت الاحصائيات للمدة الواقعة بين تأريخ تشريعه وبين تشرين الاول (١٩٣٣) أنه قتل في سبيل تنفيذ هذا القانون مائتا نسمة، وحبس نصف مليون نسمة، وغرم المخالفون له غرامات تبلغ مليونا ونصف المليون من الدولارات، وصودرت اموال بسبب مخالفته تقدر باربعمائة مليون دولار، وأخيرا اضطرت الحكومة الاميركية الى الغاء قانون التحريم في أواخر سنة (١٩٣٣)، وفشلت التجربة. والسبب في ذلك أن الحضارات الغربية بالرغم من مناداتها بالحرية لم تستطع بل لم تحاول ان تمنح الانسان الغربي (الحرية الحقيقية) التي حققها القرآن الكريم

للانسان المسلم، وهي حريته في مقابل شهواته وامتلاكه لارادته امام دوافعه الحيوانية، فقد ظنت الحضارات الغربية أن (الحرية) هي ان يقال للانسان: اسلك كما تشاء وتصرف كما تريد، وتركت لاجل ذلك معركة التحرير الداخلي للانسان من سيطرة تلك الشهوات والدوافع، فظل الانسان الغربي أسير شهواته عاجزا عن امتلاك ارادته والتغلب على نزعاته، بالرغم من كل ما وصل إليه من علم وثقافة ومدنية.

المكي والمدني (١) ينقسم البحث حول المكي والمدني من القرآن الى عدة بحوث نشير الى بحثين منها: الاتجاهات في معنى المكي والمدني: يقسم القرآن في عرف علماء التفسير الى مكي ومدني، فبعض آياته مكية وبعض آياته مدنية. وتوجد في التفسير اتجاهات عديدة لتفسير هذا المصطلح: احدها: الاتجاه السائد وهو تفسيره على أساس الترتيب الزماني للايات، واعتبار الهجرة حدا زمنيا فاصلا بين مرحلتين، فكل آية نزلت قبل الهجرة تعتبر مكية، وكل آية نزلت بعد الهجرة فهي مدنية وإن كان مكان نزولها (مكة)، كالايات التي نزلت على النبي حين كان في مكة وقت الفتح، فالمقياس هو الناحية الزمنية لا المكانية. والاتجاه الاخر هو الاخذ بالناحية المكانية مقياسا للتميز بين المكي والمدني، فكل آية يلاحظ مكان نزولها، فان كان النبي (صلى الله عليه وآله) حين نزولها في مكة سميت مكية،

وإن كان حينذاك في المدينة سميت مدنية. والاتجاه الثالث يقوم على اساس مراعاة اشخاص المخاطبين، فهو يعتبر أن المكي ما وقع خطابا لاهل مكة، والمدني ما وقع خطابا لاهل المدينة.

---

(١) كتبه الشهيد الصدر (قدس سره). (*)

ويمتاز الاتجاه الاول عن الاتجاهين الاخيرين بشمول المكي والمدني على أساس الاتجاه الاول لجميع آيات القرآن، لاننا إذا أخذنا بالناحية الزمنية كانت كل آية في القرآن إما مكية وإ ما مدنية، لانها إذا كانت نازلة قبل هجرة النبي الى المدينة ودخوله فيها فهي مكية، وان نزلت على النبي في طريقه من مكة الى المدينة، أو كانت نازلة بعد دخول النبي مهاجرا الى المدينة فهي مدنية، مهما كان مكان نزولها. وأ ما على الاتجاهين الاخيرين في تفسير المصطلح فقد نجد آية ليست مكية ولا مدنية، كما إذا كان موضع نزولها مكانا ثالثا لا مكة ولا المدينة ولم يكن خطابها لاهل مكة أو أهل المدينة، نظير الايات التي نزلت على النبي (صلى الله عليه وآله) في معراجه أو اسرائه. ترجيح أحد الاتجاهات الثلاثة: وإذا أردنا أن نقارن بين هذه الاتجاهات الثلاثة لنختار واحدا منها فيجب ان نطرح منذ البدء الاتجاه الثالث، لانه يقوم على (اساس خاطئ) وهو الاعتقاد أن من الايات ما يكون خطابا لاهل مكة خاصة ومنها ما يكون خطابا لاهل المدينة، وليس هذا بصحيح، فان الخطابات القرآنية عامة وانطباقها حين نزولها على أهل مكة أو على أهل المدينة لا يعني كونها خطابا لهم خاصة أو اختصاص ما تشتمل عليه من توجيه أو نصح أو حكم شرعي بهم، بل هي عامة ما دام اللفظ فيها عاما كما عرفنا. والواقع أن لفظ المكي والمدني ليس لفظا شرعيا حدد النبي مفهومه لكي نحاول اكتشاف ذلك المفهوم، وانما هو مجرد اصطلاح تواضع عليه علماء التفسير، وما من ريب في أن كل احد له الحق في أن يصطلح كما يشاء، لا نريد هنا أن نخطئ الاتجاه الاول أو الاتجاه الثاني ما دام لا يعبر كل منهما الا عن اصطلاح، من حق اصحاب

ذلك الاتجاه ان يضعوه، ولكنا نرى أن وضع مصطلح المكي والمدني على أساس الترتيب الزمني - كما يقرره الاتجاه الاول - أنفع وأفيد للدراسات القرآنية، لان التمييز من ناحية زمنية بين ما انزل من القرآن قبل الهجرة وما انزل بعدها أكثر أهمية للبحوث القرآنية من التمييز على اساس المكان بين ما انزل على النبي في مكة وما انزل عليه في المدينة، فكان جعل الزمن أساسا للتمييز بين المكي والمدني واستخدام هذا المصطلح لتحديد الناحية الزمنية اوفق بالهدف. وتتجلى أهمية التمييز الزمني من التمييز المكاني في نقطتين: احداهما: (فقهية) أي أنها ترتبط بعلم الفقه ومعرفة الاحكام الشرعية، وهي أن تقسيم الايات على اساس الزمن الى مكية ومدنية وتحديد ما نزل قبل الهجرة وما نزل بعدها يساعدنا على معرفة الناسخ والمنسوخ، لان الناسخ متأخر بطبيعته على المنسوخ زمانا، فإذا وجدنا حكمين ينسخ أحدهما الاخر استطعنا ان نعرف الناسخ عن طريق التوقيت الزمني، فيكون المدني منهما ناسخا للمكي لاجل تأخره عنه زمانا (١). والاخرى هي: أن التقسيم الزمني للايات الى مكية ومدنية يجعلنا نتعرف على مراحل الدعوة التي مر بها الاسلام على يد النبي، فإن الهجرة المباركة ليست

مجرد حادث عابر في حياة الدعوة، وانما هي حد فاصل بين مرحلتين من عمر الدعوة،

---

(١) هذه النقطة انما تكون مهمة بناء على المذهب المعروف في علوم القرآن الذي يقول بوجود النسخ بين الايات القرآنية، من خلال افتراض وجود حكمين متخالفين احدهما متأخر عن الاخر زمانا فيفترض أن الثاني ناسخ للاول، وأما إذا التزمنا بعدم وجود النسخ بهذا الشكل وانما موارد النسخ في القرآن مبينة من خلال نظر الاية الناسخة للاية المنسوخة في مضمونها...، فلا تبقى قيمة لهذه النقطة وانما تكون مجرد فرضية، وللمزيد من التوضيح يراجع بحث (النسخ) - المؤلف. (*)

وهما مرحلة العمل في ضمن المجتمع الذي تحكمه السلطة الكافرة المهيمنة على جميع الاوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية، ومرحلة العمل ضمن دولة الاسلام، ولئن كان بالامكان تقسيم كل من هاتين المرحلتين بدورها أيضا الى مقاطع زمنية، فمن الواضح على أي حال أن التقسيم الرئيس هو على اساس الهجرة. فإذا ميزنا بين الايات النازلة قبل الهجرة وما نزل منها بعد الهجرة استطعنا أن نواكب تطورات الدعوة والخصائص العامة التي تجلت فيها خلال كل من المرحلتين. وأما مجرد أخذ مكان النزول بعين الاعتبار واهمال عامل الزمن فهو لا يمدنا بفكرة مفصلة عن هاتين المرحلتين، ويجعلنا نخلط بينهما، كما يحرمنا من تمييز الناسخ عن المنسوخ من الناحية الفقهية. وسوف يتضح أيضا مزيد من الاهمية عند دراستنا لخصائص المكي والمدني، فلهذا كله نؤثر الاتجاه الاول في تفسير المكي والمدني، وعلى هذا الاساس سوف نستعمل هذين المصطلحين. طريقة معرفة المكي والمدني: بدأ المفسرون عند محاولة التمييز بين المكي والمدني بالاعتماد على الروايات والنصوص التأريخية، التي تؤرخ السورة أو الاية وتشير الى نزولها قبل الهجرة أو بعدها، وعن طريق تلك الروايات والنصوص التي تتبعها المفسرون واستوعبوها استطاعوا أن يعرفوا عددا كبيرا من السور والايات المكية والمدنية ويميزوا بينها. وبعد أن توفرت لهم المعرفة بذلك اتجه كثير من المفسرين الذين عنوا بمعرفة المكي والمدني الى دراسة مقارنة لتلك الايات والسور المكية والمدنية التي اكتشفوا

تأريخها عن طريق النصوص، وخرجوا من دراستهم المقارنة باكتشاف خصائص عامة في السور والايات المكية وخصائص عامة اخرى في المدني من الايات والسور فجعلوا من تلك الخصائص العامة مقاييس يقيسون بها سائر الايات والسور التي لم يؤثر توقيتها الزمني في الروايات والنصوص، فما كان منها يتفق مع الخصائص العامة للايات والسور المكية حكموا بأ نه مكي، وما كان اقرب الى الخصائص العامة للمدني واكثر انسجاما معها ادرجوه ضمن المدني من الايات بالسور. وهذه الخصائص العامة التي حددت المكي والمدني بعضها يرتبط باسلوب الاية والسورة، كقولهم: إن قصر الايات والسور وتجانسها الصوتي من خصائص القسم المكي، وبعضها يرتبط بموضوع ومضمون النص القرآني، كقولهم مثلا: إن مجادلة المشركين وتسفية احلامهم من خصائص السور المكية، ومحاورة أهل الكتاب من خصائص السور المدنية. ويمكن تلخيص ما ذكروه من الخصائص الاسلوبية والموضوعية للقسم المكي فيما يأتي: ١ - قصر الايات والسور وايجازها وتجانسها الصوتي. ٢ - الدعوة الى اصول الايمان

بالله والوحي وعالم الغيب واليوم الاخر وتصوير الجنة والنار. ٣ - الدعوة للتمسك بالاخلاق الكريمة والاستقامة على الخير. ٤ - مجادلة المشركين وتسفيه أحلامهم. ٥ - استعمال السورة لكلمة " يا أيها الناس " وعدم استعمالها لكلمة " يا أيها الذين آمنوا ". وقد لوحظ أن سورة الحج تستثنى من ذلك لا نها استعملت الكلمة الثانية،

بالرغم من أنها مكية، فهذه الخصائص الخمس يغلب وجودها في السور المكية (١). وأما مايشيع في القسم المدني من خصائص عامة فهي: ١ - طول السورة والاية واطنابها. ٢ - تفضيل البراهين والادلة على الحقائق الدينية. ٣ - مجادلة أهل الكتاب ودعوتهم الى عدم الغلو في دينهم. ٤ - التحدث عن المنافقين ومشاكلهم. ٥ - التفصيل لاحكام الحدود والفرائض والحقوق والقوانين السياسية والاجتماعية والدولية. موقفنا من خصائص السور المكية والمدنية: وما من ريب في أن هذه المقاييس المستمدة من تلك الخصائص العامة تلقي ضوءا على الموضوع، وقد تؤدي الى ترجيح لاحد الاحتمالين على الاخر في السور التي لم يرد نص بأ نها مكية أو مدنية، فإذا كانت احدى هذه السور تتفق مثلا مع السور المكية في اسلوبها وايجازها وتجانسها الصوتي وتنديدها بالمشركين وتسفيه احلامهم، فالارجح أن تكون سورة مكية لاشتمالها على هذه الخصائص العامة للسورة المكية. ولكن الاعتماد على تلك المقاييس انما يجوز إذا ادت الى العلم، ولا يجوز الاخذ بها لمجرد الظن، ففي المثال المتقدم حين نجد سورة تتفق مع السور المكية في اسلوبها وايجازها لا نستطيع أن نقول بانها مكية لاجل ذلك، إذ من الممكن أن تنزل سورة مدنية وهي تحمل بعض خصائص الاسلوب الشائع في القسم المكي، كما في سورة

---

(١) سورة الحج مدنية وليست مكية، وتستعمل فيها الكلمة الاولى والثانية، ولكن الاولى اكثر كما ان سورة الحجرات مدنية بلا اشكال وتستعمل فيها كلمة (يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى...) الحجرات: ١٣ - المؤلف. (*)

النصر وغيرها، صحيح أنه يغلب على الظن حينذاك أن السورة مكية لقصرها وايجازها، ولكن الاخذ بالظن لا يجوز لانه قول من دون علم: (ولا تقف ما ليس لك به علم...) (١). وإذا ما ادت تلك المقاييس الى الاطمئنان والتأكد من تأريخ السورة وأ نها مكية أو مدنية فلا بأس بالاعتماد عليها عند ذاك. ومثاله النصوص القرآنية التي تشتمل على تشريعات للحرب والدولة مثلا، فإن هذه الخصيصة الموضوعية تدل على أن النص مدني، لان طبيعة الدعوة في المرحلة الاولى التي عاشتها قبل الهجرة لا تنسجم اطلاقا مع التشريعات الدولية، فنعرف من اجل هذا أن النص مدني نزل في المرحلة الثانية من الدعوة، اي في عصر الدولة. شبهات حول المكي والمدني المقدمة: لقد كان موضوع المكي والمدني من جملة الموضوعات القرآنية التي اثيرت حولها الشبهة والجدل، وتنطلق الشبهة هنا من اساس هو: أن الفروق والميزات التي تلاحظ بين القسم المكي من القرآن الكريم والقسم المدني منه تدعو في نظر بعض المستشرقين الى الاعتقاد بأن القرآن قد خضع لظروف بشرية مختلفة - اجتماعية وشخصية - تركت آثارها على اسلوب القرآن وطريقة عرضه، وعلى مادته

والموضوعات التي عني بها. ويجدر بنا قبل ان ندخل في الحديث عن الشبهات ومناقشتها أن نلاحظ الامرين التاليين، لما لهما من تأثير في فهم البحث ومعرفة نتائجه:

---

(١) الاسراء: ٣٦. (*)

الاول: أنه لا بد لنا ان نفرق منذ البدء بين فكرة تأثر القرآن الكريم، وانفعاله بالظروف الموضوعية من البيئة وغيرها بمعنى انطباعه بها، وبين فكرة مراعاة القرآن لهذه الظروف بقصد تأثيره فيها وتطويرها لصالح الدعوة. فإن الفكرة الاولى تعني في الحقيقة: بشرية القرآن، حيث تفرض القرآن في مستوى الواقع المعاش وجزءا من البيئة الاجتماعية يتأثر بها كما يؤثر فيها، بخلاف الفكرة الثانية فإ نها لا تعني شيئا من ذلك، لان طبيعة الموقف القرآني الذي يستهدف التغيير، وطبيعة الاهداف والغايات التي يرمي القرآن الى تحقيقها قد تفرض هذه المراعاة، حيث تحدد الغاية والهدف طبيعة الاسلوب الذي يجب سلوكه للوصول إليها. فهناك فرق بين أن تفرض الظروف والواقع أنفسهما على الرسالة، وبين ان تفرض الاهداف والغايات التي ترمي الرسالة الى تحقيقها من خلال الواقع اسلوبا ومنهجا للرسالة، لان الهدف والغاية ليسا شيئين منفصلين عن الرسالة ليكون تأثيرهما عليها تأثيرا مفروضا من الخارج. فنحن في الوقت الذي نرفض فيه الفكرة الاولى بالنسبة الى القرآن، نجد انفسنا لا تأبى التمسك بالفكرة الثانية في تفسير الظواهر القرآنية المختلفة، سواء ما يرتبط منها بالاسلوب القرآني أو الموضوع والمادة المعروضة فيه. الثاني: ان تفسير أصل وجود الظاهرة القرآنية لا بد ان يعتبر هو المصدر الاساس في جميع الاحكام التي تصدر على محتوى القرآن واسلوب العرض فيه، فقد تكون النقطة الواحدة في القرآن الكريم سببا في إصدار حكمين مختلفين نتيجة للاختلاف في تفسير اصل وجود القرآن، وسوف نورد بعض الامثلة لهذا الاختلاف في الحكم عندما نذكر ان من شروط المفسر للقرآن ان يكون ذا ذهنية إسلامية (١).

---

(١) راجع بحث شروط المفسر. (*)

ومن أجل ذلك فنحن لا نسوغ لانفسنا ان نقبل حكما ما في تفسير نقطة حول القرآن الكريم، لمجرد انسجام هذا الحكم مع تلك النقطة، بل لا بد لنا ننظر أيضا - بشكل مسبق - الى مدى انسجام الحكم مع التفسير الصحيح لوجود الظاهرة القرآنية نفسها. إن الظاهرة القرآنية - كما سنشرحها في البحوث القادمة - ليست نتاجا شخصيا لمحمد (صلى الله عليه وآله) ومن ثم ليست نتاجا بشريا مطلقا، وانما هي نتاج الهي مرتبط بالسماء، وعلى هذا الاساس يمكننا ان نجزم بشكل مسبق ببطلان جميع الشبهات التي تثار حول المكي والمدني، لانها في الحقيقة تفسيرات لظاهرة الفرق بين المكي والمدني على اساس أن القرآن الكريم نتاج بشري. وبالاحرى يجب ان يقال: إن شبهات المكي والمدني ترتبط في الحقيقة بالشبهات التي اثيرت حول الوحي ارتباطا موضوعيا، لانها ترتبط بفكرة انكار الوحي، ولكن مع ذلك - من اجل توضيح الحقيقة - قد نحتاج الى

مناقشة تفصيلية للشبهات التي اثيرت حول الوحي بشكل عام، وحول المكي والمدني بشكل خاص، لابراز نقاط الاثارة والتلاعب التي ذكرها المستشرقون، وبيان انسجام الظواهر القرآنية المختلفة مع ظاهرة الوحي الالهي، ولذا فسوف نناقش هذه الشبهات بعد التحدث عنها لايضاح بطلانها من ناحية، وتقديم التفسير الصحيح للفرق بين المكي والمدني - بعد ذلك - من ناحية ثانية. وللشبهة حول المكي والمدني جانبان: جانب يرتبط بالاسلوب القرآني فيها، وجانب آخر يرتبط بالمادة والموضوعات التي عرض القرآن لها في هذين القسمين، وفي كل من القسمين تصاغ الشبهة على عدة اشكال، نذكر منها صياغتين لكل واحد من القسمين:

أ - اسلوب القسم المكي يمتاز بالشدة والعنف والسباب: فقد قالوا: إن اسلوب القسم المكي من القرآن يمتاز عن القسم المدني بطابع الشدة والعنف، بل وبالسباب أيضا، وهذا يدل على تأثر محمد بالبيئة في مكة التي كان يعيش فيها، لانها مطبوعة بالغلظة والجهل، ولذا يزول هذا الطابع عن القرآن الكريم عندما ينتقل محمد الى مجتمع المدينة الذي، تأثر فيه - بشكل أو بآخر - بحضارة أهل الكتاب وأساليبهم. وتستشهد الشبهة بعد ذلك لهذه الملاحظة بالسور والايات المكية المطبوعة بطابع الوعيد والتهديد والتعنيف، أمثال: سورة (المسد) وسورة (العصر) وسورة (التكاثر) وسورة (الفجر) وغير ذلك. ويمكن ان نناقش هذه الشبهة بما يلي: أولا: بعدم اختصاص القسم المكي من القرآن الكريم بطابع الوعيد والانذار دون القسم المدني، بل يشترك المكي والمدني بذلك، كما ان القسم المدني لا يختص أيضا - كما قد يفهم من الشبهة - بالاسلوب اللين الهادئ الذي يفيض سماحة وعفوا، بل نجد ذلك في المكي، والشواهد القرآنية على ذلك كثيرة. فمن القسم المدني الذي اتسم بالشدة والعنف قوله تعالى: (فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة اعدت للكافرين) (١). وقوله تعالى: (الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس...) (٢) و (يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا ان كنتم مؤمنين * فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وان تبتم فلكم رؤس اموالكم لا تظلمون ولا تظلمون) (٣).

---

(١) البقرة: ٢٤. (٢) (٣) البقرة: ٢٧٥ و ٢٧٨، ٢٧٩. (*)

وقوله تعالى: (ان الذين كفروا لن تغني عنهم اموالهم ولا اولادهم من الله شيئا واولئك هم وقود النار * كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب * قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم وبئس المهاد) (١). الى غير ذلك من الايات التي سوف نشير الى بعضها قريبا. كما نجد في القسم المكي لينا وسماحة نحو قوله تعالى: (ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال انني من المسلمين * لا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي احسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم * وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) (٢). وقوله تعالى: (فما اوتيتم من شئ فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وابقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون * والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون *

والذين استجابوا لربهم واقاموا الصلاة وامرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون * والذين إذا اصابهم البغي هم ينتصرون * وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا واصلح فاجره على الله انه لا يحب الظالمين * ولمن انتصر بعد ظلمه فاولئك ما عليهم من سبيل * انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الارض بغير الحق اولئك لهم عذاب اليم * ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الامور) (٣). وقوله تعالى: (ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم * لا تمدن عينيك الى ما متعنا به ازواجا منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين) (٤).

---

(١) آل عمران: ١٠ - ١٢. (٢) فصلت: ٣٣ - ٣٥. (٣) الشورى: ٣٦ - ٤٣. (٤) الحجر: ٨٧ - ٨٨. (*)

وقوله تعالى: (قل يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم) (١). وثانيا: إنه ليس في القرآن الكريم سباب وشتم كيف وقد نهى القرآن نفسه في القسم المكي عن السب والشتم، حيث قال تعالى: (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم...) (٢). وليس في سورة (المسد) أو (التكاثر) سب أو بذاءة - كما يحاول المستشرقون ان يقولوا ذلك - وانما فيهما تحذير ووعيد بالمصير الذي ينتهي إليه أبو لهب والكافرون بالله. نعم، يوجد في القرآن الكريم تقريع وتأنيب عنيف، وهو موجود في المدني كما هو في المكي - وان كان يكثر وجوده في المكي - بالنظر لمراعاة ظروف الاضطهاد والقسوة التي كانت تمر بها الدعوة، الامر الذي اقتضى ان يواجه القرآن ذلك بالعنف والتقريع - احيانا - لتقوية معنويات المسلمين من جانب، وتحطيم معنويات الكافرين من جانب آخر، كما سوف نشير إليه قريبا. ومن هذا التقريع في السور المدنية قوله تعالى: (ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم ام لم تنذرهم لا يؤمنون * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى ابصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم * ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الاخر وما هم بمؤمنين... صم بكم عمي فهم لا يرجعون) (٣). وقوله تعالى: (... وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤا بغضب من الله ذلك بانهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا

---

(١) الزمر: ٥٣. (٢) الانعام: ١٠٨. (٣) البقرة: ٦ - ١٨. (*)

يعتدون) (١) وقوله: (بئسما اشتروا به انفسهم ان يكفروا بما انزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباؤا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين) (٢). وقوله تعالى: (إن الذين يكتمون ما انزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب اولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون) (٣). وقوله تعالى: (إذ قال الله يا عيسى اني متوفيك ورافعك الي ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة ثم الي مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون * فأما الذين كفروا فاعذبهم عذابا شديدا في الدنيا والاخرة وما لهم من ناصرين) (٤). وقوله تعالى: (قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه

الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت اولئك شر مكانا واضل عن سواء السبيل) (٥). وقوله تعالى: (وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت ايديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان...) (٦). ب - اسلوب القسم المكي يمتاز بقصر السور والايات: وقالوا أيضا: إن من الملاحظ قصر السور والايات في القسم المكي على عكس القسم المدني الذي جاء بشئ من التفصيل والاسهاب، فنحن نجد أن السور المكية جاءت قصيرة ومعروضة بشكل موجز، في الوقت الذي نجد في القسم المدني سورة البقرة وآل عمران والنساء وغيرها من السور الطوال.

---

(١) و (٢) و (٣) البقرة: ٦١ و ٩٠ و ١٥٩. (٤) آل عمران: ٥٥ و ٥٦. (٥) و (٦) المائدة: ٦٠ و ٦٤. (*)

وهذا يدل على انقطاع الصلة بين القسم المكي والقسم المدني، وتأثرهما بالبيئة التي كان يعيشها محمد (صلى الله عليه وآله)، فان مجتمع مكة لما كان مجتمعا اميا لم يكن النبي بقدرته التبسط في شرح المفاهيم وتفصيلها، وانما واتته القدرة على ذلك عندما أخذ يعيش مجتمع المثقفين المتحضر في يثرب. وتناقش هذه الشبهة بالامرين التاليين: الاول: أن القصر والايجاز ليسا مختصين بالقسم المكي، بل توجد في القسم المدني سور قصيرة أيضا كالنصر والزلزلة والبينة وغيرها، كما أن الطول والتفصيل ليسا مختصين بالقسم المدني، بل توجد في المكي أيضا سور طويلة، كالانعام والاعراف. وقد يقصد من اختصاص المكي بالقصر والايجاز: أن هذا الشئ هو الغالب الشائع فيه. وقد يكون هذا صحيحا، ولكنه لا يدل بوجه من الوجوه على انقطاع الصلة بين القسمين المذكورين من القرآن الكريم، لانه يكفي في تحقيق هذه الصلة ان يأتي القرآن الكريم ببعض السور الطويلة المفصلة في القسم المكي، كدليل على القدرة والتمكن من الارتفاع الى مستوى التفصيل في المفاهيم والموضوعات. إضافة الى أن من الملاحظ وجود آيات مكية قد اثبتت في السور المدنية والعكس يصح أيضا، وفي كلا الحالتين نجد التلاحم والانسجام في السورة، وكأ نها نزلت مرة واحدة، الامر الذي يدل بوضوح على وجود الصلة التامة بين القسمين. الثاني: أن الدراسات اللغوية التي قام بها العلماء المسلمون وغيرهم دلت على أن الايجاز يعتبر مظهرا من مظاهر القدرة الخارقة على التعبير، وهو من ثم من مظاهر الاعجاز القرآني، وليس نقصا أو عيبا في القسم المكي، خصوصا إذا أخذنا بعين الاعتبار أن القرآن قد تحدى العرب بأن يأتوا بسورة من مثله، حيث يكون

التحدي بالسورة القصيرة أروع وابلغ منه حين يكون بسورة مفصلة. ج - لم يتناول القسم المكي في مادته التشريع والاحكام: وقالوا: إن القسم المكي لم يتناول - فيما تناول من موضوعات - جانب التشريع من أحكام وأنظمة، بينما تناول القسم المدني هذا الجانب من التفصيل. وهذا يعبر عن جانب آخر من التأثر بالبيئة والظروف الاجتماعية، حيث لم يكن مجتمع مكة مجتمعا متحضرا، ولم يكن قد انفتح على معارف أهل الكتاب وتشريعاتهم، على خلاف مجتمع المدينة الذي تأثر الى حد بعيد بالثقافة والمعرفة للاديان السماوية كاليهودية والنصرانية. وتناقش هذه الشبهة بالامرين التاليين أيضا:

اولا: إن القسم المكي لم يهمل جانب التشريع، وانما تناول اصوله العامة وجملة مقاصد الدين، كما جاء في قوله تعالى: (قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم الا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا اولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون * ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي احسن حتى يبلغ اشده...) (١). كما طرحت من خلاله مجمل النظريات والتصورات القرآنية حول الكون والحياة والمجتمع والانسان... إضافة الى أننا نجد في القسم المكي، وفي سورة الانعام (٢) بالخصوص مناقشة لكثير من تشريعات أهل الكتاب والتزاماتهم، وهذا يدل على معرفة القرآن الكريم بهذه التشريعات وغيرها مسبقا.

---

(١) الانعام: ١٥١، ١٥٢. (٢) الايات: ١١٩ - ١٢١ و ١٣٨ - ١٤٦. (*)

وثانيا: إن هذه الظاهرة يمكن ان نطرح في تفسيرها نظرية اخرى تنسجم مع الاساس الموضوعي لوجود الظاهرة القرآنية نفسها، وهذه النظرية هي ان يقال: إن الحديث عن تفاصيل التشريع في مكة كان شيئا سابقا لاوانه، حيث لم يستلم الاسلام حينذاك زمام الحكم بعد، بينما الامر في المدينة على العكس، فلم يتناول القسم المكي تفاصيل التشريع، لان ذلك لا يتفق مع المرحلة التي تمر بها الدعوة، وانما تناول الجوانب الاخرى التي تنسجم مع الموقف العام، كما سوف نشرح ذلك قريبا. د - لم يتناول القسم المكي في مادته الادلة والبراهين: وقالوا: إن القسم المكي لم يتناول أيضا الادلة والبراهين على العقيدة واصولها، على خلاف القسم المدني، وهذا تعبير آخر أيضا عن تأثر القرآن بالظروف الاجتماعية والبيئية، إذ عجزت الظاهرة القرآنية - بنظر هؤلاء - عن تناول هذا الجانب الذي يدل على عمق النظر في الحقائق الكونية، عندما كان يعيش محمد (صلى الله عليه وآله) في مكة مجتمع الاميين، بينما ارتفع مستوى القرآن في هذا الجانب عندما أخذ محمد (صلى الله عليه وآله) يعيش الى جانب أهل الكتاب في المدينة، وذلك نتيجة لتأثره بهم لانهم أصحاب فكر وفلسفة ومعرفة بالديانات السماوية، ولتطور الظاهرة القرآنية نفسها أيضا. وتناقش هذه الشبهة من وجهين: الاول: أن القسم المكي لم يخل من الادلة والبراهين بل تناولها في كثير من سوره، والشواهد القرآنية على ذلك كثيرة وفي مجالات شتى فمن نماذج وموارد الاستدلال على التوحيد قوله تعالى: (واذ قال ابراهيم لابيه آزر أتتخذ أصناما آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين * وكذلك نري ابراهيم ملكوت السماوات والارض وليكون من الموقنين * فلما جن

عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لا احب الافلين * فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لاكونن من القوم الضالين * فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا اكبر فلما أفلت قال يا قوم إني برئ مما تشركون * إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والارض حنيفا وما انا من المشركين * وحاجه قومه قال أتحاجوني في الله وقد هداني ولا أخاف ما تشركون به إلا ان يشاء ربي شيئا وسع ربي كل شئ علما أفلا تتذكرون * وكيف اخاف ما اشركتم ولا تخافون انكم اشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأي الفريقين أحق بالامن ان كنتم تعلمون * الذين

آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم اولئك لهم الامن وهم مهتدون * وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم * ووهبنا له اسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وايوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين) (١). وقوله تعالى: (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون) (٢). وقوله تعالى: (لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون * لا يسأل عما يفعل وهم يسألون * ام اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معي وذكر من قبلي، بل اكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون) (٣). وبصدد الاستدلال على نبوة محمد (صلى الله عليه وآله) وارتباط ما جاء به بالسماء: (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون * بل هو آيات بينات في صدور الذين اوتوا العلم وما يجحد بآياتنا الا الظالمون * وقالوا لولا انزل عليه

---

(١) الانعام: ٧٤ - ٨٣. (٢) المؤمنون: ٩١. (٣) الانبياء: ٢٢ - ٢٤. (*)

آيات من ربه قل انما الايات عند الله وانما ان نذير مبين * أو لم يكفهم انا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) (١). وبصدد الاستدلال على البعث والجزاء قوله تعالى: (ونزلنا من السماء ماء مباركا فانبتنا به جنات وحب الحصيد * والنخل باسقات لها طلع نضيد * رزقا للعباد واحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج... أفعيينا بالخلق الاول بل هم في لبس من خلق جديد) (٢). وقوله تعالى: (افحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون) (٣). وقوله تعالى: (أم حسب الذين اجترحوا السيئات ان نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون * وخلق الله السماوات والارض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون) (٤). وهكذا تتناول الادلة جوانب اخرى من العقيدة الاسلامية والمفاهيم العامة: بل إن القرآن الكريم تناول اكثر قصص الانبياء والمناقشات والادلة التي دارت بينهم وبين أقوامهم في القسم المكي من القرآن على ما سوف نعرف. الثاني: أنه لو تنازلنا عن ذلك فمن الممكن تفسير هذا الفرق على اساس مراعاة طبيعة موقف المواجهة من الدعوة، حيث كانت تواجه الدعوة في مكة مشركي العرب وعبدة الاصنام، والادلة التي كان يواجه القرآن بها هؤلاء أدلة وجدانية، من الممكن ان تستوعبها مداركهم ويقتضيها وضوح بطلان العقيدة الوثنية، والقرآن - كما عرفنا - انما هو كتاب هداية وتغيير وتزكية وليس كتابا

---

(١) العنكبوت: ٤٨ - ٥١. (٢) ق: ٩ - ١١ و ١٥. (٣) المؤمنون: ١١٥. (٤) الجاثية: ٢١، ٢٢. (*)

علميا فهو كان يواكب تطور الدعوة الاسلامية ومسيرتها في آياته ونزوله، وحين اختلفت طبيعة الموقف، وأصبحت الافكار المواجهة تمتاز بكثير من التعقيد والتزييف والانحراف - كما هو الحال في عقائد أهل الكتاب - اقتضى الموقف مواجهتها، باسلوب آخر من البرهان والدليل أكثر تعقيدا وتفصيلا (١). الفروق الحقيقية بين المكي

والمدني: ولم نجد في الشبهات التي تناولناها - ولا نجد في غيرها - ما يمكنه ان يصمد أمام النقد العلمي أو الدرس الموضوعي، ولكن مع كل ذلك يجدر بنا أن نقدم تفسيرا منطقيا لظاهرة الفرق بين القسم المكي والقسم المدني، وان كنا قد ألمحنا الى جانب من هذا التفسير عندما تناولنا الشبهات بالنقد والمناقشة. ويحسن بنا - قبل ذلك - ان نذكر الفروق الحقيقية التي امتاز بها المكي عن المدني سواء ما يتعلق بالاسلوب أو بالموضوع الذي تناوله القرآن، ثم نفسر هذه الفروق على اساس الفكرة التي أشرنا إليها في صدر البحث، والتي تقول: إن هذه الفروق كانت نتيجة لمراعاة ظروف الدعوة والاهداف التي تسعى الى تحقيقها، لان الهدف والغاية يلقيان - في كثير من الاحيان - بظلمهما على اسلوب العرض والمادة المعروضة. وتلخص هذه الفروق والخصائص التي يمتاز بها المكي عن المدني غالبا بالامور التالية (٢): ١ - ان القسم المكي عالج بشكل أساسي مبادئ الشرك والوثنية، وأسسها النفسية والفكرية، ومؤداها الاخلاقي والاجتماعي.

---

(١) للمزيد من التفصيل في عرض الشبهات ومناقشتها، راجع ما ذكره الزرقاني في " مناهل العرفان " ١: ١٩٩. (٢) سبق أن اشرنا الى هذه الميزات وغيرها عند البحث عن المكي والمدني. (*)

---

٢ - وقد اكد ما في الكون من بدائع الخلقة وعجائب التكوين، الامر الذي يشهد بوجود الخالق المدبر لها. كما أكد (عالم الغيب) و (البعث والجزاء) و (الوحي) و (النبوات) وشرح ما يرتبط بذلك من أدلة وبراهين، كما خاطب الوجدان الانساني وما أودعه الله فيه من عقل وحكمة وشعور. ٣ - والى جانب ذلك تحدث عن الاخلاق بمفاهيمها العامة، مع ملاحظة مصاديقها الخارجية والجانب التطبيقي منها في المجتمع وحذر من الانحراف، وذلك مثل الكفر والعصيان والجهل والعدوان والكبر وسفك الدماء ووأد البنات واستباحة الاعراض وأكل أموال اليتامى ونقص الموازين وقطيعة الارحام، الى غير ذلك من موارد الطغيان والهوى، وعرض الى جانب ذلك الوجه الصحيح للاخلاق، كالايمان بالله والطاعة له والعلم والعقل والمحبة والرحمة والعفو والصبر والاخلاص والعزم والارادة والشكر واحترام الاخرين وبر الوالدين واكرام الجار وطهارة القلب واللسان والصدق في المعاملة والتوكل على الله، وغير ذلك من موارد الخير والصلاح. ٤ - وقد تحدث عن قصص الانبياء والرسل والمواقف المختلفة التي كانوا يواجهونها من قبل أقوامهم وأممهم في معركة الايمان والكفر، وما يستنبط من ذلك من العبر والمواعظ. ٥ - انه سلك طريق الايقاع الصوتي والايجاز في الخطاب، سواء في الايات أو السور. ويكاد يكون المدني بخلاف ذلك في هذه الامور على الغالب، وان كان قد امتاز بالامور التالية: ١ - دعوة أهل الكتاب الى الاسلام مع مناقشتهم، وبيان انحرافهم عن العقيدة والمناهج الحقة التي أنزلت على انبيائهم.

---

٢ - بيان التفصيلات في التشريع، التي تتناول الفرد والجماعة ونظام الحكم، ومعالجة مشاكل العلاقات المختلفة في المجتمع الانساني، مثل علاقة الحاكم بالمحكوم وعلاقة المؤمنين ببعضهم وعلاقتهم مع اعدائهم الداخليين والخارجيين ومع المحايدين، والعلاقات الزوجية والدولية، والحرب والهدنة والمعاهدات وغيرها، وتحديد المواقف

السياسية والقانونية والاخلاقية منها. ٣ - تناول حركة النفاق في المجتمع الاسلامي وخلفياتها الاخلاقية والسياسية، وأهدافها وظواهرها والموقف السياسي منها. التفسير الصحيح للفرق بين المكي والمدني: وحين نريد أن ندرس ظاهرة الفرق بين المكي والمدني من خلال هذه الخصائص والميزات نجد: أولا: إن هذه الفروق لا تشكل حدا فاصلا بين هذين القسمين في القرآن الكريم، وانما هي طابع عام لكل من القسمين، وإلا فنحن نلاحظ ان كلا من القسمين تناول بعض أو كل الجوانب الاخرى للقسم الثاني بشكل أو بآخر انسجاما مع الاسلوب القرآني العام، الذي تميز بمزج الافكار والمفاهيم ليوجد منها هذا التركيب الفريد المؤثر في عملية التغيير كما أسلفنا. ثانيا: إن الدعوة الاسلامية بدأت في مكة وعاشت فيها ثلاث عشرة سنة، وهذه المدة منسوبة الى زمن نزول القرآن، تعتبر في الحقيقة مدة إرساء أسس القواعد والمفاهيم العامة عن العقيدة الالهية، أو عالم الغيب أو الاخلاق أو السنن والقوانين التأريخية التي تحكم مسيرة التأريخ والمجتمع الانساني. وسواء ما يتعلق بالجانب الايجابي من ذلك، كعرض مفاهيم الاسلام عن الكون والحياة والاخلاق والمجتمع، أو ما يتعلق بالجانب السلبي، كمناقشة الافكار الكافرة أو المنحرفة والباطلة التي كانت تسود المجتمع آنذاك.

وهذه الحقيقة تفرض - بطبيعة الحال ان - يكون القسم المكي مرتبطا - بمادته وموضوعاته - بالاسس والركائز للرسالة الجديدة، بحيث يكون أكثر شمولا واتساعا في تناوله لهذا الجانب من جانب آخر، وهذا هو الذي يفسر لنا أيضا غلبة المكي على المدني من الناحية الكمية، مع أن المدة المدنية تبدو - تأريخيا - وكأنها زاخرة بالاحداث الجسام، والمجتمع المدني أكثر تعقيدا ومشاكل، لان القرآن في القسم المدني لم يكن بحاجة كبيرة الى تناول تلك الاسس والركائز بعد ان كان قد تناولها في القسم المكي باستيعاب. ثالثا: إن عملية التغيير الاجتماعي كانت بحاجة - على أساس الفكرة التي أشرنا إليها في بداية هذا الفصل - الى ان تهتم بمراعاة الظروف وطبيعة المجتمع التي تتناوله عملية التغيير، وتركز على القضايا الفكرية والسياسية والاجتماعية، والامراض الاخلاقية التي يعيشها ذلك المجتمع، حتى يتحقق هذا التغيير بشكل مناسب. وبذلك يمكن تفسير الخصائص السابقة التي أشرنا إليها في الفرق بين المكي والمدني. فأما بالنسبة الى الخصيصة الاولى: نلاحظ أن المجتمع المكي كان مجتمعا يتسم بطابع الوثنية في الجانب العقيدي، فكان من الطبيعي تأكيد فكرة رفض الشرك والوثنية والدخول في مناقشة طويلة معها بالاساليب والطرق شتى. إضافة الى أن ايضاح الموقف تجاه العقيدة الوثنية يشكل نقطة أساسية في القاعدة للرسالة الجديدة، لانها تتبنى التوحيد الخالص اساسا لكل جوانبها وتفصيلاتها الاخرى. وبالنسبة الى الخصيصة الثانية: نلاحظ أن المجتمع المكي لم يكن يؤمن بفكرة الاله الواحد، كما لا يؤمن بعوالم الغيب والبعث والجزاء والوحي، وغير ذلك من شؤون عالم الغيب، والتأثير المتبادل بينه وبين عالم الطبيعة وحياة الانسان

الاجتماعية، وهذه الافكار من القواعد الاساسية للرسالة والعقيدة الاسلامية. إضافة الى أن مجتمع أهل الكتاب كان يؤمن بهذه الاصول جميعها مع بعض الاختلاف في تفصيلها، فكان من الضروري أن يؤكد القسم المكي تأسيس هذه الاصول وتوضيح المفاهيم العامة عنها، انسجاما مع طبيعة المرحلة المكية التي تعتبر مرحلة متقدمة، كما

ان بيانها في هذه المرحلة يجعل المرحلة الثانية المدنية في غنى عن بيانها مرة اخرى، وتكون الحاجة حينئذ الى تناول التفصيلات الاخرى التي هي محل الاختلاف مع أهل الكتاب. وبالنسبة الى الخصيصة الثالثة: فلعل تأكيد دور الاخلاق في القسم المكي دون المدني كان بسبب العوامل الثلاثة التالية: أ - إن الاخلاق تعتبر قاعدة النظام الاجتماعي في نظر الاسلام، إضافة الى أنها هدف رسالي في تغيير الانسان وتربيته وتكامله، فتأكيد دورها يعني - في الحقيقة - ارساء لقاعدة النظام الاجتماعي الذي يستهدفه القرآن، وتحقيقا للهدف في تربية الانسان ورقيه. ب - إن الدعوة كانت بحاجة - من اجل نجاحها - الى استثارة العواطف الانسانية الخيرة والفطرة السليمة، ليكون نفوذها في المجتمع وتأثيرها في الافراد عن طريق مخاطبة هذه العواطف، والاخلاق هي الاساس الحقيقي لكل هذه العواطف، وهي الرصيد الذي يمدها بالحياة والنمو. ج - إن المجتمع المدني كان يمارس الاخلاق من خلال التطبيق الذي كان يباشره الرسول محمد (صلى الله عليه وآله) بنفسه، من خلال موقعه في قمة المجتمع الاسلامي، وبذلك يكون القدوة الطبيعية لهذا المجتمع، أو من خلال تطبيقه لهذه الاخلاق عمليا في العلاقات الاجتماعية القائمة، بعد ان تكون المجتمع الاسلامي وقامت اركانه، فلم يكن بحاجة - بنفس الدرجة - الى تأكيد المفاهيم الاخلاقية، على

العكس من المجتمع المكي الذي كان يعيش فيه المسلمون حياة الاضطهاد، وكان المجتمع يمارس التطبيق فيه للاخلاق الجاهلية، حيث يكون المجتمع بحاجة الى التأكيد المفاهيمي للاخلاق. وبالنسبة للخصيصة الرابعة: نجد القصص تتناول - من حيث الموضوع - أكثر القضايا والنواحي التي عالجها القرآن الكريم، من العقيدة بالاله الواحد وعالم الغيب والوحي والاخلاق والبعث والجزاء، إضافة الى أنها تصور المراحل المتعددة للدعوة والمواقف المختلفة منها، والقوانين الاجتماعية والتأريخية التي تتحكم فيها وفي نتائجها، والمصير الذي يواجهه أعداؤها. والى جانب ذلك تعتبر القصة في القرآن أحد اسباب الاعجاز فيه، وأحد الادلة على ارتباطه بالسماء، كما سوف نتعرف على ذلك. وكل هذه الامور لها صلة وثيقة بالظروف التي كانت تمر بها الدعوة والرسالة الاسلامية في مكة، ولها تأثير كبير في تطويرها لصالح الدعوة واهدافها الرئيسة. ومع كل هذا لم يهمل القسم المدني القصة مطلقة، بل تناولها بالشكل الذي ينسجم مع طبيعة المرحلة التي تمر بها، كماسوف نتعرف على ذلك عند دراستنا للقصة. وبالنسبة الى الخصيصة الخامسة: فقد كان لها ارتباط وثيق بجوانب مرحلية واعجازية، لان المرحلة كانت تفرض كسر طوق الافكار الجاهلية، الذي كان مضروبا على المجتمع، فكان لهذا الاسلوب الصاعق الحاد تأثير فعال في تذليل الصعوبات، وتحطيم معنويات المقاومة المضادة العنيفة. وحين يتحدى القرآن الكريم العرب في أن يأتوا بسورة منه، يكون الايجاز في السورة أبلغ في ايضاح الاعجاز القرآني، واعمق تأثيرا وابعد مدى. وقد كانت المعركة - إضافة الى ذلك كله في أولها - معركة شعارات وتوطيد مفاهيم عامة عن الكون والحياة، والايجاز والقصر ينسجم مع واقع المعركة

واطارها، أكثر من الدخول في تفصيلات واسعة، ولهذا نشاهد السور القصيرة تمثل المرحلة الاولى تقريبا من مراحل القسم المكي. وهذه الابعاد لم تكن تتوفر في مجتمع المدينة بعد ان اصبح الاسلام هو الحاكم المسيطر على المجتمع، وبعد ان اصبحت مسألة الوحي

والاتصال بالسماء مسألة واضحة، وبعد ان جاء دور آخر للمعركة يفرض اسلوبا آخر في العرض والبيان. ومن هذا الدرس لخصائص ومميزات القسم المكي تتضح مبررات خصائص القسم المدني، من الدخول في تفصيلات الاحكام الشرعية والانظمة الاجتماعية، أو مناقشة أهل الكتاب في عقائدهم وانحرافاتهم، حيث فرضته ظروف الحكم في المدينة. وكذلك معالجة موقف المشركين، وقضية الجهاد والقتال معهم، واتخاذ المواقف السياسية والاجتماعية تجاههم. والحديث عن ظاهرة النفاق في المجتمع الاسلامي، وأسبابها والمواقف تجاهها، وتوضيح طبيعة العلاقات السياسية في المجتمع، وموقع ولي الامر فيها والحاجة الى تنظيم العلاقات بين الناس، كل ذلك يفرض الحاجة الى بيان هذه التفصيلات في التشريعات والانظمة. كما أن المعركة في المدينة انتقلت من الاصول والاسس العامة للعقيدة الى جوانب تفصيلية منها، ترتبط بحدودها واشكالها وبالعمل على تقويم الانحراف الذي وضعه أهل الكتاب فيها، والامراض التي يبتلى بها المجتمع في ظل الحكم الجديد، والضغوط التي يواجهها من قبل الانظمة الاخرى. وبهذا نفسر الفرق بين المكي والمدني، بالشكل الذي ينسجم مع فكرتنا عن الهدف الاصيل للقرآن، وفكرتنا عن مراعاته للظروف من اجل تحقيق أهدافه وغاياته.

ثبوت النص القرآني من البحوث القرآنية المهمة هذا البحث الذي نحن بصدده، لان نتيجة هذا البحث سوف تؤكد لنا سلامة المضمون في النص القرآني، وسلامة الاسس والمفاهيم والاحكام المذكورة فيه. والنكتة موضوع البحث هي مدى مطابقة هذا النص القرآني - المثبت في المصحف الشريف - للوحي الذي نزل على الرسول الاعظم (صلى الله عليه وآله) بوصفه كلاما إلهيا متعبدا بتلاوته، ومدى سلامة الطريقة التي وصلنا بها هذا النص، الامر الذي يجعله في منجاة عن التحريف والتشويه. وحين نريد أن نرجع الى تأريخ هذا البحث نجده من البحوث القرآنية التي تناولها الباحثون منذ العصور الاولى للبحث القرآني، خصوصا إذا نظرنا إليه من خلال النصوص والاحاديث التي تناولته. ولكن الاراء العلمية تكاد تتفق على نتيجة واحدة وهي قطعية التطابق بين النص القرآني المتداول والوحي الذي نزل على الرسول الاعظم (صلى الله عليه وآله) بعنوانه قرآنا. ومع كل هذا نجد أن خلافا نسب الى علماء الامامية وغيرهم في هذا الموضوع، حيث قيل عنهم: إنهم يقولون بتحريف القرآن الكريم. كما أن شبهة التحريف اصبحت فيما بعد مجال الاستغلال المتنوع للطعن في القرآن الكريم من قبل مختلف التيارات الكافرة التي واجهها المسلمون في

عصورهم القديمة والحديثة، وكانت آخرها محاولات التبشير التي قادها المستشرقون وغيرهم للتشكيك في سلامة النص القرآني. وعلى اساس كل من الخلافين نجد البحث حول هذه النقطة يواجه مسؤوليتين: الاولى: مسؤولية مناقشة هذه الشبهة وتحقيق فسادها وبطلانها على أساس الفرضية الاسلامية ومستلزماتها التي تعترف بالنصوص الدينية، القرآنية أو الصادرة من النبي (صلى الله عليه وآله) وأهل بيته الكرام (عليهم السلام). الثانية: مسؤولية مناقشة هذه الشبهة على أساس البحث الموضوعي وما تفرضه طبيعة الاشياء من نتائج دون الالتزام بالنصوص الدينية ومستلزمات الايمان ببعضها. والمواجهة الاولى قد تبدو أنها اسهل منالا ولكنها لا تحقق الغرض إلا تجاه الفرد المسلم الذي يؤمن بالاسلام ونصوصه

الدينية ورجاله الطيبين، الامر الذي يفرض علينا أن نعطي المواجهة الثانية حقها من الاهمية، لانها تحقق الغرض بشكل شامل وتقطع الطريق على الشبهة عند كل واحد من الناس، حتى لو كان غير مؤمن بشئ من الفرضية الاسلامية. ونكتفي هنا بأن نشير - بصدد المواجهة الاولى - الى أن الرأي السائد لدى علماء الامامية هو الالتزام بسلامة القرآن الكريم من التحريف، كما أن السيد الخوئي (قدس سره) قد تحدث بشكل تفصيلي وجيد عن الشبهة حين تناولها في الاطار الاسلامي، وانتهى الى الحق الذي لا شبهة فيه وهو سلامة النص القرآني من التحريف (١). لذا فسوف نخص بالبحث المواجهة الثانية، وندرس الشبهة على أساس موضوعي وبمقتضى ما تفرضه (طبيعة الاشياء) من نتائج.

---

(١) البيان في تفسير القرآن: ١٩٥ - ٢٣٥. (*)

تدوين القرآن في زمن النبي (صلى الله عليه وآله): إن (طبيعة الاشياء) تدل بشكل واضح على أن القرآن قد تم تدوينه في زمن النبي (صلى الله عليه وآله). ونقصد بطبيعة الاشياء: مجموع الظروف والخصائص الموضوعية والذاتية المسلمة واليقينية التي عاشها النبي والمسلمون والقرآن أو اختصوا بها، مما يجعلنا نقتنع بضرورة قيام النبي (صلى الله عليه وآله) بجمع القرآن في عهده، وهذه الظروف والخصائص هي ما يلي: أ - يعتبر القرآن الكريم الدستور الاساسي للامة الاسلامية وهو يشكل الزواية الرئيسة التي يقوم عليها كيان الامة العقيدي والتشريعي والثقافي الى جانب المناهج الاسلامية الاخرى عن المجتمع والاخلاق، كما انه يعتبر أتقن المصادر التأريخية لديها وأروع النصوص الادبية، ولم يكن المسلمون في صدر حياتهم الاجتماعية يملكون شيئا من القدرات الفكرية والثقافية في مختلف الميادين التي يخوضها الفكر الانساني غير القرآن الكريم، فالقرآن بالنسبة لهم بصفتهم امة حديثة يمثل المحتوى الروحي والفكري والاجتماعي لهم. فمثلا لم تكن الامة الاسلامية حينذاك تملك من الثقافة العقيدية ما تبني عليها إيمانها الراسخ بوحدانية الله سبحانه والكون والحياة، أو بانحراف أصحاب الديانات الاخرى في نظرتهم الى المبدأ والمعاد غير الادلة والبراهين القرآنية. والكلام ذاته يمكن ان يقال بالنسبة الى المجالات الاخرى، فكرية كانت أم روحية أم ثقافية. كل هذا يعطينا صورة بارزة عن الاهمية الذاتية التي يتمتع بها القرآن الكريم بالنسبة الى حياة المسلمين، ويحدد النظرة التي يحملها المسلمون - باعتبارهم امة - الى القرآن الكريم.

ب - لقد عكف المسلمون - منذ البدء - على حفظ القرآن واستظهاره، انطلاقا من نظرتهم الى القرآن الكريم، وشعورا بالاهمية التي يحتلها في حياتهم الاجتماعية ومركزه من الدور الذي ينتظرهم في الحياة الانسانية. وقد تكونت نتيجة هذا الاقبال المتزايد منهم على حفظه واستظهاره جماعة كبيرة، عرفت بحفظها القرآن الكريم واستظهارها لنصه بشكل مضبوط. ولكن السؤال عن كفاية هذه الوسيلة في جعل القرآن بمأمن عن التحريف والتزوير نتيجة للخطأ والاشتباه، أو تعرضهم لظروف وعوامل اخرى تمنعهم عن القيام بدورهم في حفظ النص القرآني من هذه الاخطار. إن الصحابة الذين

عرفوا بحفظ القرآن مهما بلغوا من الورع والتقوى والامانة والاخلاص فهم لا يخرجون عن كونهم اشخاصا عاديين يعتورهم الخطأ والنسيان، كما أن ظرفهم التأريخي وطبيعة المسؤولية الملقاة على عاتقهم كانت تعرضهم للاستشهاد والقتل، والانتشار في الاقطار الاسلامية بغية الدعوة لله سبحانه، وكل هذه الامور التي كانت متوقعة تصبح خطرا على النص القرآني، إذا ترك مرتبطا في حفظه بهذه الوسيلة ومرتهنا بهذا الاسلوب. ويكفينا في تحقق هذا الخطر على النص القرآني أن يقع بعض الصحابة البعيدين عن المدينة المنورة في اشتباه معين في النص القرآني، ليقع الاختلاف بعد ذلك حينما يفقد المسلمون المرجع الاصيل لضبط النص. ونحن هنا لا نريد ان نقول: إن هذا الشئ قد تحقق فعلا، وأن المسلمين قد وقعوا في هذا الاختلاف والخطأ، ولكن لا نريد أن نؤكد أن هذا الامر كان خطرا ماثلا يمكن أن يقع فيه المسلمون في بعض الظروف. ج - وقد كان الرسول (صلى الله عليه وآله) يعيش مع الامة في آمالها وآلامها، مدركا لحاجاتها وواعيا للمسؤولية العظيمة التي تفرضها طبيعة الظروف المحيطة بتكوينها

و (الاخطار) التي تتهددها. وهذا الادراك والوعي يكشف عنه الدور العظيم الذي قام به النبي منذ البعثة حتى وفاته عليه الصلاة والسلام، فقد عاش حياة الاضطهاد والضغط اللذين كانا وليدي قيامه بالدعوة الى الله سبحانه وعمله على تغيير الامة، وقلب واقعها الفكري والسياسي والاجتماعي، ومثل هذا الدور يحتاج الى مهارة عظيمة وإدراك دقيق لواقع المجتمع، وتقدير للاثار والنتائج مع فهم للنفس البشرية وما تنطوي عليه من خير وشر. ثم عاش حياة القيادة وسياسة الامة وادارة شؤونها في أصعب الظروف التأريخية، حيث انشاء الدولة وتوطيد التشريع والنظام في مجتمع كان لا يعرف - الا لونا باهتا - عن كل ما يمت الى المجتمعات البشرية المنظمة بصلة، كما كان يؤمن بمفاهيم وافكار بعيدة عن المفاهيم والافكار الجديدة التي جاء بها الاسلام فمارس الحرب والجهاد، وبلى المكر والخداع والنفاق والارتداد، الى غير ذلك من الاساليب والظروف المختلفة في ابعادها وآثارها. وكان النبي (صلى الله عليه وآله) أيضا على معرفة بتأريخ الرسالات الالهية ونهايتها على يد المزورين والمحرفين وتجار الدين، كما يصرح بذلك القرآن الكريم وينعى على أهل الكتاب هذا التحريف والتزوير. فالانسان الذي يكون قد خبر الحياة الانسانية بهذا الشكل، وحمل اعباء الرسالة والدعوة وقاد الانسان في مجاهل الظلام، حتى اورده مناهل النور والحق لا يمكن ان نشك في ادراكه لمدى ما يمكن ان يتعرض له النص القرآني من (خطر) حينما يربط مصيره بالحفظ والاستظهار في صدور الرجال. د - ان امكانات التدوين والتسجيل كانت متوفرة لدى الرسول (صلى الله عليه وآله) حيث لا تعني هذه الامكانات حينئذ الا وجود اشخاص قادرين على الكتابة يتوفر فيهم الاخلاص في العمل الى جانب توفر ادوات الكتابة، وليس هناك من يشك

تأريخيا في تمكن المسلمين من كل ذلك. هـ - ولا بد ان نعترف بوجود عنصر الاخلاص للقرآن الكريم واهدافه، إذ لا يمكن ان نجد من يشك في توفر ذلك لدى النبي (صلى الله عليه وآله) مهما بلغ ذلك الشخص من التطرف في الشك والتفكير. لان النبي (صلى الله عليه وآله) حتى على أسوأ التقادير والفروض التي يفرضها الكافرون برسالته والمنكرون لنبوته لا يمكن إلا ان يكون مخلصا للقرآن الكريم

لانه يؤمن بأن القرآن معجزته وبرهان دعوته الذي به تحدى المشركين وهو على هذا الايمان بالقرآن لا بد وان يحرص على حفظه وصيانته ويكون مخلصا في ذلك أبعد الاخلاص. وهذه العناصر الخمسة: (أهمية القرآن الكريم، والخطر في تعرضه للتحريف بدون التدوين وادراك النبي (صلى الله عليه وآله) لهذا الخطر، ووجود امكانات التدوين، وحرص النبي (صلى الله عليه وآله) على القرآن والاخلاص له) هي التي تكون اليقين بأن القرآن الكريم قد تم جمعه وتدوينه في زمن الرسول (صلى الله عليه وآله)، لان اهمية القرآن الذاتية، مع وجود الخطر عليه، والشعور بهذا الخطر، وتوفر ادوات التدوين والكتابة، ثم الاخلاص للقرآن حين تجتمع لا يبقى مجال للشك بتدوين القرآن في عهد رسول الله وكتابته في زمانه. الشبهة حول طبيعة الاشياء: وليس عندنا في مقابل دلالة طبيعة الاشياء على هذه الحقيقة غير الروايات التي جاءت تذكر أن القرآن الكريم قد جمع في عهد أبي بكر، حيث جمع القرآن من العسب والرقاق واللخاف ومن صدور الناس بشرط ان يشهد شاهدان على انه من القرآن، كما جاء ذلك في قصة جمع القرآن المروية عن زيد بن ثابت (١) أو غيرها من النصوص التي تتحدث عن هذا الامر بطريقة اخرى.

---

(١) البخاري، باب جمع القرآن ٦: ٨٩. (*)

والواقع ان النصوص والروايات التي جاءت تتحدث عن قصة الجمع ليست متفقة على صيغة واحدة ولا على مضمون واحد، فهي تنسب الجمع الى اشخاص مختلفين، كما انها تختلف في زمان الجمع وطريقته والعهد الذي تم فيه (١). وهي من اجل ذلك كله لا يمكن الاخذ بمضمونها الفعلي للتعارض الذي يسقطها عن الاعتبار والحجية - كما ذكر علماء الاصول - وانما يمكن ان نفسر وجودها بأحد تفسيرين: الاول: أن هذه الروايات جاءت بصدد الحديث عن جمع القرآن بشكل (مصحف) منتظم الاوراق والصفحات، الامر الذي تم في عهد الصحابة، وليست بصدد الحديث عن عملية اصل تدوين وجمع القرآن بمعنى كتابته عن بعض الاوراق المتفرقة أو صدور الرجال كما تشير إليه بعض هذه الاحاديث. وهذا التفسير يقوم على اساس فرض الالتزام بصحة المضمون الاجمالي الذي تؤكده الروايات بأكملها وهو حدوث عملية جمع للقرآن الكريم بعد النبي (صلى الله عليه وآله). الثاني: أن هذه الروايات انما هي قصص وضعت في عهود متأخرة عن عهد الصحابة لاشباع رغبة عامة لدى المسلمين في معرفة كيفية جمع القرآن. ونحن نعرف من دراستنا للتأريخ الاسلامي أن حركة أدبية واسعة ظهرت في التأريخ الاسلامي لتفسير الوقائع والاحداث التي عاشها المسلمون في الصدر الاول على شكل قصة تتسم بالحيوية والبراعة والاثارة، بل امتد ذلك الى الاحداث الجاهلية، والقصة حين بدأت فإنما بدأت تعيش الاطار الديني وكان ذلك في اواخر عهد الصحابة وتطورت في عهد التابعين ونمت في عصور متأخرة واعتمدت بشكل رئيس على الاسرائيليات وعلى الوضع والخيال الذي يحاول ان يحقق اغراضا اجتماعية أو سياسية أو نفسية أو ثقافية معينة.

---

(١) السيد الخوئي، البيان في تفسير القرآن: ٢٤٧ - ٢٤٩. (*)

وهذه الحركة القصصية ليست بدعا في التأريخ الاسلامي فحسب بل هي رغبة عامة عاشت في مختلف العصور التأريخية القديمة منها والحديثة، وما زلنا نشاهد القصة التي تعتمد على احداث ووقائع حقيقية وتختلط بصور وتفاصيل خيالية وتستمد مقوماتها واتجاهاتها واغراضها من الواقع الاجتماعي المعاش. ونحن وإن كنا نرغب أن نتجه في تفسير هذه الاحاديث الى الطريقة الاولى، ولكن لا نجد مانعا من طرح هذا التفسير الاخر كأساس للدراسة الموضوعية المفصلة لهذه الاحاديث وغيرها. وإضافة الى ذلك كله نجد نصوصا اخرى تصرح بأن القرآن الكريم قد تم جمعه في زمن الرسول (صلى الله عليه وآله) بحيث تصلح ان تقف في مواجهة هذه النصوص (١). ومن هذه النصوص ما رواه جماعة من المحدثين والحفاظ منهم ابن أبي شيبة، واحمد بن حنبل، والترمذي، والنسائي، وابن حبان، والحاكم، والبيهقي، والضياء المقدسي، عن ابن عباس، قال: " قلت لعثمان بن عفان: ما حملكم على ان عمدتم الى الانفال وهي من المثاني، والى براءة وهي من المئين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر: (بسم الله الرحمن الرحيم) ؟ ووضعتموهما في السبع الطوال، ما حملكم على ذلك ؟ فقال عثمان: إن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كان مما يأتي عليه الزمان ينزل عليه السورة ذات العدد، وكان إذا نزل عليه الشئ يدعو بعض من يكتب عنده فيقول: ضعوا هذا في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، وكانت الانفال من اول ما انزل بالمدينة، وكانت براءة من آخر القرآن نزولا وكانت قصتها شبيهة بقصتها، فظننت أنها منها، وقبض رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ولم يبين لنا أنها منها، فمن اجل ذلك قرنت بينهما، ولم اكتب بينهما سطر (بسم الله الرحمن الرحيم) ووضعتها

---

(١) راجع البيان: ٢٥٠ - ٢٥٢. (*)

في السبع الطوال " (١). وروى الطبري، وابن عساكر عن الشعبي، قال: " جمع القرآن على عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ستة نفر من الانصار: ابي بن كعب، وزيد ابن ثابت، ومعاذ بن جبل، وابو الدرداء، وسعيد بن عبيد، وأبو زيد، وكان مجمع ابن جارية قد اخذه إلا سورتين أو ثلاثا " (٢). وروى قتادة قال: " سألت أنس بن مالك: من جمع القرآن على عهد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ؟ قال: اربعة كلهم من الانصار: ابي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد " (٣). وروى مسروق: ذكر عبد الله بن عمر وعبد الله بن مسعود، فقال: " لا ازال احبه، سمعت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول خذوا القرآن من اربعة: من عبد الله بن مسعود، وسالم، ومعاذ، وابي بن كعب " (٤). وأخرج النسائي بسند صحيح، عن عبد الله بن عمر، قال: " جمعت القرآن فقرأت به كل ليلة، فبلغ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: اقرأه من شهر... " (٥). ولا بد ان يكون المراد من (الجمع) في هذه الروايات (التدوين) إلا فلا يعقل أن يكون عدد الحفاظ هذا العدد المحدود. إذن فمن الضروري ان نلتزم بأن القرآن الكريم قد تم جمعه وتدوينه زمن رسول الله (صلى الله عليه وآله) بشكل كامل متقن يمنع من تسرب التشويه والتزوير إليه.

---

(١) منتخب كنز العمال ٢: ٤٨. (٢) كنز العمال ٢: ٥٨٩. (٣) صحيح البخاري - باب القراء من أصحاب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ٦: ٢٠٢. (٤) المصدر السابق. (٥) الاتقان، النوع ٢٠ / ١: ١٢٤. (*)

تحريف القرآن: لا شك أن القرآن الكريم أصبح معروفا ومتداولا بشكل واسع ومدونا بشكل مضبوط بعد عهد الخليفة عثمان، حيث تمت كتابة مجموعة من نسخ المصحف الشريف، وأرسل الى الافاق الاسلامية بشكل رسمي من أجل العمل بها وتداولها، حيث اصدرت الاوامر الواضحة والمشددة بالمنع من تداول اي نسخة اخرى غير هذه النسخ. ولا بد لنا من اجل إيضاح سلامة النص القرآني من التحريف ان نذكر الحالات التي يمكن ان نفترض وقوع التحريف فيها، مع مناقشة كل واحدة منها: ١ - ان يقع التحريف في عهد الشيخين بصورة عفوية دون قصد حذف شئ من القرآن، وذلك بسبب الغفلة عن بعض الايات أو عدم وصولها الى ايديهم، كما تفرضه قصة جمع القرآن الكريم التي رواها البخاري. ٢ - ان يقع التحريف في عهد الشيخين مع فرض الاصرار منهما عليه بشكل مسبق ومدروس. ٣ - ان يقع التحريف في عهد الخليفة عثمان. ٤ - ان يقع التحريف في عهد الامويين، كما نسب ذلك الى الحجاج بن يوسف الثقفي. وهناك حالة خامسة لا مجال أن تتصور وقوع التحريف فيها، وهي أن نفرض وقوعه من قبل بعض أفراد الرعية من الناس، لان هؤلاء لا قدرة لهم على مثل هذا العمل مع وجود السلطة الدينية التي تعرف القرآن الكريم وتحميه من التلاعب، والتي هي المرجع الرسمي لتعيين آياته وكلماته لدى الناس. أما الحالة الاولى: فيمكن ان تناقش من ناحيتين: أ - النتيجة السابقة التي توصلنا إليها في دراستنا لتأريخ جمع القرآن وهي: أن

أصل عملية الجمع والتدوين تمت في زمن النبي (صلى الله عليه وآله) وحينئذ فان القرآن الذي تم جمعه في عهد الرسول الاعظم (صلى الله عليه وآله) لا يمكن أن يكون إلا دقيقا ومتقنا لرعاية الرسول لجمعه، ومع وجود هذا القرآن لا مجال لان نتصور وقوع الغفلة أو الاشتباه من الشيخين أو من غيرهما، كما لا يمكن ان نحتمل عدم وصول بعض الايات إليهم. ب - توفر عوامل عديدة لوجود القرآن الكريم بأكمله لدى جماعة كبيرة من المسلمين، وهذا يشكل ضمانة حقيقية لوصول القرآن الكريم بكامله الى الدولة في عهد الشيخين دون نقيصة، وهذه العوامل يمكن أن نلخصها بالاسباب التالية: ١ - إن القرآن الكريم يعتبر من أروع النصوص الادبية وأبلغها تعبيرا ومضمونا، وقد كان العرب ذوي اهتمام بالغ بهذه النصوص، لانها تكون ثقافتهم الخاصة سواء في الناحية التعبيرية أو في الناحية الفكرية والاجتماعية، ونجد آثار هذا الاهتمام ينعكس على حياتهم الخاصة والعامة، فيحفظون الشعر العربي والنصوص الادبية الاخرى ويستظهرونها، ويعقدون الندوات والاسواق للمباراة والتنافس في هذه المجالات، وقد يصل بهم الاهتمام الى درجة الاحتفاظ ببعض النصوص في أماكن مقدسة تعبيرا عن التقدير والاعجاب بهذا النص، كما يذكر ذلك بالنسبة الى المعلقات السبع أو العشر في الكعبة الشريفة. وقد دفعت هذه العادة الشائعة بين العرب المسلمين - حينذاك - كثيرا منهم الى لفظ القرآن الكريم واستظهاره. ٢ - إن القرآن الكريم كان يشكل بالنسبة الى المسلمين حجر الزاوية الرئيسة في ثقافتهم وافكارهم وعقيدتهم، وقد تعرفنا على ذلك في النقطة الاولى من طبيعة الاشياء التي سقناها لابراز مدى اهتمام

المسلمين بالقرآن. وكما أن هذا الامر دفع النبي (صلى الله عليه وآله) لتدوين القرآن الكريم لحفظه من الضياع،

كذلك دفع المسلمين الى استظهار القرآن الكريم وحفظه بدافع الاحتفاظ بأفكاره وثقافته ومفاهيمه والتعرف على السنن والتشريعات الاسلامية التي تضمنها. ٣ - إن القرآن الكريم - على اساس ما يحتويه من ثقافة - كان يعطي الجامع له امتيازا اجتماعيا بين الناس، يشبه الامتياز الذي يحصل عليه العلماء من الناس في عصرنا الحاضر. وتعتبر هذه الميزة الاجتماعية احدى العوامل المهمة لتدارس العلوم وتحصيلها في جميع العصور الانسانية، فمن الطبيعي أن تكون احدى العناصر المؤثرة في استظهار القرآن الكريم وحفظه. وقد حدثنا التأريخ عن الدور الذي كان يتمتع به القراء في المجتمع الاسلامي بشكل عام، وعن القداسة التي كان ينظر إليهم بها المسلمون. ٤ - لقد كان النبي (صلى الله عليه وآله) رائدا للامة الاسلامية وموجها لها يحرض المسلمين ويحثهم على حفظ القرآن واستظهاره. ونحن نعرف ما كان يتمتع به النبي (صلى الله عليه وآله) من حب عظيم في نفوس كثير من المسلمين، وما كان يملكه من قدرة على التأثير في حياتهم وسلوكهم، الامر الذي كان يدفع المسلمين الى الاستجابة له في كثير من التوجيهات، دون الالتفات الى مدى لزومها الشرعي. ٥ - الثواب الجزيل الذي وضعه الله سبحانه لقراء القرآن وحفظته ورغبة كثير من المسلمين حينذاك في الاستزادة من هذا الثواب، خصوصا أنهم كانوا جديدي عهد بالاسلام، فهم يحاولون أن ينعكس الاسلام على جميع تصرفاتهم. وقد كان لبعض هذه العوامل أو جميعها تأثير بالغ الاهمية في حياة المسلمين، حيث حدثنا التأريخ الاسلامي عن وجود جماعات كثيرة من المسلمين عرفوا بالقراء من ذوي العقيدة الصلدة، كان لهم دورهم في الحياة الاجتماعية وميزتهم في

ترجيح جانب على آخر عند الخلافات السياسية التي عاشها المسلمون. ٦ - وإضافة الى ذلك تفرض طبيعة الاشياء أن يكون قد دون القرآن الكريم وكتبه كل مسلم عنده القدرة على التدوين والكتابة، لان اي جماعة أو امة تهتم بشئ وترى فيه معبرا عن جانب كبير من جوانب حياتها فهي تعمل على فظه بوسائل شتى، ولا شك ان الكتابة - عند من يتقنها - من ايسر هذه الوسائل وأسهلها. ولذلك نجد بعض النصوص تشير الى وجود عدد من المصاحف أو قطعات مختلفة منه عند كثير من الصحابة. ولا بد لنا ان ننتهي الى أن القرآن الكريم بسبب هذه العوامل كان موجودا في متناول الصحابة، ولم يكن من المعقول فرض التحريف نتيجة الغفلة أو الاشتباه أو عدم وصول بعض الايات القرآنية. واما الحالة الثانية: فهي فرضية غير صادقة اطلاقا، لان دراسة عهد الشيخين والظروف المحيطة بهما تجعلنا ننتهي الى هذا الحكم وتكذيب هذه الفرضية. ذلك لان التحريف المتعمد يمكن ان يكون لاحد السببين التاليين: أولا: أن يكون بسبب رغبة شخصية في التحريف. ثانيا: أن يكون بدافع تحقيق اهداف سياسية، كأن يفرض وجود آيات قرآنية تنص على موضوعات ومفاهيم خاصة تتنافى مع وجودهما أو متبنياتهما السياسية مثل النص على علي (عليه السلام) أو الطعن بهما. اما بالنسبة الى السبب الاول، فنلاحظ عدة امور: ١ - إن قيام الشيخين بذلك يعني في الحقيقة نسف القاعدة التي يقوم عليها الحكم

حينذاك، حيث إنه يقوم على اساس الخلافة لرسول الله والقيمومة على

الامة الاسلامية وليس من المعقول ان يقدما على تحريف القرآن ويعملا على معاداة الاسلام دون تحقيق اي مكسب ديني أو دنيوي، وهل يعني ذلك الا فتح الطريق امام المعارضة التي كانت موجودة لتشن هجوما مركزا يملك أقوى الاسلحة التي يمكن استخدامها حينذاك ؟ ! ٢ - إن الامة الاسلامية كانت تشكل حينذاك ضمانة اجتماعية وسياسية قوية تمنع قيام احد من الناس مهما كان يملك من قدرة وقوة بمثل هذه العمل المضاد للاسلام دون ان يكون لهذا العمل رد فعل قوي في صفوفها، لان المسلمين كانوا ينظرون الى القرآن الكريم على أنه شئ مقدس غاية التقديس، وأ نه كلام الله سبحانه الذي لا يقبل اي تغيير أو تبديل حتى من قبل الرسول نفسه كما اكد ذلك القرآن الكريم (١). كما أنهم ناضلوا وجاهدوا في سبيل مفاهيم القرآن وآياته واحكامه التي كانت تعايش حركتهم لمدة ثلاثة وعشرين عاما، وضحوا بأنفسهم من أجل هذا الدين الجديد الذي كان يشكل التصرف في القرآن - في نظرهم - خروجا عنه وارتدادا عن الالتزام به. ٣ - إن الحكم في عهد الشيخين لم يسلم من وجود المعارضة التي كانت ترفع اصواتها احيانا من أجل خطأ يقع فيه الخليفة في تطبيق بعض الاحكام، ومع هذا لا نجد في التأريخ أية اشارة الى الاحتجاج أو ما يشبه الاحتجاج مما يشير الى وقوع هذه الفرضية، فكيف يمكن أن تسكت المعارضة في كلامها وأقوالها زمن الشيخين أو بعدهم عن كل ذلك ؟ ! ومن هنا يتضح موقفنا من السبب الثاني: فأولا: إن وعي الامة ونظرتها المقدسة للكتاب وصلته بالله بشكل لا يقبل التغيير والتبديل لا يسمح بوقوع مثل هذا العمل مطلقا.

---

(١) (... قل ما يكون لي ان ابدله من تلقاء نفسي ان اتبع إلا ما يوحى إلي...) يونس: ١٥. (*)

ثانيا: إن المعارضة لا يمكن أن تترك هذه الفرصة تمر دون أن تستغلها في صراعها مع العهد والخليفة، مع اننا لا نجد اشارة الى ذلك في كلامهم. ثالثا: إن هناك نصوصا سياسية واسعة تضمنت ملاحظات حول تصرفات الخليفة ابي بكر وعمر، مثل المناقشة السياسية التي شنتها الزهراء (عليها السلام) ومن بعدها أمير المؤمنين (عليه السلام) وجماعته المؤمنون بامامته لم تتناول أي نص قرآني غير مدون في القرآن الكريم الموجود بين أيدينا، ولو كان مثل هذا النص موجودا في القرآن لكان من الطبيعي ان يستعملوه أداة لكسب المعركة الى جانبهم وإظهار الحق الذي ناضلوا من اجله. واما الحالة الثالثة: فهي تبدو أكثر استحالة وبعدا عن الحقيقة التأريخية من سابقتيها، وذلك للاسباب التالية: أولا: إن الاسلام - والى جنبه القرآن الكريم - قد اصبح منتشرا بشكل كبير بين الناس وفي آفاق مختلفة، وقد مر على المسلمين زمن كبير يتداولونه أو يتدارسونه، فلم يكن في ميسور عثمان - لو اراد ان يفعل ذلك - ان ينقص منه شيئا، بل ولم يكن ذلك في ميسور من هو اعظم شأنا من عثمان، وقد اعترض المسلمون بالفعل على عثمان وقتلوه لاسباب مختلفة. ثانيا: إن النقص إما أن يكون في آيات لا مساس فيها بخلافة عثمان،

وحينئذ فلا يوجد اي داع لعثمان ان يفتح ثغرة كبيرة في كيانه السياسي، وإ ما أن يكون في آيات تمس خلافة عثمان وامامته السياسية، فقد كان من المفروض ان تؤثر مثل هذه الايات في خلافة عثمان نفسه، فتقطع الطريق عليه في الوصول الى الخلافة.
ثالثا: إن الخليفة عثمان لو كان قد حرف القرآن الكريم لاتخذ المسلمون ذلك أفضل وسيلة لتبرير الثورة عليه واقصائه عن الحكم أو قتله، مع أننا لا نجد في مبررات الثورة على عثمان شيئا من هذا القبيل، ولما كانوا في حاجة للتذرع في

سبيل ذلك بوسائل وحجج اخرى ليست من الوضوح بهذا القدر. رابعا: إن الخليفة عثمان لو كان قد ارتكب مثل هذا العمل لكان موقف الامام علي (عليه السلام) تجاهه واضحا، ولاصر على ارجاع الحق الى نصابه في هذا الشأن، فنحن حين نجد الامام عليا (عليه السلام) يأبى إلا ان يرجع الاموال التي اعطاها عثمان الى بعض اقربائه وخاصته ويقول بشأن ذلك: " والله لو وجدته قد تزوج به النساء وملك به الاماء لرددته، فإن في العدل سعة، ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق " (١). وكذلك نجد منه نفس الموقف الحازم مع ولاة عثمان المنحرفين، فلا بد ان نجزم باستحالة سكوته عن مثل هذا الامر العظيم على فرض وقوعه. ومن هذه المناقشة التفصيلية للحالات الثلاث السابقة يتضح موقفنا من الحالة الرابعة، فان الحجاج بن يوسف الثقفي أو غيره من الولاة لا يمكن ان نتصور فيهم القدرة على تحريف القرآن الكريم بعد أن عم شرق الارض وغربها. كما لا نجد المبرر الذي يدعو الحجاج أو الامويين الى مثل هذا العمل الذي يحمل في طياته الخطر العظيم على مصالحهم ويقضي على آمالهم.
جمع القرآن على عهد النبي (صلى الله عليه وآله): جمع القرآن له معنيان: احدهما: حفظه في الصدور على سبيل الاستيعاب لجميع آياته، ومنها قولنا جماع القرآن اي حفاظه. والمعنى الاخر لجمعه: كتابته وتسجيله في أوراق بشكل كامل. فاما جمع القرآن بمعنى حفظه في القلب واستظهاره فقد اوتيه رسول الله قبل الجميع، فكان (صلى الله عليه وآله) سيد الحفاظ واول الجماع كما كان يرغب المسلمين باستمرار في

---

(١) شرح نهج البلاغة ١: ٢٦٩ فيما رده على المسلمين من قطائع عثمان. (*)

حفظ القرآن وتدارسه واستظهاره، ويدفع كل مهاجر جديد الى احد الحفاظ من الصحابة ليعلمه القرآن، ويستعمل مختلف اساليب التشجيع لتعميم حفظ القرآن وإشاعة تلاوته، حتى اصبح مسجد الرسول (صلى الله عليه وآله) عامرا بتلاوة القرآن يضج باصوات القراء، فأمرهم النبي (صلى الله عليه وآله) ان يخفظوا اصواتهم لئلا يتغالطوا. فعن عبادة بن الصامت: " كان الرجل إذا هاجر دفعه النبي (صلى الله عليه وآله) الى رجل منا يعلمه القرآن، وكان يسمع لمسجد رسول الله (صلى الله عليه وآله) ضجة بتلاوة القرآن، حتى امرهم رسول الله (صلى الله عليه وآله) ان يخفضوا اصواتهم لئلا يتغالطوا " (١). وشاعت قراءة القرآن في كل مكان في المجتمع الاسلامي، وافتتن المسلمون بتلاوته وشغفوا بقراءته والاستماع إليه، وكان همهم الذي ملك عليهم قلوبهم، حتى روي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنه قال: " اني لاعرف اصوات رفقة

الاشعريين حين يدخلون بالليل واعرف منازلهم من اصواتهم بالقرآن بالليل، وان كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار " (٢). وكان تدارس القرآن واستظهاره رائجا بين الرجال والنساء. أما جمعه بمعنى كتابته وتسجيله فقد عرفنا في بحث ثبوت النص القرآني ان القرآن الكريم قد تم جمعه زمن الرسول الاعظم (صلى الله عليه وآله)، ولكن الرأي السائد في ابحاث علوم القرآن أن جمعه قد تم في عهد الشيخين، وقد عرفنا أنه يمكن التوفيق بين الرأيين في أن اصل الجمع تم في عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله) وجمعه على شكل مصحف منتظم الاوراق فهو مما تم في عهد الشيخين، وقد عرفنا أيضا سلامة النص القرآني من دون فرق بين الفرضية الاولى والثانية واشرنا الى بعض الشبهات التي اثيرت حول الجمع بناء على الفرضية الثانية وناقشناها.

---

(١) البيان لاية الله السيد الخوئي، ح ٢٥٥ نقلا عن مناهل العرفان: ٣٢٤. (٢) كنز العمال ١٢: ٥٦، الاشعريون. (*)

شبهتان حول الجمع في عهد الشيخين ومناقشتهما: وهناك بعض الشبهات الاخرى (١) تثار حول فرضية الجمع في عهد الشيخين أيضا نذكر منهما الشبهتين التاليتين. ولعل من الجدير بالذكر أن هاتين الشبهتين قد اثيرتا في الابحاث الاسلامية كما اثيرت في ابحاث المستشرقين ومقلديهم من الباحثين. الشبهة الاولى: إن بعض النصوص التأريخية المروية عن أهل البيت (عليهم السلام) وغيرهم تذكر وجود مصحف خاص لعلي بن ابي طالب (عليه السلام) يختلف عن المصحف الموجود المتداول بين المسلمين في الوقت الحاضر. ويشتمل هذا المصحف على زيادات وموضوعات ليست موجودة في المصحف المعروف. وتتحدث هذه النصوص عن مجئ علي بن ابي طالب (عليه السلام) بهذا المصحف الى الخليفة الاول ابي بكر، بقصد أن يأخذ المصحف المذكور مكانه من التنفيذ بين المسلمين، ولكن ابا بكر لم يقبل ذلك ورفض هذا المصحف. ولما كان علي بن ابي طالب أفضل الصحابة علما ودينا والتزاما بالاسلام وحفاظا عليه فمن الواضح حينئذ أن يكون المصحف الموجود فعلا قد دخل عليه التحريف والنقصان، نتيجة للطريقة الخاطئة التي اتبعت في جمعه والتي عرفنا بعض تفاصيلها. ومن اجل إيضاح هذه الشبهة يورد أنصارها بعض هذه النصوص التأريخية وهي: ١ - النص الذي جاء في احتجاج علي (عليه السلام) على جماعة من المهاجرين والانصار: فقال له علي (عليه السلام) يا طلحة ان كل آية أنزلها الله - جل وعلا - على محمد

---

(١) اعتمدنا بصورة رئيسة في هذ البحث على ما كتبه استاذنا الكبير آية الله السيد الخوئي (قدس سره) في البيان: ٢٢٢ - ٢٣٤. (*)

عندي باملاء رسول الله وخط يدي، وتأويل كل آية أنزلها الله على محمد وكل حرام وحلال أو حد أو حكم أو شئ تحتاج إليه الامة الى يوم القيامة مكتوب بإملاء رسول الله (صلى الله عليه وآله) وخط يدي حتى ارش الخدش (١). ٢ - النص الذي يتحدث عن احتجاج علي (عليه السلام) على الزنديق، والذي جاء فيه: أنه اتى بالكتاب على

الملا مشتملا على التأويل والتنزيل والمحكم والمتشابه والناسخ والمنسوخ، لم يسقط منه حرف الف ولا لام فلم يقبلوا منه (٢). ٣ - النص الذي رواه محمد بن يعقوب الكليني في الكافي عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) أنه قال: ما يستطيع احد أن يدعي أن عنده جميع القرآن كله، ظاهره وباطنه غير الاوصياء (٣). ٤ - النص الذي رواه محمد بن يعقوب الكليني أيضا في الكافي عن الباقر (عليه السلام) أنه: ما ادعى احد من الناس أنه جمع القرآن كله كما انزل إلا كذاب، وما جمعه وحفظه كما نزله الله تعالى إلا علي بن ابي طالب (عليه السلام) والائمة من بعده (عليهم السلام). وتناقش هذه الشبهة: أنه قد يفترض وجود مصحف لعلي (عليه السلام) يختلف مع المصحف الموجود فعلا من حيث الترتيب، بل قد يختلف عنه أيضا لوجود اضافات اخرى فيه. ولكن الكلام في حقيقة هذه الزيادة، إذ لا دليل على أنها زيادات قرآنية، وانما تفسير هذه الزيادات على أنها تأويلات للنص القرآني، بمعنى ما يؤول إليه الشئ أو أنها تنزيلات من الوحي الالهي نزلت على صدر رسول الله (صلى الله عليه وآله) في تفسير وشرح القرآن وعلمها اخاه علي بن ابي طالب (عليه السلام).

---

(١) احتجاج الطبرسي ١: ٢٢٣. (٢) تفسير الصافي المقدمة السادسة: ١١. (٣) اصول الكافي ١: ٢٢٨. (*)

وليست كلمتا التأويل والتنزيل تعنيان في ذلك الوقت ما يراد منهما في اصطلاح علماء القرآن، حيث يقصد من التأويل حمل اللفظ القرآني على غير ظاهره والتنزيل خصوص النص القرآني، وانما يراد منهما المعنى اللغوي الذي هو في الكلمة الاولى ما يؤول إليه الشئ ومصداقه الخارجي، وفي الثانية ما انزله الله وحيا على نبيه سواء كان قرآنا أو شيئا آخر. وعلى اساس هذا التفسير العام للموقف تتضح كثير من الجوانب الاخرى حيث يمكن ان تحمل الروايات التي اشارت لها الشبهة على معنى ينسجم مع هذا الموقف أيضا، كما فعل العلامة الطباطبائي ذلك في بعض هذه الروايات (١). وإضافة الى ذلك نجد بعض هذه الروايات ضعيفة السند، لا يصح الاحتجاج أو الاعتماد عليها في مقابل ثبوت النص القرآني. الشبهة الثانية: إن مجموعة كبيرة من الروايات الواردة عن طريق أهل البيت (عليهم السلام) دلت على وقوع التحريف في القرآن الكريم، الامر الذي يجعلنا نعتقد أن ذلك كان نتيجة للطريقة التي تم بها جمع القرآن الكريم، أو لاسباب طارئة اخرى ادت الى هذا التحريف. وتناقش هذه الشبهة: بأن الموقف تجاه هذه الروايات المتعددة يتخذ اسلوبين رئيسين: الاول: مناقشة أسانيد وطرق هذه الروايات، فان الكثير منها قد تم أخذه من كتاب احمد بن محمد الباري الذي تم الاتفاق بين علماء الرجال على فساد مذهبه وانحرافه (٢) وكتاب علي بن احمد الكوفي الذي رماه علماء الرجال بالكذب (٣).

---

(١) المصدر نفسه. (٢) و (٣) جامع الرواة ١: ٦٧ و ٥٥٣. (*)

وبعض هذه الروايات وان كان صحيح السند إلا أنه لا يشكل قيمة كبيرة وان كان مجموع هذه الروايات قد يوجب حصول الاطمئنان - كما

يقول السيد الخوئي - بصدور بعضها عن الامام (عليه السلام). الثاني: مناقشة دلالتها على وقوع التحريف في القرآن بمعنى وقوع الزيادة أو النقيصة ومن ثم لا يمكن الاستدلال بها حتى لو تم سند بعضها أو التزامتا بالاطمئنان بصدور بعضها اجمالا فيه. ومن اجل أن يتضح الاسلوب الثاني من المناقشة يجدر بنا ان نقسم هذه النصوص الى أقسام أربعة تبعا لاختلافها في المضمون وما تطرحه من دعاوى وأحكام. القسم الاول: النصوص التي جاء التصريح فيها بوقوع التحريف في القرآن الكريم عن طريق استعمال كلمة (التحريف) فيها ووصف القرآن بها، ومن هذه النصوص الروايات التالية: ١ - عن ابي ذر قال: لما نزلت هذه الاية (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه...) (١) قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): ترد امتي علي يوم القيامة على خمس رايات... ثم ذكر أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) يسأل الرايات عما فعلوا بالثقلين فتقول الراية الاولى: أما الاكبر فحرفناه ونبذناه وراء ظهورنا، واما الاصغر فعاديناه وابغضناه وظلمناه، وتقول الراية الثانية أما الاكبر فحرفناه ومزقناه وخالفناه، وأما الاصغر فعادينا هو قاتلناه. ٢ - عن جابر الجعفي عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: دعا رسول الله (صلى الله عليه وآله) بمنى فقال: ايها الناس إني تارك فيكم الثقلين ما ان تمسكتم بهما لن تضلوا، كتاب الله وعترتي والكعبة والبيت الحرام، ثم قال أبو جعفر (عليه السلام) أما كتاب الله فحرفوا، وأ ما الكعبة

---

(١) آل عمران: ١٠٦. (*)

فهدموا وأ ما العترة فقتلوا، وكل ودائع الله قد نبذوا ومنها قد تبرؤا. ٣ - عن علي بن سويد قال كتبت الى ابي الحسن موسى (عليه السلام) وهو في الحبس كتابا... الى أن ذكر جوابه (عليه السلام) بتمامه وفيه قوله (عليه السلام): اؤتمنوا على كتاب الله فحرفوه وبدلوه. ٤ - عن عبد الاعلى قال: قال أبو عبد الله (عليه السلام): إن اصحاب العربية يحرفون كلام الله عز وجل عن مواضعه. ولا دلالة في هذه الروايات جميعها على وقوع التحريف في القرآن الكريم بمعنى الزيادة والنقيصة، وانما تدل على وقوع التحريف فيه بمعنى حمل بعض الفاظه على غير معانيها المقصودة لله سبحانه ومن ثم تحريفها عن أهدافها ومقاصدها. ونحن في الوقت الذي لا نشك بوقوع مثل هذا التحريف في القرآن الكريم من قبل بعض المسلمين عن قصد أو بدون قصد نظر الاختلاف تفاسير القرآن وتباينها لا نرى فيه ما يضر عظمة القرآن أو يفيد في تأييد هذه الشبهة، بل ان القرآن في الاية السابعة من آل عمران التي تحدثت فيها عن المحكم والمتشابه أشار الى هذا النوع من التحريف، كما دلت الرواية التي رواها الكليني في الكافي عن الامام الباقر (عليه السلام) في رسالته الى سعد الخير: " وكان من نبذهم الكتاب أن اقاموا حروفه وحرفوا حدوده فهم يرونه ولا يرعونه والجهال يعجبهم حفظهم للرواية والعلماء يحزنهم تركهم للرعاية... " (١). وقد يدل بعضها على تحريف بعض الكلمات القرآنية بمعنى قراءتها بشكل يختلف عن القراءة التي انزلت على صدر رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وهذا ينسجم مع الرأي الذي ينكر تواتر القراءات السبع ويرى أنها نتيجة لاختلاف الرواية أو الاجتهاد، أو لاسباب اخرى ذاتية أو مذهبية أو سياسية.

---

(١) الروضة من الكافي - رسالة سعد الخير ١١: ٣٥٢ شرح المازندراني. ط: طهران. (*)

القسم الثاني: الروايات التي تدل على أن القرآن الكريم قد صرح بذكر بعض اسماء أئمة أهل البيت (عليهم السلام)، أو تحدث عن خلافتهم بشكل واضح ومنها النصوص التالية: ١ - عن محمد بن الفضيل عن الحسن (عليه السلام) قال: ولاية علي بن ابي طالب مكتوبة في جميع صحف الانبياء، ولن يبعث الله رسولا الا بنبوة محمد وولاية وصيه صلى الله عليهما وآلهما. ٢ - رواية العياشي عن الصادق (عليه السلام) لو قرئ القرآن كما نزل لالفيتنا فيه مسمين (١). ٣ - رواية الكافي والعياشي عن الاصبغ بن نباتة قال: قال أمير المؤمنين (عليه السلام): القرآن نزل على أربعة أرباع: ربع فينا وربع في عدونا، وربع سنن وامثال، وربع فرائض واحكام ولنا كرائم القرآن (٢). والموقف تجاه هذا القسم من النصوص يتخذ أشكالا ثلاثة: الاول: أننا قد ذكرنا سابقا أن بعض التنزيل ليس من القرآن الكريم، وانما هو مما اوحي الى النبي (صلى الله عليه وآله) ولعل هذا هو المقصود من هذه الروايات، حيث جاء ذكرهم في التنزيل تفسيرا لبعض الايات القرآنية لا جزءا من القرآن الكريم نفسه. الثاني: أننا نكون مضطرين لرفض هذه الروايات إن لم نوفق لتفسيرها بطريقة تنسجم مع القول بصيانة القرآن الكريم من التحريف للسببين التاليين: أ - مخالفة هذه الروايات للكتاب الكريم، وقد وردت نصوص عديدة من طريق أهل البيت تدل على ضرورة عرض اخبار أهل البيت على القرآن الكريم

---

(١) تفسير العياشي ١: ١٣. (٢) المصدر السابق: ٩. (*)

قبل الاخذ بمضمونها، مثل قول الصادق (عليه السلام): " الوقوف عند الشبهة خير من اقتحام الهلكة، إن على كل حق حقيقة وعلى كل صواب نورا فما وافق كتاب الله فخذوه وما خالف كتاب الله فدعوه (١). ب - مخالفة هذه الروايات للادلة المتعددة التي تحدثنا عنها في بحث ثبوت النص القرآني. الثالث: أن هناك نصوصا وقرائن تأريخية تدل على عدم ورود اسماء الائمة في القرآن الكريم بشكل صريح. ومن هذه القرائن حديث الغدير، حيث نعرف منه أن الظروف التي احاطت بقضية الغدير تنفي أن يكون هناك تصريح من القرآن باسم علي (عليه السلام)، وإلا فلماذا يحتاج النبي (صلى الله عليه وآله) الى تأكيد بيعة علي (عليه السلام)، وحشد هذا الجمع الكبير من المسلمين من اجل ذلك، بل لماذا يخشى الرسول الناس في إظهار هذه البيعة إذا كان قد صرح القرآن بتسميته ومدحه، الامر الذي أدى الى ان يؤكد القرآن الكريم عصمة الله له من الناس في قوله تعالى: (يا أيها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس...) (٢). ومن هذه القرائن ايضا: ان التأريخ لم يحدثنا أن عليا أو احدا من اصحابه احتج لامامته بذكر القرآن لاسمه، مع أنهم احتجوا على ذلك بأدلة مختلفة، ولا يمكن ان نتصور اهمال هذا الدليل لو كان موجودا. ومن هذه القرائن هذا النص الذي يتحدث عن عدم وجوداسم علي في القرآن:

---

(١) الوسائل ٨: ٨٦ الحديث ٣٥، وسيأتي مزيد من التوضيح لهذا الموضوع في التفسير عند أهل البيت (عليهم السلام). (٢) المائدة: ٦٧. (*)

" عن ابي بصير قال سألت ابا عبد الله (عليه السلام) عن قول الله عز وجل: (... اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم...) (١) فقال: نزلت في علي بن ابي طالب والحسن والحسين (عليهم السلام) فقلت له: إن الناس يقولون: فما له لم يسم عليا وأهل بيته (عليهم السلام) في كتاب الله عز وجل ؟ قال: فقال: قولوا لهم: إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) نزلت عليه الصلاة ولم يسم الله لهم ثلاثا واربعا حتى كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) هو الذي فسر ذلك لهم، ونزلت عليه الزكاة ولم يسم لهم من كل اربعين درهما درهم... " (٢). وهذا الحديث يكون واضحا للمعنى المراد من الاحاديث التي ساقتها الشبهة ومقدما عليها لانه يقف منها موقف المفسر وينظر الى موضوعها ويوضح عدم ذكر القرآن لاسماء الائمة صريحا. القسم الثالث: الروايات التي تدل على وقوع الزيادة والنقصان معا في القرآن الكريم وان طريقة جمع القرآن أدت الى وضع بعض الكلمات الغريبة من القرآن مكان بعض الكلمات القرآنية الاخرى كما ورد ذلك في النصين التاليين: ١ - عن حريز عن ابي عبد الله (عليه السلام) " صراط من انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ". ٢ - عن هشام بن سالم قال سألت ابا عبد الله (عليه السلام) عن قوله تعالى: (ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران...) (٣). قال: هو آل ابراهيم وآل محمد على العالمين فوضعوا اسما مكان اسم.

---

(١) النساء: ٥٩. (٢) الكافي ١: ٢٨٦ - ٢٨٧. (٣) آل عمران: ٣٣. (*)

ويناقش هذا القسم من الروايات بما يلي: أولا: إن الامة الاسلامية بمذاهبها المختلفة أجمعت على عدم وقوع التحريف في القرآن الكريم بالزيادة، إضافة الى وجود النصوص الكثيرة الدالة على عدم وجود مثل هذا التحريف. ثانيا: إن هذا القسم يتنافى مع الكتاب نفسه. وقد أمر الائمة من أهل البيت (عليهم السلام) بلزوم عرض احاديثهم على الكتاب الكريم، وان ما خالف الكتاب فيضرب عرض الجدار. القسم الرابع: الروايات التي دلت على أن القرآن الكريم قد تعرض للنقصان فقط، مثل ما رواه الكليني في الكافي عن احمد بن محمد بن ابي نصر: " قال دفع الي أبو الحسن (عليه السلام) مصحفا وقال لا تنظر فيه ففتحته وقرأت فيه: (لم يكن الذين كفروا...) فوجدت فيها اسم سبعين رجلا من قريش بأسمائهم واسماء آبائهم. قال: فبعث إلي: ابعث الي بالمصحف " (١). ويناقش هذا القسم بان الزيادة الموجودة في مصحف ابي الحسن (عليه السلام) أو غيره تحمل على ما سبقت الاشارة إليه من أنها في مقام تفسير بعض الايات، وفي المورد الذي لا يمكن ان يتم فيه مثل هذا الحمل والتفسير لابد من طرح الرواية تمسكا بالكتاب الكريم الذي امرنا أهل البيت (عليهم السلام) بعرض احاديثهم عليه قبل الاخذ بمضمونها.

---

(١) الكافي ٢: ٦٣١. الحديث ١٦. (*)

القسم الثاني أبحاث في القرآن ١ - اعجاز القرآن. ٢ - المحكم والمتشابه في القرآن. ٣ - النسخ في القرآن.

اعجاز القرآن (١) ماهي المعجزة: النبي - اي نبي - صاحب رسالة يريد أن ينفذ بها الى قلوب الناس وعقولهم، ليصنع الانسان الافضل الذي يريده الله على وجه الارض، ولا يمكنه أن يحقق هذا الهدف ما لم يكسب ايمان الناس بنبوته، واعتقادهم بصدق دعواه في ارتباطه بالله والارض، لكي يتاح له أن يستلم زمام قيادتهم ويغذيهم برسالته ومفاهيمها ومبادئها. والناس لا يؤمنون بدون دليل، إذا كانت الدعوى التي يدعوهم إليها ذات حجم كبير وتقترن بالمشكلات والمصاعب وترتبط بعالم الغيب، فلا يمكن للنبي ان يدعوهم الى الايمان به وبرسالته، ويكلفهم بذلك ما لم يقدم لهم الدليل الذي يبرهن على صدق دعواه، وكونه رسولا حقا من قبل الله تعالى، فكما لا نصدق في حياتنا الاعتيادية شخصا يدعي تمثيل جهة رسمية ذات أهمية كبيرة مثلا، ما لم يدعم دعواه بالدليل على صدقه، ونرفض مطالبته لنا بتصديقه من دون برهان، كذلك لا يمكن للانسان أن يؤمن برسالة النبي ونبوته الا على اساس الدليل. والدليل الذي يبرهن على صدق النبي في دعواه هو المعجزة، وهي: ان يحدث تغييرا في الكون - صغيرا أو كبيرا - يتحدى به القوانين الطبيعية التي ثبتت عن طريق الحس والتجربة، فمن وضع الماء على النار ليكون حارا فارتفعت درجة

(١) كتبه الشهيد الصدر (قدس سره). (*)

حرارته يطبق قانونا طبيعيا عرفه الناس عن طريق الحس والتجربة، وهو انتقال الحرارة من الجسم الحار الى الجسم الذي يجاوره، وأما من ادعى أنه يجعل الماء حارا بدون الاستعانة بأي طاقة حرارية، وحقق ذلك فعلا فهو يتحدى قوانين الطبيعة التي يكشف عنها الحس والتجربة، ومن ابرأ مريضا باعطائه مادة مضادة للميكروب الذي أمرضه، يطبق قانونا طبيعيا يعرفه بالتجربة، وهو ان هذه المادة بطبيعتها تقتل الميكروب الخاص، واما من أبرأ المريض بدون اعطاء اي مادة مضادة فهو يتحدى قوانين الطبيعة التي يعرفها الناس بالتجربة، ويحقق المعجزة. فإذا أتى النبي بمعجزة من هذا القبيل كانت برهانا على ارتباطه بالله تعالى، وصدقه في دعوى النبوة، لان الانسان بقدرته الاعتيادية لا يمكنه ان يغير في الكون شيئا، الا بالاستفادة من القوانين الكونية التي يعرفها عن طريق الحس والتجربة، فإذا استطاع الفرد أن يحقق تغييرا يتحدى به هذه القوانين، فهو انسان يستمد قدرة استثنائية من الله تعالى، ويرتبط به ارتباطا يميزه عن الاخرين، الامر الذي يفرض علينا تصديقه إذا ادعى النبوة. الفرق بين المعجزة والابتكار العلمي: وفي ضوء ما قلناه نعرف أن سبق النوابغ من العلماء في الحقول العلمية، لا يعتبر معجزة، فإذا افترضنا أن شخصا من العلماء اليوم سبق انداده، ونجح في اكتشاف الورم السرطاني مثلا، والمادة التي تقضي عليه فهو يستطيع بحكم اكتشافه ان يبرئ مريضا من السرطان، بينما يعجز عن ذلك جميع العلماء الاخرين، ولكن عمله هذا ليس معجزة لانه انما يتحدى جهل العلماء الاخرين بالسر والعلة والدواء، ولا يتحدى القوانين الكونية

التي تثبت بالحس والتجربة، بل هو انما استطاع ان يبرئ المريض من السرطان على اساس تجربة فذة قام بها في مختبره

العلمي، فاكتشف قانونا لم يعرفه غيره حتى الان، ومن الواضح أن معرفته بالقانون الطبيعي عن طريق التجربة، ليست تحديا للقانون، وانما هي تطبيق للقانون الطبيعي، وقد تحدى بذلك زملاءه الذين عجزوا عن اكتشاف القانون قبله. القرآن هو المعجزة الكبرى: وما دمنا قد عرفنا أن المعجزة هي أن يحدث النبي تغييرا في الكون يتحدى به القوانين الطبيعية فمن الميسور أن نطبق فكرتنا هذه عن المعجزة على (القرآن الكريم)، الذي احدث تغييرا كبيرا جدا، وثورة كبرى في حياة الانسان لا تتفق مع المألوف والمجرب من القوانين الكونية والسنن التأريخية للمجتمع. فنحن إذا درسنا الوضع العالمي، والوضع العربي والحجازي بصورة خاصة، وحياة النبي قبل البعثة، ومختلف العوامل والمؤثرات التي كانت متوفرة في بيئته ومحيطه، ثم قارنا ذلك بما جاء به الكتاب الكريم، من رسالة عظمي تتحدى كل تلك العوامل والمؤثرات، وما احدثه هذا الكتاب من تغيير شامل كامل، وبناء لامة تملك اعظم المقومات والمؤهلات، إذا لاحظنا كل ذلك وجدنا أن القرآن معجزة كبرى، ليس لها نظير لانه لم يكن نتيجة طبيعية لتلك البيئة المختلفة بكل ما تضم من عوامل ومؤثرات، فوجوده إذن يتحدى القوانين الطبيعية ويعلو عليها، وهدايته وعمق تأثيره لا تفسره تلك العوامل والمؤثرات. ولكي يتجلى ذلك بوضوح يمكننا ان نستعرض البيئة التي ادى فيها القرآن رسالته الكبرى ونقارن بينها وبين البيئة التي صنعها، والامة التي أوجدها. بعض أدلة اعجاز القرآن: وبهذا الصدد يجب أن نأخذ النقاط التالية بعين الاعتبار، والتي يمكن ان تكون

كل واحدة منها دليلا على إعجاز القرآن: ١ - ان القرآن شع على العالم من جزيرة العرب، ومن مكة بصورة خاصة، وهي منطقة لم تمارس أي لون من ألوان الحضارة والمدنية، التي مارستها مختلف المجتمعات الراقية نسبيا يومئذ، وكانت هذه اولى المفارقات التي برهنت على أن الكتاب لم يجر وفق القوانين الطبيعية الاعتيادية، لان هذه القوانين التجريبية تحكم بأن الكتاب مرآة لثقافة عصره ومجتمعه، الذي عاشه صاحب الكتاب، وتثقف فيه، فهو يعبر عن مستوى من مستويات الثقافة في ذلك المجتمع، أو يعبر على أفضل تقدير عن خطوة الى الامام في تلك الثقافة، وأما ان يطفر الكتاب طفرة كبيرة جدا، ويأتي - بدون سابق مقدمات وبلا ارهاصات - بثقافة من نوع آخر لا تمت الى الافكار السائدة بصلة ولا تستلهمها، وانما تقلبها رأسا على عقب، فهذا ما لا يتفق مع طبيعة الاشياء في حدود التجربة التي عاشها الناس في كل عصر. وهذا ما وقع للقرآن تماما فانه اختار اكثر المناطق والمجتمعات تأخرا وبدائية، وضيق افق، وبعدا عن التيارات الفلسفية والعلمية، ليفاجئ العالم بثقافة جديدة، كان العالم كله بحاجة إليها، وليثبت أنه ليس تعبيرا عن الفكر السائد في مجتمعه، ولا خطوة محدودة الى الامام، وانما هو شئ جديد بدون سابق مقدمات. وهكذا نعرف أن اختيار البيئة والمجتمع، كان هو التحدي الاول للقوانين الطبيعية التي تقتضي ان تولد الثقافة الجديدة في ارقى البيئات من الناحية الفكرية والاجتماعية. ٢ - إن القرآن بشر به النبي، وأعلنه على العالم فرد من أفراد المجتمع المكي، ممن لم ينل ما يناله حتى المكيون من الوان التعلم والتثقيف، فهو أمي، لا يقرأ ولا يكتب، وقد عاش بين قومه اربعين

سنة فلم تؤثر عنه طيلة هذه المدة محاولة تعلم أو اثارة من علم أو ادب، كما اشار القرآن الى ذلك:

(وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون) (١). (قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا ادراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون) (٢). وهذا يعتبر تحديا آخر من القرآن للقونين الطبيعية، إذ لو كان القرآن جاريا وفق هذه القوانين، لما كان من الممكن ان يجئ به فرد امي، لم يشارك حتى في ثقافة مجتمعه، بالرغم من بساطتها، ولم يؤثر عنه اي بروز في عالم اللغة بمختلف مجالاتها، فيبذ به الانتاج الادبي كله ويبهر بروعته وحكمته وبلاغته، أعاظم البلغاء والعلماء. فهل رأيت في مجرى القوانين الطبيعية شخصا جاهلا بالطب لم يدرس عنه شيئا يتقدم بكتاب في الطب يبهر عقول الاطباء بما يضم من اسرار العلم وآياته ؟ وهل رأيت في مجراها شخصا لا يحسن أن يكتب في لغة ما، ولا يجيد شيئا من علومها يأتي بالرائعة التأريخية في حياة تلك اللغة، ويكشف عن امكانيات ادبية كبيرة جدا في تلك اللغة لم تكن تخطر على بال حتى يتصور الناس أنه ساحر ؟ والواقع أن المشركين في عصر (البعثة النبوية) أحسوا بهذا التحدي العظيم وكانوا حائرين في كيفية تفسيره، ولا يجدون تفسيرا معقولا له وفق القوانين الطبيعية، ولدينا عدة نصوص تأريخية تصور حيرتهم في تفسير القرآن وموقفهم، القلق من تحديه للقوانين والعادات الطبيعية. فمن ذلك أن الوليد بن المغيرة استمع يوما الى النبي في المسجد الحرام وهو يقرأ القرآن فانطلق الى مجلس قومه بني مخزوم فقال: " والله لقد سمعت من محمد آنفا

(١) العنكبوت: ٤٨. (٢) يونس: ١٦. (*)

كلاما ما هو من كلام الانس ولا من كلام الجن وان له لحلاوة وان عليه لطلاوة وان أعلاه لمثمر وان أسفله لمعذق وانه ليعلو وما يعلى " (١) ثم انصرف الى منزله فقالت قريش: صبا والله الوليد والله ليصبأن قريش كلهم، فقال أبو جهل: انا أكفيكموه، فانطلق فقعد الى جانب الوليد حزينا، فقال له الوليد مالي اراك حزينا يابن أخي ؟ فقال له: هذه قريش يصيبونك على كبر سنك، ويزعمون انك زينت كلام محمد، فقام الوليد مع ابي جهل حتى اتى مجلس قومه، فقال لهم: تزعمون أن محمدا مجنون فهل رأيتموه يخنق قط ؟ ! فقالوا: اللهم لا، فقال: تزعمون أنه كاهن، فهل رأيتم عليه شيئا من ذلك ؟ ! قالوا: اللهم لا، فقال: تزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه ينطق بشعر قط ؟ ! قالوا: اللهم لا، قال: تزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه شيئا من الكذب ؟ ! فقالوا: اللهم لا، فما هو اذن ؟ فغرق الوليد في الفكر ثم قال: ما هو الا ساحر ! أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه، فنزل قوله تعالى: (انه فكر وقدر * فقتل كيف قدر * ثم قتل كيف قدر * ثم نظر * ثم عبس وبسر * ثم ادبر واستكبر * فقال ان هذا الا سحر يؤثر) (٢). وقد افترض بعض العرب - في تبرير هذه الحيرة - امام تحدي القرآن لهم بنزوله على شخص أمي ان يكون احد من البشر قد علم النبي القرآن، ولم يجرؤا وهم الاميون على دعوى تعلمه من احد منهم، فقد ادركوا بالفطرة أن الجاهل لا يعلم الناس شيئا، وانما زعموا أن غلاما روميا اعجميا نصرانيا، يشتغل في

مكة قينا (حدادا) يصنع السيوف، هو الذي علم النبي القرآن، وكان ذلك الغلام على عاميته يعرف القراءة والكتابة، وقد تحدث القرآن الكريم عن افتراض العرب هذا، ورد عليه ردا بديهيا قال تعالى: (... لسان الذي يلحدون إليه اعجمي وهذا

---

(١) البداية والنهاية ٣: ٧٨. (٢) المدثر: ١٨ - ٢٤. (*)

لسان عربي مبين) (١). ٣ - إن القرآن الكريم يمتد بنظره الى الغيب المجهول في الماضي البعيد وفي المستقبل على السواء، فهو يقص أحسن القصص عن امم خلت، وما وقع في حياتها من عظات وعبر، وما اكتنفها من مضاعفات، يتحدث عن كل ذلك حديث من شاهد الاحداث كلها، وراقب جريانها، وعاش في عصرها بين اصحابها، قال الله تعالى: (تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ان العاقبة للمتقين) (٢). وقال: (وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا الى موسى الامر وما كنت من الشاهدين * ولكنا انشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاويا في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين) (٣). وقال: (ذلك من انباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم إذ يلقون اقلامهم ايهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون) (٤). وكل هذه الايات الكريمة تأكد تحدي القرآن للقوانين الطبيعية في استيعابه لتلك الاحداث، واحاطته بالماضي المجهول، إذ كيف يمكن بحكم القوانين الطبيعية أن يتحدث شخص في كتاب عن أحداث امم في الماضي السحيق لم يعشها ولم يعاصرها ؟ وقد احس المشركون بهذا التحدي أيضا: (وقالوا أساطير الاولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة واصيلا) (٥). وكانت حياة محمد (صلى الله عليه وآله) ردا مفحما لهم، فقد عاش

---

(١) النمل: ١٠٣. (٢) هود: ٤٩. (٣) القصص: ٤٤، ٤٥. (٤) آل عمران: ٤٤. (٥) الفرقان: ٥. (*)

في مكة ولم تتهيأ له أية دراسة لاساطير الاولين، أو كتب العهدين: التوراة والانجيل، ولم يخرج من المنطقة الا مرتين، سافر فيهما الى الشام، احداهما: في طفولته مع عمه لقي فيها بحيرا، وهو ابن تسع سنين، فقال هذا الراهب لعمه: " سيكون لابن اخيك هذا شأن عظيم " (١). والاخرى: في تجارة خديجة وهو شاب وكان بصحبته ميسرة غلام خديجة، ولم يتجاوز (صلى الله عليه وآله) سوى مدينة بصرى، في كلتا الرحلتين القصيرتين، فأين تأتى للنبي ان يدرس التوراة أو يكتب اساطير الاولين ؟ ! والحقيقة ان مقارنة القصص التي جاءت في القرآن الكريم بالعهد القديم تؤكد التحدي، إذ تبرز اعجاز القرآن بصورة اوضح، لان التوراة التي شهد القرآن بتحريفها كانت قصصها وأحاديثها - عن ماضي الامم واحداثها - مشحونة بالخرافات والاساطير وما يسئ الى كرامة الانبياء، ويبتعد بالقصة عن اهداف التبليغ والدعوة، بينما نجد قصص تلك الامم في القرآن، قد نقيت من تلك العناصر الغريبة، وأبرزت فيها الجوانب التي تتصل بأهداف التبليغ، واستعرضت بوصفها عظة وعبرة لا مجرد تجميع اعمى للمعلومات. وكما كان القرآن محيطا بالماضي، كذلك كان محيطا بالمستقبل،

فكم من خبر مستقبل كشف القرآن حجابه فتحقق وفقا لما أخبر به، ورآه المشركون، ومن هذا القبيل أخبار القرآن بانتصار الروم على الفرس في بضع سنين، إذ قال تعالى: (غلبت الروم * في ادنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون * في بضع سنين...) (٢). وقد أخبر القرآن بذلك على أعقاب هزيمة فضيعة مني بها الروم، وانتصار

---

(١) بحار الانوار ٣٥: ١٣٩. (٢) الروم: ٢ - ٤. (*)

ساحق سجله الفرس عليهم، ففرح المشركون بذلك لانهم رأوا فيه انتصارا للشرك والوثنية على رسالات السماء، نظرا الى أن الفرس المنتصرين كانوا وثنيين والروم كانوا نصارى، فنزل القرآن يؤكد انتصار الروم في المستقبل القريب، فهل يمكن لكتاب غير نازل من الله تعالى ان يؤكد خبرا غيبيا في المستقبل القريب من هذا القبيل، ويربط كرامته ومصيره بالغيب المجهول، وهو يهدد مستقبله بالفضيحة إذا ظهر كذبه في نبوءته ؟ وهكذا نجد أن القرآن يتحدى الغيب في الماضي والمستقبل على السواء، ويتحدث بلغة المطمئن الواثق، الذي لا يخالجه شك فيما يقوله، وهذا ما لا يقدر عليه انسان، أو كتاب انسان وفقا للقوانين الطبيعية. كما أننا يمكن أن نجد أدلة اخرى على اعجاز القرآن، في مقدمتها ما اشرنا إليه في بحث الهدف من نزول القرآن، من التغيير العظيم الذي احدثه في امة العرب وبمدة زمنية قياسية.

شبهات حول اعجاز القرآن ومناقشاتها: لقد اثيرت حول اعجاز القرآن الكريم - من قبل المستشرقين والمبشرين - شبهات كثيرة نظرا لاهمية هذا البحث وعظمة الاهداف التي يحققها، وقد عرفنا في بحث اعجاز القرآن الادلة التي يمكن ان نستنتج منها أن القرآن الكريم ليس صنعة بشرية وانما هو وحي الهي، ولم تكن الادلة السابقة تعتمد في الوصول الى هذه النتيجة على ملاحظة الاسلوب البلاغي للقرآن الكريم، ولكن الاسلوب البلاغي للقرآن الكريم كان وما زال احد الاسس المهمة التي اعتمدها الباحثون لاثبات اعجاز القرآن وسوف نرى في اكثر الشبهات الاتية أن نقد القرآن الكريم فيها يعتمد على ملاحظة الاسلوب البلاغي له فحسب، لغرض اسقاط هذا الدليل الذي يعتمد عليه احيانا في اثبات اعجاز القرآن، كما سوف نرى بطلان هذه الشبهات ايضا. ويمكن تقسيم الشبهات الاتية الى قسمين رئيسين: الاول الشبهات التي تحاول ان تبرز جانب النقص والخطأ في الاسلوب والمحتوى القرآني، والثاني الشبهات التي تحاول ان تثبت أن القرآن الكريم ليس معجزة لقدرة البشر على الاتيان بمثله. القسم الاول من الشبهات حول اعجاز القرآن: الشبهة الاولى: إن الاعجاز القرآني يرتكز بصورة رئيسة على الفصاحة والبلاغة القرآنية، ونحن نعرف أن العرب قد وضعوا قواعد واسسا للفصاحة والبلاغة والنطق تعتبر هي المقياس الرئيس في تمييز الكلام البليغ من غيره، وبالرغم من ذلك نجد في القرآن الكريم بعض الايات التي لا تنسجم مع هذه القواعد بل تخالفها، الامر الذي يدعونا الى القول بان القرآن الكريم ليس معجزا لانه لم يسر على نهج القواعد العربية واصولها. وتسرد الشبهة بعض الامثلة لذلك.

ويمكن ان تناقش هذه الشبهة - إضافة الى ما اشرنا إليه من أن الدليل على اعجاز القرآن لا يختص بالجانب البلاغي - باسلوبين رئيسين: الاول: ملاحقة الامثلة والتفصيلات التي تسردها الشبهة وبيان انطباقها مع القواعد العربية المختلفة وانسجامها معها، وملاحظة مختلف القراءات القرآنية التي يتفق الكثير منها مع هذه القواعد، بالشكل الذي لا يبقى مجالا لورود الشبهة عليها، وقد قام العلامة الشيخ محمد جواد البلاغي بجانب من ذلك (١)، كما يمكن ان نعرف ذلك من خلال مراجعة الكتب التفسيرية التي تناولت هذا الجانب مثل كتاب مجمع البيان للشيخ الطبرسي والكشاف للزمخشري. الثاني: مناقشة اصل الفكرة التي تقوم عليها الشبهة ومدى امكان الاعتماد عليها في الطعن باعجاز القرآن، وهذا ما سوف نقوم به في هذا البحث وذلك بملاحظة الامرين التاليين: أ - إن تأسيس قواعد اللغة العربية كان في وقت متأخر عن نزول القرآن الكريم وفي العصور الاولى للدول الاسلامية، بعد ان ظهرت الحاجة إليها بسبب التوسع الاسلامي الذي ادى الى اختلاط العرب بغيرهم من الشعوب، وقد كان الهدف الرئيس لوضع هذه القواعد هو الحفاظ على النص القرآني ولغته، وقد اتبعت في استكشاف هذه القواعد طريقة ملاحظة النصوص العربية الواردة قبل هذا الاختلاط أو التي لم تتأثر به. فلم تكن عملية وضع القواعد عملية تأسيس واختراع من قبل واضعي اللغة العربية، وانما هي عملية استكشاف لما كان العرب يتبعه من اساليب في البيان والنطق خلال كلامهم، ولذا كان الكلام العربي الاصيل هو الذي يتحكم في صياغة القاعدة وتفصيلاتها.

---

(١) الهدى الى دين المصطفى ١: ٣٣٠. (*)

ولا شك أن القرآن الكريم كان اهم تلك المصادر على الاطلاق التي اعتمد عليها واضعو هذه القواعد في صياغتها وتأسيسها، لانه أوثق المصادر العربية والكلام البليغ الذي بلغ القمة، ولذلك نجد علماء العربية عندما يريدون الاستدلال على صحة اي قاعدة يستدلون على ذلك بالايات القرآنية أو بالنصوص التي تثبت نسبتها الى العرب الاوائل. وعلى هذا الاساس التأريخي لوجود قواعد اللغة العربية يجب ان يكون الموقف تجاهها ان نجعل القرآن هو القياس الذي يتحكم في صحتها وخطئها، لا ان نجعل القواعد مقياسا نحكم به على القرآن، لان القاعدة العربية وضعت على ضوء الاسلوب القرآني فإذا ظهر أنها خلاف هذا الاسلوب يكشف ذلك عن وقوع الخطأ في عملية استكشاف القاعدة نفسها. ب - ثم إذا لاحظنا موقف العرب المعاصرين للقرآن الكريم - وهم ذوو الخبرة والمعرفة الفائقة باللغة العربية - وجدناهم قد اذعنوا واستسلموا للبلاغة القرآنية وتأثروا بها ايمانا منهم بأ نه يسير على أدق القواعد والاساليب العربية في البيان والتعبير، ولو كان في القرآن الكريم ما يتنافى مع قواعد اللغة العربية واصولها لكان من الجدير بهؤلاء الاعداء ان يتخذوا ذلك وسيلة لنقد القرآن ومنفذا للطعن به. الشبهة الثانية: إن القرآن قد تحدث عن قصص الانبياء، كما تحدثت الكتب الدينية الاخرى كالتوراة والانجيل عنها، وعند المقارنة بين ما ذكره القرآن وما ورد في التوراة والانجيل نجد القرآن يخالف تلك الكتب في حوادث كثيرة ينسبها الى الانبياء واممهم، الامر الذي يجعلنا نشك في ان يكون مصدر القرآن الوحي الالهي لسببين: الاول: ان هذه الكتب من الوحي الالهي

الذي اعترف به القرآن، وإذا كان القرآن وحيا الهيا أيضا فلا يمكن ان يناقض الوحي نفسه في الاخبار عن حوادث

تأريخية واقعية. الثاني: ان هذه الكتب ما زالت تتداولها امم هؤلاء الانبياء وهم بطبيعة ارتباطهم الديني والاجتماعي بأنبيائهم لا بد وان يكونوا ادق اطلاعا على أحوالهم من القرآن الذي جاء في امة ومجتمع منفصل عن تأريخ هؤلاء الانبياء. وهذه الشبهة - كسابقتها - لا يمكن ان تصمد للمناقشة إذا عرفنا أن هذه الكتب الدينية قد تعرضت للتحريف والتزوير - كما سوف نتعرض الى ذلك في بحث مستقل - وكان أحد أسباب التحريف هو الانفصال التأريخي الذي وقع بين الانبياء واممهم، حيث تعرض اليهود - مثلا - الى الاسر الجماعي ونقلوا الى بابل واحرقت جميع الكتب ودمرت جميع المعابد وبقوا على هذا الحال مدة عقود من الزمن حتى أنقذهم كورش الفارسي من ذلك، ويقال بأنهم دونوا التوراة الموجودة على ما تبقى في ذاكرة بعض الاشخاص مما سمعوه من آبائهم، وكذلك الحال بالنسبة الى المسيحيين، حيث تعرض المسيح لمحاولة الصلب وتفرق الحواريون ودون الانجيل على ما تبقى في الذاكرة بعد مدة طويلة من هذه الحادثة. هذا الامر وغيره هو الذي جعلهم غير قادرين على الاحتفاظ الديني بها، وقد أشار القرآن الكريم الى هذه الحقيقة عند حديثه عن امم هؤلاء الانبياء والجماعات التي نزلت فيهم هذه الكتب. إضافة الى أن ملاحظة محتوى الخلاف بين القرآن الكريم والكتب الدينية الاخرى يدعونا بنفسه للايمان بصدق القرآن الكريم، بعد ان نجد التوراة والانجيل يذكران في قصص هؤلاء الانبياء مجموعة من الخرافات والاوهام يتجاوزها القرآن الكريم، وينسبان الى الانبياء اعمالا ومواقف لا يصح نسبتها إليهم ولا تليق برسل الله والقوام على شريعته ودينه، بل لا تليق بمصلحين عاديين من عامة

البشر، كما في نسبة شرب الخمر والزنا الى لوط (عليه السلام)، وكذلك نسبة وقوع داود تحت تأثير الشهوة والعشق لامرأة أجنبية بحيث يفرط بأحد قادته الكبار في الحرب وهو زوج هذه المرأة من اجل التخلص منه والزواج بها، الى غير ذلك كما يتبين ذلك بوضوح عند المقارنة بين القرآن والكتب الدينية الاخرى (١). وقد عرفنا في بحث اعجاز القرآن أن احدى النقاط المهمة التي يظهر فيها اعجاز القرآن الكريم عرضه لقصص الانبياء وحوادثهم، بشكل يبعث اليقين في نفوسنا ان مصادر هذا العرض ليست هي الكتب الدينية، ثم يأتي هذا العرض منسجما ومؤتلفا مع النظرة الواقعية الصحيحة للانبياء والرسل، الامر الذي يدلل على أن مصدره هو الوحي الالهي.
الشبهة الثالثة: إن اسلوب القرآن في تناول الافكار والمفاهيم وعرضها لا ينسجم مع أساليب البلاغة العربية ولا يسير على الطريقة العلمية في المنهج والعرض، وذلك لانه يجعل الموضوعات المتعددة متشابكة بعضها مع بعض، فبينما يتحدث القرآن في التأريخ ينتقل الى موضوع آخر من الوعد والوعيد والحكم والامثال والاحكام وغير ذلك من الجهات، فلا يجعل القارئ قادرا على الالمام بالافكار القرآنية، مع أن الموضوعات القرآنية لو كانت معروضة على شكل فصول وموضوعات مستقلة لكانت الفائدة المترتبة عليها اعظم والاستفادة منهااسهل، وكان العرض منسجما مع الاسلوب العلمي المنهجي الصحيح. وتناقش هذه الشبهة على اساس النقطتين التاليتين: الاولى: أن القرآن الكريم ليس كتابا علميا ولا كتابا مدرسيا

- كما عرفنا ذلك في بحث الهدف من نزول القرآن - فهو ليس كتاب فقه أو تأريخ أو أخلاق، وانما هو

---

(١) يمكن مراجعة كتاب الهدى الى دين المصطفى للبلاغي: ج ٢ في هذه المقارنة. (*)

كتاب هداية وتربية وهدفه الاساس هو احداث التغيير الاجتماعي، والاسلوب القرآني خضع لهذا الهدف في طريقة العرض وفي التدرج في النزول وفي غير ذلك من الظواهر القرآنية، كوجود الناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه. وهذه الطريقة في العرض من الخصائص البارزة في القرآن الكريم التي خضعت لهذا الهدف للتمكن من إحداث التأثير المطلوب في نفسية الانسان المعاصر لنزول القرآن، بل ولكل انسان يستمع للقرآن الكريم أو يقرأه (١). والنتائج العظيمة التي حققها القرآن الكريم في المجتمع الجاهلي افضل شاهد على انسجام هذا الاسلوب مع الهدف الاساس للقرآن الكريم. الثانية: أن هذه الطريقة في العرض يمكن ان تعتبر احدى الميزات التي يتجلى فيها الاعجاز القرآني بصورة اوضح، فانه بالرغم من هذا التشابك في الموضوعات تمكن القرآن الكريم من الاحتفاظ بجمال الاسلوب وقوة التأثير وحسن الوقع على الاسماع والنفوس، الامر الذي يدلل على براعة متناهية وقدرة عظيمة على عرض الموضوعات وطرح الافكار. الشبهة الرابعة: لا شك أن ذوي القدرة والمعرفة باللغة العربية يتمكنون من الاتيان بمثل بعض الكلمات القرآنية، وحين تتوفر هذه القدرة في بعض الكلمات فمن المعقول ان تتوفر أيضا في كلمات اخرى، وهذا ينتهي بنا الى ان نجزم بوجود القدرة على الاتيان بسورة أو اكثر من القرآن الكريم لدى امثال هؤلاء لان من يقدر على بعض القرآن يمكن أن نتصور فيه القدرة على الباقي بشكل معقول، وبذلك لا يكون

---

(١) تناولنا هذا التأثير والتأثر في كتابنا " الهدف من نزول القرآن "، حيث تعرضنا الى تسع من ظواهر القرآن الكريم بالدرس والتحليل: ومن هذه الظواهر: اسلوب القرآن الكريم. (*)

التحدي من قبل القرآن بالاتيان بسورة أو عشر سور واردا وصحيحا. والمناقشة في هذه الشبهة واضحة: لان الاعجاز القرآني يتمثل في جانبين رئيسين - كما اشرنا سابقا - جانب الاسلوب والتركيب البياني وجانب المضمون والمحتوى والافكار. وفي كلا الجانبين لا مجال لهذا الوهم والخيال. أما في جانب المضمون فمن الواضح أن القدرة على اعطاء فكرة أو فكرتين لا يعني القدرة على إعطاء هذا المقدار الكبير المنسجم من الافكار والمفاهيم وفي نفس الظروف الموضوعية والذاتية التي جاء فيها القرآن الكريم، والتحدي الذي شرحناه في بعض أبحاثنا السابقة عن اعجاز القرآن كان ضمن الظروف الخاصة التي عاشها النبي (صلى الله عليه وآله) وجاء فيها القرآن الكريم. وأ ما في جانب الاسلوب فإن القدرة على جملة أو مقدار من الكلمات لا يعني القدرة على تمام التركيب بعناصره المتعددة التي لا يمكن ان توجد أو تتوفر إلا ضمن التركيب بكامله، وهذا شئ واضح لا يحتاج الى برهان، فاننا ندرك أن كثيرا من الناس

يملكون قدرة النطق ببعض الكلمات العربية ولكن ذلك لا يعني أنهم قادرون على ان يكونوا خطباء أو ادباء أو شعراء، ويتمتعون بالبلاغة والفصاحة أو حتى الاتيان بقطعة كلامية بليغة، كما ان كثيرا من الناس يتمكنون من القيام ببعض الاعمال البسيطة، ولكنهم غير قادرين على القيام بالمشاريع الضخمة التي تتركب من تلك الاعمال البسيطة كمشاريع البناء والصناعة والفن. الصرفة في الاعجاز القرآني: ولعل هذه الشبهة أو الوهم هو الذي أدى بجماعة من متكلمي المسلمين - كالنظام ومدرسته على ما نسب إليهم - الى ان يفسروا ظاهرة الاعجاز القرآني

بانها نحو من الصرفة (١)، حيث يمكن ان يكون قد وجدوا - نتيجة الانطلاق من هذا الوهم - أن القدرة على الاتيان بمثل القرآن الكريم متوفرة، ولكن عدم توفر أشخاص يأتون بمثل القرآن كان نتيجة لتدخل إلهي مباشر (صرفهم) عن المعارضة والمباراة. ولكن هذا التفسير لظاهرة الاعجاز واضح البطلان إذا كانوا يريدون من توفر القدرة عند بعض الناس وجودها فعلا لديهم ولكن الله صرف اذهانهم عن ممارستها، وذلك: ١ - لان محاولة المعارضة قد وقعت من بعض الناس وانتهت الى الفشل والخيبة، كما تحدثنا بذلك كثير من النصوص التأريخية وتدل عليها بعض الوقائع في العصر القريب من قبل بعض المبشرين. ٢ - إن صرف الاذهان انما يفترض بعد نزول القرآن الكريم، وأ ما قبله فلا معنى للصرفة لعدم وجود القرآن، ولذلك ومن أجل التأكد من الاعجاز القرآني ليس علينا الا مقارنة القرآن بالنصوص العربية السابقة على وجوده وملاحظة مدى الامتيازات المتوفرة فيه دونها، بحيث لا يمكن مقايسته بهذه النصوص بل هو يفوقها كما عرفنا في بحث الاعجاز. نعم إذا كان يريد القائلون بالصرفة أن الله سبحانه له القدرة على أن يهب إنسانا ما قدرة على الاتيان بمثل القرآن ولكنه لم يفعل فهذا لا يعني أن القرآن الكريم ليس بمعجزة، لان الهدف الرئيس من المعجزة دلالتها فلا بد ان تكون لها هذه الدلالة، وعنصر التحدي في مثل هذه المعجزة يكون موجودا ما دامت ليست

---

(١) مذهب الصرفة هو فرض أن الناس أو على الاقل البلغاء منهم قادرون على الاتيان بمثل القرآن أو على الاقل بسورة منه، وانما لم يأتوا بذلك مع تحدي القرآن لهم لان الله تعالى صرفهم بقدرته عن القيام بهذا العمل. (*)

تحت قدرة الانسان الاعتيادية بالفعل، وهذا الشئ من الممكن أن يدعى في كل معجزات الانبياء أو المعجزات التي يمكن ان نتصورها. الشبهة الخامسة: إن النقطة الاساسية التي يستند إليها الاعجاز القرآني هي عدم قدرة العرب على معارضته رغم تحدي القرآن الكريم لهم مرة تلو الاخرى ولكن هل العرب حقيقة لم يكونوا قادرين على معارضته ؟ أو أن اسبابا اخرى خارجية هي التي منعتهم عن تحقيق هذه المعارضة ؟ ! وتفرض الشبهة - بصدد الجواب عن هذا التساؤل - عوامل معينة منعتهم عن تحقيق هذه المعارضة وهذه العوامل هي: أن العرب الذين عاصروا الدعوة أو تأخروا عنها بزمن قليل لم يعارضوا القرآن الكريم خوفا على أنفسهم وأموالهم من المعارضة، بسبب سيطرة المسلمين الدينية على الحكم، ومحاربتهم كل من يعادي الاسلام أو يظهر الخلاف معه، ولا شك أن

معارضة القرآن تعتبر في نظر الحكم ممن أبرز أنحاء العداء والمخالفة. وحين انتهت السلطة الى الامويين الذين لم يكونوا مهتمين بالحفاظ على الاسلام والالتزام به الامر الذي كان يفسح المجال لمن يريد أن يعارض القرآن الكريم أن يظهر معارضته كان القرآن في ذلك الحين قد أصبح أمرا معروفا في حياة الامة، مألوفا لديها باسلوبه وطريقة عرضه بسبب رشاقة الفاظه ومتانة معانية، فانصرف الناس عن التفكير بمعارضته لانه أصبح من المرتكزات الموروثة لهم. ويمكن مناقشة هذه الشبهة بملاحظة النقاط التالية: أولا: إن تحدي القرآن الكريم للمشركين كان منذ بداية الدعوة وفي ظروف كان الاسلام فيها ضعيفا تجاه قوة المشركين، حيث مضت ثلاث عشرة سنة من

الزمن على الاقل على نزول القرآن والمسلمون مطاردون وضعفاء سياسيا، وبالرغم من ذلك لم يستطع أحد من بلغاء العرب أن يقوم بهذه المعارضة. ثانيا: إن سيطرة الاسلام في أواخر عصر النبي (صلى الله عليه وآله) وعصر الخلفاء الاربعة الذين جاؤا الى الحكم من بعده لم تكن تعني منع الكفار من اظهار كفرهم، فقد أقر الاسلام جماعات من الكفار على ديانتهم، كما حدث ذلك لاهل الكتاب حيث كانوا يعيشون في ظل الدولة الاسلامية في طمأنينة ورفاهية، لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، فلو كان واحد من هؤلاء قادرا على الاتيان بمثل القرآن الكريم لتصدي لمعارضته والانتصار لديانته على الاسلام، خصوصا وأن الاسلام والقرآن دخلا في مناقشات واسعة مع أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وكانوا يملكون استقلالهم سواء في المدينة أو في خارجها من أراضي الشام وغيرها. ثالثا: إن افتراض الخوف من المعارضة نتيجة للسيطرة الاسلامية انما يمنع من إظهار المعارضة للقرآن الكريم وإعلانها، وأ ما المعارضة السرية فقد كانت من الممكن ان تتم ضمن الحدود الخاصة للمعارضين من أصحاب هذه الديانات دون أن تكون لها نتائج مضادة، ولو كان من الممكن الاتيان بمثل القرآن الكريم لامكن لهؤلاء ان يعارضوه ثم ينتظروا الفرصة السانحة لاظهار هذه المعارضة، خصوصا إذا لاحظنا أن أهل الكتاب ما زالوا يحتفظون بمجموعة من النصوص الدينية لهم ويتداولونها، مع انها تتعارض مع القرآن الكريم في محتوياتها ومضامينها. رابعا: من الملاحظ عادة أن الكلام مهما بلغ من رتبة عالية في البلاغة ومتانة الاسلوب وقوته فانه يصبح كلاما عاديا إذا تكرر سماعه، ولذلك نرى القصيدة البليغة تصبح عادية عندما يتكرر القاؤها عدة مرات، بحيث قد تبدو قصيدة

اخرى اقل منها بلاغة ابلغ منها بسبب عدم تكرارها، وهذا يعني أن الالفة والانس بالقرآن الكريم - لو كان كلاما عاديا - تدعو الى ان يصبح ايسر على المعارضة والاتيان بمثله، لا ان ينصرف الناس عن التفكير بمعارضته نتيجة لانسهم به بالرغم من تحديه المستمر لهم وتعاليه عليهم. الشبهة السادسة: إن القرآن ليس معجزة وان كان يعجز جميع البشر عن الاتيان بمثله، لان المعجزة يجب ان تكون صالحة لان يتعرف جميع الناس على جوانب التحدي فيها، لا نها دليل النبوة التي يراد بواسطتها اثبات النبوة لهم، والكلام البليغ لا يكفي في إعجازه عجز الناس عن الاتيان بمثله، لان معرفة جوانب التحدي والاعجاز فيه من بلاغته وسمو التعبير فيه لا تتوفر الا للخاصة منهم الذين يتكلمون العربية ويعرفون دقائق تركيبها وميزاتها. ويمكن ان تناقش هذه الشبهة بما يلي: أولا: إن هذه الشبهة تتضمن في الحقيقة اعترافا بالاعجاز القرآني، إلا أنها تحاول التهرب من ذلك

باعطاء المعجزة طابعا خاصا يرتبط بمدى دلالتها على دعوى النبوة، فالشبهة لا تناقش الاعجاز من ناحية النقص في التركيب والمضمون القرآني وعدم ارتفاعه الى مستوى التحدي، وانما تناقشه من زاوية افتراض عدم قدرة جميع الناس على فهم هذا الاعجاز واستيعابه، وانما يفهم الخاصة منهم هذا الاعجاز. ثانيا: إن طريق الايمان بالمعجزة لا يتوقف على معرفتها عن طريق التجربة الشخصية المباشرة لها لكل الناس، وانما يمكن ان يتحقق عن طريق معرفة ذوي الاختصاص والخبرة من الناس لها، الشئ الذي يجعلنا نصدق بالمعجزة لعجز هؤلاء الناس المختصين، وهذا هو السبيل الوحيد لايماننا بكثير من حقائق الكون

وخصائص عالم الطبيعة، حيث يحصل لنا اليقين بها عن طريق معرفة ذوي الاختصاص واخبارهم لنا بذلك بشكل لا يداخله الريب أو الشك، كما حصل هذا الشئ بالنسبة الى معجزة العصا التي جاء بها موسى (عليه السلام)، فان عجز السحرة امام موسى وهزيمتهم في المباراة كانا دليلا قاطعا على ان تحول عصا موسى الى (حية) إنما هو معجزة، وإن لم يدرك هذه الحقيقة بشكل مباشر سائر الناس لعدم معرفتهم بشؤون السحر. فحين يقف العرب اجمع وذوو الاختصاص من الدارسين والعلماء باتجاهاتهم المختلفة امام القرآن الكريم، ويعترفون بخصائصه الاعجازية وعجزهم إمام تحديه لهم لا يبقى امامنا شك في اعجاز القرآن الكريم وارتباطه بالسماء. ثالثا: إن فكرة الاعجاز في القرآن الكريم من الممكن ان تشرح وتوضح على نطاق واسع وليس ذلك مما يتعسر فهمها فيفهما الناس على حد سواء، العربي منهم وغير العربي وذوو الاختصاص وغيرهم، لان إعجاز القرآن لا يختص بالجانب البلاغي من اسلوبه، بل هو المعجزة الخالدة التي لا تفنى والتي لا تختص بامة دون اخرى. وقد اشرنا الى بعض الجوانب في الاعجاز القرآني التي لا ترتبط باسلوبه وبلاغته في ابحاثنا السابقة من علوم القرآن (١).

---

(١) منهج السنة الاولى من محاضرات علوم القرآن الكريم (لكلية اصول الدين) والقسم الثاني من هذا الكتاب. اعتمدنا بصورة رئيسة في عرض الشبهات ومناقشتها على دراسة السيد الخوئي (رحمه الله) في كتابه " البيان في تفسير القرآن ". (*)

شبهة المستشرقين حول الوحي ومناقشتها: مقدمة: لقد أثار اعداء الاسلام من جاهليين قدامى ومستشرقين جدد الشبهات الكثيرة حول الوحي القرآني، وكانت تستهدف هذه الشبهات في الغالب تأكيد أن الوحي القرآني ليس مرتبطا بالسماء وانما هو نابع من ذات محمد الانسان (صلى الله عليه وآله). وقد أشار القرآن الكريم الى بعض هذه الشبهات في مواضع مختلفة (١)، وردد بعض المستشرقين هذه الشبهات وغيرها وحاول اضفاء طابع البحث والدراسة وسمات الموضوعية عليها، كما هي الطريقة المضللة المتبعة لديهم في مثل هذه الحالات. ويحسن بنا أن نكون فكرة واضحة عن الوحي الذي نحن بصدد بحث الشبهة حوله ومناقشتها تمهيدا للدخول في صلب الموضوع. ما هو الوحي ؟ الوحي لغة: هو الاعلام في خفاء (٢)، ولكن ما هو الوحي الالهي الذي اختص به الله سبحانه النبيين من عباده، وتجلى بشكل واضح في القرآن الكريم ؟ وبصدد الاجابة عن هذا السؤال يمكن أن نقول: إن كل فكرة يدركها

الانسان فهي ترتبط في وجودها - بسبب أو بآخر - بالله سبحانه وتعالى خالق الانسان ومدبر اموره، لان الله تعالى هو مسبب الاسباب، ولذا تنسب إليه الاشياء في القرآن الكريم، ولكن شعور الانسان تجاه مصدر هذه الفكرة - بالرغم من إدراكه العقلي لهذه الحقيقة - قد يكون مختلفا، ونذكر انحاء ثلاثة لهذا الشعور: أ - أن يشعر بأن الفكرة نابعة من ذاته ووليدة جهده الخاص وادراكه الشخصي.

---

(١) منها الانبياء: ٢١، والدخان: ١٤، والفرقان: ٥، والنحل: ١٠٣، وغيرها. (٢) لسان العرب ١٥: ٣٨١ مادة (وحي). (*)

وهذا الشعور هو ما نحس به في حالات الادراك الاعتيادية تجاه أفكارنا العادية أو المبتكرة نتيجة الجهد العلمي فاننا - مع اعتقادنا بأن أفكارنا منسوبة الى الله تعالى على أساس أنه الخالق المدبر لعالم الوجود بجميع مقوماته، ومنه قدرتنا على التفكر - نشعر وكأن هذه الفكرة وليدة هذا المزيج المركب الذي أودعه الله في انفسنا، وناتجة عن مجموعة المواهب والقدرات الشخصية لنا. ب - ان يشعر الانسان بأن الفكرة قد القيت إليه من طرف آخر وجاءته من خارج ذاته، وشعوره هذا بدرجة من الوضوح بحيث يحس بهذا الالقاء والانفصالية بين الذات الملقية والذات المتلقية، ولكنه مع ذلك كله لا يكاد يحس بالاسلوب والطريقة التي تمت فيها عملية إلقاء الفكرة. وهذا النحو من الشعور تجاه الفكرة هو ما يحصل في حالات (الالهام) الالهي (١). ج - أن يصاحب الشعور الحسي الذي شرحناه في فقرة (ب)، شعور حسي آخر بالطريقة والاسلوب الذي تتم به عملية الالقاء والاتصال، وهذا الحس والشعور - سواء الحس بأن الفكرة جاءت من اعلى أو الحس بأن مجيئها كان بالاسلوب الخاص - لا بد فيه ان يكون واضحا وجليا وضوح ادراكنا للاشياء بحواسنا العادية، غاية الامر في موارد الادراك بالحواس العادية (السمع والبصر واللمس) يكون التلقي بالوسائل المادية التي هي طرق الاثبات العلمية المادية، واما التلقي إذا لم يكن بالادوات الحسية أو كان ولكن الطرف الاخر في الالقاء كان غير حسي فهذا هو ما يحدث في حالات (الوحي) الى الانبياء، أو على الاقل ما حدث في وحي القرآن الكريم الى نبينا محمد (صلى الله عليه وآله). كما تؤكد ذلك مجموعة من الاحاديث التي تصف حالات الوحي الالهي لرسول الله (صلى الله عليه وآله)، نذكر منها ما يلي:

---

(١) قارن ذلك بما ذكره الدكتور صبحي الصالح في كتابه " مباحث في علوم القرآن ". (*)

" عن عائشة، ان الحارث بن هشام سأل النبي (صلى الله عليه وآله) كيف يأتيك الوحي، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): احيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، واحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول. قالت عائشة: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وان جبينه ليتفصد عرقا " (١). وعن عبادة بن الصامت قال: كان النبي (صلى الله عليه وآله) إذا انزل عليه الوحي

كرب لذلك وتربد وجهه (٢). وعنه قال: " كان نبي الله (صلى الله عليه وآله) إذا انزل الوحي نكس رأسه ونكس اصحابه رؤوسهم فلما اتلي عنه رفع رأسه " (٣). " عن زرارة قال: قلت لابي عبد الله (عليه السلام) كيف لم يخف رسول الله (صلى الله عليه وآله) فيما يأتيه من قبل الله ان يكون ذلك مما ينزغ به الشيطان ؟ قال: فقال: إن الله إذا اتخذ عبدا رسولا أنزل عليه السكينة والوقار فكان يأتيه من قبل الله عز وجل مثل الذي يراه بعينه " (٤). " عن الاحول في حديث معتبر قال: سألت ابا جعفر (عليه السلام) عن (الرسول) و (النبي) و (المحدث)، قال: الرسول: الذي يأتيه جبرئيل (عليه السلام) قبلا فيراه ويكلمه، فهذا الرسول، وأما النبي فهو الذي يرى في منامه نحو رؤيا ابراهيم (عليه السلام) ونحو ما كان رآى رسول الله (صلى الله عليه وآله) من أسباب النبوة قبل الوحي حتى أتاه جبرئيل (عليه السلام) من عند الرسالة، وكان محمدا (صلى الله عليه وآله) حين جمع له النبوة وجاءته الرسالة من عند الله يجيئه بها جبرئيل (عليه السلام) ويكلمه بها قبلا، ومن الانبياء من جمع

---

(١) فتح الباري ١: ١٨. دار المعرفة، بيروت. (٢) و (٣) صحيح مسلم ١٥: ٨٩. دار احياء التراث العربي. بيروت. (٤) بحار الانوار ١٨: ٢٦٢ رقم ١٦ عن تفسير العياشي. (*)

له النبوة ويرى في منامه ويأتيه الروح ويكلمه ويحدثه من غير ان يكون يرى في اليقظة، واما المحدث فهو الذي يحدث فيسمع ولا يعاين ولا يرى في منامه " (١). " عن هشام بن سالم، عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال: قال بعض أصحابنا: اصلحك الله أكان رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول: جبرئيل، وهذا جبرئيل يأمرني، ثم يكون في حال اخرى يغمى عليه ؟ قال: فقال أبو عبد الله (عليه السلام) إنه إذا كان الوحي من الله إليه ليس بينهما جبرئيل أصابه ذلك لثقل الوحي من الله، وإذا كان بينهما جبرئيل لم يصبه ذلك، فقال: قال لي جبرئيل، وهذا جبرئيل " (٢). إذن فهناك فرق بين الادراك العادي الذي يكون نتيجة (الموهبة)، وبين (الالهام)، و (الوحي). لان إدراك (الموهبة) في الحقيقة، يعبر عن فكرة يدركها الانسان، مع شعوره بأنها نتيجة للجهد الشخصي، وان كان يدرك بشكل عقلي ومنطقي أنها مرتبطة بسبب أو بآخر بالله سبحانه. والالهام: عبارة عن فكرة يدركها الانسان، مصحوبة بالشعور الواضح، بأنها ملقاة من طرف أعلى منفصل عن الذات الانسانية، وان كان لا يدرك الانسان شكل الطريقة التي تم فيها هذا الالقاء. والوحي: عبارة عن فكرة يدركها الانسان، مصحوبة بالشعور الواضح، بأنها ملقاة من طرف أعلى منفصل عن الذات الانسانية، وشعور آخر واضح بالطريقة التي تم فيها الالقاء، مع وجود عنصر الغيب والخفاء في هذه العملية، ولذا تسمى بالوحي.

---

(١) بحار الانوار ١٨: ٢٦٨ رقم ٣٠ عن امالي الشيخ الطوسي، ورواه البرقي في المحاسن بسند معتبر بهذا المعنى. (٢) المصدر السابق. (*)

الشبهة حول الوحي: هناك ارتباط وثيق بين هذا الموضوع وبحث إعجاز القرآن، لاننا نتعرف من خلال ذلك البحث، على أن القرآن ليس ظاهرة بشرية، ومن ثم ليس من صنع محمد (صلى الله عليه وآله)،

وانما يكشف بجوانب التحدي فيه عن ارتباطه بعالم الغيب، كما اشرنا الى ذلك في بحث اعجاز القرآن. وعلى هذا الاساس: نجد أن مناقشة الشبهات، التي تثار حول الوحي القرآني، لا بد وان تعتمد بصورة رئيسة على نتائج بحث اعجاز القرآن. ولذا فنحن عندما نذكر هنا بعض ما يثار حول الوحي، نقصد بذلك ان نعالج بعض التفاصيل ذات العلاقة بهذه الاثارة دون الجانب الاساسي للمسألة. ولعل من أخبث الاساليب في إثارة الشبهة حول الوحي، هو الاسلوب الذي يحاول ان يضفي على النبي محمد (صلى الله عليه وآله) صفات الصدق والامانة والاخلاص والذكاء، ولكن يفترض أن يتخيل له أنه مما يوحى إليه، وهو ما يسمى بالوحي النفسي، فإن هذا الاسلوب يحاول ان يستر دوافعه المغرضة، بمظاهر الانصاف والمحبة والاعجاب. وهذا الاسلوب طرحه بعض المستشرقين وتبعه بعض المذاهب والاحزاب المادية في البلاد العربية. القرآن وحي نفسي لمحمد (صلى الله عليه وآله): وخلاصة ما قيل في صياغة هذه الشبهة: أن محمدا (صلى الله عليه وآله) قد أدرك بقوة عقله الذاتية، ومما يتمتع به من نقاء وصفاء روحي ونفسي بطلان ما كان عليه قومه من عبادة الاصنام، كما أدرك ذلك أيضا أفراد آخرون من قومه. وأن فطرته الزكية - إضافة الى بعض الظروف الموضوعية كالفقر - حالت دون أن يمارس أساليب الظلم الاجتماعي من الاضطهاد، واكل المال بالباطل، أو

الانغماس بالشهوات، وارتكاب الفواحش كالاستمتاع بالسكر والتسري وعزف القيان وغير ذلك من القبائح. وأ نه طال تفكيره من أجل إنقاذهم من ذلك الشرك القبيح وتطهيرهم من تلك الفواحش والمنكرات. وقد استفاد من النصارى الذين لقيهم في أسفاره أو في مكة نفسها كثيرا من المعلومات عن الانبياء والمرسلين، ممن بعثهم الله في بني اسرائيل وغيرهم، فأخرجوهم من الظلمات الى النور. كما أنه لم يقبل جميع المعلومات التي وصلت إليه من هؤلاء النصارى، لما عرض للنصرانية من الافكار الوثنية والانحرافات، كالوهية المسيح وامه، وغير ذلك من البدع. وأ نه كان قد سمع أن الله سيبعث نبيا مثل اولئك الانبياء من عرب الحجاز بشر به عيسى المسيح وغيره من الانبياء، وتولد في نفسه أمل ورجاء في أن يكون هو ذلك النبي الذي آن اوانه، وأخذ يتوسل الى تحقيق هذا الامل بالانقطاع الى عبادة الله تعالى في خلوته بغار حراء. وهنالك قوي ايمانه وسما وجدانه، فاتسع محيط تفكيره وتضاعف نور بصيرته، فاهتدى عقله الكبير الى الايات والدلائل البينة - في السماء والارض - على وحدانية الله سبحانه خالق الكون ومدبر اموره. وبذلك أصبح أهلا لهداية الناس وإخراجهم من الظلمات الى النور. ثم ما زال يفكر ويتأمل ويتقلب بين الالام والامال، حتى أيقن أنه هو النبي المنتظر الذي يبعثه الله لهداية البشرية، وتجلى له هذا الاعتقاد في الرؤى المنامية، ثم قوي حتى صار يتمثل له الملك يلقنه الوحي في اليقظة. واما المعلومات التي جاءته من هذا الوحي، فهي مستمدة في الاصل من تلك

المعلومات، التي حصل عليها من اليهود والنصارى، ومما هداه إليه عقله وتفكيره في التمييز بين ما يصح منها وما لا يصح، ولكنها كانت تتجلى وكأنها وحي السماء، وخطاب الخالق عز وجل، يأتيه بها الناموس الاكبر، الذي كان ينزل على موسى ابن عمران وعيسى بن مريم، وغيرهما من النبيين (عليهم السلام). مناقشة الشبهة: وإذا أردنا أن ندرس هذه النظرية (نظرية الوحي النفسي)، لا نجدها

تصمد أمام النقد والمناقشة العلميتين، إذ يمكن ان يلاحظ عليها من خلال أبعاد ثلاثة: الاول: أن الدلائل التأريخية القطعية وطبيعة الظروف التي مر بها النبي (صلى الله عليه وآله) تأبى التصديق بهذه النظرية وقبولها. الثاني: أن المحتوى الداخلي للقرآن الكريم - بما يضم من تشريع واخلاق وعقائد وتأريخ - لا يتفق مع هذه النظرية في تفسير الوحي القرآني. الثالث: أن موقف النبي (صلى الله عليه وآله) من الظاهرة القرآنية، يشهد بوضوح على رفض تفسير الظاهرة القرآنية بنظرية الوحي النفسي. أ - الدلائل التأريخية تناقض نظرية الوحي النفسي: لقد ذكر السيد رشيد رضا - بصدد مناقشته للمقدمات التأريخية وغيرها التي رتبها (درمنغام) لعرض نظرية الوحي النفسي - عشر ملاحظات، وسوف نقتصر على تلخيص بعضها: الاولى: أن أكثر المقدمات التي بنى عليها أصحاب النظرية بنيانهم ونظريتهم، لا تقوم على أساس تأريخي صحيح، وانما تنطلق من نقطة مفروضة على البحث بشكل مسبق، وهي أن الوحي القرآني ليس وحيا الهيا منفصلا عن الذات المحمدية، الامر الذي كان يدعو أصحاب النظرية الى اختلاق الحوادث

والاخبار، أو تخيلها من أجل إكمال الصورة الكاذبة ووصل بعض الحلقات ببعضها الاخر. ومن الامثلة على ذلك ما يذكرونه من تفاصيل - ليس لها مصدر تأريخي - في مسألة لقاء الراهب بحيرا مع محمد (صلى الله عليه وآله) وهو بصحبة عمه ابي طالب، الامر الذي يدعوهم الى الاستنتاج وافتراض محادثات دينية وفلسفية معقدة جرت بينهما. وما يذكرونه أيضا بصدد تعليل اطلاعه على أخبار عاد وثمود، من أنه كان نتيجة مروره بأرض الاحقاف، بالرغم من أن هذه الارض لا تقع على الطريق الاعتيادي لمرور القوافل التجارية، كما أن التأريخ لم يذكر لنا مرور النبي بها الى غير ذلك من الاحداث والقضايا. الثانية: أن افتراض تعلم النبي (صلى الله عليه وآله) من نصارى الشام وغيرهم لا يتفق مع واقع الحيرة والتردد في موقف المشركين من دعوة رسول الله ونسبته الرسالة الى الوحي الالهي، لان مثل هذه العلاقة - لو كانت موجودة - لا يمكن التستر عليها أمام أعداء الدعوة من المشركين وغيرهم، الذين عاصروه وعايشوه في مجتمع ضيق وعرفوا أخباره وخبروا حياته العامة بما فيها من سفرات ورحلات. وبالرغم من أن هؤلاء لم يمسكوا عن اطلاق تهم وأراجيف شتى ضد رسول الله (صلى الله عليه وآله) وافترضوا في الوحي الفروض المتعددة، ومنها فرض التعلم والتلقي من أشخاص معينين كالرومي الحداد في مكة (١)، ولكن مع ذلك كله لم يكن ليفرضوا ان يكون قد تعلم من نصارى الشام أو غيرهم من أهل الكتاب. الثالثة: أنه لم يعرف عن الرسول محمد (صلى الله عليه وآله) أنه كان ينتظر أن يفاجأ بالوحي، أو يأمل ان يكون هو الرسول المنتظر، لينمو ويتطور هذا الامل في نفسه، فيصبح

(١) كما عرفنا في بحث اعجاز القرآن وأشار إليه القرآن الكريم بقوله تعالى: (ولقد تعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه اعجمي وهذا لسان عربي مبين) النحل: ١٠٣. (*)

واقعا نفسيا، بالرغم من تدوين كتب السيرة النبوية لادق الاحداث والتفصيلات عن حياة الرسول الشخصية. ولعل من القرائن التأريخية

التي تشهد بكذب هذا الافتراض: هو ما ذكرته كتب السيرة من اضطراب النبي - في البداية - وخوفه حين فاجأه الوحي في غار حراء. الرابعة: أن هذه النظرية تفرض ان يكون إعلان النبوة نتيجة مرحلة معينة من التكامل العقلي والنفسي، ونتيجة مراحل طويلة من المعاناة والتفكير والتأمل والحساب وهذا يستلزم بطبيعة الحال ان ينطلق الرسول في اللحظة الاولى من دعوته الى طرح مفاهيمه وأفكاره ومناهجه عن الكون والحياة والمجتمع بجوانبه المتعددة، لان المفروض أن الصورة كانت متكاملة عنده نتيجة التفكير الطويل ودراسة الكتب واعمال الانبياء السابقين، مع أن التأريخ يؤكد أن اسلوب الدعوة وطريقتها كانا يختلفان عن ذلك تماما، وان البداية كانت هي الخوف والاضطراب ثم الدعوة الى التوحيد، ومن ثم الانطلاق الى المجالات الاخرى سواء على مستوى المفاهيم أو الموقف بشكل تدريجي مع ما كان يتخلل ذلك من حالات ركود وانقطاع في الوحي. ب - المحتوى الداخلي للظاهرة القرآنية يناقض نظرية الوحي النفسي: إن للمحتوى الداخلي للظاهرة القرآنية وما تتصف به من مواصفات، ولسعة النظرية القرآنية وآفاقها المتعددة ومجالاتها المتشعبة، أهمية كبرى في رفض نظرية الوحي النفسي، إذ إن هذه المواصفات وهذا الاتساع والشمول لا يتفق مع طبيعة المصادر التي تفرضها النظرية، ويتضح ذلك عندما نلاحظ الامور التالية: ١ - ان الموقف العام للقرآن الكريم تجاه الديانتين اليهودية والمسيحية هو موقف المصدق لهما والمهيمن عليهما، فقد صدق القرآن الكريم الاصل الالهي لهاتين الديانتين وارتباطهما بالمبدأ الاعلى، ولكنه في نفس الوقت جاء مهيمنا

ورقيبا وحاكما على ما فيهما من ضلالات. وجاءت هذه الرقابة دقيقة شاملة، فلم تترك مفهوما أو حكما أو حادثة الا ووضعت المقياس الصحيح له. ولا يمكن ان نتصور محمدا (صلى الله عليه وآله) وهو يأخذ عن أهل الكتاب ويراهم قد أخذوا عن الوحي الالهي، ومع ذلك يتمكن من ان يصفهم بالجهل والتحريف والتبديل بمثل هذا اليقين والثبات، ثم يوضح الموقف الصحيح في المسائل الكبرى التي اختلفوا فيها أو خالفوا الواقع الصحيح للديانة، ثم تأتي نظريته بعد ذلك كاملة شاملة ودقيقة ليس فيها تناقض ولا اختلاف ! ولكن الحقيقة هي أن محمدا لم يكن قد أخذ منهم شيئا، وانما تلقى كل ذلك عن الوحي الالهي الذي جاء مصداقا لما سبقه من الوحي ومهيمنا على الانحراف والتحريف معا. ٢ - ونجد القرآن أيضا يخالف التوراة والانجيل في بعض الاحداث التأريخية، فيذكرها بدقة متناهية ويتمسك بها بإصرار، في الوقت الذي كان بإمكانه أن يتجاهل بعضها على الاقل، تفاديا للاصطدام بالتوراة والانجيل. ففي قصة موسى: يشير القرآن الى ان التي كفلت موسى هي امرأة فرعون، مع أن سفر الخروج من التوراة يؤكد انها كانت ابنته. كما ان القرآن يذكر غرق فرعون بشكل دقيق، ولا يتجاهل حتى مسألة نجاة بدن فرعون من الغرق مع موته وهلاكه: (فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون) (١). في الوقت الذي نجد التوراة تشير الى غرق فرعون بشكل مبهم، ويتكرر نفس الموقف في قضية العجل، حيث يذكر التوراة ان الذي صنعه هو هارون، وفي قصة

(١) يونس: ٩٢. (*)

ولادة مريم للمسيح (عليهما السلام) وغيرهما من القضايا. ولا يصح لمحمد (صلى الله عليه وآله) وهو الانسان الصادق الامين الذكي ان يذكر هذه التفاصيل التي لا وجود لها في التوراة والانجيل، فيصطدم بالتوراة والانجيل دون سبب معقول، لولا ان يكون قد تلقى ذلك عن طريق الوحي الالهي الذي لا يستطيع مخالفته. ٣ - ان سعة التشريع الاسلامي وعمقه وشموله للمجالات المختلفة من الحياة، مع دقة التفاصيل التي تناولها، والانسجام الكبير بين هذه التفصيلات، برهان واضح على تلقيه ذلك عن طريق الوحي، إذ لم يكن محمد - وهو الانسان الامي، الذي كان يعيش في ذلك العصر المظلم، كما انه قضى اكثر حياة دعوته في خضم الصراع الاجتماعي - ليتمكن بصفته أنسانا ان يفعل ذلك لولا ان يكون قد تلقى ذلك عن طريق الوحي والسماء. ج - موقف النبي من الظاهرة القرآنية شاهد على رفض نظرية الوحي النفسي (١): إن موقف النبي محمد (صلى الله عليه وآله) من الظاهرة القرآنية هو من افضل الشواهد على بطلان نظرية الوحي النفسي، فقد كان النبي محمد (صلى الله عليه وآله) يدرك بشكل واضح الانفصال التام بين ذاته المتلقية والذات الالهية الملقية من أعلى. وهذا الادراك هو حقيقة الوحي الذي اشرنا إليه سابقا، وقد صور الرسول (صلى الله عليه وآله) هذا الوعي والادراك في مناسبات متعددة، وأوضحه للمسلمين فيما روى عنه، حيث قال: " احيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت ما

---

(١) لخصنا هذا الموضوع - بتصرف - عن الدكتور صبحي الصالح في كتابه " مباحث علوم القرآن ": ٣٨ - ٣٨ وهو بدوره أخذه - كما يظهر - من الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه " النبأ العظيم " ومالك بن نبي في كتابه " الظاهرة القرآنية ". (*)

قال، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول " (١). وقد انعكس هذا الشعور الواعي بالانفصال في الوحي، بين الذات الالهية الامرة المعطية والذات المحمدية المخاطبة المتلقية على الظاهرة القرآنية ونصوص القرآن الكريم. وكان له مظاهر عديدة نذكر منها الاشكال الثلاثة التالية: الشكل الاول: الصورة التي يبدو فيها النبي من خلال الظاهرة القرآنية عبدا ضعيفا لله سبحانه، يقف بين يدي مولاه يستمد منه العون ويطلب منه المغفرة ويمتثل أوامره، ونواهيه، ويتلقى منه العقاب بمختلف مراتبه واشكاله، والامثلة القرآنية على ذلك كثيرة: ١ - فالقرآن يصور محمدا (صلى الله عليه وآله) في صورة الانسان المطيع الذي لا يملك لنفسه شيئا، ويخاف ربه إن عصاه، فيلتزم الحدود التي وضعها له ويرجو رحمته وليس من شئ يأتيه الا من قبل ربه، فهو يعترف بالعجز المطلق تجاه إرادة الله أو تبديل حرف من القرآن: (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي ان ابدله من تلقاء نفسي ان اتبع الا ما يوحى الي، إني اخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم * قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا ادراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله افلا تعقلون) (٢). (قل انما انا بشر مثلكم يوحى الي انما الهكم اله واحد...) (٣). (قل لا املك لنفسي نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله ولو كنت اعلم الغيب لاستكثرت

---

(١) بحار الانوار ١٨: ٢٦٠. (٢) يونس: ١٥ - ١٦. (٣) الكهف: ١١٠. (*)

من الخير وما مسني السوء...) (١). (قل لا اقول لكم عندي خزائن الله ولا اعلم الغيب ولا اقول لكم اني ملك ان اتبع الا ما يوحى الي...) (٢). ومن يقرأ هذه الايات القرآنية ونظائرها ويترك لوجدانه الحكم، لا يسعه الا ان يقتنع من اعماق قلبه ونفسه بالفرق بين الذات الالهية الامرة الملقية والذات المحمدية المطيعة المتلقية. ٢ - ثم يزداد هذا الفرق وضوحا بين ذات الله المتكلم منزل الوحي وصفاته، وبين ذات رسوله المخاطب متلقي الوحي وصفاته في الايات التي يعتب الله فيها على نبيه عتابا خفيفا أو شديدا، أو يعلمه فيها بعفوه عنه وغفرانه ما تقدم من ذنبه وما تأخر: فمن العتاب الخفيف المقترن بالعفو خطابه لرسوله في شأن من أذن لهم بالقعود عن القتال في غزوة تبوك: (عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين) (٣). أو في موضع آخر حين يقول: (ليغفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما) (٤). وأشد من هذا ما يوجه الى الرسول (صلى الله عليه وآله) من الانذار والتهديد في مثل قوله تعالى: (يا أيها الرسول بلغ ما انزل إليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس) حيث ورد ذلك في قضية الاعلان بولاية علي (عليه السلام) للامر بعد

---

(١) الاعراف: ٨٨، ١. (٢) الانعام: ٥٠. (٣) التوبة: ٤٣. (٤) الفتح: ٢. (*)

النبي الذي تم في يوم الغدير. حيث تردد النبي في ذلك خوفا من تكذيب المنافقين له، أو ردهم لهذا الامر وادعائهم ان هذا الامر بدوافع القرابة والمحبة الشخصية، أو قوله تعالى: (وان كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذا لاتخذوك خليلا * ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا * اذن لاذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا) (١). وهذا الانذار يبلغ القمة، فيستصغر بعده كل تهديد وكل وعيد حين يقول الله تعالى: (ولو تقول علينا بعض الاقاويل * لاخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * فما منكم من احد عنه حاجزين) (٢). ومن خلال هذه الايات المتوعدة المنذرة وتلك المعاتبة المؤدبة يبدو لنا رسول الله (صلى الله عليه وآله) مخلوقا ضعيفا بين يدي ربه ذي القدرة القاهرة، والقوى الكبرى والارادة التي لا معقب لها. ٣ - ويبدو لنا أيضا: كامل الوعي للفرق بين ذاته المأمورة وذات الله الامرة، وبوعيه الكامل هذا كان (عليه السلام) يفرق بوضوح بين الوحي الذي ينزل عليه وبين أحاديثه الخاصة التي كان يعبر عنها بإلهام من الله، لذلك كان يتعامل مع القرآن بطريقة خاصة، حيث نهى (عليه السلام) أول العهد لنزول الوحي عن تدوين شئ عنه سوى القرآن لكي يحفظ للقرآن صفته الربانية. ويحول دون اختلاطه بشئ ليست له هذه الصفة القدسية (٣)، بينما كان عند نزول الوحي - ولو آية أو بعض آية -

---

(١) الاسراء: ٧٣ - ٧٥. (٢) الحاقة: ٤٤ - ٤٧. (٣) هذا النهي رواه بعض المؤرخين، وإذا صح فهو بالنسبة الى عامة الناس لا الخاصة منهم كعلي بن ابي طالب (عليه السلام) وغيره ممن كان يميز بوضوح بين القرآن وغيره، وان كنا نشك أصلا في وجود مثل هذا النهي، وعلى اي حال فيكفي في هذا الامر اهتمام النبي بتدوين القرآن بشكل مضبوط على ما عرفنا في بحث ثبوت النص القرآني. (*)

يدعو أحد الكتبة فورا ليدون ما نزل من القرآن، وأما أحاديثه الاخرى وحتى الاحاديث القدسية فكان يترك أمرها للمسلمين ليحفظوها بطريقتهم الخاصة. الشكل الثاني: يبدو النبي في القرآن الكريم بمظهر الخائف من ضياع بعض الايات القرآنية ونسيانها، الامر الذي كان يدعوه الى ان يعجل بقراءة القرآن، قبل أن يقضى إليه وحيه ويأخذ بترديده ويجهد نفسه وفكره من اجل ان لا يفوته شئ من ذلك، ويتضح هذا في قوله تعالى: (... ولا تعجل بالقرآن من قبل ان يقضى إليك وحيه وقل رب زدني علما) (١)، ومن اجل ذلك يطمئنه سبحانه ويتعهد له بحفظه وجمعه: (لا تحرك به لسانك لتعجل به * إن علينا جمعه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتبع قرآنه * ثم إن علينا بيانه) (٢). ولا يسعنا ازاء هذه الحقيقة إلا أن نعترف باستقلال ظاهرة الوحي عن ذات النبي استقلالا مطلقا، وتفردها عن العوامل النفسية تفردا كاملا، فالنبي لا يملك حتى استخدام ذاكرته في حفظ القرآن، بل الله يتكفل بتحفيظه اياه، وقانون التذكر نفسه بطل الان سحره وعفا اثره تجاه ارادة الله. فكيف لا يعي النبي - بعد هذا كله - الفرق العظيم بين ذاته المأمورة وذات الله الامرة وهو يرى بنفسه أنه لا يملك من أمر نفسه شيئا ؟ ! الشكل الثالث: يبدو النبي من خلال تأريخ نزول القرآن أنه كان مقتنعا بأن التنزيل القرآني مصحوب بانمحاء ارادته الشخصية، وأ نه منسلخ عن الطبيعة البشرية حتى ما بقي له عليه الصلاة والسلام اختيار فيما ينزل إليه أو ينقطع عنه، فقد يتتابع الوحي

---

(١) طه: ١١٤. (٢) القيامة: ١٦ - ١٩. (*)

ويحمي حتى يشعر انه يكثر عليه، وقد يفتر عنه بل وينقطع وهو يشعر أنه احوج ما يكون إليه. فقد كان الوحي ينزل على قلبه صلوات الله عليه في أحوال مختلفة: أنه ليأوي الى فراشه فما يكاد يغفو اغفاءة حتى ينهض ويرفع رأسه مبتسما، فقد اوحيت إليه سورة الكوثر (الخير الكثير) وانه ليكون وادعا في بيته وقد بقي من الليل ثلثه، فتنزل عليه آية التوبة في الثلاثة الذين خلفوا: (لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والانصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم انه بهم رؤوف رحيم * وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت وضاقت عليهم انفسهم وظنوا ان لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم) (١). إن الوحي لينزل على قلب النبي في الليل الدامس والنهار الاضحيان وفي البرد القارس أو لظى الهجير، وفي استجمام الحضر أو اثناء السفر، وفي هدأة السوق أو وطيس الحرب. ثم ها هو ذا الوحي ينقطع عن النبي، وهو أشد ما يكون إليه شوقا وله طلبا، فبعد أن نزل عليه جبريل بأوائل سورة العلق: (اقرأ باسم ربك الذي خلق) (٢) فتر الوحي ثلاث سنوات فحزن النبي. ثم حمى الوحي وتتابع فاستبشر النبي وتبدل انتظاره الحزين فرحة غامرة، وأيقن أن هذا الوحي الذي استعصى عليه ولم يوافه طوع ارادته، مستقل عن ذاته خارج عن فكره، فاستقر في ضميره الواعي أن مصدر هذا الوحي هو الله علام الغيوب. ومن ذا الذي ينسى كيف ابطأ الوحي بعد (حديث الافك) الذي رمى به

(١) التوبة: ١١٧ - ١١٨. (٢) العلق: ١. (*)

المنافقون زوج النبي (صلى الله عليه وآله)، واثاروا به حولها الفضيحة حتى عصفت بقلب الرسول الريبة، من ذا الذي لا يدرك أن هذه المدة التي تصرمت على الحادثة من غير ان يتلقى النبي خلالها وحيا، كانت أثقل عليه من سنين طويلة، بعد ان خاض المنافقون في زوجه خوضا باطلا ؟ فما بال النبي الذي كان فريسة للشك والقلق يظل صامتا ينتظر واجما يتربص حتى نزلت آيات سورة النور تبرئ ام المؤمنين ؟ وما له لا يسرع الى التدخل في أمر السماء - إذا كان الوحي نفسيا - فيرتدي مسوح الرهبان، ويهي الاسجاع ويطلق البخور، ويبري زوجه من قذف القاذفين ؟ ولقد كان النبي يتحرق شوقا الى تحويل القبلة الى الكعبة، وظل يقلب وجهه في السماء ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا، لعل الوحي ينزل عليه بتحويل القبلة الى البيت الحرام، ولكن رب القرآن لم ينزل في هذا التحويل قرآنا رغم تلهف رسوله الكريم إليه، الا بعد قرابة عام ونصف العام: (قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام...) (١). فلماذا لم يسعف النبي بوحي عاجل يحقق ما يصبو إليه ويتمناه ؟ إن الوحي ينزل ويكثر على محمد (صلى الله عليه وآله) حين يشاء رب محمد (صلى الله عليه وآله) ويفتر إذا شاء له رب محمد (صلى الله عليه وآله) الانقطاع، فما تنفع التعاويذ والاسجاع، ولا تقدم عواطف محمد (صلى الله عليه وآله) ولا تؤخر في امر السماء. وحين نلتفت الى هذه الاشكال الثلاثة بصورها المختلفة، ونضيف إليها البعدين الاخرين السالفين، لا يبقى لدينا مجال لاي تردد في شأن حقيقة الظاهرة القرآنية، وانفصالها عن الذات المحمدية، وبطلان الوحي النفسي وما إليه من شبهات قد تثار.

(١) البقرة: ١٤٤. (*)

المحكم والمتشابه في القرآن المحكم والمتشابه بمعناهما اللغوي: أ - المحكم: قال صاحب القاموس: " احكمه اتقنه فاستحكم ومنعه عن الفساد كحكمه حكما وعن الامر رجعه فحكم منعه مما يريد كحكمه " (١). وقال صاحب لسان العرب: " احكمت الشئ فاستحكم: صار محكما، واحتكم الامر واستحكم: وثق. ونقل عن الزهري ان حكمت تأتي بمعنى احكمت " (٢). وبملاحظة هذين النصين اللغويين نحصل على النتائج الثلاث التالية في شأن هذه المادة لغة: ١ - إن (محكم) مشتق من احكم وحكم. ٢ - إن (حكم) تأتي بمعنى وثق واتقن، فهي ذات معنى وجودي ايجابي. ٣ - إن (حكم) تأتي بمعنى المنع من تسرب الفساد، وهي ذات معنى عدمي سلبي. وقد حاول بعض الباحثين في علوم القرآن ان يرجع مادة الاحكام بمشتقاتها

(١) القاموس - مادة (حكم). (٢) لسان العرب - مادة (حكم). (*)

المتعددة، كالحكم والحكمة وحكم واحكم وغيرها الى معنى واحد يجمعها وهو المنع (١). ولكن المتبادر من مادة (الاحكام) معنى وجودي ايجابي هو: الاتقان والوثوق، كما يشير الى ذلك تصريح أهل اللغة في تفسير اصل المادة، والمنع من تسرب الفساد يمكن ان يكون من مستلزمات هذا المعنى الايجابي (الاتقان) الامر الذي صحح استعمال المادة فيه أيضا مجازا، من باب استعمال اللفظ الموضوع للملزوم في اللازم. ب - المتشابه: قال صاحب القاموس: الشبه (بالكسر والتحريك)... المثل جمعه: اشباه وشابهه وأشبهه: ماثله. وتشابها واشتبها: أشبه كل منهما الاخر حتى التبسا. وامور مشتبهة ومشبهة كمعظمة: مشكلة. والشبهة (بالضم) الالتباس والمثل. وشبه عليه الامر تشبيها: لبس عليه. وفي القرآن المحكم والمتشابه (٢). وقال صاحب لسان العرب: الشبه والشبه والشبيه: المثل، والجمع اشباه. واشبه الشئ الشئ: ماثله. وأشبهت فلانا وشابهته واشتبه علي وتشابه الشيئان واشتبها: أشبه كل واحد منهما صاحبه. والمشتبهات من الامور: المشكلات. والمتشابهات: المتماثلات والتشبيه: التمثيل. والشبهة: الالتباس. وامور مشتبهة ومشبهة: مشكلة يشبه بعضها بعضا. وشبه عليه: خلط عليه الامر حتى اشتبه بغيره (٣).

---

(١) راجع بهذا الصدد الفخر الرازي، التفسير الكبير ٧: ١٧٩ والزرقاني، مناهل العرفان ٢: ١٦٦ ورشيد رضا، تفسير المنار ٣: ١٦٣. (٢) القاموس: مادة (شبه). (٣) لسان العرب - مادة شبه. (*)

وبملاحظة هذين النصين نجد: ١ - أن شابهه وأشبهه بمعنى ماثله. وكذا تشابه واشتبه، ولكنهما يدلان على وجود الوصف في الطرفين، فهو من قبيل المفاعلة. ٢ - أن الشبه يأتي بمعنى المثل، فهو معنى وجودي ذو طابع موضوعي واقعي، ولكنه قد يطلق - في نفس الوقت - على ما يستلزمه احيانا من (الالتباس) الذي هو من المعاني ذات الطابع الذاتي القائم في عالم النفس، بل قد تطلق المادة ويراد منها خصوص نوع من المماثلة المؤدية الى الالتباس، كما قد يرمي الى ذلك صاحب القاموس في قوله الانف: " وتشابها واشتبها أشبه كل منهما الاخر حتى التبسا ". وهذا النوع من الاستعمال نجده في كل مادة تطلق على معنى يقبل الشدة والضعف، حيث قد يكون احد مصاديق المعنى مستلزما وجود شئ آخر. القرآن محكم ومتشابه: لقد جاء في التنزيل وصف جميع القرآن الكريم بأنه كتاب محكم: (الر كتاب احكمت آياته ثم فصلت...) (١). وقال بعضهم في قوله تعالى: (الر تلك آيات الكتاب الحكيم) (٢) إن (حكيم) هنا بمعنى محكم (٣). كما جاء في التنزيل أيضا وصف جميع القرآن بأنه كتاب متشابه: (الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني...) (٤). وفي مقابل هذا الاستعمال الشامل لهذين الوصفين يوجد استعمال آخر لهما في

---

(١) هود: ١. (٢) يونس: ١. (٣) لسان العرب: مادة (حكم) ١٣: ٥٣ ط. دار صادر - بيروت. (٤) الزمر: ٢٣. (*)

التنزيل يطلقهما بشكل يجعل الاحكام مختصا ببعض الايات القرآنية، ويجعل التشابه مختصا ببعض آخر منها، كما جاء ذلك في قوله تعالى: (هو الذي انزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن ام الكتاب واخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا اولو الالباب) (١). ويكاد الباحثون في علوم القرآن يتفقون على تعيين معنى كل من الوصفين في استعمالهما الاول الشامل، حيث يجدون أن العلاقة التي صححت اطلاق وصف الاحكام على الايات القرآنية كلها هي: ما في القرآن من احكام النظم وإتقانه، وما فيه من التماسك والانسجام في الافكار والمفاهيم والانظمة والقوانين. كما يجدون أن العلاقة التي صححت إطلاق وصف (المتشابه) عليه هي: محض (التماثل والتشابه) بين بعضه وبعضه الاخر في الاسلوب والهدف، وسلامته من التناقض والتفاوت والاختلاف: (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) (٢). ولكنهم اختلفوا منذ البداية حين حاولوا ان يحددوا المعنى المراد من هذين الوصفين (المحكم والمتشابه) في الاستعمال الثاني الاية (السابعة من آل عمران)، الامر الذي أدى الى ولادة علم من علوم القرآن سمي: بالمحكم والمتشابه. ومن الواضح أن البحث حين يدور حول فهم المعنى القرآني المراد من كلمتي: المحكم والمتشابه في هذه الاية الكريمة لا يكون بحثا اصطلاحيا ولا شبيها بالمعنى الاصطلاحي - كما هو الحال في البحث عن المراد بالمكي والمدني - لانه يحاول

---

(١) آل عمران: ٧. (٢) النساء: ٨٢. (*)

ان يحقق غاية موضوعية وهي معرفة ما أراده الله سبحانه من هاتين الكلمتين (١). وقد تعددت الاتجاهات والاراء في معنى المحكم والمتشابه المراد من هذه الاية، نظرا لاستمرار البحث فيها منذ العصور الاولى للتفسير، ولاهميتها من ناحية مذهبية، حتى إن بعض الباحثين ذكر ستة عشر رأيا في حقيقة المحكم والمتشابه. سوف نكتفي في بحثنا هذا بدراسة الاتجاهات الرئيسة المهمة منها. مختارنا في المحكم والمتشابه: وتفرض علينا طبيعة البحث أن نذكر الرأي الصواب في تحديد معنى هاتين الكلمتين، ليتضح - في ضوئه - مدى صحة بقية الاتجاهات وانسجامها مع المدلول اللغوي والمحتوى الفكري للاية الكريمة. وبهذا الصدد يجدر بنا ان نستذكر تقسيما تعرضنا له في بحوثنا السابقة، وهو أن التفسير تارة: يكون للفظ، وذلك بتحديد مفهومه اللغوي العام الذي وضع له اللفظ، واخرى: يكون للمعنى، وذلك بتجسيد ذلك المعنى في صورة معينة ومصداق خاص. وعلى أساس هذا التقسيم نتصور التشابه المقصود في الاية الكريمة ضمن نطاق التشابه في تجسيد صورة المعنى وتحديد مصداقه الواقعي الموضوعي، لا في نطاق التشابه في العلاقة بين اللفظ ومفهومه اللغوي (المعنى)، وسواء في هذا النفي التشابه الذي يكون بسبب الشك في اصل وجود العلاقة بين اللفظ والمفهوم اللغوي (المعنى)، كما إذا تردد اللفظ في استعماله بين معنيين أو اكثر قد وضع اللفظ لهما، أو التشابه الذي يكون بسبب الشك في طبيعة هذه العلاقة، كما إذا عرفنا بوجود العلاقة بين اللفظ وأكثر من معنى، ولكن تردد اللفظ بينهما للتردد في

---

(١) قارن بهذا ما ذكره الزرقاني في مناهل العرفان ٢: ١٦٦. (*)

استعماله بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي. وهذا التفسير للتشابه لا نتبناه على أساس عدم صلاحية كلمة التشابه بحدودها اللغوية لاستيعاب هذا اللون من التشابه اللغوي، وانما نقرر ذلك على أساس وجود قرينة خاصة في الاية الكريمة، تجعلها تأبى الانفتاح على هذا اللون من التشابه. وهذه القرينة هي ما نستفيده من قوله تعالى: (... فيتبعون ما تشابه منه...) (١) فان مفهوم (الاتباع) المستفاد من هذه الفقرة لا ينطبق إلا في حالة ما إذا كان للفظ مفهوم لغوي يكون أخذه والعمل به اتباعا له، إذ ليس من اتباع الكلام - اي كلام - ان نأخذ بأحد معانيه المشتركة أو المرددة إذا لم يكن له ظهور فيها، وانما يكون هذا العمل من اتباع الهوى والرأي الشخصي في تعيين المعنى، لان الكلام لا يعينه. وحين نلاحظ استعمال كلمة الاتباع في مجال آخر نجد هذا الاستنساخ أمرا واضحا، فنحن نعرف وجود نصوص كثيرة تأمرنا بضرورة اتباع القرآن الكريم والسنة النبوية والتمسك بهما، فهل نتوهم فيمن يأخذ بأحد المعاني المشتركة للفظ خاص ورد في الكتاب الكريم أو في السنة النبوية أنه متبع للكتاب والسنة ؟ أو لا بد لانطباق هذا المفهوم في حقه من الاخذ بالمعنى الذي يكون للنص ظهور فيه ؟ ولا شك بتعيين الشق الثاني. اذن فالتشابه المقصود في الاية الكريمة نوع خاص، لا بد فيه ان يكون قابلا للاتباع، وهذه القابلية تنشأ من عامل وجود مفهوم لغوي معين للفظ يكون العمل به اتباعا له. فالتشابه لم ينشأ من ناحية الاختلاط والتردد في معاني اللفظ ومفهومه

(١) آل عمران: ٧. (*)

اللغوي، لاننا فرضنا ان يكون للفظ مفهوم لغوي معين، وانما ينشأ من ناحية اخرى وهي الاختلاط والتردد في تجسيد الصورة الواقعية لهذا المفهوم اللغوي المعين، وتحديد مصداقه في الذهن من ناحية خارجية. فحين نأتي الى قوله تعالى: (الرحمن على العرش استوى) (١) نجد للفظ الاستواء مفهوما لغويا معينا اختص به، وهو الاستقامة والاعتدال مثلا، وليس هناك اي تشابه بينه وبين معنى آخر في علاقته باللفظ، فهو كلام قرآني قابل للاتباع ولكنه متشابه، لما يوجد فيه من التردد في تحديد صورة هذا الاستواء من ناحية واقعية، وتجسيد مصداقه الخارجي بالشكل الذي يتناسب مع الرحمن الخالق الذي ليس كمثله شئ. وحين نفهم المتشابه بهذا اللون الخاص لا بد لنا ان نفهم المحكم على اساس هذا اللون الخاص ايضا، وهذا شئ تفرضه طبيعة جعل المحكم في الاية مقابلا للمتشابه، فليس المحكم ما يكون في دلالته اللغوية متعين المعنى والمفهوم فحسب، بل لا بد فيه من التعيين في تجسيد صورته الواقعية وتحديد مصداقه الخارجي، ففي قوله تعالى: (... ليس كمثله شئ...) (٢) نجد الصورة الواقعية لهذا المفهوم متعينة، فهو ليس كالانسان ولا السماء ولا كالارض ولا كالجبال... الى آخره من الاشياء. (فالمحكم) من الايات ما يدل على مفهوم معين، لا نجد صعوبة أو ترددا في تجسيد صورته أو تشخيصه في مصداق معين. و (المتشابه) ما يدل على مفهوم معين تختلط علينا صورته الواقعية ومصداقه الخارجي.

(١) طه: ٥. (٢) الشورى: ١١. (*)

الاتجاهات الرئيسة في المحكم والمتشابه: أ - اتجاه الفخر الرازي: الاتجاه الاول: إن المحكم هو ما يسمى في عرف الاصوليين بالمبين، والمتشابه ما يسمى في عرفهم بالمجمل، وقد جاءت صياغة هذا الاتجاه باساليب مختلفة، ولعل ما ذكره الفخر الرازي في تفسيره الكبير هو أوضح صياغة وأوفاها بالمقصود، قال: " اللفظ الذي جعل موضوعا لمعنى، فاما ان يكون محتملا لغير ذلك المعنى، واما ان لا يكون، فإذا كان اللفظ موضوعا لمعنى ولا يكون محتملا لغيره فهذا هو النص، وأ ما ان كان محتملا لغيره فلا يخلو: إما ان يكون احتماله لاحدهما راجحا على الاخر، وإما ان لا يكون كذلك، بل يكون احتماله لهما على السواء، فان كان احتماله لاحدهما راجحا على الاخر سمي ذلك اللفظ بالنسبة الى الراجح (ظاهرا) وبالنسبة الى المرجوح (مؤولا)، وأ ما ان كان احتماله لها على السوية كان اللفظ بالنسبة اليهما معا (مشتركا) وبالنسبة الى كل واحد منهما على التعيين (مجملا) فقد خرج من التقسيم الذي ذكرناه ان اللفظ إما ان يكون (نصا) أو (ظاهرا) أو (مؤولا) أو (مشتركا) أو (مجملا). أما (النص) و (الظاهر) فيشتركان في حصول الترجيح، إلا أن النص راجح مانع من الغير، والظاهر راجح غير مانع من الغير، فهذا القدر المشترك هو المسمى (بالمحكم)، وأ ما المجمل والمؤول فهما مشتركان في أن دلالة اللفظ عليه غير راجحة وان لم يكن راجحا لكنه غير مرجوح، والمؤول مع أ نه غير راجح فهو مرجوح لا بحسب الدليل المنفرد (١)، فهذا القدر المشترك هو المسمى (بالمتشابه) لان عدم الفهم حاصل في القسمين جميعا.

(١) يقصد بالدليل المنفرد: الدليل والقرينة الخارجية المنفردة عن الكلام واللفظ. (*)

وقد بينا أن ذلك يسمى متشابها، إما لان الذي لا يعلم يكون النفي فيه مشابها للاثبات في الذهن، وإما لاجل أن الذي يحصل فيه التشابه يصير غير معلوم، فاطلق لفظ المتشابه على ما لا يعلم إطلاقا لاسم السبب على المسبب " (١). ويمكن ان نلخص رأي الرازي بالشكل التالي: اللفظ بحسب دلالته على المعنى ينقسم الى أربعة أقسام: أ - النص: وهو ما كانت دلالته على المعنى بالشكل الذي لا تفسح مجالا لاحتمال معنى آخر. ب - الظاهر: وهو ما كانت دلالته على المعنى بشكل راجح مع احتمال معنى آخر. ج - (المشترك) و (المجمل): وهو ما كان دالا على معنيين بشكل متساو. د - المؤول: وهو ما كان دالا على المعنى بشكل مرجوح، فهو عكس الظاهر. و (المحكم): ما كانت دلالته على المعنى من القسم الاول والثاني لوجود الترجيح فيهما. و (المتشابه): ما كانت دلالته على المعنى من القسم الثالث والرابع لاشتراكهما في أن دلالة اللفظ فيهما غير راجحة، وانما سميا متشابها لعدم حصول فهم المعنى فيهما. ويمكن أن نلاحظ على هذا الاتجاه بالملاحظتين التاليتين: ١ - إننا انتهينا من دراستنا الاية الكريمة الى ضرورة الالتزام بأن المتشابه المقصود فيها هو: التشابه في تجسيد صورة المعنى، وتحديد مصداقه، لا التشابه في علاقة اللفظ بالمعنى بقرينة اخذ

مفهوم الاتباع في المتشابه، وهو لا يتحقق في موارد الاجمال اللغوي.

---

(١) الفخر الرازي: التفسير الكبير ٧: ١٨٠. (*)

---

٢ - وحين نساير الفخر الرازي، ونتصور التشابه بسبب علاقة اللفظ بالمعنى، لا نجد هناك ما يبرر حصر نطاق التشابه في هذه العلاقة فحسب، بل يمكننا أن نتصور سببا آخر للتشابه وهو: التشابه بسبب تجسيد صورة المعنى وتحديد مصداقه. والفخر الرازي بتقسيمه السابق يحاول أن يغلق علينا هذا الطريق، حيث لا يتصور التشابه إلا من زاوية علاقة اللفظ بالمعنى، مع أنه يمكن ان يتصور ايضا في علاقة المعنى بتشخيص مصاديقه الواقعية. ب - اتجاه الراغب الاصفهاني: الاتجاه الثاني الذي ذهب إليه الراغب الاصفهاني وهو: أن المتشابه ما اشكل تفسيره لمشابهته بغيره، سواء كان الاشكال من جهة اللفظ أو من جهة المعنى. وقد ذكر الراغب تفاصيل طويلة في شرح هذا الاتجاه قال: " فالمتشابه في الجملة ثلاثة أضرب: متشابه من جهة اللفظ فقط، ومتشابه من جهة المعنى فقط، ومتشابه من جهتهما. والمتشابه من جهة اللفظ ضربان: أحدهما يرجع الى الالفاظ المفردة، وذلك إما من جهة غرابته، نحو الاب ويزفون، وإما من جهة مشاركة في اللفظ، كاليد والعين، والثاني يرجع الى جملة الكلام المركب، وذلك ثلاثة أضرب: ضرب لاختصار الكلام نحو: (وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء...) (١)، وضرب لبسط الكلام نحو: (... ليس كمثله شئ...) (٢) لانه لو قيل ليس مثله شئ كان اظهر للسامع، وضرب لنظم الكلام نحو: (... أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا * قيما...) (٣) تقديره

---

(١) النساء: ٣. (٢) الشورى: ١١. (٣) الكهف: ١ و ٢. (*)

الكتاب قيما ولم يجعل له عوجا، وقوله: (... ولولا رجال مؤمنون...) (١) الى قوله: (... لو تزيلوا...). والمتشابه من جهة المعنى أوصاف الله تعالى واوصاف يوم القيامة، فان تلك الصفات لا تتصور لنا إذ كان لا يحصل في نفوسنا صورة ما لم نحسه أو لم يكن من جنس ما نحسه. والمتشابه من جهة المعنى واللفظ جميعا خمسة أضرب، الاول: من جهة الكمية، كالعموم والخصوص نحو: (... فاقتلوا المشركين...) (٢) والثاني من جهة الكيفية، كالوجوب والندب نحو: (... فانكحوا ما طاب لكم...) والثالث من جهة الزمان كالناسخ والمنسوخ نحو: (... اتقوا الله حق تقاته...) (٣)، والرابع من جهة المكان والامور التي نزلت فيها نحو: (... وليس البر بان تأتوا البيوت من ظهورها...) (٤) وقوله (انما النسئ زيادة في الكفر...) (٥) فان من لا يعرف عادتهم في الجاهلية يتعذر عليه معرفة تفسير هذه الاية، والخامس من جهة الشروط التي بها يصح الفعل أو يفسد، كشروط الصلاة والنكاح. وهذه الجملة إذا تصورت علم ان كل ما ذكره المفسرون في تفسير المتشابه لا يخرج عن هذه التقاسيم (٦). ويلاحظ على هذا الاتجاه بالملاحظة الاولى التي ذكرناها في

مناقشة الاتجاه الاول، ولكنه يتفادى الملاحظة الثانية حيث ينفتح على تصور التشابه بسبب المعنى، بغض النظر عن اللفظ وعلاقته بالمعنى.

---

(١) الفتح: ٢٥. (٢) التوبة: ٥. (٣) آل عمران: ١٠٢. (٤) البقرة: ١٨٩. (٥) التوبة: ٣٧. (٦) مفردات الراغب الاصفهاني: مادة شبه. (*)

ج - اتجاه الاصم: الاتجاه الثالث: المحكم من الايات ما كان دليله واضحا لائحا، كدلائل الوحدانية والقدرة والحكمة. والمتشابهات ما يحتاج في معرفتها الى تأمل وتدبر وقد نسب الفخر الرازي هذا الاتجاه الى الاصم (١). ويلاحظ على هذا الاتجاه: أنه يرجع الاحكام والتشابه الى عامل خارجي لا ينبع من نفس الكتاب الكريم، وهذا العامل الخارجي هو مدى وضوح الدليل وخفائه على متبنيات القرآن الكريم ومفاهيمه، في الوقت الذي تدل الاية الكريمة على أن الاحكام والتشابه ينشآن من عامل داخلي يرتبط بالكتاب نفسه، ولذلك ينفتح مجال استغلال اتباع المتشابه في الفتنة، وحين يكون الدليل على احدى دعاوى القرآن الكريم غير واضح على سبيل الفرض لا يكون استغلاله اتباعا للقرآن ابتغاء الفتنة، وانما يكون نقدا للقرآن الكريم نفسه. أضف الى ذلك أنه على اساس هذا التفسير للمحكم لا يمكننا ان نفهم المحكم على أنه ام الكتاب، بعد ان كان الدليل الخارجي هو العامل في الاتقان والوثوق لانفس الاية الكريمة.
د - اتجاه ابن عباس: الاتجاه الرابع: ان المحكم ما يؤمن به ويعمل به، والمتشابه ما يؤمن به ولا يعمل به، وقد صيغ هذا الاتجاه بأساليب مختلفة نسب بعضها الى ابن عباس، وبعضها الى ابن تيمية (٢) وقد ورد هذا التفسير للمحكم والمتشابه في بعض النصوص المروية عن أهل البيت (عليهم السلام) (٣).

---

(١) الفخر الرازي، التفسير الكبير ٧: ١٧٢. (٢) العلامة الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن ٣: ٣٣. (٣) تفسير العياشي ١: ١١، الحديث ٦. (*)

ولعل هذا الاتجاه يقوم على أساس فهم حرمة العمل بالمتشابه من الاية الكريمة، ولزوم الايمان به فحسب، بخلاف المحكم فانه مما يؤمن به ويعمل به أيضا. وقد لاحظ العلامة الطباطبائي على هذا الاتجاه بأنه لا يقوم بتحديد معنى المحكم والمتشابه - كما هو المقصود - وانما يبين حكما من أحكامها، وهو لزوم الايمان والعمل معا بالمحكم والايمان فقط بالمتشابه. ونحن بحاجة الى تعيين معنى كل واحد من المحكم والمتشابه في المرحلة الاولى ليمكن ترتيب الاثر عليهما، لنعمل بالاول ونكتفي بالايمان بالثاني (١). ويمكن ان نضيف الى ذلك أن الاية الكريمة لا تمنع من العمل بالمتشابه، وانما تحرم اتباع المتشابه بقصد الفتنة والتأويل، دون العمل به بعد ارجاعه الى المحكم. ولعل هذا هو المقصود من حرمة العمل بالمتشابه، اي حرمة العمل به وحده دون ارجاعه الى المحكم. هـ - اتجاه ابن تيمية: الاتجاه الخامس: ان المتشابه هو آيات الصفات خاصة أعم من صفات الله سبحانه، كالعليم والقدير والحكيم والخبير. وصفات انبيائه كقوله تعالى في عيسى ابن مريم (عليهما السلام): (... وكلمته القاها الى مريم وروح منه...) (٢) وما يشبه ذلك (٣). ويكاد ينهج الاتجاه

الخامس المنهج الذي سار عليه الاتجاه الرابع، حيث لا يعطينا تحديدا معينا للمحكم والمتشابه، وانما يعرفنا على المتشابه من خلال ذكر بعض مصاديقه وأمثلته كالصفات. أضف الى ذلك أنه لا مبرر لحصر المتشابه في الصفات دون غيرها في الوقت

---

(١) العلامة الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن ٣: ٣٦. (٢) النساء: ١٧١. (٣) العلامة الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن ٣: ٣٦. (*)

الذي نجد أن اكثر المفاهيم التي تتحدث عن عوالم يوم القيامة تشترك مع الصفات في التشابه، وكذلك بعض المفاهيم التي تتحدث عن عالم الغيب بشكل عام، مع أ نها ليست من الصفات في شئ، على أن التشابه في صفات الانبياء انما كان بسبب إضافة هذه الصفة الى الله سبحانه كما في الاية الكريمة، واما صفة النبي باعتباره انسانا فليس فيها تشابه. و - اتجاه العلامة الطباطبائي (قدس سره): الاتجاه السادس: ما تبناه السيد الطباطبائي (قدس سره) في تفسيره (الميزان) بعد ان ناقش الاتجاهات المختلفة في تحديد معنى المحكم والمتشابه قال: " ان الذي تعطيه الاية في معنى المتشابه ان تكون الاية - مع حفظ كونها آية - دالة على معنى مريب مردد، لا من جهة اللفظ بحيث تعالجه الطرق المألوفة عند أهل اللسان كارجاع العام والمطلق الى المخصص والمقيد ونحو ذلك، بل من جهة كون معناها غير ملائم لمعنى آية اخرى لا ريب فيها تبين حال المتشابه " (١). وقال في موضع آخر: " إن المراد بالتشابه كون الاية لا يتعين مرادها لفهم السامع بمجرد استماعها، بل يتردد بين معنى ومعنى، حتى يرجع الى محكمات الكتاب فتعين هي معناها وتبينها بيانا، فتصير الاية المتشابهة عند ذلك محكمة بواسطة الاية المحكمة، والاية المحكمة محكمة في نفسها " (٢). ويمكننا ان نوضح رأي العلامة الطباطبائي في هذا البحث بالنقاط التالية: ١ - إن التشابه لا ينشأ من دلالة اللفظ على المعنى، حيث يجب أن تكون الاية المتشابهة دالة على معنى معين عرفي. ويستند هذا الالتزام الى أن التشابه في الاية الكريمة أخذ بالشكل الذي يمكن

---

(١) العلامة الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن ٣: ٤٠. (٢) المصدر السابق ٣: ١٩. (*)

استغلاله في مجال الفتنة، وإذا لم يكن اللفظ له ظهور في معنى معين لا يمكن استغلاله في مجال الفتنة، حيث " جرى دأب أهل اللسان في ظرف التفاهم ان (لا يتبعوا) ما هذا شأنه من الالفاظ، فلم يقدم على مثله أهل اللسان، سواء في ذلك أهل الزيغ منهم والراسخون في العلم " (١). ٢ - أن تكون الاية المتشابهة دالة على معنى يتعارض مع مدلول آية اخرى غير مريب وهي الاية المحكمة، ويستند هذا الاتزام الى أن الايات المحكمة هي ام الكتاب وتعني الامومة هذه حل التشابه عند الرجوع الى المحكمات بالشكل الذي يتعين به مدلول الاية المتشابهة على ضوء مدلول الاية الاخرى المحكمة، وهذا لا يتحقق إذا لم يكن تعارض بين الايتين (٢). ٣ - أن يكون المعنى المدلول للاية المتشابهة مرددا ومريبا. ويستند هذا

الشرط الى ضرورة وجود المقياس الذي نرجع إليه في معرفة الاية المحكمة الام من الاية المتشابهة التي نرجع إليها - بعد وجود التعارض بينهما - وهذا المقياس هو ريب المعنى في المتشابه واستقراره في المحكم. ٤ - إن ظاهر الاية (السابعة من آل عمران) هو انقسام الايات القرآنية بشكل استيعابي الى المحكم والمتشابه بحيث تنعدم الواسطة (٣). ويمكننا أن نلاحظ على هذا الاتجاه بعدة ملاحظات: فأولا: نجد هذا الاتجاه غير قادر على تحديد الموقف تجاه الايات التي تكون دالة على معنى مردد بين معنى مريب ومعنى غير مريب، لان هذه الايات لا تكون واجدة لميزان المتشابه لفقدانها الظهور اللفظي، كما انها غير محكمة لما فيها من

---

(١) المصدر السابق ٣: ٣٣. (٢) المصدر السابق: ٤٣. (٣) المصدر السابق ٢: ٣٢. (*)

التردد في الدلالة على المعنى. وحين يعجز الاتجاه عن تحديد موقفه من هذه الايات نجد النقطة الرابعة غير واردة في المحكم والمتشابه، وقد يتشبث هذا الاتجاه بالمذهب الذي يقول بضرورة ان تكون جميع الايات القرآنية ظاهرة في معان معينة، على اساس أن القرآن الكريم كتاب هدى ونور مبين، وحينئذ فلا يبقى مجال لمثل هذه الفرضية في آيات القرآن الكريم. ولكن هذه الضرورة القرآنية انما يلتزم بها في الحدود التي تقول بعدم وجود آية قرآنية غامضة بشكل مطلق، بحيث لا يوجد في القرآن ما يوضحها ويفسرها، والا فمن الممكن الالتزام بوجود آيات قرآنية مجملة الدلالة - من ناحية مفهومها اللغوي - مع الالتزام بوجود ما يوضحها في القرآن الكريم نفسه، وهذا الالتزام لا يزيد عن الالتزام - من حيث الروح - عن الالتزام الذي آمن به هذا الاتجاه بان يكون اللفظ ظاهرا في معنى مريب يفسره المحكم. وبعد هذا لا مجال لادعاء أن الاية المتشابهة لا بد وان تكون ظاهرة في معنى، إذ يكشف هذا عن التزام غريب من القرآن الكريم، يتلخص في أنه كلما اراد معنى غير مريب من لفظ غير ظاهر فيه يستعمل لفظا ظاهرا في معنى مريب، ويكشف عن ارادته للمعنى غير المريب بواسطة المحكم، دون ان يستعمل اللفظ في معنى مردد بين المريب وغير المريب، ويكشف عن هذا التردد بواسطة المحكم. وثانيا: إن هذا الاتجاه يلتزم بضرورة قيام الاية المحكمة بدور احكام الاية المتشابهة بعد ارجاعها إليها، مع أن الاية المحكمة لا تقوم الا بدور تضييق نطاق تصور المعنى في الاية المتشابهة، في ضوء ما تعطيه الاية المحكمة من معنى، لا ان تجعل من الاية المتشابهة آية محكمة، بشكل تتحدد صورة معناها ويتجسد مصداقه.

إذ يكفي في صدق مفهوم الاحكام على الاية ان تقوم بدور الوقاية من تسرب صور ومصاديق المعاني الباطلة الى المعنى المتشابه، وهذا يكون في بعض الاحيان نتيجة طبيعية لتصورنا للمحكم والمتشابه، حيث اخذناه على اساس التشابه في تحديد صورة المعنى ومصداقه، لا في تحديد مدلول اللفظ ومعناه. وبهذا نجد الفرق بين احكام القرينة اللفظية لذي القرينة بشكل يجعله مختصا بمعنى خاص، وبين احكام الاية المحكمة للاية المتشابهة، مع أننا نتصور هذا الشئ في القرينة اللفظية ايضا. وثالثا: إن هذا الاتجاه يلتزم بضرورة التعارض المفهومي بين المحكم والمتشابه - كما جاء في النقطة الثانية - في الوقت الذي عرفنا أن الاية المتشابهة لا تدل

على مفهوم لغوي باطل، ليلتزم بتعارضه مع المفهوم اللغوي للاية المحكمة، وانما ينشأ الزيغ من محاولة تأويل الاية المتشابهة الذي يعني تجسيدها في مصداق معين وصورة محددة، الامر الذي يفرض علينا الرجوع الى المحكم في محاولة تحديده وتجسيده. وهذا الشئ هو الذي يستفاد من معنى الاية الكريمة حيث إن الاية المتشابهة لو كانت دالة - بحسب ظهورها - على معنى باطل لكان مجرد اتباعه زيغا دون محاولة تأويله، مع أن الاية تقول: إنهم يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله. ونخلص من مجموعة هذه الاراء والمناقشات الى تلخيص الرأي المختار بالنقاط التالية: ١ - إن الاية المتشابهة لا بد وان تكون ذات ظهور خاص في معنى لغوي معين، بقرينة قوله تعالى: (فيتبعون). ٢ - إن المعنى الذي تدل عليه الاية المتشابهة لا يكون بمفهومه اللغوي باطلا وانما يكون صحيحا، والفتنة والزيغ انما يكونان بمحاولة تجسيده في صورة

ومصداق باطلين. ٣ - إن التشابه انما يكون في المعنى نفسه، وذلك بتحديد صورة المعنى وتجسيد مصداقه، لا في علاقة المعنى باللفظ، والاحكام ما يكون قبال هذا التشابه، بان تكون صورة المعنى المحكم محددة ومصداقه الواقعي مجسدا، بشكل يستقر إليه القلب ولا يتردد فيه. فأي معنى قرآني إذا لاحظناه: فان كنا نتردد في تحديد صورته وتجسيد مصداقه فهو معنى متشابه، والاية التي تتضمنه آية متشابهة. وان كنا لا نتردد في تحديد صورته وتجسيد مصداقه، وانما يركن القلب والعقل الى صورة واضحة ومصداق معين فهو معنى محكم، والاية التي تتضمنه آية محكمة. الحكمة في وجود المتشابه في القرآن الكريم: لقد تعرض الباحثون في علوم القرآن لهذا البحث، وذكروا لاثارته سببين: الاول: ان القرآن الكريم كتاب هداية ونور مبين، ووجود المتشابه فيه لا يتفق مع هذه الحقيقة، لان المتشابه لا يعلمه الا الله والراسخون في العلم. الثاني: ما اشار إليه الفخر الرازي ونسبه الى الملاحدة: ان وجود المتشابه في القرآن كان سببا لاختلاف المذاهب والاراء، وتمسك كل واحد منها بشئ من القرآن بالشكل الذي ينسجم مع متبنياته، وهذا يناقض الاهداف التي جاء من اجلها القرآن الكريم. ولذا عمل الباحثون في علوم القرآن على استكشاف وجوه الحكمة في وجود المتشابهات في القرآن، وعلى هذا الاساس ذكرت وجوه متعددة ومختلفة تتأرجح

بين الضعف وغاية القوة والمتانة (١). وسوف نشير في بحثنا الى بعضها، مع مناقشة ما يستحق النقد منها. الاول: ما ذكره الشيخ محمد عبده: ان الله سبحانه انزل التشابه ليمتحن قلوبنا في التصديق به، فانه لو كان كل ما ورد في الكتاب واضحا لا شبهة فيه عند احد من الاذكياء ولا من البلداء، لما كان في الايمان به شئ من معنى الخضوع لما انزل الله تعالى، والتسليم لما جاءت به رسله (٢). وقد ناقشه العلامة الطباطبائي بان الخضوع هو انفعال معين، وتأثر خاص من قبل الضعيف في مقابل القوي، ولا يكون ذلك من الانسان الا لما يدرك عظمته، أو لشئ لا يتمكن من ادراكه لعظمته وكبره، كقدرة الله وعظمته وسائر صفاته التي إذا واجهها العقل رجع القهقرى لعجزه عن الاحاطة به، وهذان الامران غير واردين في المتشابه، لانه وان كان من الامور التي لا يدركها العقل ولا ينالها، ولكنه يغتر باعتقاده لادراكها وحينئذ قد يزيغ الانسان فيغتر بادراكه لكنهه، ومن هنا جاء تمحيص القلوب بالمتشابه، فإذا صدق الانسان به واستسلم له فهو قد ثبت على الايمان، وإذا اغتر به وحاول معرفة

تأويله فقد زاغ قلبه. وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم حيث قال: (... والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا...) (٣) فهو شئ تمحص به القلوب، فمن كان في قلبه مرض وزيغ اتبعه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله. ولكن هذا التفسير انما ينفع في بعض آيات المتشابه، التي هي من قبيل مفاهيم

---

(١) راجع بهذا الصدد الفخر الرازي، التفسير الكبير ٧: ١٨٤ - ١٨٥، والسيوطي، الاتقان ٢: ١٢ - ١٣، والزرقاني، مناهل العرفان ٢: ١٧٨ - ١٨١. (٢) رشيد رضا، تفسير المنار ٣: ١٧٠. (٣) آل عمران: ٧. (*)

عالم الغيب، كاللوح والعرش والقلم، حيث يكون موقف الانسان منها هو الايمان المطلق بها، واما الايات المتشابهة التي يمكن فهمها بعد عرضها على المحكم فلا بد ان يكون لوجودها غرض آخر وهو الهدى المترتب عليها. الثاني: ما ذكره الشيخ محمد عبده أيضا: ان وجود المتشابه في القرآن كان حافزا لعقل المؤمن الى النظر، كي لا يضعف فيموت، فان السهل الجلي جدا لا عمل للعقل فيه، والعقل اعز القوى الانسانية التي يجب تربيتها، والدين اعز شئ على الانسان، فإذا لم يجد العقل مجالا للبحث في الدين يموت عامل العقل فيه، وإذا مات فيه لا يكون حيا بغيره (١). وقد ناقشه العلامة الطباطبائي: ان القرآن الكريم اهتم بالعقل وتربيته اهتماما بالغا، فامر باستعمال العقل في الايات (الافاقية) (والانفسية) اجمالا في بعض الموارد، كما فصل ذلك في موارد اخرى، كالامر بالتدبر في خلق السماوات، والارض، والجبال، والشجر، والدواب، والانسان، واختلاف الالسنة والالوان، كما حث على التفكير والسير في الارض والنظر في احوال الماضين، وحرض العقل والفكر ومدح العلم بابلغ المدح، وفي كل ذلك ما يغني عن سلوك طريق آخر هو انزال المتشابهات الذي يكون مزلقة للاقدام ومصرعا للعقل (٢). الثالث: ما ذكره الشيخ محمد عبده ايضا: ان الانبياء بعثوا الى جميع الاصناف من عامة الناس وخاصتهم، وفيهم العالم والجاهل والذكي والبليد، وهناك من المعاني ما لا يمكن التعبير عنه بعبارة تكشف عن حقيقته وتشرح كنهه، بحيث يفهمه الجميع على السواء، وانما يفهمه الخاصة منهم عن طريق الكناية والتعريض، ويؤمر العامة بتقويض الامر فيه الى الله تعالى عند حد المحكم، فيكون لكل نصيبه

---

(١) رشيد رضا، تفسير المنار ٣: ١٧٠. (٢) الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن ٣: ٥٨. (*)

على قدر استعداده (١). وقد ناقشه العلامة الطباطبائي: بان الكتاب الكريم كما يشتمل على المتشابهات كذلك يشتمل على المحكمات التي تبين هذه المتشابهات عند الرجوع إليها، ولازم ذلك أن لا تتضمن المتشابهات من المعاني ما هو أزيد مما تكشف عن المحكمات، وعند ذلك يبقى سؤالنا: (ما فائدة وجود المتشابهات في الكتاب واي حاجة إليها مع وجود المحكمات ؟) على حاله. والسبب في هذا الاشتباه الذي وقع فيه الشيخ محمد عبده: أنه اخذ المعاني نوعين متباينين: الاول: معان يفهمها جميع المخاطبين من العامة والخاصة وهي مداليل المحكمات. الثاني: معان لا يدرك

حقيقتها الا الخاصة ولا يتلقاها غيرهم وهي المعارف الالهية والحكم الدقيقة، فكان من نتيجته أن من المتشابهات ما لا ترجع معانيها الى المحكمات، وقد مر أن ذلك مخالف لمنطوق الايات الدالة على أن القرآن يفسر بعضه بعضا وغير ذلك (٢). ويمكن ان نلاحظ على المناقشة: أنه ما هو الشئ الذي يمنع من وجود هذين القسمين من المعاني ؟ إذا كان المانع من ذلك هو ما يشير إليه العلامة الطباطبائي من امومة المحكمات للمتشابهات... فقد عرفنا أن هذه الامومة لا تعني اكثر من وضع حدود خاصة معينة للمتشابهات تمنع عن الزيغ فيها، وتسقط من الحساب جميع الصور والتجسيدات غير المنسجمة مع روح القرآن. وهذا لا يعني تحديد الصورة الحقيقية للمعنى المتشابه، وتعيينها في مصداق

---

(١) رشيد رضا، تفسير المنار ٣: ١٧٠ - ١٧١. (٢) الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن ٣: ٥٨. (*)

خاص حتى تختفي الفائدة منه، فقوله تعالى: (... ليس كمثله شئ...) (١) محكم يسقط من الحساب جميع التجسيدات التي (تشبه الاشياء) في مفهوم (الاستواء) على العرش في قوله تعالى: (الرحمن على العرش استوى) (٢) ولكنه لا يعطينا الصورة الواقعية والمصداق المجسد لهذا (الاستواء)، فهو معنى لا يمكن ان نفهمه من ذلك المحكم: (ليس كمثله شئ). وإذا عرفنا دور المحكم تجاه المتشابه أمكننا ان نتصور بسهولة: أن بعض المعاني لا يدركها - على مستوى المصداق - الا الراسخون في العلم دون العامة، خصوصا المعاني التي ترتبط ببعض المعلومات الكونية الطبيعية، كجريان الشمس: (والشمس تجري لمستقر لها...) (٣) أو تلقيح الرياح: (وأرسلنا الرياح لواقح...) (٤) أو جعل الماء مصدرا للحياة: (... وجعلنا من الماء كل شئ حي...) (٥) فان كل هذه المعلومات حين تنكشف لدى العلماء تكون من المعلومات التي اشار إليها القرآن الكريم، ويعرفها الخاصة من الناس دون غيرهم. والعلامة الطباطبائي نفسه تصور هذا التمايز بين الناس في الادراك للمعاني، وإن حاول ان يصوغه بشكل آخره " فظهر ان للناس - بحسب مراتب قربهم وبعدهم منه تعالى - مراتب مختلفة من العمل والعلم، ولازمه ان يكون ما يتلقاه أهل واحدة من المراتب والدرجات غير ما يتلقاه أهل المرتبة والدرجة الاخرى

---

(١) الشورى: ١١. (٢) طه: ٥. (٣) يس: ٣٨. (٤) الحجر: ٢٢. (٥) الانبياء: ٣٠. (*)

التي فوق هذه أو تحتها، فقد تبين للقرآن معان مختلفة مترتبة " (١). فهو يتعقل في المعنى القرآني التعدد، ولكنه يتصوره على اساس التعدد في الدرجة والمرتبة للمعنى الواحد، كما يتعقل في الفهم الانساني هذا التعدد ايضا. وحين نتعقل ذلك لا يبقى ما يمنع ارادة القرآن الكريم بآية معينة مرتبة ودرجة خاصة من معنى معين دون غيرها، وحينئذ لا يقدر على فهم هذه المرتبة والدرجة الا ذلك القريب من الله. الرابع: ما ذكره العلامة الطباطبائي: ان التربية الاسلامية سارت على منهج معين، يقوم على اساس فرض الواقع للانسان، وعلاقته بالله سبحانه خالق الكون ومدبر اموره، وبالمعاد

والجزاء. وهذا المنهج يتلخص في: أن عامة الناس لا تكاد تتجاوز افهامهم وعقولهم المحسوسات المادية الى عالم ما وراء الطبيعة، ولا يمكن ان يعطى انسان ما معنى من المعاني، الا عن طريق تصوراته ومعلوماته الذهنية التي حصلت له خلال حياته المادية والعقلية، والناس في هذه التصورات والمعلومات على مراتب ودرجات، تختلف باختلاف الممارسة المادية والعقلية. والهداية القرآنية ليست مختصة بجماعة دون اخرى، وانما هي هبة الله سبحانه للناس كافة. وهذا الاختلاف في الفهم وعموم الهداية القرآنية: يفرضان ان يسوق القرآن الكريم بياناته مساق الامثال، بان يستثمر ما يعرفه الانسان ويعهده في ذهنه من المعاني والصور، ليبين ما لا يعرفه من هذه المعاني والصور. وقد يكون ذلك في القرآن الكريم، مع عدم وجود التوافق الكلي بين المعنى الذي يعرفه الانسان مسبقا والمعنى الجديد الذي يحاول القرآن الكريم تعريف

---

(١) الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن ٣: ٦٧. (*)

الانسان عليه، وانما يلحظ القرآن جانبا معينا من الانسجام والتوافق، كما نفعل ذلك في حياتنا العملية، حين نستثمر الاوزان والمكاييل للتعريف بالمواد الغذائية وغيرها، مع عدم وجود التوافق بينها وبين المواد الغذائية، في شكل أو صورة أو حجم. وحين نستعمل الصورة المادية المحسوسة - التي عرفها الانسان في حياته - كأمثال للمعارف الالهية المجردة يقع الفهم الانساني في ادراكه لهذه المعارف الممثلة بين أمرين، قد يستلزم كل منهما محذورا: الاول: الجمود بهذه المعارف في مرتبة الحس المادي، وحينئذ تنقلب عن واقعها المجرد الذي استهدفته الهداية القرآنية. الثاني: الانعتاق من الاطار المادي للمثال، والقيام بعملية تجريد للخصوصيات غير الداخلة في التمثيل، وهذا يستلزم - احيانا - الزيادة والنقيصة في هذه العملية أو الشدة والضعف. ولذا نجد القرآن يلجأ الى عملية واسعة في التمثيل تفاديا لهذه المشاكل العقلية والنفسية، وذلك بتوزيع المعاني التي يريد من الانسان ادراكها، وتربيته على تصورها الى امثال مختلفة، وجعلها في قوالب متنوعة، حتى يفسر بعضها بعضا، ويوضح بعضها امر بعض، لينتهي الامر الى تصفية عامة تؤدي الى النتيجتين التاليتين: الاولى: ان البيانات القرآنية ليست الا امثالا، لها في ما ورائها حقائق ممثلة، وليس الهدف والمقصود منها مرتبطا باللفظ المأخوذ من الحس والمحسوسات، فنتخلص بذلك من محذور الجمود. الثانية: بعد الالتفات الى أن البيانات القرآنية امثال نعلم حدود المعنى الالهي المقصود من وراء هذه البيانات، حين نجمع بين هذه الامثال المتعددة وننفي بكل

واحد منها خصوصية من الخصوصيات المأخوذة من عالم الحس، الموجودة في المثال الاخر، فنطرح ما يجب طرحه من الخصوصيات المحيطة بالكلام، ونحتفظ بما يجب الاحتفاظ به منها (١). ولا شك ان هذا الوجه من أروع ما قيل في تفسير ظاهرة وجود المتشابه، ويمكن ان يعتبر تعليلا وجيها لورود الكثير من الايات المتشابهة، ولكننا لا نقبله تعليلا شاملا لكل ما ورد في القرآن من المتشابهات، حيث نرى أن بعضها لا يمكن تحديد مصداقه بشكل قاطع، بناء على مذهبنا في حقيقة المتشابه الذي عرفنا فيه أن المفهوم اللغوي له

مفهوم صحيح، وليس باطلا لينتفي الريب بواسطة الامثلة الاخرى القرآنية. وفي نهاية المطاف يجدر بنا أن نذكر خلاصة الوجه الصحيح في حكمة ورود المتشابه في القرآن، وبهذا الصدد يحسن بنا ان نقسم المتشابه الى قسمين رئيسين: الاول: المتشابه الذي لا يعلم تأويله ومصداقه إلا الله. الثاني: المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم، ولو كان ذلك بتعليم الله تعالى لهم. اما ورود القسم الاول في القرآن، فلان من الاهداف الرئيسة التي جاء من أجلها القرآن الكريم هو: ربط الانسان الذي يعيش الحياة الدنيا بالمبدأ الاعلى وهو الله سبحانه، وبالمعاد وهو الدار الاخرة وعوالمها، وهذا الربط لا يمكن ان يتحقق إلا عن طريق اثارة الموضوعات التي تتعلق بعالم الغيب وما يتصل به من افكار ومفاهيم، لينمي غريزة الايمان التي فطر الانسان عليها، ويشده الى عالمه الذي سوف ينتهي إليه، فلم يكن هناك سبيل أمام القرآن الكريم يتفادى به

---

(١) العلامة الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن ٣: ٥٨ - ٦٥. وقد لخصنا كلامه، وتركنا بيان الامثلة والايضاحات الفكرية التي أوردها لتأييد مدعياته. (*)

المتشابه في القرآن بعد ان كان هو السبيل الوحيد الذي يوصل الى هذا الهدف الرئيس. واما ورود القسم الثاني في القرآن الكريم بهذا الاسلوب فانه أراد أن يطرح أمام العقل البشري قضايا جديدة، كبعض المسائل الكونية أو الانسانية وغيرها من المفاهيم الغيبية، لينطلق في تدبر حقيقتها واكتشاف ظلماتها المجهولة، أو يقترب منها بالقدر الذي تسمح له معرفته ودرجته في تلك المعرفة، كما ذكر العلامة الطباطبائي. ونحن في هذا العصر حين نعيش التطور المدني العظيم في المجالات العلمية المختلفة ندرك قيمة بعض الايات القرآنية التي المحت الى بعض الحقائق العلمية، ووضعتها تحت تصرف الانسان لينطلق منها في بحثه وتحقيقه، وكذلك بعض المصاديق الانسانية (١). وبهذا يمكن ان نقدم تفسيرا لحكمة ورود المتشابه في القرآن الكريم.

---

(١) سيأتي بعض التوضيح لهذه الافكار عند تناولنا " التفسير عند أهل البيت " وكذلك في كتابنا " الهدف من نزول القرآن الكريم " في معالجتنا لظاهرة المحكم والمتشابه. (*)

النسخ في القرآن (١) توطئة عن فكرة النسخ: حين نريد ان نتعرف فكرة النسخ (موضوع البحث) يحسن بنا أن نفهمها من خلال مشابهاتها في حياتنا الاجتماعية المعاصرة. فاننا نشاهد أن بعض الدول أو المجتمعات قد تضع قانونا لتنظيم علاقة الناس بعضهم ببعض حكاما أو محكومين، ثم نراها بعد تطبيقه مدة من الزمان تستبدل به قانونا آخر يتكفل تنظيما جديدا للعلاقات بين الناس، وحينئذ يمكن ان يقال: إن هذا القانون الاخر نسخ القانون الاول واصبح بدلا منه. كما نشاهد أيضا أن بعض الدول تضع مادة معينة في القانون الذي يجري تطبيقه ثم ترى ان تستبدلها بمادة اخرى مع الاحتفاظ بالقانون نفسه كمنهج عام للتنظيم الاجتماعي. وهذان النوعان من النسخ: نسخ القانون للقانون، ونسخ مادة لمادة من القانون نفسه يمكن ان نتصورهما في التشريع الالهي بأن تنسخ

شريعة سماوية شريعة اخرى أو مادة في شريعة سماوية مادة من تلك الشريعة. ولكن يوجد فارق اساسي بين النسخ والتشريع الالهي والنسخ في التشريعات

---

(١) اعتمدنا في كتابة هذا البحث بشكل رئيس على دراسة النسخ في القرآن لاية الله السيد الخوئي في كتابه " البيان في تفسير القرآن " المدخل: ١٨٩ - ٢٧٦، وكتاب " النسخ في القرآن " للدكتور مصطفى زيد. (*)

الوضعية، ذلك أن النسخ في التشريع الالهي لا يكون إلا بعد علم مسبق بوقوعه في ظروفه المعينة وفي وقته المحدد بخلاف النسخ في التشريع الوضعي، حيث يكشف في اكثر الاحيان عن جهل بالواقع الموضوعي الذي وضع التشريع لمعالجته، وعندما ينكشف تخلف التشريع عن تحقيق غاياته، ينسخ بتشريع آخر في سبيل محاولة لتحقيق تلك الغايات والاهداف. نعم في القوانين الوضعية قد يوضع القانون منذ البداية بشكل مؤقت، ثم ينسخ عند انتهاء وقته كما في الدساتير المؤقتة عند حصول تغييرات اساسية في المجتمع، وهذا النوع يشبه الى حد كبير النسخ في الشريعة الالهية، حيث يكون الحكم المنسوخ فيها منذ البداية مؤقتا في الواقع. النسخ لغة واصطلاحا: أ - اللغة: للنسخ معان متعددة ذكرت في كتب اللغة وهي تدور بين (النقل) و (الازالة) و (الابطال). فتقول: (نسخ زيد الكتاب إذا نقله عن معارضه). ونسخ النحل إذا نقله من خلية الى اخرى، وتقول: نسخ الشيب شبابه، إذا أزاله وحل محله. وتقول: نسخت الريح آثار القوم، إذا أبطلتها وعفت عليها (١). واللغويون حين يذكرون هذه المعاني المتعددة يختلفون في أي واحد منها هو المعنى الحقيقي للكلمة، أو أنها بأجمعها معان حقيقية ؟ وتمييز المعنى الحقيقي للكلمة عن المعنى المجازي ليس في الواقع من الاهمية بقدر تحديد المعنى اللغوي الذي ينسجم مع فكرة النسخ ذاتها، وبهذا الصدد نجد أن الازالة هي أوفق المعاني اللغوية انسجاما مع الفكرة التي عرضناها عن النسخ، خصوصا إذا لاحظنا أن فكرة النسخ في القرآن الكريم ورد التعبير عنها بمواد

---

(١) راجع بهذا الصدد لسان العرب ٤: ٢٨ ط. بولاق. (*)

مختلفة تنسجم كلها مع الازالة، لان كل واقعة لا يمكن ان تخلو من الحكم الشرعي، فإذا ازيل حكم فلا بد ان يحل محله حكم آخر. واما في القرآن كقوله تعالى: (ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها...) (١)، وقوله تعالى: (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده ام الكتاب) (٢)، وقوله تعالى: (وإذا بدلنا آية مكان آية - والله اعلم بما ينزل - قالوا انما انت مفتر بل اكثرهم لا يعلمون) (٣) فنجد الازالة هي المعنى الذي ينسجم مع المحو والتبديل أيضا. ب - الاصطلاح: وحين نلاحظ كلمة النسخ في إطلاقات علماء القرآن والمفسرين نجد الكلمة قد مرت بمراحل متعددة من التطور حتى انتهى الامر بها الى خصوص الفكرة التي عرضناها سابقا. وهذه المراحل تبدأ منذ العصور الاولى لهذا العلم، حيث كان يطلق بعض الصحابة كلمة النسخ على مجرد مخالفة آية لاخرى في الظهور اللفظي، حتى لو كانت هذه المخالفة على نحو العموم والخصوص من وجه أو نحو التخصيص، أو

كانت احدى الايتين مطلقة والاخرى مقيدة. وهذه السعة في الاطلاق قد تكون نتيجة للتوسع في فهم أصل الفكرة، كما يمكن ان تكون نتيجة فهم ساذج لبعض الايات القرآنية. ومن هنا وقع الاختلاف بين علماء القرآن في تعيين الايات المنسوخة والايات الناسخة، فنجد بعضهم يتوسع في تعدادها، وبعضهم الاخر يقتصر على كمية محدودة منها. ولكن بعد مضي مدة من الزمن على الدراسات القرآنية نرى بعض العلماء يحاول أن يميز بين النسخ وبين (التقييد) و (التخصيص) و (البيان)، ويقصر النسخ

---

(١) البقرة: ١٠٦. (٢) الرعد: ٣٩. (٣) النحل: ١٠١. (*)

على الفكرة التي عرضناها سابقا، وقيل: إن أول محاولة في ذلك كانت من قبل (الشافعي). وقد ذكر الاصوليون للنسخ تعاريف كثيرة أصبحت بعد ذلك مجالا واسعا للمناقشة والنقد، ولكننا نقتصر هنا على ما ذكره السيد الخوئي (رحمه الله) من تعريف للنسخ لانه يفي بالمقصود. النسخ: " رفع امر ثابت في الشريعة المقدسة بارتفاع أمده وزمانه سواء أكان ذلك الامر المرتفع من الاحكام التكليفية - كالوجوب والحرمة - أم من الاحكام الوضعية كالصحة والبطلان، وسواء أكان من المناصب الالهية ام من غيرها من الامور التي ترجع الى الله تعالى بما انه شارع " (١). ويلاحظ في هذا التعريف أن الرفع في النسخ انما يكون لامر ثابت في اصل الشريعة، ولذا فلا يكون شاملا لمثل ارتفاع الحكم الشرعي الذي يكون بسبب انتهاء موضوعه، كارتفاع وجوب الصوم بانتهاء شهر رمضان، أو ارتفاع ملكية شخص لماله بسبب موته، فان هذا النوع من ارتفاع الحكم لا يسمى نسخا، ولا نجد من يخالف في امكانه ووقوعه، وقد أوضح السيد الخوئي (رحمه الله) لنا الفرق بين الارتفاع الذي يكون نسخا، والارتفاع الذي لا يكون من النسخ في شئ وذلك بالبيان التالي: ان الحكم المجعول في الشريعة المقدسة له مرحلتان من الثبوت: الاولى: ثبوت الحكم في عالم التشريع والانشاء، والحكم في هذه المرحلة يكون مشرعا على نحو (القضية الحقيقية) حيث لا يفرق في صدقها وثبوتها وجود الموضوع في الخارج وعدم وجوده، وانما يكون قوام ثبوت الحكم ووجوده فيها بفرض وجود الموضوع.

---

(١) البيان للسيد الخوئي: ٢٧٧. طبعة دار الزهراء - بيروت. (*)

فإذا قال الشارع: شرب الخمر حرام (مثلا) فليس معناه أن هنا خمرا في الخارج وأن هذا الخمر محكوم بحرمة شربه، وانما معناه أن الخمر متى ما فرض وجوده في الخارج فشربه محكوم بالحرمة في الشريعة، سواء كان في الخارج خمر بالفعل ام لم يكن، ورفع مثل هذا الحكم في هذه المرحلة من ثبوته لا يكون الا بالنسخ. الثانية: ثبوت الحكم في الخارج بأن يتحول الى حكم فعلي بسبب فعلية موضوعه وتحققه خارجا، كما إذا تحقق وجود الخمر خارجا في مثالنا السابق، فان الحرمة المجعولة في الشريعة للخمر تكون ثابتة له بالفعل خارجا، وهذه الحرمة تكون مرتهنة في وجودها بوجود الموضوع خارجا وتستمر باستمراره، فإذا انعدم الموضوع أو ارتفع كما

إذا انقلب خلا مثلا فلا ريب في ارتفاع تلك الحرمة الفعلية التي كانت ثابتة للخمر حال خمريته وتحل محلها الحلية للخل (١). وهذا الارتفاع للحكم ليس من النسخ في شئ، وليس لا حد شك في جوازه ولا في وقوعه. جواز النسخ عقلا ووقوعه شرعا: أ - جواز النسخ عقلا: المعروف بين العقلاء من المسلمين وغيرهم جواز النسخ عقلا، وقد خالف في هذا الرأي بعض اليهود والنصارى، وذلك في محاولة للطعن في الاسلام والتمسك ببقاء الديانتين اليهودية والمسيحية واستمرارهما، وقد استندوا في هذا الموقف الى بعض الشبهات التي حاولوا صياغتها بأساليب مختلفة، كما قام بعضهم بمحاولة تعضيد ذلك ببعض النصوص الواردة المتداولة اليوم، وسوف نعرض الصياغة

---

(١) البيان للسيد الخوئي: ٢٧٨. طبعة دار الزهراء - بيروت. (*)

الرئيسة للشبهة في هذا الموضوع مع الاجابة عليها بالشكل الذي يتضح به الموقف تجاه الصياغات الاخرى لها. وخلاصة هذه الشبهة أن النسخ يستلزم أحد أمرين باطلين: (البدء، أو العبث) لان النسخ إما ان يكون بسبب حكمة ظهرت للناسخ بعد ان كانت خفية لديه، أو يكون لغير مصلحة وحكمة، وكلا هذين الامرين باطل بالنسبة الى الله سبحانه، ذلك أن تشريع الحكم من الحكيم المطلق وهو الله سبحانه لا بد ان يكون بسبب مصلحة يستهدفها ذلك الحكم فتقتضي تشريعه، حيث إن تشريع الحكم بشكل جزافي يتنافى وحكمة الشارع، وحينئذ فرفع هذا الحكم الثابت لموضوعه بسبب المصلحة، اما ان يكون مع بقاء حاله على ما هو عليه من وجه المصلحة وعلم ناسخة بها، وهذا ينافي حكمة الجاعل وهو العبث نفسه، واما ان يكون من جهة البداء وجهله بواقع المصلحة والحكمة وانكشاف الخلاف لديه على ما هو الغالب في الاحكام والقوانين الوضعية، وعلى كلا الفرضين يكون وقوع النسخ في الشريعة محالا لانه يستلزم المحال. اما البداء أو العبث، فهما محال على الله لانهما نقص لا يتصف بهما (١). ومن اجل ان يتضح الجواب عن هذه الشبهة نقسم الحكم المجعول من قبل الشارع الى قسمين رئيسين: الاول: الحكم المجعول الذي لا يكون وراءه طلب وزجر حقيقيان كالاوامر والنواهي التي تجعل ويقصد بها الامتحان ودرجة الاستجابة للحكم دون ان يستهدف المشرع تحرك المكلف، كما في أمر الله سبحانه نبيه ابراهيم بذبح ولده اسماعيل، وهذا ما نسميه بالحكم الامتحاني. الثاني: الحكم المجعول الذي يكون بداع حقيقي من البعث والزجر حيث يقصد

---

(١) البيان للسيد الخوئي: ٢٧٩. (*)

منه تحقيق متعلقه بحسب الخارج، وهذا ما نسميه بالحكم الحقيقي. ونجد من السهل الالتزام بالنسخ في القسم الاول من الحكم، إذ لا مانع من رفع هذا الحكم بعد اثباته بعد أن كانت الحكمة في نفس إثباته ورفعه، لان دوره ينتهي بالامتحان نفسه فيرتفع حين ينتهي الامتحان ولحصول فائدته وغرضه، والنسخ في هذا النوع من

الحكم لا يلزم منه العبث ولا ينشأ منه البداء الذي يستحيل في حقه تعالى. واما القسم الثاني من الحكم فاننا يمكن ان نلتزم بالنسخ فيه دون ان يستلزم ذلك شيئا من البداء أو العبث، حيث يمكن ان نضيف فرضا ثالثا الى الفرضين اللذين ذكرتهما الشبهة. وهذا الفرض هو ان يكون النسخ لحكمة كانت معلومة لله سبحانه من أول الامر ولم تكن خافية عليه وان كانت مجهولة عند الناس غير معلومة لديهم، فلا يكون هناك بداء لانه ليس في النسخ من جديد على الله لعلمه سبحانه بالحكمة مسبقا، كما أنه لا يكون عبثا لوجود الحكمة في متعلق الحكم الناسخ وزوالها في متعلق الحكم المنسوخ، وليس هناك ما يشكل عقبة في طريق تعقل النسخ هذا الا الوهم الذي يأبى تصور ارتباط مصلحة الحكم بزمان معين بحيث تنتهي عنده، والا الوهم الذي يرى في كتمان هذا الزمان المعين عن الناس جهلا من الله بذلك الزمان. وهذا الوهم يزول حين نلاحظ بعض النظائر الاجتماعية التي ترى فيها شيئا اعتياديا ليس فيه من المحال أثر ولا من العبث والبداء. فالطبيب حين يعالج مريضا ويرى أن مرحلة من مراحل المرض التي يجتازها المريض يصلح لها دواء معين فيصف له هذا الدواء لمدة معينة ثم يستبدله بدواء آخر يصلح لمرحلة اخرى لا يوصف عمله بالعبث والجهل، مع أنه قام بوضع

احكام معينة لهذا المريض في زمان محدود ثم رفعها عنه بعد مدة من الزمن، وحين وضع الحكم كانت هناك مصلحة تقتضيه كما أنه حين رفع الحكم كانت هناك مصلحة تقتضي هذا الرفع، وهو في كل من الحالين كان يعلم المدة التي يستمر بها الحكم والحكمة التي تقتضي رفعه. ونظير هذا يمكن ان نتصوره في النسخ، فان الله سبحانه حين وضع الحكم المنسوخ وضعه من اجل مصلحة تقتضيه، وهو سبحانه يعلم الزمان الذي سوف ينتهي فيه الحكم وتتحقق المصلحة التي من اجلها شرع، كما انه حين يستبدل الحكم المنسوخ بالحكم الناسخ استبدله من اجل مصلحة معينة تقتضيه، فكل من وضع الحكم ورفعه كان من اجل حكمة هي معلومة عند جعل الحكم المنسوخ. فليس هناك جهل وبداء، كما انه ليس هناك عبث لتوفر عنصر العلم والحكمة في الجعل والرفع. نعم هناك جهل الناس بواقع جعل الحكم المنسوخ حيث كان يبدو استمرار الحكم نتيجة للاطلاق في البيان الذي وضع الحكم فيه ولكن النسخ انما يكون كشفا عن هذا الواقع الذي كان معلوما لله سبحانه من أول الامر. ب - وقوعه خارجا: والى جانب ما ذكرناه من تصوير النسخ بالشكل الذي لا يستلزم البداء أو العبث منه سبحانه وتعالى، يمكن ان نضيف شيئا آخر في احباط شبهة القائلين باستحالة النسخ من اليهود والنصارى وغيرهم، وذلك بملاحظة الموارد التي تحقق فيها النسخ سواء في الشريعة الموسوية، أو الشريعة المسيحية، أو الشريعة الاسلامية، حيث جاءت نصوص في التوراة والانجيل وفي الشريعة الاسلامية تتضمن النسخ، ورفع ما هو ثابت في نفس الشريعة أو في غيرها من الشرائع السابقة، نذكر منها الموارد الاتية:

---

١ - تحريم اليهود العمل الدنيوي في يوم السبت، مع الاعتراف بان هذا الحكم لم يكن ثابتا في الشرائع السابقة، وانما كان يجوز العمل في يوم السبت كغيره من أيام الاسبوع (١). ٢ - أمر الله سبحانه بني اسرائيل قتل أنفسهم بعد عبادتهم للعجل ثم رفعه لهذا الحكم عنهم بعد ذلك (٢). ٣ - الامر ببدأ الخدمة في خيمة الاجتماع في

سن الثلاثين، ثم رفع هذا الحكم وابداله بسن خمس وعشرين سنة، ثم رفعه بعد ذلك وابداله بسن العشرين (٣). ٤ - النهي عن الحلف بالله في الشريعة المسيحية - مع ثبوته في الشريعة الموسوية - والالزام بما التزم به في النذر أو اليمين (٤). ٥ - الامر بالقصاص في الشريعة الموسوية (٥)، ثم نسخ هذا الحكم في الشريعة المسيحية ونهي عن القصاص (٦). ٦ - تحليل الطلاق في الشريعة الموسوية (٧)، ونسخ هذا الحكم في الشريعة المسيحية (٨).

---

(١) انظر سفر الخروج ١٦: ٢٥ - ٣٦، و ٢٠: ٨ - ١٢، و ٢٣: ١٢، و ٣١: ١٦ - ٧، و ٣٥: ١ - ٣، وسفر اللاويين ٢٣: ١ - ٣ وسفر التثنية ٥: ١٢ - ١٥. (٢) سفر الخروج ٢٢: ٢١ - ٢٩. (٣) سفر العدد ٤: ٢ - ٣ و ٨: ٢٣ - ٢٤، وسفر أخبار الايام الاول ٢٣: ٢٤ و ٣٢. (٤) سفر العدد ٣٠: ٢، انجيل متي ٥: ٣٣ - ٣٤. (٥) سفر الخروج ٢١: ٢٣ - ٢٥. (٦) انجيل متي ٥: ١٣٨. (٧) سفر التثنية ١٤: ١ - ٣. (٨) انجيل متي ٥: ٣١ - ٣٢ وانجيل مرقس ١٠: ١١ - ١٢. (*)

الفرق بين النسخ والبداء: لقد اثيرت الى جانب مسألة النسخ مسألة اخرى هي مسألة (البداء) وقد عرفنا من مطاوي حديثنا السابق عن النسخ - خصوصا فيما يتعلق بدراستنا لشبهة اليهود والنصارى في استحالة النسخ - أن البداء محال على الله سبحانه. ومع كل هذا فالمعروف من مذهب الامامية الاثني عشرية أنهم يقولون بفكرة البداء. وعلى هذا الاساس نجد بعض الباحثين من اخواننا السنة يحملون على اخوانهم الامامية بشكل عنيف، متهمين اياهم بالانحراف والضلال، حتى إن بعضهم يكاد أن يقول: أن الامامية أشد انحرافا من اليهود والنصارى حين حاولوا انكار النسخ، لان اولئك انكروا النسخ في محاولة لتنزيه الله سبحانه من النقص، وهؤلاء قالوا بالبداء فأثبتوا الجهل والنقص لله سبحانه (١). لذا يجدر بنا ونحن ندرس النسخ أن نلقي ضوءا على هذه الفكرة أيضا، لنحدد موقفنا منها بشكل دقيق وواضح، ونعرف مدى صحة هذه التهم التي رمى بها بعض المسلمين مذهب الامامية في قولهم بالبداء. فالبداء تارة نفهمه على اساس ان يعتقد الله شيئا، ثم يظهر له أن الامر بخلاف ما اعتقده، كأن يرى في الحكم مصلحة ثم يظهر له خلاف ذلك، أو يرى خلق شئ من مخلوقاته حسنا ثم يظهر له خلاف ذلك فهذا شئ باطل لا يقول به احد من المسلمين - من دون فرق بين الاماميين وغيرهم - بل أنكره اليهود والنصارى، ونزهوا الله عنه. وقد وردت النصوص التي تؤكد هذا المعنى عن طريق أهل البيت (عليهم السلام)، فقد

---

(١) بهذا الصدد راجع الفخر الرازي في تفسير قوله تعالى: (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) - البقرة: ١٠٦ - والدكتور مصطفى زيد، النسخ في القرآن ١: ٢٧. (*)

روى الصدوق في اكمال الدين عن الامام الصادق (عليه السلام) قال: " من زعم أن الله عز وجل يبدو له في شئ لم يعلمه أمس فابرؤا منه " (١). والبداء - تارة اخرى - نفهمه على اساس آخر بان نتصوره نسخا في التكوين، فليس هناك فرق اساسي بينه وبين النسخ من حيث الفكرة، وانما الفرق بينهما في الموضوع الذي يقع النسخ فيه أو البداء، فالازالة والتبديل إذا وقعا في التشريع

سميناهما نسخا، وإذا وقعا في الامور الكونية من الخلق والرزق والصحة والمرض وغيرها سميناهما بداء. والجدير بالذكر أن هذه الفكرة للبداء من شبهة أثارها اليهود حول قدرة الله - تعالى - وسلطانه، وأشار القرآن الكريم إليها كما ناقشها أيضا بقوله تعالى: (وقالت اليهود: يد الله مغلولة غلت ايديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء...) (٢). وخلاصة الشبهة: أن الله سبحانه إذا خلق شيئا وقضى فيه أمره استحال عليه ان تتعلق مشيئته بخلافه، فهو حين يخلق قانون الجاذبية للارض - مثلا - اصبح مسلوب القدرة والسلطان امام هذا القانون، فلا يقدر ان يشاء خلافه أو ينسخه، شأنه في هذا شأن صاحب البندقية، فانه حين يضغط على الزناد يفقد قدرة التحكم في الرصاصة. وهذا المعنى هو الذي عبر عنه القرآن الكريم بقوله: (وقالت اليهود يد الله مغلولة) كما جاء ذلك في رواية الصدوق عن الصادق (عليه السلام) حيث قال: " لم يعنوا أنه هكذا ولكنهم قالوا فرغ عن الامر فلا يزيد ولا ينقص ".

---

(١) راجع في النصوص التي نذكرها في موضوع البداء آية الله السيد الخوئي، البيان في تفسير القرآن: ٢٧٠ - ٢٧٧. (٢) المائدة: ٦٤. (*)

وقد ناقض القرآن الكريم هذه الشبهة في مجالات متعددة، منها الاية الكريمة التي سبق ذكرها، ومنها قوله تعالى: (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده ام الكتاب) (١) وغير ذلك. فالقول بالبداء عند الامامية يعني فكرة النسخ مطبقة في المجال التكويني ومنطلقة من مفهوم قوله تعالى: (بل يداه مبسوطتان ينفق ما يشاء) وقوله تعالى: (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده ام الكتاب) فهي تؤمن بعلم الله سبحانه بما يقدمه وما يؤخره، وما ينقصه وما يزيده، وما يستبدل به، كما انها تؤمن بقدرته على هذا التقديم والتأخير والاستبدال، وهناك نصوص كثيرة تؤكد أن فكرة الامامية عن البداء لا تتعدى حدود هذا المعنى ولا تتجاوز عنه. ففي رواية العياشي عن ابي عبد الله (عليه السلام) يقول: إن الله يقدم ما يشاء ويؤخر ما يشاء، ويمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء، وعنده ام الكتاب. وقال: فكل أمر يريده الله فهو علمه قبل ان يصنعه، وليس شئ يبدو له الا وقد كان علمه، ان الله لا يبدو له عن جهل (٢). وروى الكليني عن ابي عبد الله الصادق (عليه السلام): " ما بدا لله في شئ الا كان في علمه قبل ان يبدو له " (٣). وروى الشيخ الطوسي في كتاب الغيبة عن الرضا (عليه السلام): " قال علي بن الحسين وعلي بن ابي طالب قبله ومحمد بن علي وجعفر بن محمد (عليهم السلام): كيف لنا بالحديث مع هذه الاية: (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده ام الكتاب) فأما من قال بأن الله تعالى لا يعلم الشئ الا بعد كونه فقد كفر وخرج

---

(١) الرعد: ٣٩. (٢) تفسير العياشي ٢: ٢١٨. الحديث ٧١. (٣) الكافي ١: ١٤٨. الحديث ٩. (*)

عن التوحيد " (١). وبعد هذا كله لا نجد مجالا للتشكيك في فكرة البداء إذا أخذناها في حدود فكرة النسخ مطبقة على التكوين، ولا يكون اتهام الامامية بالانحراف لانهم قالوا بهذه الفكرة، الا شبيها بالاتهام الذي وجهه اليهود والنصارى الى عامة المسلمين لاخذهم

بفكرة النسخ. النسخ في الشريعة الاسلامية: وأ ما النسخ في الشريعة الاسلامية فهو أمر ثابت لا يكاد يشك فيه أحد من علماء المسلمين، سواء في ذلك ما كان نسخا لاحكام الشرائع السابقة أو ما كان نسخا لبعض أحكام الشريعة الاسلامية نفسها، ومن هذه النسخ ما صرح به القرآن الكريم، حيث نسخ حكم التوجه في الصلاة الى القبلة الاولى وأمر بالتوجه شطر المسجد الحرام، ولكن مع ذلك نجد النسخ مثارا للخلاف في علوم القرآن حيث وقع الجدال في أن شيئا من الاحكام الثابتة في القرآن الكريم منسوخ بالقرآن الكريم نفسه أو بالسنة النبوية المتواترة. وهذا الخلاف جاء على صياغتين الاولى: الخلاف الذي أثاره أبو مسلم الاصفهاني المتوفى سنة (٣٢٢ هـ(حيث ذهب - على أحسن الاحتمالات في كلامه - الى عدم جواز وقوع النسخ في القرآن الكريم، مستدلا على ذلك بقوله تعالى في وصف القرآن: (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) (٢). فهذه الاية تقول: أن القرآن لا يعتريه البطلان، ولما كان النسخ إبطالا لما في

---

(١) كتاب الغيبة: ٤٣٠. مؤسسة المعارف الاسلامية. (٢) فصلت: ٤٢. (*)

الاية من حكم فهو لا يرد على القرآن الكريم، ولكن هذه الاية الكريمة لا يمكن ان تكون دليلا لمذهب ابي مسلم، لان النسخ ليس باطلا حتى يكون وروده على القرآن الكريم خلافا لمنطوق الاية، وانما هو محض حق وموافق لواقع الحكمة والمصلحة على اساس ما ذكرناه عن حقيقته، وإذا كان النسخ باطلا فلا نحتاج في رفضه الى الاستعانة بالاية الكريمة بل يكفي بطلانه سببا لذلك. ففكرة أبي مسلم هذه تقوم في الحقيقة على أساس من المغالطة والايهام، حيث يقصد من الباطل هنا ما يكون قبالة الحق سواء في العقيدة أو في النظام أو الاسلوب البياني، والقرآن الكريم لا يأتيه شئ من الباطل في كل هذه الجوانب، ولا يقصد منه الابطال والازالة اللذان هما بمعنى النسخ. والثانية: الخلاف الذي اثاره بعض علماء القرآن، حيث ذهبوا الى عدم وقوع النسخ في القرآن الكريم خارجا، وان كان لا يوجد مانع عقلي أو شرعي عنه. ويكاد يقول آية الله السيد الخوئي (رحمه الله) في كتابه " البيان في تفسير القرآن " بهذا الرأي، حيث ذكر لذلك مناقشة واسعة، أشار فيها الى الايات التي يحتمل فيها النسخ، ونقد مبدأ النسخ فيها على هدي دراسة علمية دقيقة - عدا آية النجوى - وخلص الى الرأي الانف الذكر. هل للنسخ أقسام ؟ ويجدر بنا ان نتعرف أقسام النسخ التي ذكرها الباحثون في علوم القرآن قبل ان ندخل في البحث التفصيلي حول الايات المنسوخة، وذلك من أجل ان نعرف اي قسم منها هو الهدف الرئيس من هذا البحث. فقد قسموا النسخ الى ثلاثة اقسام نوجزها بما يلي: الاول: نسخ التلاوة دون الحكم: ويقصد بهذا النسخ ان تكون هناك آية

قرآنية نزلت على الرسول (صلى الله عليه وآله)، ثم نسخت تلاوتها ونصها اللفظي مع الاحتفاظ بما تضمنه من احكام. وقد مثلوا لهذا القسم بآية الرجم التي روي عن عمر بن الخطاب نصها: " إذا زنى الشيخ والشيخة فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم " حيث قيل إ نها كانت آية في القرآن الكريم نسخت تلاوتها مع

الاحتفاظ بحكمها. وهذا القسم وان كاد يعترف به اكثر الباحثين من علماء الجمهور في علوم القرآن، الا أنه لا يكاد يعترينا الشك ببطلانه وعدم ثبوته في القرآن الكريم عندما ندرسه بشكل موضوعي، وذلك لا نه: أولا: نجد أن الاعتراف بهذا اللون من النصوص والروايات التي أوردتها بعض الكتب الصحيحة (السنية) يؤدي بنا الى الالتزام بالتحريف، لان منطوق هذه الروايات يصر على ثبوت هذه الاية وغيرها في القرآن الكريم حتى وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وأ نها سقطت منه في المدة المتأخرة من حياته. وثانيا: نجد أن هذه الروايات لم تصل الينا الا بطريق الاحاد، ولا يجوز لنا ان نلتزم بالنسخ على اساس رواية الاحاد لاجماع المسلمين على ذلك، مضافا الى طبيعة الاشياء التي تحكم بضرورة شيوع الامور المهمة بين الناس ومن هذه الامور المهمة نسخ آية من القرآن الكريم، فكيف يقتصر النقل فيه على خبر الاحاد ؟ الثاني: نسخ التلاوة والحكم معا: ويقصد بهذا القسم ان تكون آية قرآنية ثابتة لفظا ومعنى في وقت من ايام الشريعة، ثم تنسخ تلاوتها ومضمونها. وقد مثلوا لهذا القسم بآية الرضاعة المروية عن عائشة بهذا النص: " وكان فيما انزل من القرآن " وعشر رضعات يحرمن " ثم نسخن بخمس معلومات فتوفي رسول الله (صلى الله عليه وآله) وهن فيما يقرأ من القرآن " (١).

---

(١) صحيح مسلم ٤: ١٦٧. (*)

ويناقش هذا القسم بنفس المناقشتين اللتين ذكرناهما في القسم الاول من النسخ. الثالث: نسخ الحكم دون التلاوة، ويقصد به النسخ الذي ينصب على جانب المضمون في الاية القرآنية، مع الاحتفاظ بصياغتها وطريقة التعبير فيها. وهذا القسم هو ما اشتهر بين العلماء والمؤلفين، حتى الفوا كتبا مستقلة فيه. والنسخ في هذا القسم يمكن ان نتصوره على انحاء ثلاثة: أ - ان ينسخ الحكم الثابت في القرآن الكريم بالسنة المتواترة أو بالاجماع القطعي الذي يكشف عن صدور النسخ من المعصوم. ب - ان ينسخ الحكم الثابت في القرآن الكريم بآية اخرى من القرآن، ناظرة في طريقة عرضها وبيانها الى الحكم المنسوخ، وهذان النحوان لا اشكال فيهما من ناحية واقعية، وان كان الشك في وقوعهما بحسب الخارج. ج - ان ينسخ الحكم الثابت بالقرآن الكريم بآية اخرى، غير ناظرة الى الحكم المنسوخ ولا مبينة لرفعه وانما يلتزم بالنسخ على اساس التعارض بين الاثنين، فيلتزم بنسخ الاية المتقدمة زمانا بالاية المتأخرة. وقد ناقش السيد الخوئي (رحمه الله) في جواز هذا النحو من النسخ على اساس أنه يتنافى ومنطوق الاية القرآنية التي تقول: (افلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) (١)، وحين يقع التنافي بين الايتين يتحقق هذا الاختلاف الذي نفاه الله سبحانه عن القرآن، ولا تنفع لتفادي الاختلاف دعوى النسخ، لان مثل هذه الدعوى يمكن ان تقال في كل اختلاف يقع في كلام غير الله سبحانه. واضافة الى هذه المناقشة نجد السيد الخوئي (رحمه الله) يكاد يذهب الى أنه ليس هناك

---

(١) النساء: ٨٢. (*)

حكم ثابت في القرآن الكريم منسوخ بشئ من القرآن ولا بغيره. ونحن وان كنا نختلف مع استاذنا السيد الخوئي (رحمه الله) في بعض الجوانب التي جاءت في مناقشته هذه، وقد نختلف معه من ثم في شمول مبدئه للايات القرآنية كلها، ولكننا سوف نقتصر في دراستنا هذه على مناقشة بعض الايات بالطريقة التي سار عليها تقريبا. نماذج من الايات التي ادعي نسخها مع مناقشاتها: الاية الاولى: قوله تعالى: (ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفارا حسدا من عند انفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره. ان الله على كل شئ قدير) (١). وقد روى جماعة من الصحابة والتابعين وغيرهم (٢) القول بانها آية منسوخة بآية السيف وهي قوله تعالى: (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الاخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) (٣). فان الاية الاولى تأمر بالعفو والصفح عن أهل الكتاب، مع أنهم يودون من صميم قلوبهم ان يردوا المؤمنين كفارا، والاية الثانية تأمر بقتال أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، ولما كانت الاية الثانية متأخرة عن الاية الاولى كان الالتزام بنسخ آية السيف لاية سورة البقرة أمرا لا مناص منه.

---

(١) البقرة: ١٠٩. (٢) تفسير مجمع البيان ١: ١٨٥. (٣) التوبة: ٢٩. (*)

وقد ناقش السيد الخوئي (رحمه الله) القول بالنسخ هذا بمناقشتين: الاولى: أنه لا يمكن القول بنسخ الاية بالاية الثانية بعد ان كان الحكم في الاية المدعى نسخها له غاية ووقت، وهما وان كانا مذكورين فيها على سبيل الاجمال لا التعيين الا ان هذا المقدار يكفي في عدم الالتزام بالنسخ فيها، حيث إن النسخ لا يكون في حكم المؤقت الذي يرتفع بانتهاء وقته، وانما يكون في الحكم الذي يكون ظاهره الاستمرار والتأبيد بحسب اطلاق اللفظ دون ان يكون صريحا في ذلك، وعلى هذا الاساس يكون دور الاية الثاني هو: بيان الوقت والغاية للحكم المذكور في الاية الاولى دون ان تكون ناسخة له. الثانية: أن آية السيف لا تأمر بقتل أهل الكتاب بشكل مطلق حتى تصبح معارضة للاية الاولى، وانما هي تأمر بقتالهم عند عدم دفعهم للجزية (١). وحينئذ فمجرد ان يكونوا من أهل الكتاب لا يكفي في جواز قتالهم، وانما يشترط في قتالهم توفر احدى حالات ثلاث، كما يستفاد ذلك من مجموع الايات القرآنية وهي: أ - مبادأة أهل الكتاب المسلمين بالقتال: (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين) (٢). ب - محاولتهم فتنة المسلمين عن دينهم: (... والفتنة اشد من القتل...) (٣). ج - امتناعهم عن اعطاء الجزية للاية المتقدمة. وفي غير هذه الحالات لا يجوز قتال أهل الكتاب، وانما يكتفى بالصفح والعفو عنهم، كما جاء في الاية الاولى المدعى نسخها، فتكون الاية الثانية مقيدة لاطلاق الاية الاولى لا ناسخة لها.

---

(١) البيان: ٢٨٨. (٢) و (٣) البقرة: ١٩٠ و ١٩١. (*)

الاية الثانية: قوله تعالى: (واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن اربعة منكم فان شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا * واللذان يأتيانها منكم فآذوهما فان تابا واصلحا فأعرضوا عنهما ان الله كان توابا رحيما) (١). وقد روي عن جماعة من الصحابة والتابعين وغيرهم أن الاية الاولى من هاتين الايتين مختصة بزنا النساء، والعقاب فيها هو الايذاء بالشتم والاهانة وضرب النعال - كما جاء عن ابن عباس (٢) ذلك - وهما في كلا الموردين تشملان البكر والثيب منهما. وقد نسخت كلتا الايتين بحكم الجلد مائة مرة للبكر من النساء والرجال، كما في قوله تعالى: (الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله) (٣) وبحكم الرجم للمحصن من النساء والرجال، كما ثبت ذلك في السنة النبوية. وقد ناقش السيد الخوئي (رحمه الله) مبدأ النسخ في هذه الاية، على اساس أن كل واحدة من هذه الايات تبين حكما يختلف عن الحكم المبين في الاية الاخرى، ولا مانع من الاخذ بهذه الاحكام كلها لاختلاف موضوعاتها. ومن أجل ان تتضح هذه المناقشة لا بد من ان نستعرض بعض الامور التي لها ارتباط وثيق في تفسير الايتين المدعى نسخهما، لنعرف بعد ذلك مدى صحة دعوى النسخ فيهما:

---

(١) النساء: ١٥ - ١٦. (٢) تفسير مجمع البيان ٢: ٢١. (٣) النور: ٢. (*)

---

١ - إن للفظ الفاحشة في اللغة والقرآن الكريم معنى واسعا شاملا، ينطوي تحته كل ما تزايد قبحه وتفاحش، دون ان يكون مختصا بعملية الزنا وحدها، فقد تكون لواطا أو سحاقا أو زنا، ولا ظهور ولا انصراف للفظ الفاحشة في خصوص الزنا. ٢ - إن المقصود بالسبيل في الاية الكريمة هو المخرج والمخلص الذي يكون في حقيقته وواقعه أقل كلفة وضررا على المرأة من الحبس في الدار، لان الاية تجعل السبيل للمرأة لا عليها، وحينئذ فلا يمكن تفسير السبيل بالعقوبة التي وضعها الاسلام الحنيف بالنسبة الى الزانية والزاني - البكر منهما والثيب - لان هذه العقوبة ليست سبيلا للمرأة تخلص به من شدة الحبس وعقابه، وانما هو اشد واقسى من الحبس نفسه. ٣ - إن لفظ الايذاء في الاية الكريمة ليس له ظهور في الشتم والسب والاهانة وضرب النعال، وانما هو معنى شامل لهذه الامور ولغيرها من ألوان الايذاء الاخرى كالجلد والرجم وغيرهما. وبعد ملاحظة هذه النقاط الثلاث يمكن ان نذهب في خصوص الاية الاولى الى أن المقصود بالفاحشة: (المساحقة) وحكمها الثابت بالاية هو الحبس حتى الموت، أو السبيل الذي يهيئه الله سبحانه لها بان تتوفر الظروف التي تجعل المرأة في مأمن من ارتكاب المنكر، كأن تتزوج أو تبلغ العمر الذي تموت فيه طاقتها الجنسية أو تخمد أو تتوب وتصلح. وبهذا اللون من التفسير يمكننا ان نلتزم بعدم النسخ في هذه الاية لبقاء حكمها، في الوقت الذي يلتزم به بالجلد والرجم بالنسبة الى الزاني. وإضافة الى ذلك يمكننا ان نذهب الى أن الحكم بالحبس ليس عقابا وحدا لارتكاب الفاحشة، وانما هو عمل وقائي رادع عن العودة لارتكاب المنكر مرة اخرى، ويجب في كل الحالات التي يستشعر فيها الخطر من الوقوع في المنكر حتى قبل وقوعه، وحينئذ فلا

ضرورة للالتزام بالنسخ حتى مع الالتزام بأن المقصود من الفاحشة في الاية الكريمة خصوص زنا النساء، لان الالتزام بالجلد والرجم يمكن ان ينسجم مع الالتزام - في الوقت ذاته - بثبوت الحكم الوقائي الرادع. وفي خصوص الاية الثانية يكون المقصود بالفاحشة اللواط، وحكمه الايذاء، سواء فسرنا الايذاء بالشكل الذي روي عن ابن عباس، ام بالشكل الاخر الواسع، فإ نه في كل من الفرضين يمكن أن نلتزم بالحد الشرعي الثابت في الشريعة المقدسة، على أن تفسير مفهوم الايذاء بشكل يشمل الجلد والرجم يجعل آية الجلد وغيرها في موقف المفسر المحدد لنوعية الايذاء المتخذ ضد الزاني من الرجال والنساء، دون ان يكون ناسخا للاية الاولى. وهناك قرينة لفظية في الاية تدل على أن المراد من الاسم الموصول (اللذان) هو خصوص الرجلين دون الرجل والمرأة، كما هو التفسير القائل بالنسخ، وهذه القرينة هي ملاحظة سياق الايتين الذي يقرر أن المراد من ضمير الجمع المخاطب المذكور فيهما ثلاث مرات من جنس واحد، بحيث لا يختلف الثالث عن الاوليين. ولما كان المراد بالاوليين منهما خصوص الرجال، لاضافة النساء في احدهما للضمير وربط الشهادة بالرجال في الثاني، ويجب ان يكون المراد من الثالث خصوص الرجال أيضا، وهذا ينتهي بنا الى ان المراد بالاسم الموصول خصوص الرجال، ومع هذه القرينة لا بد من الالتزام بان المراد من الفاحشة هي اللواط بالخصوص. الاية الثالثة: قوله تعالى: (... فما استمعتم به منهن فآتوهن اجورهن فريضة...) (١). ولا بد من معرفة مفاد الاية الكريمة قبل البحث عن كونها آية منسوخة الحكم.

---

(١) النساء: ٢٤. (*)

وبهذا الشأن فقد جاءت الروايات الكثيرة من طريق أهل السنة والامامية تذكر أن المقصود من الاية الكريمة نكاح المتعة (الزواج المؤقت). ولذلك اشتهر بين علماء العامة أن الاية منسوخة، حيث ذهب هؤلاء الى أن حلية نكاح المتعة قد نسخت بعد تشريعه لمدة من الزمان في الشريعة المقدسة، وقد وقع الاختلاف بين الباحثين في أمر الناسخ لهذه الاية الكريمة، وبهذا الصدد ذكرت اقوال اربعة: الاول: أن الناسخ لها قوله تعالى: (يا ايها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن...) (١) على اساس أن نكاح المتعة لا طلاق فيه، وانما تنفسخ عقدة النكاح فيه بانتهاء المدة المضروبة في النكاح أو هبة الباقي منها، كما ان عدته تختلف عن عدة الطلاق في النكاح الدائم، ولما كانت هذه الاية تذكر الطلاق طريقا لانفصال الزوجية كانت ناسخة للنكاح الذي يكون انفصال الزوجية فيه عن طريق آخر، في الوقت الذي تختلف عدته عن عدة النكاح الذي يقع فيه الطلاق. وهذا القول يكاد يكون أوهن الاقوال وابعدها عن الفهم القرآني الصحيح، لان الاية الثانية لا تشير - لا من قريب ولا من بعيد - الى موارد الطلاق وأ نه لا بد في كل زواج ان يقع الانفصال فيه بالطلاق، وانما هي بصدد بيان ضرورة العدة في حالة وقوع الطلاق. على أن نكاح المتعة تجب العدة فيه ايضا، ولا تعرض في الاية الى مقدار العدة ومدتها، فهي بعيدة عن النسخ كل البعد وليست لها علاقة بآية المتعة. الثاني: ان الناسخ هو قوله تعالى: (ولكم نصف ما ترك ازواجكم...) (٢) على

---

(١) الطلاق: ١. (٢) النساء: ١٢. (*)

اساس أن نكاح المتعة لا توارث فيه وهذه الاية تقرر باطلاقها وراثة الزوج لكل زوجة، فيدور الامر بين القول بوراثة الزوج للزوجة في نكاح المتعة - وقد ثبت عدمه - وبين القول بنسخ المتعة، ليبقى اطلاق الاية على حاله، وهو المطلوب من دعوى النسخ. وهذا القول كسابقه من حيث مجافاته للواقع والفهم العرفي، لانه يمكن الالتزام بان الدليل الذي دل على عدم التوارث بين الزوجين في نكاح المتعة يكون مخصصا لمفاد الاية الكريمة دون اللجوء الى القول بنسخ آية المتعة، كما يلتزم بذلك المسلمون في بعض الموارد الاخرى من الارث، فان الزوجة إذا كانت كافرة لا ترث زوجها، أو إذا كان احد الزوجين قاتلا للاخر فانه لا ارث بينهما ايضا. الثالث: أن الناسخ هو النصوص التي تدل على أن نكاح المتعة قد نسخ بعد تشريعه في الاسلام، وقد رويت هذه النصوص بطرق مختلفة كان ينتهي بعضها الى الامام علي (عليه السلام)، وبعضها الى الربيع بن سبرة، وبعضها الى سلمة وغير ذلك (١). ولكن تناقش هذه النصوص بالوجوه الثلاثة التالية: أولا: إن النسخ لا يثبت بخبر الواحد، لما اشرنا إليه سابقا من الاجماع على ذلك، وان طبيعة النسخ تقتضي شيوع النسخ واشتهاره بين المسلمين. ثانيا: إن هناك نصوصا متواترة مروية عن طريق أهل البيت، تعارض بمضمونها هذه النصوص وتكذبها، الامر الذي يفرض علينا الاخذ بنصوص أهل البيت خاصة، لانهم الثقل الثاني للكتاب الذي ثبت عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنهم لا يفترقون عنه. ثالثا: النصوص الكثيرة التي وردت في الصحاح التي توكد بقاء حلية هذا النكاح حتى وفاة النبي (صلى الله عليه وآله)، والنسخ لا يجوز من غير النبي، وقد ذكر السيد

(١) البيان: ٣١٧. السيد الخوئي (رحمه الله). (*)

الخوئي (رحمه الله) بعض هذه النصوص والتي وردت في صحيح مسلم وسنن البيهقي ومسند احمد وغيرهم، ومن هذه الروايات ما رواه مسلم عن ابي الزبير قال: " سمعت جابر بن عبد الله يقول: كنا نستمتع بالقبضة من التمر والدقيق الايام على عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله) وابي بكر، حتى نهى عنه (نكاح المتعة) عمر في شأن عمرو ابن حريث " (١) مع مناقشته للنصوص الاخرى الدالة على النسخ في كتابه (البيان). الرابع: أن الناسخ هو اجماع الامة على حرمة نكاح المتعة. وهذا الدليل يمكن مناقشته بالامرين التاليين: الاول: أن دعوى الاجماع غير صحيحة فان جماعة من المسلمين، ومنهم جمع من اصحاب رسول الله كانوا يقولون بجواز المتعة، وقولهم هذا موافق لقول أهل البيت (عليهم السلام) الذين هم ثقل الكتاب وقد أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا، ومن هؤلاء الصحابة علي بن ابي طالب، وجابر بن عبد الله الانصاري، وعبد الله ابن مسعود، وعبد الله بن عباس. الثاني: أن هذا الاجماع لو تم فهو ليس بحجة، لان حجية الاجماع - كما تم تحقيقه في علم الاصول - تتوقف على كشفه عن رأي المعصوم، ولم يكن تحريم نكاح المتعة على عهد رسول الله ولا بعده الى ان مضت مدة من عهد عمر، ولا يصح بأي حال الاعراض عن كتاب الله وسنة نبيه لمجرد اجماع جماعة من المسلمين لم يعصموا عن الخطأ والاشتباه، وإلا لامكن نسخ كل الاحكام الشرعية بهذه الطريقة.

(١) صحيح مسلم: باب نكاح المتعة ٤: ١٤١، راجع البيان: ٣١٨ - ٣٢٤. (*)

القسم الثالث التفسير والمفسرون التفسير والتأويل. التفسير في عصر الرسول. التفسير في عصر الصحابة والتابعين. التفسير في مدرسة أهل البيت (عليهم السلام).

التفسير والتأويل التفسير (١): ١ - التفسير بمعناه اللغوي: التفسير في اللغة: البيان والكشف (٢). وفي القرآن الكريم بهذا المعنى، قال تعالى: (ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا) (٣) فتفسير الكلام - اي كلام - معناه: الكشف عن مدلوله، وبيان المعنى الذي يشير إليه اللفظ. وعلى هذا الاساس يمكن ان نطرح السؤال التالي: هل يعتبر بيان المعنى الظاهر من اللفظ الذي يتبادر منه تفسيرا، بحيث يصدق عليه لفظ التفسير بمعناه اللغوي أو لا ؟ فهناك اتجاه يقول: إن الكشف والبيان الذي أخذناه في معنى التفسير يستبطن افتراض وجود درجة من الخفاء والغموض في المعنى، ليكشف ويزال الغموض عنه بعملية التفسير، فلا يصدق التفسير حينئذ إلا في حالة الغموض والخفاء، فمن يسمع كلاما له معنى ظاهر يتبادر من ذلك الكلام، فيعلن عن ذلك المعنى لا يكون مفسرا للكلام، لانه لم يكشف عن شئ خفي، وانما يصدق التفسير على الجهد الذي يبذله الشخص في سبيل اكتشاف معنى الكلام المكتنف بشئ من الغموض

(١) كتبه الشهيد الصدر (قدس سره). (٢) لسان العرب: مادة (فسر). (٣) الفرقان: ٣٣. (*)

والخفاء، وبتعبير آخر أن من أظهر معنى اللفظ يكون قد فسره، واما حيث يكون المعنى ظاهرا ومتبادرا بطبيعته فلا اظهار ولا تفسير. وسيرا مع هذا الاتجاه لا يكون من التفسير الا اظهار احد محتملات اللفظ، واثبات انه هو المعنى المراد، أو اظهار المعنى الخفي غير المتبادر، واثبات انه هو المعنى المراد بدلا من المعنى الظاهر المتبادر، واما ذكر المعنى الظاهر المتبادر من اللفظ فلا يكون تفسيرا. وهذا الاتجاه يمثل الرأي السائد لدى الاصوليين. ولكن الصحيح هو أن ذكر المعنى الظاهر قد يكون في بعض الحالات تفسيرا أيضا، واظهارا لامر خفي، كما أنه - في بعض الحالات الاخرى - قد لا يكون تفسيرا لانه يفقد عنصر الخفاء والغموض، فلا يكون اظهارا لامر خفي أو إزالة لغموض. ومن أجل تعرف موارد الظهور التي ينطبق عليها (التفسير) والموارد التي لا ينطبق عليها معنى (التفسير) نقسم الظهور الى قسمين: أحدهما: الظهور البسيط: وهو الظهور الواحد المستقل المنفصل عن سائر الظواهر الاخرى. والاخر: الظهور المعقد: وهو الظهور المتكون نتيجة لمجموعة من الظهورات المتفاعلة. ولاجل توضيح هذا التقسيم نضرب مثالا لذلك

من العرف، بأن يقول شخص لولده: اذهب الى البحر في كل يوم، أو يقول له: اذهب الى البحر في كل يوم، واستمع الى كلامه. فبالنسبة الى القول الاول نعتبر الظهور ظهورا بسيطا، إذ لا توجد في الكلام إلا صورة واحدة تتبادر الى الذهن وهي: صورة بحر من الماء، يطلب الاب من

ولده أن يذهب إليه في كل يوم. وأما بالنسبة الى القول الثاني فالظهور معقد لانه مزدوج، فهناك نفس الظهور السابق، إذ يتبادر الى الذهن من كلمة البحر: البحر من الماء، يذهب إليه الولد في كل يوم. ويقابله ظهور آخر وهو ظهور الاستماع الى كلام البحر، إذ يتبادر الى الذهن من ذلك: أن البحر ليس بحرا من ماء بل هو بحر من العلم، لان بحر الماء لا يستمع الى كلامه، لانه ليس له كلام، وانما يستمع الى صوت أمواجه. وهكذا نواجه في القول الثاني ظهورين بسيطين متعارضين، وحين نلاحظ الكلام بصورة كاملة متفاعلة يجب أن ندرس نتيجة التفاعل بين ذينك الظهورين، وما ينجم عنهما من ظهور بعد تصفية التناقضات الداخلية بينهما، وهذا الظهور الناجم عن ذلك نسميه: بالظهور المعقد أو المركب. وإذا ميزنا بين الظهور البسيط والظهور المعقد أمكننا أن نعرف أن ابراز الظهور المعقد، وتحديد معنى الكلام على أساسه يعتبر (تفسيرا)، لان تعقيده وتركيبه يجعل فيه درجة من الخفاء والغموض جديرة بالكشف والابانة، فيصدق عليه اسم: (التفسير)، واما الظهور البسيط ففي الغالب لا يعتبر ابراز معنى الكلام على أساسه تفسيرا، لان المعنى ظهر بطبيعته فلا يحتاج الى إظهار. والنتيجة أن في صدق التفسير على بيان المعنى في موارد الظهور اتجاهين: احدهما: القائل بعدم صدقه مطلقا، سواء كان الظهور بسيطا أو معقدا. والاخر: - وهو الاتجاه الصحيح - القائل بأن التفسير ليصدق على بيان المعنى في موارد الظهور المعقد، دون بعض موارد الظهور البسيط. أهمية التمييز بين تفسير اللفظ وتفسير المعنى: والتمييز بين تفسير اللفظ على صعيد المفاهيم، وتفسير المعنى بتجسيده في صورة محددة على صعيد المصاديق يعتبر نقطة جوهرية جدا في تفسير القرآن

الكريم، وأداة لحل التناقض الظاهري الذي قد يبدو بين حقيقتين قرآنيتين وهما: الحقيقة الاولى: أن القرآن كتاب هداية للبشرية، أنزله الله سبحانه لاخراجها من الظلمات الى النور، وإرشادها الى الطريقة الفضلى في جوانب حياتها، وقد وصف نفسه بانه (... هدى للناس...) (١) و (... نور وكتاب ومبين) (٢) (... تبيانا لكل شئ...) (٣). وهذه الحقيقة تفرض ان يجئ القرآن ميسر الفهم، وان يتاح للانسان استخراج معانيه منه، إذ لا يحتاج للقرآن ان يحقق اهدافه ويؤدي رسالته لو لم يكن مفهوما من قبل الناس. والحقيقة الثانية: ان كثيرا من الموضوعات التي يستعرضها القرآن أو يشير إليها لا يمكن فهمها بسهولة، بل قد تستعصي على الذهن البشري، ويتيه في مجال التفكير فيها لدقتها وابتعادها عن مجالات الحس والحياة الاعتيادية التي يعيشها الانسان، وذلك نظير ما يتعلق من القرآن باللوح، والقلم، والعرش، والموازين، والملك، والشيطان، وإنزال الحديد، ورجوع البشرية الى الله، والخزائن، وملكوت السماء، وتسبيح ما في السماوات والارض وما الى ذلك من موضوعات. اذن فحقيقة أهداف القرآن الكريم ورسالته تفرض أن يكون ميسر الفهم، وواقع بعض موضوعاته يستعصي على الفهم وويتيه فيها الذهن البشري. وحل التناقض الظاهري بين هاتين الحقيقتين انما يكون

بالتمييز بين تفسير اللفظ وتفسير المعنى، لان الحقيقة الاولى اهداف القرآن ورسالته انما تفرض ان يكون القرآن ميسر الفهم، بوصفه كلاما دالا على معنى: اي بحسب تفسير اللفظ،

---

(١) البقرة: ١٨٥. (٢) المائدة: ١٥. (٣) النحل: ٨٩. (*)

وهو بهذا الوصف ميسر الفهم، سهل على الناس استخراج معانيه، وانما الصعوبة في تحديد الصور الواقعية لمعانيه ومفاهيمه. فكل الايات التي استعرضت تلك الموضوعات التي اشرنا إليها في الحقيقة الثانية تعتبر مفهومة من ناحية لغوية، ولا صعوبة في التفسير اللفظي لها، وانما الصعوبة تكمن في تفسير معنى اللفظ لا في تفسير اللفظ نفسه، لان تلك الموضوعات ترتبط بعوالم ارقى من عالم الحس الذي يعيشه الانسان، فيكون من الطبيعي ان يواجه الانسان صعوبات كبيرة إذا حاول تحديد المعنى في مصداق معين، وتجسيد المفهوم في الذهن ضمن واقع خاص. وقد يتساءل هنا عن الضرورة التي دعت القرآن الكريم الى ان يتعرض لمثل هذه المعاني التي يستعصي تفسيرها على الذهن البشري، فيخلق بذلك صعوبات ومشاكل هو في غنى عنها. ولكن الواقع أن القرآن الكريم لم يكن بامكانه ان يتفادى هذه الصعوبات والمشاكل، لان القرآن بوصفه كتاب دين يستهدف بصورة رئيسة ربط البشرية بعالم الغيب، وتنمية غريزة الايمان بالغيب فيها، أو تقريب صورته الى الذهن الانساني المادي (١)، ولا يتحقق ذلك إلا عن طريق تلك الموضوعات التي تنبه الانسان الى صلته بعالم أكبر من العالم المنظور، وإن كان غير قادر على الاحاطة بجميع أسراره وخصوصياته. ٢ - التفسير معنى اضافي أم موضوعي: وعلى ضوء الاتجاه الصحيح نعرف: أن التفسير معنى (اضافي)، لان التفسير بيان المعنى وإيضاحه حتى في مورد ظهور اللفظ. والمعنى الواحد قد يكون بحاجة الى البيان والكشف بالنسبة الى شخص، ولا يحتاج الى بيان وكشف عندما نضيفه

---

(١) هناك المزيد من التوضيح لهذه الفكرة في بحث المحكم والمتشابه. (*)

الى شخص آخر، فيكون بيانه - إضافة الى من يحتاج البيان - تفسيرا دون الشخص الاخر. وأما إذا أخذنا بالاتجاه الاخر الذي يرى: أن التفسير لا يشمل موارد حمل اللفظ على معناه الظاهر مهما كان الظهور معقدا، وأن التقسيم مختص بحمل اللفظ على ما يكون ظاهرا من اللفظ فبالامكان أن نتصور للتفسير معنى (موضوعيا) مطلقا لا يختلف باختلاف الافراد، لاننا نلاحظ عندئذ اللغة نفسها، فإن كان المعنى الذي يذكر للفظ هو المعنى الذي يقتضيه الاستعمال اللغوي بطبيعته فلا يكون ذلك تفسيرا، حتى إذا كان محاطا بشئ من الخفاء والغموض بالنسبة الى بعض الاشخاص، وان كان المعنى معنى آخر لا يقتضيه الاستعمال اللغوي بطبيعته، وانما عيناه بدليل خارجي فهو (التفسير). ٣ - تفسير اللفظ وتفسير المعنى: والتفسير على قسمين باعتبار الشئ المفسر: ١ - تفسير اللفظ. ٢ - تفسير المعنى. وتفسير اللفظ عبارة عن (بيان معناه لغة)، وأما تفسير

المعنى فهو: تحديد مصداقه الخارجي الذي ينطبق عليه ذلك المعنى. فحين نسمع شخصا يقول: إن دول الاستكبار الكافر تملك أسلحة ضخمة، تارة نتساءل: ما هو معنى الاسلحة ؟ ونجيب عن هذا السؤال: إن الاسلحة هي الاشياء التي يستعين بها صاحبها في قهر عدوه، واخرى نتساءل: ما هي نوعية السلاح الذي تملكه تلك الدول ؟ ونجيب: إن سلاحها القنابل الذرية أو الصواريخ بعيدة المدى أو أقمار التجسس الفضائية أو الغواصات الذرية أو... ففي المرة الاولى فسرنا اللفظ إذ ذكرنا معناه لغة، وفي المرة الثانية فسرنا المعنى

إذ حددنا المصداق الذي ينطبق عليه معنى الجملة ويشير إليه، فتسمى المرحلة الاولى بمرحلة (تفسير اللفظ) أو التفسير اللغوي، وهي مرحلة تحديد المفاهيم، وتسمى المرحلة الثانية: مرحلة (تفسير المعنى) وهي مرحلة تجسيد تلك المفاهيم في صور معينة محددة. وأمثلة ذلك من القرآن الكريم كثيرة، فنحن نلاحظ في القرآن أن الله سبحانه يوصف بالحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر والكلام، ونواجه بالنسبة الى هذه الكلمات بحثين: أحدهما: البحث عن مفاهيم هذه الكلمات من الناحية اللغوية. والاخر: البحث عن تعيين مصداق تلك المفاهيم بالنسبة الى الله تعالى. فكيف يسمع سبحانه ؟ وهل يسمع بجارحة أو لا ؟ وكيف يعلم ؟ وهل يعلم بصورة زائدة على ذاته ؟ والاول: يمثل التفسير اللفظي للاية أو تفسير اللفظ، والثاني: يمثل التفسير المعنوي أو تفسير المعنى. ومن أمثلة ذلك أيضا قوله تعالى: (وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه...) (١) وقوله: (... وانزلنا الحديد فيه بأس شديد...) (٢) وقوله: (وانزلنا من السماء ماء بقدر فاسكناه في الارض...) (٣) فنحن نجد هذه الايات تتحدث عن اشياء قد انزلت من قبيل: (الكتاب) (الحديد) (الماء) وتفسير اللفظ يعني - بصدد هذه الايات - أن نشرح معنى (النزول) لغة ونحدد مفهوم كلمة " انزلنا " الواردة في الايات الثلاث، ونعرف أنها تستبطن معنى (الهبوط من جهة عالية

---

(١) الانعام: ٩٢. (٢) الحديد: ٢٥. (٣) المؤمنون: ١٨. (*)

مرتفعة) وتفسير المعنى هو: أن ندرس حقيقة هذا الانزال، ونوع تلك (الجهة العالية) التي هبط منها الكتاب والحديد والماء، وهل هي جهة مادية أو معنوية ؟ التفسير بوصفه علما: وأما التفسير بوصفه علما فهو علم يبحث فيه عن القرآن الكريم بوصفه كلاما لله تعالى (١). وتوضيح ذلك: أن القرآن الكريم له عدة اعتبارات: فهو تارة يلحظ بوصفه حروفا كتابية ترسم على الورق واخرى: يلحظ بوصفه أصواتا نقرؤها ونرددها بلساننا، وثالثة: يلحظ باعتباره كلاما لله تعالى. والقرآن الملحوظ بأي واحد من هذه الاعتبارات يقع موضوعا لعلم يتكون من بحوث خاصة به. فالقرآن من حيث إنه حروف تكتب: موضوع لعلم الرسم القرآني الذي يشرح قواعد كتابة النص القرآني. والقرآن من حيث إنه يقرأ: موضوع لعلم القراءة وعلم التجويد. والقرآن من حيث إنه كلام الله: يقع موضوعا لعلم التفسير. فعلم التفسير يشتمل على جميع البحوث المتعلقة بالقرآن بوصفه كلام الله، ولا يدخل في نطاقه البحث في طريقة كتابة الحرف، أو طريقة النطق بصوته، لان الكتابة والنطق ليسا من صفات نص القرآن بوصفه كلاما

لله، إذ ليس لكونه كلاما لله دخل في كيفية كتابته أو قراءته. وانما يدخل في علم التفسير في ضوء ما ذكرناه له من تعريف البحوث الاتية: اولا: البحث عن مدلول كل لفظ أو جملة في القرآن الكريم، لان كون هذا

---

(١) قارن هذا التعريف بما ذكره الزركشي في البرهان ١: ١٣، وما نقله الذهبي عن بعضهم في " التفسير والمفسرون " ١: ١٥، وما ذكره الزرقاني في " مناهل العرفان " ١: ٤٨١. (*)

المعنى أو ذاك مدلولا للفظ القرآني من صفات القرآن بوصفه كلاما لله، وليس من صفات الحروف أو أصواتها بما هي حروف أو أصوات. ثانيا: البحث عن اعجاز القرآن والكشف عن مناحي الاعجاز المختلفة فيه، فان الاعجاز من أوصاف القرآن باعتباره كلاما دالا على المراد. ثالثا: البحث عن أسباب النزول، لان الاية حين ندرس سبب نزولها نلاحظها بما هي كلام، اي بما هي لفظ مفيد دال على معنى، لان ما لا يكون كلاما ولا يدل على معنى، لا يرتبط بحادثة معينة لتكون سببا لنزول الاية. رابعا: البحث عن الناسخ والمنسوخ والخاص والعام والمقيد والمطلق، فان كل ذلك يتناول النص القرآني بوصفه كلاما دالا على معنى. خامسا: البحث عن أثر القرآن في التأريخ، ودوره العظيم في بناء الانسانية وهدايتها، فإن اثر القرآن ودوره مردهما الى فعالية القرآن بوصفه كلاما لله لا بوصفه مجرد حروف تكتب أو صوت أو اصوات تقرأ. الى غير ذلك من البحوث التي ترتبط بالقرآن باعتباره كلاما لله تعالى. ومن خلال تعريف علم التفسير نحدد موضوعه أيضا وهو (القرآن) من حيث كونه كلاما لله تعالى. وفي هذا الضوء نعرف أن اطلاق اسم علم (الناسخ والمنسوخ) أو علم (اسباب النزول) أو علم (اعجاز القرآن): على البحوث المتعلقة بهذه الموضوعات، لا يعني عدم امكان اندراجها جميعا في نطاق علم واحد باسم علم: (التفسير) فهي في الحقيقة جوانب من هذا العلم، لوحظ في كل جانب منها تحقيق هدف خاص يتعلق بالبحث في ناحية خاصة من كلام الله، ففي علم (اعجاز القرآن) يدرس كلام الله في القرآن مقارنا بالنتاج البشري أو بالامكانات البشرية، ليدلل على أنه فوق تلك الامكانات وهو معنى الاعجاز، وفي علم (اسباب النزول) يدرس

كلام الله في القرآن من حيث ارتباطه بالاحداث والوقائع التي لابست نزوله، وهكذا الامر في سائر الجوانب الاخرى. وإنما افردت هذه الاسماء واعطيت عناوين مستقلة، باعتبار أن العلماء بعد التوسع في علم التفسير أفردوها أحيانا بالبحث للتركيز على الاهداف التفصيلية لها، كما صنعوا ذلك في آيات الاحكام وفي القصص والامثال واسلوب القرآن وغيرها، مع أن هذه الابحاث وجدت وترعرعت في أحضان علم التفسير. التأويل (١): والتأويل كلمة اخرى ظهرت الى جانب كلمة: (التفسير) في بحوث القرآن عند المفسرين، واعتبروها متفقة بصورة جوهرية مع كلمة التفسير في المعنى، فالكلمتان معا تدلان على بيان معنى اللفظ والكشف عنه، قال صاحب القاموس: " أول الكلام تأويلا: دبره وقدره وفسره " (٢). والمفسرون الذين كادوا تفقوا على التوافق بين الكلمتين بشكل عام اختلفوا في تحديد مدى التطابق بين الكلمتين. ونحن هنا نذكر بعض الاتجاهات والمذاهب في ذلك: ١ - الاتجاه العام لدى قدماء المفسرين الذي يميل الى القول بالترادف

بينهما، فكل تفسير تأويل، والعكس صحيح أيضا، وعلى هذا فالنسبة بينهما هي التساوي، ولعل منه قول مجاهد: إن العلماء يعلمون تأويله، وقول ابن جرير الطبري عند تفسيره للاية " القول في تأويل قوله كذا... واختلف أهل التأويل في الاية... ".

---

(١) كتبه الشهيد الصدر (قدس سره). (٢) القاموس: مادة (اول). (*)

---

٢ - الاتجاه العام لدى من تأخر عنهم من المفسرين الذي يميل الى القول بأن التفسير يخالف التأويل في بعض الحدود: اما في طبيعة المجال المفسر والمؤول، أو في نوع الحكم الذي يصدره المفسر والمؤول، أو في طبيعة الدليل الذي يعتمد عليه التفسير والتأويل، فهنا مذاهب نذكر منها ثلاثة: أ - التمييز بين التفسير والتأويل في طبيعة المجال المفسر، ويقوم هذا المذهب على أساس القول بأن التفسير يخالف التأويل بالعموم والخصوص، فالتأويل يصدق بالنسبة الى كل كلام له معنى ظاهر، فيحمل على غير ذلك المعنى فيكون هذا الحمل تأويلا، والتفسير أعم منه لانه بيان مدلول اللفظ مطلقا اعم من أن يكون هذا المدلول على خلاف المعنى الظاهر أو لا. ب - التمييز بين التفسير والتأويل في نوع الحكم، ويقوم هذا المذهب على أساس القول بأن التفسير والتأويل متباينان، لان التفسير هو: القطع بأن مراد الله كذا، والتأويل: ترجيح أحد المحتملات بدون قطع، وهذا يعني أن المفسر احكامه قطعية، والمؤول أحكامه ترجيحية. ج - التمييز بينهما في طبيعة الدليل: ويقوم هذا المذهب على أساس القول بأن التفسير هو: بيان مدلول اللفظ اعتمادا على دليل شرعي، والتأويل هو بيان اللفظ اعتمادا على دليل عقلي. موقفنا من هذه الاتجاهات: والبحث في تعيين مدلول كلمة التأويل، والمقارنة بينها وبين كلمة التفسير يتسع - في الحقيقة - بقبول كل هذه الوجوه حين يكون بحثا اصطلاحيا يستهدف تحديد معنى مصطلح معين لكلمة التأويل في علم التفسير، لان كل تلك المعاني داخلة في نطاق حاجة المفسر، فيمكنه أن يصطلح على التعبير عن اي واحد منها بكلمة التأويل، لكي يشير الى مجال خاص أو درجة معينة من الدليل، ولا حرج عليه في

ذلك، ولكن الامر يختلف عندما يكون البحث عن معنى كلمة (التأويل) عندما ترد في الكتاب والسنة، فإن الخطر يكمن في اتخاذ المعنى المصطلح معنى وحيدا للفظ، وفهم كلمة (التأويل) على أساسه إذا جاءت في النص الشرعي (القرآن أو السنة). ونحن إذا لاحظنا كلمة التأويل وموارد استعمالاتها في القرآن نجد لها معنى آخر، لا يتفق مع ذلك المعنى الاصطلاحي الذي يجعلها بمعنى التفسير ولا يميزها عنه إلا في الحدود والتفصيلات، فلكي نفهم كلمة التأويل يجب أن نتناول إضافة الى معناها الاصطلاحي معناها الذي جاءت به في القرآن الكريم. وقد جاءت كلمة التأويل في سبع سور من القرآن الكريم: الاولى: سورة آل عمران، ففيها قوله تعالى: (هو الذي انزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن ام الكتاب واخر متشابهات فاما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله...) (١). والثانية: سورة النساء، ففيها قوله تعالى: (يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم فان تنازعتم في شئ فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الاخر

ذلك خير وأحسن تأويلا) (٢). والثالثة: سورة الاعراف، ففيها قوله تعالى: (ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون * هل ينظرون الا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق...) (٣). والرابعة: سورة يونس، ففيها قوله: (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما

---

(١) آل عمران: ٧. (٢) النساء: ٥٩. (٣) الاعراف: ٥٢. (*)

يأتهم تأويله...) (١). والخامسة: سورة يوسف، جاء فيها قوله: (وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الاحاديث...) (٢). والسادسة والسابعة: سورتا الاسراء والكهف (٣)، إذ جاءت فيهما كلمة التأويل على هذا المنوال أيضا. وبدراسة هذه الايات نعرف أن كلمة التأويل لم ترد فيها بمعنى التفسير وبيان مدلول اللفظ، بل يبدو عدم إمكانية ورودها بهذا المعنى إلا في الاية الاولى فقط، لان التأويل في الاية الاولى اضيف الى الايات المتشابهة، ولهذا ذهب كثير من مفسري الاية الى القول: بأن تأويل الاية المتشابهة هو تفسيرها وبيان مدلولها، وتدل الاية عندئذ على عدم جواز تفسير الاية المتشابهة، ومن ثم على أن قسما من القرآن يستعصي على الفهم ولا يعلمه إلا الله أو الله والراسخون في العلم، على الاحتمالين في الوقف والوصل، وأما ما يتاح للانسان الاعتيادي فهمه وتفسيره ومعرفة معناه من القرآن فهو الايات المحكمة منه فقط. وهذا الموقف الذي وقفه اولئك المفسرون من هذه الاية الكريمة، وحملهم لكلمة التأويل على ضرب من التفسير يأتي نتيجة لانسياقهم مع المعنى الاصطلاحي لكلمة التأويل، ونحن بازاء موقف من هذا القبيل يجب أن نعرف قبل كل شئ أن المعنى الاصطلاحي هل كان موجودا في عصر القرآن ؟ وهل جاءت كلمة التأويل بهذا المعنى وقتئذ ؟ ولا يكفي مجرد انسياق المعنى الاصطلاحي مع سياق الاية لنحمل كلمة التأويل فيها عليه.

---

(١) يونس: ٣٩. (٢) يوسف: ٦. (٣) الاسراء: ٣٥، والكهف: ٧٨. (*)

وملاحظة ما عدا الاية الاولى من الايات التي جاءت فيها كلمة التأويل تدل على أنها كانت تستعمل في القرآن الكريم بمعنى آخر غير التفسير، ولا نملك دليلا على أنها استعملت بمعنى التفسير في مورد ما من القرآن. والمعنى الذي يناسب تلك الايات هو ان يكون المراد بتأويل الشئ هو ما يؤول وينتهي إليه في الخارج والحقيقة، كما تدل عليه مادة الكلمة نفسها، ولهذا اضيف التأويل الى الرد الى الله والرسول تارة، والى الكتاب اخرى، والى الرؤيا، والى الوزن بالقسطاس المستقيم. وهذا نفسه هو المراد - كما عرفنا سابقا - من كلمة التأويل في الاية الاولى التي اضيف فيها التأويل الى الايات المتشابهة في قوله تعالى: (.... فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله...) (١)، فتأويل الايات المتشابهة ليس بمعنى بيان مدلولها وتفسير معانيها اللغوية، بل هو ما تؤول إليه تلك المعاني، لان كل معنى عام حين يريد العقل ان يحدده ويجسده ويصوره في صورة معينة، فهذه الصورة المعينة هي

تأويل ذلك المعنى العام. وعلى هذا الاساس يكون معنى التأويل في هذه الاية هو ما أطلقنا عليه اسم تفسير المعنى، لان الذين في قلوبهم زيغ كانوا يحاولون أن يحددوا صورة معينة لمفاهيم الايات المتشابهة اثارة للفتنة، لان كثيرا من الايات المتشابهة تتعلق معانيها بعوالم الغيب، فتكون محاولة تحديد تلك المعاني وتجسيدها في صورة ذهنية خاصة - مادية أو منسجمة مع هوى ورأي المؤول - عرضة للخطر وللفتنة. ونستخلص من ذلك أمرين: أحدهما: التأويل جاء في القرآن بمعنى ما يؤول إليه الشئ لا بمعنى التفسير، وقد استخدم بهذا المعنى للدلالة على تفسير المعنى لا تفسير اللفظ، اي على تجسيد

---

(١) آل عمران: ٧. (*)

المعنى العام في صورة ذهنية معينة. والاخر: ان اختصاص الله سبحانه والراسخين في العلم بالعلم بتأويل الايات المتشابهة لا يعني أن الايات المتشابهة ليس لها معنى مفهوم، وان الله وحده الذي يعلم بمدلول اللفظ وتفسيره، بل يعني أن الله وحده الذي يعلم بالواقع الذي تشير إليه تلك المعاني، ويستوعب حدوده وكنهه. وأما معنى اللفظ في الاية المتشابهة فهو مفهوم بدليل أن القرآن يتحدث عن اتباع مرضى القلوب للاية المتشابهة، فلو لم يكن لها معنى مفهوم لما صدق لفظ (الاتباع) هنا، فما دامت الاية المتشابهة يمكن ان تتبع فمن الطبيعي ان يكون لها معنى مفهوم، وكيف لا يكون لها معنى مفهوم وهي جزء من القرآن الذي أنزل لهداية الناس وتبيان كل شئ ! والواقع أن عدم التمييز بين تفسير اللفظ وتفسير معنى اللفظ هو الذي أدى الى الاعتقاد بأن التأويل المخصوص علمه بالله هو تفسير اللفظ ومن ثم الى القول بأن قسما من الايات ليس لها معنى مفهوم، لان تأويلها مخصوص بالله، ونحن إذا ميزنا بين تفسير اللفظ وتفسير المعنى نستطيع أن نعرف أن المخصوص بالله هو تأويل الايات المتشابهة، بمعنى تفسير معانيها لا تفسير ألفاظها. وهكذا يمكننا في هذا الضوء ان نضيف الى المعاني الاصطلاحية التي مرت بكلمة التأويل معنى آخر يمكن استنباطه من القرآن الكريم هو: تفسير معنى اللفظ، والبحث عن استيعاب ما يؤول إليه المفهوم العام، ويتجسد به من صورة ومصداق.

التدبر والتفسير بالرأي: ومن خلال هذا الفهم للتفسير والخلفية الذهنية التي يجب أن يتمتع بها المفسر، يمكن أن نميز بين التفسير الصحيح، الذي يعتمد على القرآن الكريم والسنة النبوية، والذي يمكن ان نسميه عملية (التدبر)، وبين التفسير الباطل الذي يطلق عليه اسم التفسير بالرأي. وهذا الموضوع من القضايا ذات البعد التأريخي، الذي يرجع الى عهد الرسول (صلى الله عليه وآله)، فقد ورد عنه (صلى الله عليه وآله) النهي عن التفسير بالرأي، فعنه (صلى الله عليه وآله): " من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار " (١). ولعل الاية الكريمة: (... فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة...) (٢) تشير الى أحد مصاديق هذا النوع من التفسير أيضا. أضافة الى عدد كبير من الاحاديث الواردة عن المعصوم (عليه السلام) والمروية عن طرق الفريقين، والتي تدل على هذا المعنى (٣).

(١) أخرجه الترمذي ١١: ٦٧ بألفاظ مختلفة عن ابن عباس، ورواه الصدوق في الغنية في حديث طويل عن النبي (صلى الله عليه وآله) بلفظ آخر. وقد أورد الحر العاملي في كتابه المعروف " وسائل الشيعة " مجموعة من الاحاديث في الجزء ١٨، الباب ١٣، من ابواب صفات القاضي، منها الحديث القدسي: " ما آمن بي من فسر كلامي برأيه " الحديث ٢٨، و " من فسر القرآن برأيه فقد افترى على الله الكذب " الحديث ٣٧، و " من فسر القرآن برأيه إن أصاب لم يؤجر وإن أخطأ فقد خر ابعد من السماء " الحديث ٦٦. وأحاديث عديدة اخرى. (٢) آل عمران: ٧. (٣) تناول علماء الاصول هذا البحث بشكل مفصل مرتبطا مع موضوع آخر في بحث (حجية الظاهر). ولعل أفضل من تناول هذا البحث هو استاذنا الشهيد الصدر (قدس سره) من المتأخرين، كما جاء في تقريراته التي كتبها الحجة السيد محمود الهاشمي حفظه الله. وقد تناولناه هنا مختصرا وبالمقدار الذي يناسب البحث. (*)

ومن أجل توضيح المقصود من التفسير بالرأي الذي يعتبر أمرا مهما يحسن بنا أن نبحث هذا الموضوع. وهناك احتمالات ثلاثة في معنى (التفسير بالرأي) الذي يكون موضوعا لذاك النهي الوارد عن المعصوم (عليه السلام) في روايات متواترة في مضمونها (بالتواتر الاجمالي) ولا بد من تمحيصها، وهذه الاحتمالات الثلاثة هي: الاول: أن المراد من التفسير بالرأي هو أن يفسر الانسان النص القرآني اعتمادا على رأيه وذوقه الشخصي، في مقابل الفهم العام للقرآن المتمثل بالظهور العرفي والذي يعتمد على القرائن السابقة. وتوضيح ذلك: أن علماء الاصول يذكرون أن ظهور الكلام يمكن ان يكون على نحوين: أحدهما: (الظهور النوعي): وهو ان يكون ظهور الكلام ظهورا قائما لدى العرف العام ويفهمه (نوع الناس) وعامة الناس. والاخر: (الظهور الشخصي): وهو الفهم الذي يختص به شخص ما من الناس والذي يعتمد عادة على الظروف الذهنية والنفسية والذوقية لذاك الانسان، حيث تجعله تحت تأثيرات معينة بحيث يفهم من الكلام معنى خاصا لا يفهمه غيره من الناس. وهذا النحو من الفهم للقرآن الكريم وهو الفهم الشخصي له والمعتمد على الظهور الشخصي لدى المفسر هو تفسير للقرآن بالرأي وهو التفسير المنهي عنه، مثل تفسير المتصوفة أو بعض أصحاب العقائد الفاسدة الذين لهم ذهنيات ومصطلحات خاصة تكونت ضمن ثقافتهم، ويفسرون القرآن على أساس تلك التصورات والمصطلحات.

وهذا النحو من التفسير يختلف تماما عن فهم القرآن وتفسيره اعتمادا على الخلفية الذهنية والعقائدية الصحيحة للمفسر، لان هذا التفسير تفسير معتمد على رأي شخصي ووفق ظروف الشخص وأوضاعه، وأما ذلك فهو رأي وفهم للقرآن الكريم بقرينة العقيدة الصحيحة المأخوذة من القرآن ذاته، كما ذكرنا سابقا. الثاني: أن يكون النهي الوارد على لسان الرسول (صلى الله عليه وآله) عن التفسير بالرأي هو معالجة لظاهرة برزت في زمن الرسول (صلى الله عليه وآله) في تفسير القرآن وبشكل محدد، ثم تطورت وبشكل واسع حتى تكونت على أساسها مدارس في المجتمع الاسلامي. حيث ورد النهي آنذاك عن البحث في تفسير الايات العقائدية أو التأريخية تأثرا بالديانات السابقة، وفلسفاتها وتأريخها كاليهودية والنصرانية والبوذية وغيرها، الامر الذي أدى الى ابتعاد بعض المسلمين عن المفاهيم القرآنية. ونتيجة لذلك، فقد حاول بعض المسلمين الاوائل ان يفرضوا مثل هذه الاراء على القرآن، ويفسروا بها على خلاف مضمونه ومعناه الصحيح، متأثرين في ذلك بالمتبنيات الذهنية والفكرية والعقائدية المسبقة على القرآن: (... وقد كان

فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه...) (١). (... يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به...) (٢). ولا شك أن هذا النوع من التفسير يختلف عن تفسير القرآن على أساس العقائد المستنبطة من القرآن نفسه. الثالث: وهو المعنى الذي ينسجم مع معنى (الرأي) في (مدرسة الرأي) في الفقه الاسلامي، ففي الفقه الاسلامي يوجد اتجاهان في (الاستنباط): احدهما: الاتجاه الذي يعتمد في الاستنباط وفهم الحكم الشرعي على القرآن

---

(١) البقرة: ٧٥. (٢) المائدة: ١٣. (*)

وسنة المعصوم (عليه السلام) باعتبارهما المصدرين الاساسيين، واليهما يرجع (العقل) و (الاجماع) أيضا. والاخر: اعتماد الفقيه في استنباط الحكم الشرعي - إذا لم يجد نصا يدل عليه في الكتاب والسنة - على (الاجتهاد) و (الرأي) بدلا من النص، و (الاجتهاد) هنا يعني الرأي الشخصي للفقيه، مثل القياس والاستحسان والمصالح المرسلة وغيرها. وحينئذ يكون (الاجتهاد) دليلا من ادلة الفقه ومصدرا من مصادره، إضافة الى الكتاب والسنة. وقد نادت بهذا المعنى للاجتهاد مدارس كبيرة في الفقه السني، وقامت منذ اواسط القرن الثاني مدرسة فقهية كبيرة كانت تحمل اسم مدرسة (الرأي والاجتهاد)، حيث إنه لم يصح لدى ابي حنيفة صاحب هذه الدروس إلا عدد محدود من الاحاديث قيل: إنها دون العشرين. وقد انتقد الائمة (عليهم السلام) هذه المدرسة واتجاهها انتقادا شديدا، وقد يشكل هذا الانتقاد الشديد للائمة (عليهم السلام) قرينة على أن المراد من (التفسير بالرأي) المنهي عنه هو (الرأي) في هذه المدرسة باعتبار أنها تشكل اتجاها خطيرا في الفكر الاسلامي، لا من ناحية النتائج التي انتهت إليها فقهيا فقط، وانما باعتبار الاتجاه والطريق الخاطئ الذي انتهجته في عملية الاستنباط والمعتمد بالاساس على القياس والاستحسان والمصالح المرسلة، وما أشبه ذلك من قضايا مرجعها الى الرأي، والتي تنتهي في نهاية المطاف الى انحراف خطير في فهم القرآن والسنة (١).

---

(١) وهذه النتائج الخطرة هي التي انتهت بعد ذلك الى سد باب الاجتهاد في تلك المدارس نفسها، حيث لم يكن خط الانحراف واضحا في البداية، ولكن عندما امتد الزمن بنشاط هذه المدرسة أصبح من الواضح مقدار ما تسببه هذه المدرسة من المشاكل والانحراف عن المنهج الاسلامي الاصيل في الفقه. (*)

وعلى هذا الاساس كان النقد الذي وجهه أهل البيت الى هذا الاتجاه اكبر من نقد المذاهب الفقهية الاخرى، والتي لم تلتزم بهذا الطريق الخطير في عملية الاستنباط وان كانت نتائجها غير صحيحة أيضا. وحينئذ قد يراد من التفسير بالرأي هذ النوع من الرأي هو الاعتماد في فهم المضامين القرآنية على الذوق والاستحسان فيرى أن هذا النوع من المضمون هو الاقرب الى النفس أكثر من غيره. وفرق هذا الرأي عن الرأي الاول، هو أن الحالة الذاتية كان لها دور في فهم (تفسير اللفظ) في الرأي الاول، بينما كان لها دور في فهم و (تفسير المعنى، وتشخيص المصداق) بناء على هذا الرأي. وعلى هذا الاساس نجد أن الكثير من المفسرين وقع في خطأ حينما

فسروا بعض مفاهيم القرآن، متأثرين بكثير من القضايا الغربية التي أنشأت في أنفسهم استحسانات معينة، ففسروا آية الشورى مثلا تفسيرا يجعل مفهوم الشورى في الاسلام مفهوما مطابقا لمفهوم (الديمقراطية) أو الانتخابات البرلمانية الغربية، وهكذا. إن هذا النوع من الاستحسان والقياس والاعتماد على الجانب الشخصي في تفسير (المعنى) هو في الواقع من تفسير القرآن بالرأي، ومن ثم يكون واقعا في طريق النهي الوارد بخصوص التفسير بالرأي. وهذا الاحتمال الثالث لا يكون متضاربا مع ما ذكرناه من صحة تفسير القرآن اعتمادا على الخلفية العقائدية الصحيحة، لان هذه العملية ليست عملية استحسان وقياس، وانما هي تصورات عقائدية مأخوذة من القرآن الكريم ومفاهيمه. وقد حاول بعض المفسرين ان يعطي لقضية (التفسير بالرأي) ومفهوم (الرأي) دائرة أوسع، بحيث تشمل كل جهد يمارسه الانسان الباحث والمفسر العالم في فهمه للقرآن الكريم، ويفترض بأن هذه النتائج هي (رأي)، لانه انتهى

إليه من خلال جهده ونظره ومن ثم يكون مصداقا لذلك الحديث: " من فسر القرآن برأيه فقد هوى ". وبهذه الطريقة يحاول هذا (البعض) أن يعطل البحث في القرآن الكريم وتفسيره، ويقول بأن الشئ الوحيد الذي يمكن الاعتماد عليه في تفسير القرآن الكريم انما هو النصوص الواردة عن المعصومين (عليهم السلام). وقد أكد هذا الاتجاه بعض النصوص المروية عن أهل البيت والتي حاول أن يفهمها أصحاب هذا الاتجاه على أنها تمنع من ممارسة التفسير ما لم يعتمد على النصوص الواردة عن المعصومين (١). ولعل من الاثار التي تركها وجود هذا النوع من التفكير في مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) هو: عدم تطور حركة التفسير في هذه المدرسة تطورا يناسب التطورات المهمة في المجالات الاخرى لهذه المدرسة المعطاءة ذات المستوى العالي، والذي يمكن ملاحظته من خلال ما وصلت إليه بحوث علم الفقه والحديث والاصول

---

(١) البحث حول هذه النصوص يتم عادة في علم الاصول تحت عنوان " حجية ظواهر القرآن " وهناك يستدل بشكل واضح على عدم صحة استنباط هذا المعنى من هذه النصوص، وكنموذج لها قال أبو عبد الله في رسالة: " فأما ما سألت عن القرآن فذلك أيضا من خطراتك المتفاوتة... فليس يعلم ذلك ابدا ولا يوجد... " وسائل الشيعة ١٨: ١٤١ الحديث ٣٨، باب ١٣، من ابواب صفات القاضي. مع أن أئمة اهل البيت أوضحوا ذلك في نصوص اخرى منها عن ابي جعفر (عليه السلام) أن رجلا قال له انت الذي تقول: ليس شئ من كتاب الله إلا معروف، قال: ليس هكذا قلت، إنما قلت: ليس شئ من كتاب الله إلا عليه دليل ناطق عن الله في كتابه مما لا يعلمه الناس، الى ان قال: " إن للقرآن ظاهرا، وباطنا، ومعاينا، وناسخا، ومنسوخا، ومحكما، ومتشابها، وسننا، وأمثالا، وفصلا، ووصلا، وأحرفا، وتصريفا، فمن زعم أن الكتاب مبهم فقد هلك وأهلك... " وسائل الشيعة ١٨: ١٤١ الحديث ٣٩، الباب ١٣، من ابواب صفات القاضي. (*)

والكلام فيها بل بقي التفسير فيها مواكبا للحركة العامة للتفسير لدى المسلمين. إلا أن هذا الفهم للتفسير بالرأي فهم خاطئ، وهناك مجموعة من الادلة والبراهين تشير الى عدم صحته، كما ان هناك طريقين يمكن اتباعهما لاثبات ذلك، وهما: اولا: البحث في الروايات والنصوص الواردة في موضوع التفسير بالرأي تفصيلا، حيث نتوصل من خلال ذلك الى أن ما ذكر فيها لا ينطبق على هذا المفهوم الواسع المذكور للتفسير بالرأي، وهذا البحث نؤجله الى

بحث المحكم والمتشابه في الابحاث التفسيرية. ثانيا: إن يتم من خلال الرجوع الى مجموعة القرائن والادلة والشواهد الموجودة في الكتاب والسنة الشريفة، مما لا يمكن ان ينسجم مع افتراض أن يكون (الرأي) المقصود بهذه الروايات هو هذا المعنى (الواسع) الشامل لحالة الجهد الشخصي الذي يتخذ مسيرا صحيحا، وينتهي الى رأي تفسيري معين، حتى وإن لم يكن هذا التفسير مرتبطا بالرواية عن المعصومين (عليهم السلام)، ومن هذه القرائن والادلة ما يلي: الدليل الاول: ما ورد من الايات القرآنية المؤكدة: أن القرآن الكريم قد نزل بلسان عربي مبين، وأ نه نور وهدى للعالمين، وأ نه فيه تبيان كل شئ كقوله تعالى: (... لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين) (١). (... قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين) (٢). (وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وانك لتهدي الى صراط مستقيم) (٣).

---

(١) النحل: ١٠٣. (٢) المائدة: ١٥. (٣) الشورى: ٥٢. (*)

(ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين) (١). (... ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ...) (٢). فان هذه الايات وآيات كثيرة وإن جاءت باساليب ومضامين متعددة، كلها تصب في مصب واحد، هو: أن القرآن الكريم وبحسب طبيعته يمكن ان يتفاعل معه الانسان العادي، ويشكل القرآن حينئذ مصدر الهداية ويكون تبيانا لكل شئ، مما يدل على امكانية فهم الكثير من المضامين والمعاني والهداية والنور الموجود فيه، وبشكل مباشر، ولا يكون هذا الفهم من التفسير بالرأي حتى إذا كان بدون الاستناد الى رواية أو حديث معين، وانما نتيجة لجهد الانسان الشخصي من خلال مراجعته لمجموعة المعلومات والقرائن المتوفرة عنده. وتأكيد القرآن: أنه (... لسان عربي مبين) (٣) يؤكد هذه الحقيقة، إذ إن هذه الابانة لا يمكن ان تفترض في كتاب لا يمكن فهمه إلا بالرجوع الى الروايات الموجودة في كتب الحديث، لان الابانة حينئذ لا تكون - في الواقع - ابانة للقرآن الكريم، بل للاحاديث وهي التي ستكون (المبين)، وهذا هو خلاف الافتراض في أن القرآن بنفسه فيه حالة الابانة والتوضيح والهداية. خصوصا وأن هذه الابانة أحيانا تنسب الى النص القرآني من قبيل قوله تعالى: (لسان عربي) واللسان يعبر عن حالة النص والجانب المرتبط باللفظ لا الجانب المرتبط بالمضمون. ولذا فلا مجال لادعاء أن هذا المضمون القرآني لا نفهمه إلا من خلال الروايات

---

(١) البقرة: ٢. (٢) النحل: ٨٩. (٣) النحل: ١٠٣. (*)

عن الائمة (عليهم السلام)، وحينئذ يكون مبينا بعد فهمه من خلال الروايات. الدليل الثاني: وهو ما ورد في آيات الحث على التدبر والتأمل، وفهم القرآن وأخذ معانيه والاهتداء بهديه، كقوله تعالى: (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) (١). (كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر اولوا الالباب) (٢). (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) (٣). إن هذه الايات

تختلف عن تلك الايات التي تشير الى وجود النور والهدى في القرآن الكريم، لاحتوائها على أمر المسلمين بالتدبر والتفكر في معاني ومفاهيم القرآن. ومثل هذه الاوامر تكون أوامر لا فائدة منها لو فرضنا بأن القرآن الكريم لا يمكن أن يفهم مباشرة، إلا بالاستعانة بالروايات والاحاديث الشريفة، خصوصا وأن هذه الروايات لم تأت إلا في عصور متأخرة. الدليل الثالث: هي الروايات المتواترة عن الائمة (عليهم السلام) والتي وردت في طلب عرض أخبارهم، وكذلك الشروط التي تشترط في (العقود) و (المعاملات) على القرآن، من أجل التعرف على أن مضمون هذا الشرط أو الخبر هل هو منسجم مع الشريعة أم لا ؟ فعن الصادق (عليه السلام): " ما لم يوافق من الحديث القرآن فهو زخرف " (٤). وعنه (عليه السلام): " الوقوف عند الشبهة خير من الاقتحام في الهلكة، إن على كل

---

(١) محمد: ٢٤. (٢) ص: ٢٩. (٣) النساء: ٨٢. (٤) وسائل الشيعة ١٨: ٧٨ الباب ٩، ابواب صفات القاضي الحديث: ١٢. (*)

حق حقيقة وعلى كل صواب نورا، فما وافق كتاب الله فخذوه وما خالف كتاب الله فدعوه " (١). " وكل شرط خالف كتاب الله فهو رد " (٢). " فإذا كان شرط يخالف كتاب الله فهو رد الى كتاب الله عز وجل " (٣). بحيث جعلوا (عليهم السلام) القرآن الكريم ميزانا وفرقانا لمعرفة الشرط الصحيح من غيره والاخبار الصحيحة (مضمونا) من غيرها. وهذا لا يمكن أن يتم إلا بافتراض إمكانية فهم النص القرآني والتفاعل معه بشكل مباشر، وافتراض صحة هذا التعامل والنتائج التي يتوصل إليها حتى وإن احتيج في هذا الى إعمال نظر وبذل وجهد، كما ان في هذا الامر دلالة على أن الروايات نفسها تحتاج الى أن يؤيد النص القرآني مضامينها، فكيف يمكن حصر طريق فهم النص القرآني بها فقط ؟ ! وهذا الامر من الامور الواضحة جدا عند مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) بل عند المسلمين جميعا. والدليل الرابع: هو السيرة الواضحة والمتواترة للائمة (عليهم السلام) في تعليمهم المسلمين في أن يأخذوا من القرآن الكريم مباشرة. فقد ورد في كثير من أحاديث الائمة (عليهم السلام) استشهادهم على الاحكام التي يصدرونها بآية قرآنية، مما يدل على إمكانية فهم هذا الحكم وبشكل مباشر من الاية القرآنية، إذ لو كان النص القرآني مغلقا لما كان لهذا الاستشهاد معنى، ولكان على الامام (عليه السلام) ان يقول: أنا أفهم من الاية هكذا...

---

(١) المصدر السابق: حديث ٣٥. (٢) وسائل الشيعة ١٣: ٤٣ الباب ١٥ من ابواب بيع الحيوان الحديث ١. (٣) المصدر السابق: ١٦٥ الباب ٤ من ابواب الصلح الحديث ١. (*)

فقد ورد عن أبي عبد الله (عليه السلام) مثلا: " يعرف هذا واشباهه من كتاب الله عز وجل (... وما جعل عليكم في الدين من حرج...) " (١). فقد استشهد الامام (عليه السلام) بهذه الاية في مقام استنباط حكم شرعي من قاعدة كلية وهي قاعدة (لا حرج). وقد علم الامام (عليه السلام) السائل كيف يستنبط هذا (الحكم) من تلك (القاعدة) الكلية. وهذا معناه أن الاية المباركة: (... وما جعل عليكم في الدين من حرج...) يمكن أن يفهمها هذا الانسان وبشكل

مباشر، مما يدل على صحة فهم المعنى من النص القرآني مباشرة، وان اعتمد على جهد الباحث. وخلاصة القول: أن (التفسير بالرأي) المنهي عنه قد يشتمل على احد الاحتمالات الثلاثة المذكورة سابقا، وليس لهذا علاقة بقضية التدبر في القرآن وفهم معانيه، والتي تؤدي بالانسان الى الهداية والى الصراط المستقيم (٢)، الامر الذي أمر القرآن الكريم نفسه بهذا التدبر، كما قرأناه في الايات السابقة. المفسر (٣): الشروط التي يجب توفرها في المفسر: والتفسير بوصفه علما تتوقف ممارسته على شروط كثيرة لا يمكن بدونها ان

---

(١) وسائل الشيعة ١: ٣٢٧ الباب ٣٩ من ابواب الطهارة الحديث ٥ (الحج: ٧٨). (٢) لا يعني هذا الكلام الاستغناء عن أحاديث النبي وأهل البيت التي وردت في التفسير، حيث يمكن أن تشكل تلك الاحاديث قرينة منفصلة شأنها في ذلك شأن القرائن الاخرى، ولا بد من معرفتها ليمكن فهم القرآن بشكل كامل، ولكن لا يعني ذلك أيضا أننا لا يمكن ان نفهم القرآن إلا من خلال الرواية. (٣) كتبه الشهيد الصدر. (*)

ينجح البحث في القرآن ويوفق المفسر في مهمته، ويمكن ان نلخص تلك الشروط في الامور الاربعة التالية: ١ - يجب على المفسر أن يدرس القرآن ويفسره بذهنية (اسلامية) أي: ضمن الاطار الاسلامي للتفكير، فيقيم بحوثه دائما على أساس أن القرآن كتاب الهي، انزل للهداية وبناء الانسانية بأفضل طريقة ممكنة، ولا يخضع للعوامل والظروف والمؤثرات التي يخضع لها النتاج البشري في مختلف حقول المعرفة الانسانية، فان هذا الاساس هو الاساس الوحيد لامكان فهم القرآن وتفسير ظواهره بطريقة صحيحة. واما حين يستعمل المفسر في دراسة القرآن نفس المقاييس التي يدرس في ضوئها أي كتاب دعوى اخرى أو أي نتاج بشري، فهو يقع نتيجة لذلك في أخطاء كبيرة واستنتاجات خاطئة، كما يتفق ذلك لبحوث المستشرقين الذين يدرسون القرآن في ضوء نفس المقاييس التي يدرسون بها أي ظاهرة من ظواهر المجتمع التي تنشأ فيه، وترتبط بمؤثراته وعوامله وتتكيف بموجبها. وهذا الشرط تفرضه طبيعة الموقف العلمي، لان المفهوم الذي يكونه المفسر عن القرآن ككل يشكل القاعدة الاساسية لفهم تفصيلاته، ودرس مختلف جوانبه، فلا بد أن يبنى التفسير على قاعدة سليمة ومفهوم صحيح عن القرآن، يتفق مع الاطار الاسلامي للتفكير، لكي يتجه اتجاها صحيحا في الشرح والتحليل، واما إذا اقيم التفسير على أساس تقييم خاطئ للقرآن ومفهوم غير صحيح عنه، فسوف ينعكس انحراف القاعدة على التفصيلات، ويفرض على اتجاه البحث انحرافا في التحليل والاستنتاج. وفيما يلي نذكر بعض الامثلة التي يتجلى فيها مدى الفرق في الاتجاه بين دراسة القرآن بوصفه كتابا الهيا للهداية، ودراسته بوصفه ظاهرة في مجتمع تتأثر به

وتتفاعل مع عوامله ومؤثراته، وكيف تنعكس القاعدة التي يقام على أساسها التفسير في التفصيلات وطريقة التحليل والاستنتاج ؟ أ - ففي اقرار القرآن لعدد من الاعراف وألوان من السلوك التي كانت سائدة بين العرب قبل بزوغ نور الرسالة الجديدة، قد يخيل لمن ينطلق من قاعدة خاطئة ويحاول أن يفسر القرآن بمقاييس غيره من منتجات الارض أن ذلك الاقرار يعبر عن تأثر القرآن بالمجتمع الذي وجد فيه، ولكن هذا التفسير لا معنى له حين ننطلق من القاعدة

الصحيحة، ونفهم القرآن الكريم بوصفه كتابا الهيا للهداية وبناء الانسانية، بالصورة التي تعيد إليها فطرتها النقية، وتوجهها نحو أهدافها الحقيقية الكبرى. بل نستطيع على أساس هذه القاعدة الصحيحة ان نفهم ذلك الاقرار من القرآن فهما صحيحا، إذ ليس من الضروري لكتاب هداية من هذا القبيل ان يشجب كل الوضع الذي كانت الانسانية عليه قبله، لان الانسانية مهما تفسد وتنحرف عن طريق الفطرة والاهداف الحقيقية الكبرى فهي لا تفسد كلها، بل تبقى في العادة جوانب صالحة في حياة الانسانية تمثل فطرة الانسان أو تجاربه الخيرة، فمن الطبيعي للقرآن ان يقر بعض الجوانب ويشجب اكثر الجوانب في عملية التغيير العظيم التي مارسها، وحتى هذ الذي أقره وضعه في إطاره الخاص وربطه باصوله وقطع صلته بالجاهلية وجذورها. ب - وفي تدرج القرآن الكريم في التشريع، قد يخيل لمن ينطلق من القاعدة الخاطئة التي تقول ببشرية القرآن يرتبط بطبيعة عملية البناء التي يمارسها القرآن، لان القرآن لم ينزل ليكون كتابا علميا يدرسه العلماء، وانما نزل لتغيير الانسانية وبنائها من جديد على أفضل الاسس، وعملية التغيير تتطلب التدرج. ج - وفي القرآن الكريم نجد كثيرا من التشريعات والمفاهيم الحضارية التي

كانت متبناة من قبل الشرائع السماوية الاخرى كاليهودية والنصرانية. وقد يخيل لمن يدرس القرآن على اساس القاعدة الخاطئة بأن القرآن قد تأثر وانفعل في ذلك بهذه الاديان، فانعكس هذا الانفصال ومن ثم على القرآن نفسه. ولكن الواقع - وعلى أساس المفهوم الصحيح - أن القرآن يمثل الاسلام الذي هو امتداد لرسالات السماء وخاتمها، ومن الطبيعي ان تشتمل الرسالة الخاتمة على الكثير مما احتوته الرسالات السماوية السابقة، وتنسخ الجوانب التي لا تتلائم مع التطورات النفسية والفكرية والاجتماعية للمرحلة التي وصل إليها الانسان بشكل عام، لان مصدر الرسالات هذه كلها واحد وهو الله سبحانه. خصوصا إذا أخذنا بنظر الاعتبار ايمان الاسلام بهذه الوحدة في مصدر الرسالات وتأكيده اياها. ٢ - وبعد سلامة القاعدة الاساسية في فهم القرآن وتقييمه يجب ان يتوفر في المفسر مستوى رفيع من الاطلاع على اللغة العربية ونظامها، لان القرآن جاء وفق هذا النظام، فإذا لم تكن لدينا صورة عن النظام العام للغة العربية لا نستطيع أن نستوعب معاني القرآن، فيحتاج المفسر الى الاطلاع على علم النحو، والصرف، والمعاني، والبيان، وغيرها من العلوم العربية، والقدر اللازم توفره من هذا الشرط يختلف باختلاف الجوانب التي يريد المفسر معالجتها من القرآن الكريم، فحين يريد ان يدرس فقه القرآن مثلا، لا يحتاج التعمق في أسرار اللغة العربية بالدرجة التي يحتاجها المفسر إذا اراد أن يدرس الفن القصصي في القرآن، أو المجاز في القرآن مثلا. ٣ - ولا بد للمفسر ان يحاول الى اكبر درجة ممكنة الاندماج كليا في القرآن عند تفسيره، ونقصد بالاندماج في القرآن أن يدرس النص القرآني ويستوحي معناه دون تقييد مسبق باتجاه معين غير مستوحى من القرآن نفسه، كما يصنع

كثير من أصحاب المذاهب الذين يحاولون في تفسيرهم اخضاع النص القرآني لعقائدهم، فلا يدرسون النص ليكتشفوا اتجاهه بل يفرضون عليه اتجاههم المذهبي، ويحاولون فهمه دائما ضمن اطارهم العقائدي الخاص، وهذا ليس تفسيرا وانما هو محاولة توجيه

للمذهب وتوفيق بينه وبين النص القرآني، ولهذا كان من اهم الشروط في المفسر ان يكون على درجة من التحرر الفكري تتيح له الاندماج بالقرآن، وجعله قاعدة لتكوين أي اطار مذهبي بدلا من جعل الاتجاه المذهبي المحدد قاعدة لفهم القرآن. ٤ - وأخيرا لا بد للمفسر من منهج عام للتفسير، يحدد فيه عن اجتهاد علمي طريقته في التفسير، ووسائل الاثبات التي يستعملها، ومدى اعتماده على ظهور اللفظ وعلى نصوص السنة، وعلى اخبار الاحاد، وعلى القرائن العقلية في تفسير النص القرآني، لان في كل واحد من هذه الامور خلافا علميا، ووجهات نظر عديدة، فلا يمكن ممارسة التفسير دون أن تدرس تلك الخلافات درسا دقيقا، والخروج من هذه الدراسة بوجهات نظر معينة تؤلف المنهج العام للمفسر، الذي يسير عليه تفسيره. ولما كانت تلك الخلافات تتصل بجوانب من الاصول والكلام والرجال وغيرها كان لزاما على المفسر لدى وضعه للمنهج ودراسته لتلك الخلافات ان يكون ملما الماما كافيا بتلك العلوم.

التفسير في عصر الرسول (صلى الله عليه وآله) (١) بالرغم من أن القرآن الكريم تميز باسلوب فريد في اللغة العربية، وصل به الى مستوى الاعجاز ولكنه جاء ايضا وفقا للنظام العام للغة العربية، وتطبيقا لقواعدها ومناهجها في التعبير، ومتفقا مع الذوق العربي العام في فنون الحديث، وعلى هذا الاساس كان يحظى بفهم اجمالي من معاصري الوحي - على وجه العموم - ولاجل ذلك كان البيان القرآني يأخذ بألباب المشركين، ويفتح قلوبهم للنور، وكثيرا ما اتفق للشخص أن يستجيب للدعوة، ويشرح الله صدره للاسلام بمجرد أن يسمع عدة آيات من القرآن، فلولا وجود فهم اجمالي عام للقرآن لم يكن بالامكان أن يحقق القرآن هذا التأثير العظيم السريع في نفوس الافراد، الذين عاشوا البيئة الجاهلية وظلامها. ولكن هذا لا يعني أن معاصري الوحي، وقتئذ كانوا يفهمون القرآن كله فهما كاملا شاملا من ناحية المفردات والتراكيب، بنحو يتيح لهم أن يحددوا المدلول اللفظي لسائر الكلمات والجمل والمقاطع التي اشتمل عليها القرآن الكريم، كما زعم ابن خلدون حيث قال في مقدمته: " إن القرآن نزل بلغة العرب وعلى أساليب بلاغتهم فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه، في مفرداته وتراكيبه ". فان نزول القرآن بلغة العرب وعلى أساليب بلاغتهم لا يكفي وحده دليلا على أنهم كانوا - على وجه العموم - يفهمونه، ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه،

---

(١) كتبه الشهيد الصدر. (*)

ويدركون كل ما يدل عليه اللفظ القرآني من احكام ومفاهيم، لان كون الشخص من ابناء لغة معينة لا يعني اطلاعه عليها اطلاعا شاملا، واستيعابه لمفرداتها وأساليبها في التعبير، وفنونها في القول، وانما يعني فهمه للغة بالقدر الذي يدخل في حياته الاعتيادية. ومن ناحية اخرى لا يتوقف فهم الكلام واستيعابه على المعلومات اللغوية فحسب، بل يتوقف اضافة الى ذلك على استعداد فكري خاص، ومران عقلي يتناسب مع مستوى الكلام، ونوع المعاني التي سيق لبيانها، وإذا كان العرب - وقتئذ - يعيشون حياة جاهلية من القاعدة الى القمة، ويعبرون عن تراث جاهلي سيطر على مختلف شؤون

حياتهم قرونا عديدة فمن الطبيعي ان لا يتيسر لهم حين الدخول في الاسلام - بصورة تلقائية - الارتفاع ذهنيا وروحيا الى المستوى الذي يتيح لهم استيعاب مدلولات اللفظ القرآني، ومعانى الكتاب الكريم الذي جاء لهدم الحياة الجاهلية ويقوض أسسها، ويبني الانسان من جديد. ومن ناحية ثالثة نحن نعرف أن عملية فهم القرآن الكريم لا يكفي فيها النظر الى جملة قرآنية أو مقطع قرآني، بل كثيرا ما يحتاج فهم هذا المقطع أو تلك الجملة الى مقارنة بغيره، مما جاء في الكتاب الكريم أو الى تحديد الظروف والملابسات، وهذه الدراسة المقارنة لها قريحتها، وشروطها الفكرية الخاصة، وراء الفهم اللغوي الساذج، وهكذا نعرف ان طبيعة الاشياء تدل على أن العرب المعاصرين لنزول القرآن كانوا يفهمون القرآن فهما اجماليا، وأ نهم لم يكونوا على وجه العموم يفهمونه بصورة تلقائية، فهما تفصيليا يستوعب مفرداته وتراكيبه. الشواهد على عدم توفر الفهم التفصيلي: وهذا الذي تدل عليه طبيعة الاشياء أكدته أحاديث ووقائع كثيرة، دلت على

أن المعاصرين لرسول الله كانوا كثيرا ما لا يستوعبون النص القرآني ولا يفهمون معناه، إما لعدم اطلاعهم على مدلول الكلمة القرآنية المفردة من ناحية لغوية، أو لعدم وجود استعداد فكري يتيح لهم فهم المدلول الكامل، أو لفصل الجملة أو المقطع القرآني عن الملابسات والامور التي يجب أن يقرن المقطع القرآني بها لدى فهمه (١). واليكم عددا من هذه الاحاديث والوقائع: ١ - عن الحاكم في المستدرك أن أنس قال بينا عمر جالس في أصحابه، إذ تلا هذه الاية (فانبتنا فيها حبا * وعنبا وقضبا * وزيتونا ونخلا * وحدائق غلبا * وفاكهة وأبا) (٢)، ثم قال هذا: كله عرفناه فما (الاب) ؟ قال وفي يده عصية يضرب بها الارض، فقال: هذا لعمر الله التكلف، فخذوا أيها الناس بما بين لكم فاعملوا به، وما لم تعرفوه فكلوه الى ربه. وروي أيضا أن عمر كان على المنبر فقرأ: (أو يأخذهم على تخوف...) (٣) فسأل عن معنى التخوف، فقال له رجل من هذيل: التخوف عندنا التنقص. وجاء عن ابن عباس أنه قال: كنت لا أدري ما فاطر السماوات حتى أتاني اعرابيان في بئر فقال أحدهما: أنا فطرتها يقول أنا ابتدأتها. كما روي عنه في تفسير الطبري أ نه سأل ابا الجلد عن معنى البرق في الاية ١٢ من سورة الرعد، فذكر له أن معناه هنا المطر. ٢ - وجاء في تفسير الطبري أن عمر سأل الناس عن هذه الاية (أيود احدكم

---

(١) ذكرنا وجود شواهد كثيرة على هذه الحقيقة وردت في كتب الحديث والتفسير، مثل الطبرسي وصحيح البخاري والمستدرك للحاكم وغيرها. (٢) عبس: ٢٧ - ٣١. (٣) النحل: ٤٧. (*)

ان تكون له جنة من نخيل واعناب...) (١) فما وجد أحد يشفيه، حتى قال ابن عباس وهو خلفه: يا امير المؤمنين: إني أجد في نفسي منها شيئا، فتلفت إليه فقال: تحول ها هنا لم تحقر نفسك ؟ ! قال: هذا مثل ضربه الله عز وجل، فقال أيود أحدكم أن يعمل عمره بعمل أهل الخير وأهل السعادة حتى إذا كان أحوج ما يكون الى أن يختمه بخير حين فني عمره، واقترب أجله، ختم ذلك بعمل من عمل أهل الشقاء فافسده كله فحرقه، وهو أحوج ما يكون إليه. وعن البخاري:

ان عدي بن حاتم لم يفهم معنى قوله تعالى: (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر) وبلغ من امره ان اخذ عقالا اسود فلما كان بعض الليل نظر اليهما فلم يستبينا، فلما اصبح أخبر الرسول بشأنه فافهمه المراد. ٣ - وروي ان عمر استعمل قدامة بن مظعون على البحرين، فقدم الجارود على عمر فقال: ان قدامة شرب فسكر. فقال عمر: من يشهد على ما تقول قال الجارود: أبو هريرة يشهد على ما اقول. فقال عمر: يا قدامة، اني جالدك. قال: والله لو شربت كما يقولون ما كان لك ان تجلدني قال عمر: ولم ؟ قال: " ليسر على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا واحسنوا " فانا من اللذين آمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا واحسنوا شهدت مع رسول الله بدرا واحدا والخندق والمشاهد فقال عمر: ألا تردون عليه قوله فقال ابن عباس: ان هذه الايات انزلت عذرا للماضين وحجة على الباقين، لان الله يقول: (يا ايها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان). فقال عمر: صدقت. فهذه الوقائع تدل على ان بعض الصحابة كثيرا ما كانوا لا يفهمون القرآن

---

(١) البقرة: ٢٦٦. (*)

بصورة تلقائية، ويحتاجون في فهمه الى السؤال، والبحث، اما لعدم الاطلاع على المدلول اللغوي للكلمة كما في القسم الاول، أو لعدم الارتفاع فكريا الى مستوى اغراض القرآن ومعانيه كما في القسم الثاني، أو للنظرة التجزيئية التي ورطت قدامة بن مظعون في فهم خاطئ للاية الكريمة كما في القسم الثالث. ويمكننا أن نضيف الى ما تقدم نقطة اخرى أيضا وهي: أن الاية قد تكون من الناحية اللغوية في مستوى معلومات الشخص، ولكنه يبقى مع ذلك - عند محاولة استيعاب المعنى - بحاجة الى البحث، والسؤال لتعيين المصداق الذي يتجسد فيه مدلول اللفظة، ففي قوله تعالى: (والفجر * وليال عشر) (١) من الطبيعي ان يعرف الصحابة جميعا - بحكم نشأتهم العربية - معنى كلمة " ليال " ومعنى كلمة " عشر "، ولكن يبقى بعد ذلك ان يعرفوا المصداق، وما هي الليالي العشر التي عناها الله تعالى. وكذلك الامر في قوله تعالى: (والعاديات ضبحا) (٢) (والذاريات ذروا) (٣) فالمعرفة باللغة وحدها لا تكفي في هذه المجالات. وهكذا نستنتج أن المسلمين في عصر الرسول (صلى الله عليه وآله) لم يكن الفهم التفصيلي للقرآن ميسرا لهم على وجه العموم، بل كانوا في كثير من الاحيان بحاجة الى السؤال والبحث والاستيضاح لفهم النص القرآني. دور الرسول الاعظم (صلى الله عليه وآله) في التفسير: وكان من الطبيعي أن يقوم الرسول الاعظم بدور الرائد في التفسير، فكان هو المفسر الاول يشرح النص القرآني، ويكشف عن أهدافه، ويقرب الناس الى

---

(١) الفجر: ١ و ٢. (٢) العاديات: ١. (٣) الذاريات: ١. (*)

مستواه كلا حسب قابلياته واستعداده الخاص، ويحل للمسلمين ما تعترضهم من مشاكل في تفهم النص الكريم، وتحديد معطياته وما يلتبس عليهم من احكام ومفاهيم، لان النبي بوصفه صاحب الرسالة، ومهبط الوحي كان قد اعد اعدادا الهيا لهذه المهمة كغيرها من مهام الدعوة والرسالة، وتكفل الله تعالى له بالحفظ والبيان (ان علينا جمعه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتبع قرآنه * ثم ان علينا بيانه) (١) ولا يختلف المسلمون في الدور الرائد الذي قام به النبي الاعظم، بوصفه المفسر الاول للقرآن الى جانب دوره الرائد في مجال التطبيق لمفاهيم القرآن ونظرته العامة الى الكون والحياة. ولكن السؤال الذي يطرح بهذا الصدد عادة هو السؤال عن حدود التفسير الذي مارسه الرسول الاعظم (صلى الله عليه وآله) ومداه، فهل شمل القرآن كله بأن كان يفسر الايات تفسيرا شاملا ؟ أو اقتصر على جزء منه ؟ أو كان يتناول الايات التي يستشكل الصحابة في فهمها، ويسألون عن معناها فحسب ؟ فهناك من يعتقد أن النبي (صلى الله عليه وآله) لم يفسر إلا آيات من القرآن، ويستند أصحاب هذا القول في ذلك الى روايات تنفي ان يكون رسول الله (صلى الله عليه وآله) قد فسر القرآن كله تفسيرا شاملا، وعلى رأس هؤلاء السيوطي (٢). فمن تلك الروايات ما أخرجه البزار عن عائشة قال: " ما كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) يفسر... آيا بعدد... " (٣). وأهم ما يعزز هذا القول هو طبيعة الاشياء والواقع المشهود، لان ندرة ما صح عن الصحابة من التفسير المأثور عن النبي (صلى الله عليه وآله) تدل على أن النبي (صلى الله عليه وآله) لم يكن قد

---

(١) القيامة: ١٧ - ١٩. (٢) الاتقان في علوم القرآن ٤: ١٩٦، ٢٠٠ للسيوطي، ط ٢، منشورات الرضي - بيدار. (٣) التفسير والمفسرون ١: ٥١، للذهبي، دار الكتب الحديثة. (*)

فسر للصحابة على وجه العموم آيات القرآن جميعا تفسيرا شاملا، وإلا لكثرت روايات الصحابة عنه بهذا الشأن، ولما وجدنا الكثرة الكاثرة منهم أو كبار رجالاتهم يتحيرون في معنى آية، أو كلمة من القرآن ويغيب عنهم حتى المدلول اللفظي للنص، والعبرة المباشرة التي يستهدفها كما سبق في الروايات والوقائع المتقدمة. ولكن توجد في مقابل ذلك أدلة وشواهد من القرآن الكريم وغيره تشير الى أن النبي (صلى الله عليه وآله) كان يقوم بعملية تفسير شامل للقرآن كله، ولعل في طليعة ذلك قوله تعالى: (كما ارسلنا فيكم رسولا منكم يتلوا عليكم آياتنا، ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة، ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون) (١). وقوله تعالى: (... وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون) (٢). وطبيعة الاشياء حين ننظر إليها من زاوية اخرى، غير الزاوية السابقة التي نظرنا من خلالها في إطار القول الاول تدل على أن النبي قد فسر القرآن تفسيرا شاملا كاملا لاننا عرفنا: من ناحية أن الفهم الاجمالي للقرآن لم يكن كافيا، لكي يفهم الصحابة القرآن فهما شاملا دقيقا، ولم يكن انتساب الصحابة غالبا الى اللغة العربية ضمانا كافيا لاستيعاب النص القرآني، وادراك معانيه. ومن ناحية اخرى نحن نعرف: أن القرآن لم يكن في حياة المسلمين مجرد نص ادبي أو اشياء ترتل ترتيلا في عباداتهم وطقوسهم، وانما كان الكتاب الذي انزل لاخراج الناس من الظلمات الى النور، وتزكيتهم وتثقيفهم

---

(١) البقرة: ١٥١. (٢) النحل: ٤٤. (*)

والارتفاع بمختلف مستوياتهم، وبناء الشخصية الاسلامية الواعية للفرد والاسرة والمجتمع. ومن الواضح أن هذا الدور العظيم لا يمكن للقرآن الكريم أن يؤديه بصورة كاملة شاملة ما لم يفهم فهما كاملا شاملا، ويصل المسلمون الى اهدافه ومعانيه، ويندمجون بمفاهيمه، ومصطلحاته. واما إذا ترك القرآن بدون تفسير موجه توجيها رساليا فسوف يفهم من قبل المسلمين ضمن اطاراتهم الفكرية، وعلى المستوى الثقافي والذهني الذي كان الناس يعيشونه - وقتئذ - وتتحكم في تفسيره كل الرواسب، والمسبقات الذهنية التي كانت لا تزال تتحكم في كثير من الاذهان. وهكذا نجد انفسنا امام تناقض بين قولين لكل منهما شواهده ومعززاته، ويحتاج هذا التناقض الى حل. وقد لانجد حلا منطقيا أقرب الى القبول من القول: بأن النبي (صلى الله عليه وآله) فسر القرآن الكريم على مستويين: فقد كان يفسره على (المستوى العام) في حدود الحاجة، ومتطلبات الموقف الفعلي، ولهذا لم يستوعب القرآن كله. وكان يفسره على مستوى خاص تفسيرا شاملا كاملا بقصد إيجاد من يحمل تراث القرآن، ويندمج به اندماجا مطلقا بالدرجة التي تتيح له أن يكون مرجعا بعد ذلك في فهم الامة للقرآن، وضمانا لعدم تأثر الامة في فهمها باطارات فكرية خاصة ومسبقات ذهنية، أو رواسب جاهلية. ونحن إذا فسرنا الموقف في هذا الضوء، وجدنا أنه يتفق مع طبيعة الاشياء من كل ناحية. فندرة ما صح عن الصحابة من الروايات عن النبي (صلى الله عليه وآله) في التفسير مردها الى

أن التفسير على (المستوى العام) لم يكن يتناول جميع الايات، بل كان يقتصر على قدر الحاجة الفعلية. ومسؤولية النبي (صلى الله عليه وآله) في ضمان فهم الامة للقرآن، وصيانته من الانحراف يعبر عنها (المستوى الخاص) الذي مارسه من التفسير، فقد كان لا بد للضمان من هذا المستوى الخاص، ولا يكفي المستوى العام لحصول هذا الضمان حتى لو جاء التفسير مستوعبا، لانه يجئ عندئذ متفرقا ولا يحصل الاندماج المطلق، الذي هو شرط ضروري لحمل أمانة القرآن. ونفس المخطط كان لا بد من اتباعه في مختلف الجوانب الفكرية للرسالة من تفسير وفقه وغيرهما. المرجعية الفكرية لاهل البيت (عليهم السلام): وهذا الحل المنطقي للموقف تدعمه النصوص المتواترة الدالة على وضع النبي (صلى الله عليه وآله) لمبدأ مرجعية أهل البيت (عليهم السلام) في مختلف الجوانب الفكرية للرسالة، ووجود تفصيلات خاصة لدى أهل البيت (عليهم السلام) تلقوها عن النبي (صلى الله عليه وآله) في مجالات التفسير والفقه وغيرهما. أما النصوص التي تمثل مبدأ مرجعية أهل البيت (عليهم السلام) في الجوانب الفكرية للرسالة فهي كثيرة نذكر عدة نصوص منها: الاول: حديث الثقلين، وقد جاء بصيغ عديدة نذكر منها ما رواه الترمذي في صحيحه بسنده عن ابي سعيد والاعمش، عن حبيب بن ثابت، عن زيد بن ارقم قالا: " قال رسول الله صلى الله عليه] وآله [وسلم: إني تارك فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا بعدي، أحدهما أعظم من الاخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء الى الارض، وعترتي أهل بيتي ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض، فانظروا كيف

تخلفوني فيهما " (١). الثاني: حديث الامان، فقد روى الحاكم في مستدرك الصحيحين بسنده عن ابن عباس، قال: " قال رسول الله صلى الله عليه] وآله [وسلم: النجوم أمان لاهل الارض من الغرق، وأهل بيتي أمان لامتي من الاختلاف، فإذا خالفتها قبيلة من العرب اختلفوا فصاروا حزب ابليس ". قال الحاكم هذا حديث صحيح الاسناد، كما ذكر ابن حجر في صواعقه وصححه (٢). الثالث: حديث السفينة،، فقد روى الحاكم في المستدرك وغيره كثير، أن النبي (صلى الله عليه وآله) كان يقول: " مثل أهل بيتي مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق " (٣).

---

(١) صحيح الترمذي ٢: ٣٠٨. وقد روي حديث الثقلين بأسانيد وطرق عديدة عن مجموعة من الصحابة والتابعين، مثل زيد بن ارقم وزيد بن ثابت وابي سعيد الخدري وحذيفة بن اسيد الغفاري وعلي بن ابي طالب وابي هريرة، كما جاء هذا الحديث بصيغ متعددة حيث رواه الترمذي ومسلم في صحيحيهما والحاكم في مستدرك الصحيحين، وأحمد بن حنبل في مسنده، وابو نعيم في حلية الاولياء، والهيثمي في مجمعه، وابن حجرفي صواعقه، والمتقي في كنز العمال، والطبراني في الكبير، وابن الاثير الجزري في اسد الغابة، وابن جرير في تهذيب الاثار، والخطيب البغدادي في تأريخ بغداد، وغيرهم كثيرون، وقال السمهوري على ماروى عنه المناوي في فيض الغدير: وفي الباب ما يزيد على عشرين من الصحابة، وقال ابن حجر في صواعقه: ولهذا الحديث طرق كثيرة عن بضعة وعشرين صحابيا لا حاجة لنا ببسطها. راجع فضائل الخمسة في الصحاح الستة وغيرها من كتب أهل السنة ٢: ٥٢ - ٦٠. (٢) مستدرك الصحيحين ٣: ١٤٩، والصواعق: ١٤٠. (٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢: ٣٤٣، وقال إنه حديث صحيح على شرط مسلم، ورواه أيضا بطريق آخر عن حنش، عن أبي ذر الغفاري في ٣: ١٦، وذكره المتقي في كنز العمال، وابن جرير والهيثمي والبزار والطبراني في الكبير والاوسط والصغير وابو نعيم في الحلية، واحمد بن حنبل والخطيب البغدادي والسيوطي والمناوي والمحب الطبري وغيرهم، راجع فضائل الخمسة ٢: ٦٤ - ٦٦. (*)

الرابع: حديث الحق، فقد روى الترمذي في صحيحه عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال: " رحم الله عليا، اللهم أدر الحق معه حيث دار " (١)، كما روي هذا الحديث بصيغ اخرى منها: " علي مع الحق والحق مع علي ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض يوم القيامة " (٢). الخامس: حديث القرآن، فقد روى الحاكم في المستدرك وغيره أن النبي قال: " علي مع القرآن والقرآن مع علي ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض " (٣). السادس: حديث الحكمة، فقد روى الترمذي في صحيحه وغيره أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: " أنا دار الحكمة وعلي بابها " وقد شرح المناوي في هامش فيض القدير كلمة " علي بابها ": اي علي بن ابي طالب (عليه السلام) هو الباب الذي يدخل منه الى الحكمة (٤). السابع: حديث المدينة، فقد روى الحاكم في المستدرك وغيره عن ابن عباس، قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " أنا مدينة العلم وعلي بابها فمن أراد المدينة فليأت الباب ". قال الحاكم: هذا حديث صحيح الاسناد (٥). الثامن: حديث الاختلاف، فقد روى الحاكم في المستدرك وغيره، أن النبي (صلى الله عليه وآله) قال لعلي (عليه السلام): " أنت تبين لامتي ما اختلفوا فيه بعدي " قال: هذا

---

(١) الترمذي ٢: ٢٩٨. (٢) الخطيب البغدادي، تأريخ بغداد ١٤: ٣٢١، راجع تفصيل الرواة في الفضائل الخمسة ٢: ١٢٢ - ١٢٤. (٣) مستدرك الصحيحين ٣: ١٢٤، وفضائل الخمسة ٢: ١٢٦. (٤) الترمذي ٢: ٢٩٩ ورواه غيره، انظر فضائل الخمسة ٢: ٢٧٩ - ٢٨٠. (٥) مستدرك الصحيحين ٣: ١٢٦، انظر فضائل الخمسة ٢: ٢٨١ - ٢٨٣. (*)

حديث صحيح على شرط الشيخين (١). التاسع: حديث السؤال، فقد روى جماعة من المحدثين منهم المتقي في كنز العمال، وابن سعد في طبقاته، وابن جرير في تفسيره، وابن حجر في تهذيب التهذيب، وابن عبد البر في الاستيعاب وغيرهم بألفاظ مختلفة أن علي ابن ابي طالب (واللفظ للمتقي في كنز العمال)، قال: " سلوني فوالله لا تسألوني عن شئ يكون الى يوم القيامة إلا حدثتكم، سلوني عن كتاب الله فوالله ما من آية إلا أنا اعلم أبليل نزلت أم بنهار، أم في سهل نزلت أم في جبل... " (٢). إضافة الى هذه الاحاديث وأمثالها الكثيرة، نجد أن الصحابة في عصر الخلافة الاولى كانوا يرجعون الى علي (عليه السلام) في مختلف القضايا المهمة والمستعصية، وخصوصا في مجال تفسير القرآن والقضاء ومعرفة الشريعة، حيث وردت النصوص الكثيرة والتي صححها أصحاب الحديث تؤكد هذا الموقف العملي من الصحابة وهذه الحقيقة الناصعة. فقد روى البخاري في كتاب التفسير من صحيحه في باب قوله تعالى: (ما ننسخ من آية أو ننسها...) (٣) بسنده عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، حديثا قال فيه: قال عمر " واقضانا علي... " ورواه بقية رجال الحديث مثل الحاكم في المستدرك، واحمد بن حنبل في مسنده و... (٤). كما روى ابن ماجة في صحيحه حديثا بسندين عن انس بن مالك قال فيه: إن

---

(١) المصدر السابق ٣: ١٢٢، وانظر فضائل الخمسة ٢: ٢٨٤ - ٢٨٥. (٢) كنز العمال: ١: ٢٢٨، راجع أيضا فضائل الخمسة ٢: ٢٢٦ - ٢٦٧. (٣) البقرة: ١٠٦. (٤) راجع فضائل الخمسة ٢: ٢٩٦ - ٢٩٨. (*)

النبي قال: " وأقضاهم علي بن ابي طالب "، وفي رواية اخرى للحاكم صحيحة على شرط الشيخين، أن ابن مسعود كان يقول: " إن اقضي أهل المدينة علي بن ابي طالب ". وقد روى أبو نعيم في الحلية عن ابن مسعود قال: " إن القرآن نزل على سبعة أحرف ما منها حرف إلا له ظهر وبطن، وان علي بن ابي طالب (عليه السلام) عنده علم الظاهر والباطن " (١). وقد كان يعترف بهذه الحقيقة حتى أعداء علي (عليه السلام)، أمثال الطاغية الحجاج بن يوسف الثقفي، حيث يقول: " إننا لم ننقم على علي قضاءه، قد علمنا أن عليا كان أقضاهم " (٢). وقد رجع أبو بكر وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان، وحتى معاوية بن ابي سفيان بالرغم من العداء القائم بينهما، وكذلك الكثير من كبار الصحابة، مثل عائشة زوج النبي (صلى الله عليه وآله) وعبد الله بن عمر وغيرهما ممن كان يرجعون - أو يدلون الناس على الرجوع الى علي (عليه السلام) - في عدد كبير من القضايا ذكرها كبار رجال أهل الحديث والتأريخ، أمثال البخاري وأحمد بن حنبل ومالك بن أنس وابن داود والحاكم والبيهقي وغيرهم، وخصوصا في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب (٣). لقد كانت هذه المرجعية حقيقة قائمة على مستوى الواقع العملي لدى الخلفاء وبعض أهل المعرفة من الصحابة، ولكنها كانت عند الضرورة ومواطن الاحراج والاشكال، ولم يتم الاعتراف بها - مع الاسف الشديد - على المستوى الرسمي

---

(١) حلية الاولياء ١: ٦٥. (٢) راجع فضائل الخمسة ٢: ٢٩٦ - ٢٩٨. (٣) المصدر السابق ٢: ٣٠٦ - ٣٤٤. (*)

للخلافة والحكم، لاسباب متعددة لا مجال لذكرها في هذا البحث (١)، الامر الذي جعل الباب مفتوحا امام الصحابة والتابعين أو غيرهم - حتى الادعياء - أن يمارسوا العملية التفسيرية للقرآن الكريم، من خلال المستوى العام لفهم القرآن الكريم. وقد ظهرت معالم الخلل في هذا الانفتاح الواسع على مرجعية الصحابة، دون التمييز بين هذه الخصائص الفريدة التي كان يختص بها أهل البيت (عليهم السلام)، وفي مقدمتهم علي (عليه السلام) وبين بقية الصحابة الذين تناولوا القليل من العلم، فضلا عن اولئك الاشخاص الذين لم يكونوا في الحقيقة من أصحاب النبي، وإنما كانوا من (الادعياء) الذين حاولوا أن يتسلقوا هذا الموقع الروحي المقدس بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وآله) فألصقوا أنفسهم به. ولعل خير ما يصور لنا بدايات هذا الخلل، ووجود هذين المستويين من التفسير ما رواه الكليني والصدوق وغيرهما، عن سليم بن قيس الهلالي، عن علي (عليه السلام)، قال سليم: " قلت لامير المؤمنين (عليه السلام): إني سمعت من سلمان والمقداد وأبي ذر شيئا من تفسير القرآن وأحاديث عن نبي الله (صلى الله عليه وآله) غير ما في أيدي الناس، ثم سمعت منك تصديق ما سمعت منهم، ورأيت في أيدي الناس أشياء كثيرة من تفسير القرآن، ومن الاحاديث عن نبي الله (صلى الله عليه وآله) أنتم تخالفونهم فيها وتزعمون بأن ذلك كله باطل، أفترى الناس يكذبون على رسول الله (صلى الله عليه وآله)

---

(١) لقد حاول الامويون أعداء أهل البيت (عليهم السلام) بعد ذلك ان يعمقوا حالة الانحراف في الامة، من خلال إصرارهم على طرح الادعياء من الصحابة كمرجع للامة في الشؤون الدينية، في الوقت الذي أخذوا يطاردون كل من يذكر عليا، أو يذكر الاخذ من علي (عليه السلام)، كما تشير الى ذلك الوقائع والاحداث والنصوص التأريخية، واستجاب لهذا الخط الانحرافي العباسيون، بسبب الشعور بالخوف من غلبة وظهور ابناء علي (عليه السلام) على الساحة السياسية، إذا ارتبطت الامة بهم فكريا ومذهبيا. (*)

متعمدين ويفسرون القرآن بآرائهم ؟ قال فأقبل علي فقال: قد سألت فافهم الجواب: إن في أيدي الناس حقا وباطلا وصدقا وكذبا... وحفظا ووهما، وقد كذب على رسول الله (صلى الله عليه وآله) على عهده حتى قام خطيبا، فقال: " أيها الناس قد كثرت علي الكذابة، فمن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار "، ثم كذب عليه من بعده، وإنما أتاكم الحديث من أربعة ليس لهم خامس: رجل منافق يظهر الايمان، متصنع بالاسلام، لا يتأثم ولا يتحرج أن يكذب على رسول الله (صلى الله عليه وآله) متعمدا، فلو علم الناس أنه منافق كذاب لم يقبلوا منه ولم يصدقوه، ولكنهم قالوا هذا صحب رسول الله ورآه وسمع منه، وهم لا يعرفون حاله، وقد أخبره الله عن المنافقين بما اخبره، ووصفهم بما وصفهم، فقال عز وجل: (وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم...) (١). ثم بقوا بعده... فهذا أحد الاربعة. ورجل سمع من رسول الله (صلى الله عليه وآله) فلم يحفظه على وجهه ووهم فيه، ولم يتعمد كذبا، فهو في يده يقول به ويعمل به ويرويه فيقول: انا سمعت من رسول الله (صلى الله عليه وآله) فلو علم المسلمون أنه وهم لم يقبلوه، ولو علم هو أنه وهم لرفضه. ورجل ثالث سمع من رسول الله (صلى الله عليه وآله) شيئا أمر به، ثم نهى عنه وهو لا يعلم، أو سمع ينهى عن شئ، ثم أمر به وهو لا يعلم، فحفظ منسوخه ولم يحفظ الناسخ، ولو علم أنه منسوخ لرفضه، ولو علم المسلمون إذ سمعوه منه أنه منسوخ لرفضوه. وآخر

رابع لم يكذب على رسول الله (صلى الله عليه وآله) مبغض للكذب خوفا من الله، وتعظيما لرسول الله (صلى الله عليه وآله) لم يسه، بل حفظ ما سمع على وجهه، فجاء به كما سمع، لم يزد فيه ولم ينقص منه، وعلم الناسخ من المنسوخ، فعمل بالناسخ ورفض المنسوخ، فإن أمر النبي (صلى الله عليه وآله) ناسخ ومنسوخ وخاص وعام ومحكم ومتشابه، قد كان يكون من

---

(١) المنافقون: ٤. (*)

رسول الله الكلام له وجهان، كلام عام وكلام خاص مثل القرآن. وقال الله عز وجل في كتابه: (... ما آتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا...) (١) فيشتبه على من لم يعرف ولم يدر ما عنى الله به ورسوله، وليس كل أصحاب رسول الله كان يسأله عن الشئ فيفهم، وكان منهم من ولا يسأله ولا يستفهمه، حتى كانوا يحبون أن يجئ الاعرابي والطاري، فيسأل رسول الله (صلى الله عليه وآله) حتى يسمعوا، وقد كنت أدخل على رسول الله (صلى الله عليه وآله) كل يوم دخلة، وكل ليلة دخلة فيخليني فيها أدور معه حيث دار، وقد علم أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنه لم يصنع ذلك بأحد من الناس غيري، فربما كان في بيتي يأتيني رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وكنت إذا دخلت عليه بعض منازله أخلاني، وأقام عني نساءه فلا يبقى عنده غيري، وإذا اتاني للخلوة معي في منزلي لم تقم عني فاطمة ولا أحد من بني، وكنت إذا سألته أجابني، وإذا سكت عنه وفنيت مسائلي ابتدأني، فما نزلت على رسول الله (صلى الله عليه وآله) آية من القرآن إلا اقرأنيها وأملاها علي فكتبتها بخطي، وعلمني تأويلها وتفسيرها، وناسخها ومنسوخها، ومحكمها ومتشابهها وخاصها وعامها، ودعا الله أن يعطيني فهمها وحفظها، فما نسيت آية من كتاب الله تعالى، ولا علما أملاه علي وكتبته منذ دعا الله لي بما دعا، وما ترك شيئا علمه الله من حلال ولا حرام، ولا أمر ولا نهي، كان أو يكون، ولا كتاب منزل على احد قبله من طاعة أو معصية إلا علمينه وحفظته، فلم أنس حرفا واحدا " (٢). التفسير في عصر التكوين (٣): عرفنا دور الرسول الاعظم (صلى الله عليه وآله) في تفسير القرآن، وتفسيره على مستويين

---

(١) الحشر: ٧. (٢) الكافي ١: ٦٢. الحديث ١. (٣) كتبه الشهيد الصدر. (*)

عام وخاص، وتعيين النبي أهل البيت (عليهم السلام) للمرجعية الدينية بعد أن فسره لهم بشكل خاص. ويحسن بنا - بعد ذلك - أن نرى مسيرة تكون علم التفسير عند المسلمين، في ظل الظروف والمعطيات السياسية والاجتماعية والمواصفات التي كان يتصف بها مجتمع المسلمين في عصر نزول القرآن الكريم وبعده، ومع غض النظر عن التخطيط الذي وضعه الرسول الاعظم. إن من البديهيات الاسلامية أن القرآن الكريم لم يكن كتابا علميا جاء به الرسول الاعظم من اجل تفسير مجموعة من النظريات العلمية، وانما هو كتاب استهدف منه الاسلام بصورة رئيسة تغيير المجتمع الجاهلي وبناء الامة الاسلامية على أساس المفاهيم والافكار الجديدة التي

جاء بها الدين الجديد، وهو من أجل تحقيق هذه الغاية، والوصول الى هذا الهدف الرئيس جاء منجما متفرقا من اجل أن يعالج القضايا في حينها، ويضع الحلول للمشاكل في أوقاتها المناسبة، مراعيا في ذلك كل ما تفرضه عملية التغيير والبناء من تدرج وأناة، وليحقق التغيير في كل الجوانب الاجتماعية والانسانية، منطلقا مع المحتوى الداخلي للفرد المسلم ليشمل البنيات الفوقية للمجتمع. وعلى هذا الاساس لم يكن شعور المسلمين بشكل عام تجاه المحتوى القرآني ذلك الشعور الذي يجعلهم ينظرون الى القرآن الكريم كما ينظرون الى الكتب العلمية التي تحتاج الى الدرس والتمحيص، وانما هو شعور ساذج بسيط لان القرآن كان يسير معهم في حياتهم الاعتيادية، بما زخرت به من الوان مختلفة فيعالج ازماتهم الروحية والسياسية، ويتعرض بالنقد للافكار والمفاهيم الجاهلية، ويناقش أهل الكتاب في انحرافاتهم العقيدية والاجتماعية، ويضع الحلول الانية للمشاكل التي تعتريهم، ويربط بين كل من هذه الامور بعرض مفاهيم الدين الجديد عن الكون والمجتمع والاخلاق.

كل ذلك قام به القرآن الكريم ولكن بشكل تدريجي يسمح لعامة المسلمين أن ينظروا إليه كأحداث تشكل جزءا من حياتهم الاجتماعية، وقد كان المسلمون يفهمون القرآن من خلال هذه النظرة وعلى اساس ما لديهم من خبرة عامة، وهي تعني جميع المعلومات التي تحصل لدى الانسان في مجرى حياته الاعتيادية، وهذه الخبرة العامة التي كان المسلمون يفهمون النص القرآني بموجبها في ذلك العصر ذات عناصر مختلفة نعرف من خلالها أنهم كانوا يمتازون بها علينا وعلى العصور الاخرى المتأخرة بالرغم من بساطتها، ويمكن ان نلخصها بالامور التالية: أ - الثقافة اللغوية العامة، فالقرآن نزل باللغة العربية التي كانت تمثل لغة المسلمين في ذلك العصر، لان الوجود الاسلامي حينذاك لم يكن قد انفتح على الشعوب الاخرى، وهذه الثقافة اللغوية كانت تمنح المسلمين فهما إجماليا للقرآن من ناحية لغوية. ب - تفاعل المسلمين مع الاحداث الاسلامية واسباب النزول، ذلك ان القرآن - كما نعرف - نزل في كثير من الاوقات بسبب حوادث معينة أثارت نزول الوحي، والمسلمون بحكم ارتباطهم بهذه الحوادث، واطلاعهم على ظروفها الخاصة المحيطة بها كانوا يتعرفون بشكل إجمالي أيضا محتوى النص القرآني ومعطياته واهدافه. ج - الفهم المشترك للعادات والتقاليد العربية، فنحن نعرف أن القرآن الكريم حارب بعض العادات والتقاليد العربية وندد بها، والعرب بحكم ظروفهم الاجتماعية كانوا على اطلاع بما تعنيه هذه العادات، ومن ثم على المفهوم الجديد عنها، فمن الطبيعي ان يفهموا قوله تعالى: (انما النسئ زيادة في الكفر...) (١)

(١) التوبة: ٣٧. (*)

وقوله تعالى: (... وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها...) (١) وقوله: (... انما الخمر والميسر والانصاب والازلام...) (٢) لانهم يعرفون (النسئ) (واتيان البيوت من ظهورها) (والانصاب والازلام) امورا كانت قائمة في المجتمع الجاهلي، وكانوا يعيشونها. د - دور الرسول (صلى الله عليه وآله) في التفسير، فقد كان الرسول الاعظم يباشر التفسير احيانا في مجرى الحياة الاعتيادية

للمسلمين - كما عرفنا - فكان يجيب على الاسئلة التي تدور في اذهان المسلمين عن القرآن ومعانيه، ويشرح النص القرآني في المناسبات التي يفرضها الموقف القيادي الذي كان يضطلع به الرسول من موعظة أو توجيه أو حث على العمل في سبيل الله والاسلام. وهذه العناصر في الحقيقة تمثل ما كان عليه المسلمون من فهم بسيط وساذج للقرآن، لانها عناصر كانت تعيش مع المسلمين في مجرى حياتهم الاعتيادية دون ان تكلفهم مجهودا ذهنيا، أو عناء علميا. ولدينا عدة نصوص، تؤكد هذا الفهم الساذج للقرآن الذي كان عليه المسلمون في هذه المرحلة من حياتهم الفكرية، فنحن نجد عمر بن الخطاب في مرحلة متأخرة عن هذا الوقت يجد في فهم كلمة " أبا " تكلفا ونجد عدي بن حاتم يقع في حيرة حين يحاول ان يفهم: (حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود) ويشاركه في هذه الحيرة جماعة من المسلمين، ولا ترتفع حيرتهم الا بعد ان يراجعوا الرسول (صلى الله عليه وآله) (٣) ونجد ابن عباس لا يعرف معنى " فاطر " حتى يطلع

---

(١) البقرة: ١٨٩. (٢) المائدة: ٩٠. (٣) راجع البخاري، فتح الباري ٩: ٢٤٩ وغيره من النصوص التي ذكرناها في فصل التفسير في عصر الرسول (صلى الله عليه وآله). (*)

عليه من قبل اعرابي (١). فهذه الاحداث على ضالتها تعكس لنا المرحلة التي كان يعيشها المسلمون عصر نزول القرآن. ولعل من الدلائل على هذا الفهم الساذج للقرآن من قبل المسلمين ما نلاحظه في القراءات المتعددة للقرآن، الشئ الذي قد يكون ناتجا عن سذاجة بعض القراء من الصحابة في ضبط الكلمة القرآنية، وقراءتها بالشكل الذي يتفق مع بعض الاتجاهات اللغوية التي عاصرت نزول القرآن، ثم تداولها المسلمون على اساس أنها قراءة اسلامية تمت بالنسب الى شخص النبي (صلى الله عليه وآله). ومن الممكن ان يكون احد العوامل التي كان لها تأثير فاعل في هذا الفهم الساذج للقرآن هو حياة الرسول الاعظم (صلى الله عليه وآله) المثقلة بالاعمال والاحداث، ومن ثم تأثر حياة المسلمين بشكل عام من جراء ذلك، وقد أشار الامام علي (عليه السلام) في حديثه المتقدم الذي رواه ثقة الاسلام الكليني الى هذه الظاهرة العامة التي كانت تشمل الصحابة حيث قال: " ورجل سمع من رسول الله فلم يحفظه على وجه ووهم فيه، ولم يتعمد كذبا... ورجل ثالث سمع من رسول الله شيئا امر به ثم نهى عنه وهو لا يعلم، أو سمعه ينهى عن شئ ثم امر به وهو لا يعلم فحفظ منسوخه ولم يحفظ الناسخ... " (٢) ولسنا بحاجة لان نؤكد هنا أن هذا الفهم الساذج للقرآن الكريم من قبل عامة المسلمين لم يكن يتنافى مع الدور القيادي الذي يضطلع به الرسول الاعظم، بعد ان عرفنا أن حياته (صلى الله عليه وآله) كانت مثقلة بالاعمال والاحداث، الامر الذي لم يكن يتيح له الفرصة الكافية للقيام بدور المفسر لعامة المسلمين.

---

(١) راجع الفصل السابق (التفسير في عصر الرسول). (٢) الكافي ١: ٦٢. الحديث ١. (*)

بذور تكون علم التفسير: والى جانب هذا الفهم الساذج للقرآن الذي لا يسمح لنا باطلاق اسم " العلم " عليه نلاحظ ملامح خبرة خاصة بدأت بالنمو والتجمع عند عدد من الصحابة، نتيجة عوامل متعددة ذاتية وموضوعية، من قبيل حرص بعضهم بشكل اكثر من غيرهم على الاستفادة من مجالس الرسول وحفظ ما يرد في كلامه من شرح للنص القرآني أو تعليق عليه، ومحاولة الواعين منهم التعرف على تفصيلات اكبر مقدار ممكن من المعاني القرآنية، أو بسبب ظروفهم الموضوعية التي كانت تفرض وجودهم مع الرسول في المدينة، وفي غزواته المتعددة، ولدينا عدة نصوص تشير الى هذا المعنى في عدد من الصحابة: ١ - عن عبد الرحمن السلمي قال: حدثنا الذين كانوا يقرؤن القرآن. أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي (صلى الله عليه وآله) عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل... قالوا فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا، ولهذا كانوا يبقون مدة في حفظ السورة (١). ٢ - عن شقيق بن سلمة، خطبنا عبد الله بن مسعود فقال: والله لقد أخذت من في رسول الله (صلى الله عليه وآله) بضعا وسبعين سورة، والله لقد علم أصحاب النبي (صلى الله عليه وآله) أني من أعلمهم بكتاب الله وما أنا بخيرهم (٢). ٣ - عن أبي الطفيل: قال شهدت عليا (عليه السلام) يخطب وهو يقول: سلوني، فوالله لا تسألوني عن شئ الا اخبرتكم، وسلوني عن كتاب الله، فوالله ما من آية إلا وانا أعلم أبليل نزلت أم بنهار أم في سهل أم في جبل. ٤ - عن نصير بن سليمان الاحمسي عن ابيه عن علي (عليه السلام) قال: والله ما نزلت

---

(١) الاتقان ٢: ١٧٦. ط ١٣٦٨. (٢) البخاري، فتح الباري ١: ٤٢٣. (*)

آية الا وقد علمت فيم نزلت، واين نزلت، إن ربي وهب لي قلبا عقولا، ولسانا سؤولا (١). فنحن نلاحظ في هذه النصوص أن بذور المعرفة التفسيرية القائمة على العناية والتخصص، انما كانت على مستوى خاص من الصحابة، الامر الذي أدى الى ولادة التفاوت بين المسلمين في جميع المعارف الاسلامية، ومن ثم في خصوص المعرفة التفسيرية. بعد هذا يمكننا ان نتصور بوضوح التطور الذي سارت به هذه المعرفة الخاصة، حتى انتهت الى الفارق الكبير الذي أخذ يفصل مستوى الخبرة الخاصة عن مستوى الخبرة العامة الامر الذي سمح للباحثين ان يطلقوا (علم التفسير) على هذه الخبرة الخاصة التي كان يتمتع بها هؤلاء الاشخاص، ومن اجل ان نتعرف على ملامح هذا الفاصل لا بد من ملاحظة العاملين التاليين: أ - ان المسلمين بصورة عامة، اخذت معرفتهم التفسيرية تتضاءل بسبب تضاءل خبرتهم العامة، لان التوسع الاسلامي جعل كثيرا من الافراد والشعوب تنضم الى الجماعة الاسلامية وهم لا يملكون ذلك المستوى العام من الخبرة، ففقدوا بعض العناصر التي كانت تعتمد عليها الخبرة العامة، سواء كانت مرتبطة بالجانب اللغوي للقرآن ام بالجانب الاجتماعي والحياتي لهم، فلم يكن الافراد الجدد تتوفر فيهم المعرفة اللغوية التي كانت متوفرة لدى عامة المسلمين الذين عاصروا نزول الوحي، كما لم يكونوا مطلعين على الحوادث التأريخية التي ارتبطت بها بعض الايات القرآنية والعادات والتقاليد العربية، كما هو الحال بالنسبة الى الاشخاص الذين عاشوا هذه الاحداث والعادات والتقاليد. ب - وفي الجانب الاخر نجد أن الخبرة الخاصة أخذت بالتضخم والنمو نتيجة

---

(١) المصدر نفسه ٢: ١٨٧. (*)

الشعور المتزايد بالحاجة الى فهم القرآن، ومواجهة المشاكل الجديدة على ضوء مفاهيمه وافكاره، وكثرة طلب تفهم القرآن من قبل المسلمين الجدد الذين يريدون أن يتعرفوا الاسلام بجوانبه المتعددة، من خلال تعرفهم القرآن الكريم الذي يقوم بدور المعبر الصحيح عنه. ولعلنا نجد في النص التأريخي التالي ما يعبر لنا عن هذا التفاوت في المعرفة بين الصحابة، هذا الشئ الذي نريد ان نتصوره كبداية لتكون علم التفسير. عن مسروق: " جالست اصحاب محمد (صلى الله عليه وآله) فوجدتهم كالاخاذ (الغدير) فالاخاذ يروي الرجل والاخاذ يروي الرجلين، والاخاذ يروي العشرة والاخاذ يروي المائة، والاخاذ لو نزل به اهل الارض لاصدرهم " (١) وهكذا تكون التفسير في بدء بدئه.

---

(١) نقل هذا الحديث في " التفسير والمفسرون " ١: ٣٦. (*)

التفسير في عصر الصحابة والتابعين ١ - طبيعة التفسير في هذا العصر: من خلال البحث السابق عرفنا أن علم التفسير تكون ووجد في عصر الصحابة، وتطور بشكل واضح في عصر التابعين، ومع ذلك فنحتاج من أجل الاحاطة بأبعاد التفسير في هذا العصر ان نتعرف على الطبيعة العامة للتفسير والمصادر الرئيسة له ونقد هذه المرحلة وتقويمها. ومن الممكن ان نجزم بأن الظاهرة التي كانت تعم التفسير في هذه المرحلة هي مواجهة القرآن الكريم كمشكلة لغوية وتأريخية، ومن اجل ان نكون اكثر ادراكا لطبيعة هذه المرحلة لا بد لنا ان نعرف ما تعنيه (المشكلة اللغوية والتأريخية) من معنى: فالكلام في اللغة - وعلى الاخص اللغة العربية - تشترك في تحديد معناه عوامل مختلفة يمكن أن نلخصها بالامور التالية: أ - الوضع اللغوي للفظ، فإن كل لفظ في اللغة نجد في جانبه معنى خاصا محددا له. ب - القرائن اللفظية ذات التأثير الخاص على الوضع اللغوي والتي تسبب صرف اللفظ عن معناه الحقيقي، وهذا هو الشئ الذي يحصل في الاستعمالات المجازية، بما للمجاز من مدلول عام يشمل الاستعارة والكناية وغيرهما. ج - القرائن الحالية التي يكون لها أيضا تأثير خاص على المدلول اللفظي،

ونعني بها الظروف الموضوعية التي يأتي الكلام بصددها أو يكون مرتبطا بجانب من جوانبها. فهذه العوامل الثلاثة تشترك في تكوين المدلول العام للفظ والكلام. وحين نواجه الكلام من أجل التعرف على مدلوله ونصطدم بشئ من هذه الامور الثلاثة في سبيل ذلك فنحن نواجه مشكلة لغوية. وحين نحاول ان نتعرف خصوصيات الظروف الموضوعية لعصر نزول القرآن الكريم، أو التي تحدث عنها فيما قبل نزول القرآن، مثل قصص الانبياء والاقوام الماضين، أو التي تنبأ بوقوعها في المستقبل فإن ذلك يمثل مشكلة تأريخية. وفي ضوء هذا المفهوم للمشكلة اللغوية والتأريخية يمكننا ان نتبين طبيعة

المرحلة التفسيرية التي مر بها الصحابة والتابعون حين واجهوا الكلام الالهي (القرآن الكريم) وحاولوا معرفة معانيه ومدلولاته. فنحن - حين نتصفح التفسير الذي وصلنا من هذا العصر - نجد امورا ثلاثة رئيسة كانت موضع اهتمام الصحابة والتابعين ومن بعدهما، وهي كالتالي: أ - التعرف على ما تعنيه المفردات القرآنية من معنى في اللغة العربية، مع مقارنة الكلام القرآني بالكلام العربي لتحديد الاستعارة القرآنية. ب - تتبع أسباب النزول أو الاشخاص والحوادث التأريخية أو القضايا التي ارتبطت ببعض الايات القرآنية. ج - التفصيلات التي وردت في بيانات الرسول الاعظم (صلى الله عليه وآله) أو التي أوردتها النصوص الاسرائيلية عن قصص الانبياء أو غيرها من الحوادث التي أشار إليها القرآن الكريم. وهذه الامور الثلاثة لها علاقة وثيقة في تحديد المعنى من ناحية لغوية أو تأريخية، لانها تنتهي الى العوامل المؤثرة في تكوين مدلول اللفظ والكلام أو

تشخيص الظروف والاوضاع في حركة التأريخ. ولعل من الشواهد على ما نذكره عن طبيعة هذه المرحلة هو ما نعرفه عن ابن عباس الذي يعتبر من أبرز الصحابة في التفسير، حيث كان يعتمد في تفسيره للقرآن - في اغلب الاحيان - على ما يعرفه من مفردات اللغة العربية وما يحفظه من شعر العرب أو أسباب النزول. وقد اعتبر هذا الاطلاع الواسع على مفردات اللغة من قبل ابن عباس أساس امتيازه في التفسير وعلو شأنه. وهذا الطابع العام نجده أيضا في محاولات بقية الصحابة والتابعين أيضا، فإذا لاحظنا صحيح البخاري - وهو احد الكتب التي تتعرض للتفسير في هذه المرحلة - نجده يذكر التفسير في حدود هذه المشكلة ذاتها ولا يكاد يتعداها، وهذا الشئ نفسه نجده عندما نلاحظ الكتب التفسيرية الاخرى التي تنقل إلينا آراء الصحابة والتابعين بدقة. والى جانب هذا الاستقراء توجد لدينا بعض الشواهد التأريخية ذات الدلالة البينة على طبيعة المرحلة، والتزام الصحابة لحدودها في محاولاتهم التفسيرية، فقد روي أن رجلا يقال له: (ابن صبيغ) قدم المدينة - في زمن عمر بن الخطاب - فجعل يسأل عن متشابه القرآن، فأرسل إليه الخليفة وضربه بعراجين النخل حتى ترك ظهره دبره، ثم تركه حتى يرى، ثم عاد وبعد ان تكرر ذلك للمرة الثالثة دعا به ليعود، فقال ابن صبيغ ضارعا ! ان كنت تريد قتلي فاقتلني قتلا جميلا أو ردني الى ارضي بالبصرة، فاذن له الى ارضه، وكتب الى ابي موسى الاشعري الا يجالسه احد من المسلمين (١). وهذه الرواية تدلنا على مدى استنكار الصحابة للدخول في مشاكل عقلية

(١) جولد تسيهر، مذاهب التفسير الاسلامي: ٧٤. نقلا عن لوائح الانوار البهية. (*)

حول فهم القرآن الكريم وتفسيره، لان البحث في المتشابهات يتصف بالطابع العقلي دون اللغوي (١). ويمكن ان نفهم الشئ ذاته من جميع النصوص التي وردت في النهي عن تفسير القرآن بالرأي أو تفسير القرآن بشكل مطلق (٢)، إذ لا نشك في مزاولة الصحابة للتفسير في حدود المشكلة اللغوية والتأريخية، وهو في هذه الحدود ليس من تفسير القرآن بالرأي أو القول بغير علم، ولا يبقى في نطاق الشك والنهي غير مواجهة القرآن بشكل أعمق لا يتفق وطبيعة المرحلة ولا يعيش حدود المشكلة اللغوية. وعلى هذا

الاساس يمكن أن نشكك في كل محاولة تفسيرية تنسب الى الصحابة ولا تعيش حدود هذه المشكلة وجوانبها، ولا تتسم بسماتها وطابعها. فمن المعقول أن يداخلنا الشك في صحة ما ينسب الى ابن عباس في تفسيره لسورة (النصر) حين يحاول أن يحمل السورة معنى فوق طاقتها اللغوية، ويجعل

---

(١) لم يكن اسم السائل (ابن صبيغ) بل اسمه (صبيغ بن عسل التميمي) ولم يكن السؤال عن متشابه القرآن وانما كان السؤال عن (والذاريات ذروا) (نقش ائمه در احياء دين ٦: ١١٧) وهو بحث عن تفسير لغوي. وإذا رجعنا الى قوله تعالى: (... فأصبح هشيما تذروه الرياح...) (الكهف: ٤٥) عرفنا تفسير اللفظ. كما ان الخليفة عمر قرأ على المنبر: (فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا... وأبا) قال: كل هذا قد عرفناه، فما الاب ؟ ثم رفض عصا كانت في يده فقال: لعمر الله هو التكلف فما عليك ان لا تدري ما الاب، اتبعوا ما بين لكم هداه من الكتاب، فاعملوا به وما لم تعرفوه فكلوه الى ربه (الدر المنثور ٦: ٣١٧). وكذلك عندما سئل أيضا عن " فاكهة وأبا " أقبل عليهم بالدرة (الدر المنثور ٦: ٣١٧) مع أن تفسير اللفظين ورد بعدهما في قوله تعالى: (متاعا لكم ولانعامكم) (عبس: ٣٢). (٢) راجع بصدد هذه النصوص الترمذي ١١: ٦٨. (*)

من الفتح فيها رمزا وعلامة لمجئ أجل الرسول (صلى الله عليه وآله) كما جاء في البخاري (١). ويمكننا ان نؤاخذ على هذا الحديث إضافة الى خروجه عن نطاق طبيعة المرحلة، هذا اللون الخاص من محاولة تمجيد ابن عباس، ولو كان ذلك على حساب القرآن الكريم، الامر الذي يدعونا ان نلحقه بموضوعات العصر العباسي (٢).

---

(١) أخرج البخاري من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: " كان عمر يدخلني مع اشياخ بدر فكأن بعضهم وجد في نفسه، فقال لم يدخل هذا معنا وان لنا ابناء مثله ؟ ! فقال عمر انه ممن علمتهم، فدعاهم ذات يوم فادخلني معهم، فما رأيت أنه دعاني فيهم يومئذ الا ليريهم، فقال: ما تقولون في قوله تعالى: (إذا جاء نصر الله والفتح) ؟ فقال بعضهم: امرنا ان نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئا، فقال لي اكذلك تقول يابن عباس ؟ فقلت لا فقال ما تقول ؟ فقل هو اجل رسول الله (صلى الله عليه وآله) اعلمه له: فقال (إذا جاء نصر الله والفتح) فذلك علامة أجلك (فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا) فقال عمر لا اعلم منها إلا ما تقول ". الاتقان ٢: ١٨٧. (٢) من الملاحظ في التفسير تأكيد دور ابن عباس فيه مع أن ابن عباس لم يعاصر الرسول الا مدة قصيرة من حياته، ويحاول بعضهم ان يعلل ذلك بأن النبي قد دعا له بالعلم والفهم، فكان هذا الانتاج الكبير. ومع غض النظر عن هذا التفسير الغيبي يمكن ان نفسر هذه الظاهرة بأحد امور ثلاثة، ومن خلالها لا بد من دراسة ما ورد عن ابن عباس: الاول: ان العباسيين حاولوا - لاهداف سياسية - ان يركزوا على دور ابن عباس في مجال التفسير والعلوم الدينية، في مقابل أهل البيت ودورهم في هذا المجال، وهذا هو ما أشرنا إليه في المتن. الثاني: ان ابن عباس كان من تلامذة الامام علي (عليه السلام) - كما تشير الى ذلك مجموعة من النصوص والقرائن الاخرى - وان ما اثر عنه في التفسير انما تلقاه من الامام علي (عليه السلام)، إلا انه لم ينسب للامام علي (عليه السلام) بسبب ظروف الاضطهاد الاموي والعباسي، وبعد ذلك نسب الى ابن عباس مباشرة. الثالث: ان ابن عباس كانت لديه تجربة واسعة في الممارسة العلمية والسياسية والاجتماعية، خصوصا في عهد عمر الذي كان يقربه لاسباب سياسية وعلمية، وان ما ورد عنه في التفسير انما هو اجتهاده الخاص وليس رواية عن النبي (صلى الله عليه وآله). ونحن نميل الى الاحتمال الثالث لما أشرنا إليه من النصوص والقرائن، وان كان العامل الاول والثاني بشكل خاص لا يمكن انكار تأثيرهما في مجمل ما ورد عن ابن عباس. (*)

ويمكن ان يعترينا مثل هذا الشك أيضا حين ننظر الى المحاولة التفسيرية التي جاءت على لسان ابن عباس أيضا حين يريد ان يعين (ليلة القدر) المذكورة في القرآن الكريم على أنها ليلة السابع

والعشرين من شهر رمضان، ويفهم ذلك على اساس اهتمام الاسلام بالعدد (سبعة) حيث أخذ في متعلق بعض الاحكام الاسلامية (١). فان هذا الاستنتاج إضافة الى بعده عن المنطق الصحيح لا يتفق مع البساطة والذوق العربي اللذين كان يعيشهما ابن عباس. ولقد كان من الطبيعي أن ينظر الى القرآن في هذه المرحلة على اساس أنه (مشكلة لغوية) لان هذه المرحلة تمثل بداية التطور في المعرفة التفسيرية عند

---

(١) " أخرج أبو نعيم، عن محمد بن كعب القرظي، عن ابن عباس، ان عمربن الخطاب جلس في رهط من المهاجرين من الصحابة، فذكروا ليلة القدر، فتكلم كل بما عنده، فقال عمر: ما لك يا ابن عباس صامت لا تتكلم، تكلم لا تمنعك الحداثة. قال ابن عباس: قلت يا أمير المؤمنين إن الله وتر ويحب الوتر، فجعل ايام الدنيا تدور على سبع، وخلق ارزاقنامن سبع، وخلق الانسان من سبع، وخلق فوقنا سماوات سبعا، وخلق تحتنا ارضين سبعا، وأعطى من المثاني سبعا، ونهى في كتابه عن نكاح الاقربين عن سبع، وقسم المواريث في كتابه على سبع، ونقع في السجود من اجسادنا على سبع، فطاف رسول الله (صلى الله عليه وآله) بالكعبة سبعا، وبين الصفا والمروة سبعا، ورمي الجمار بسبع... فأراها في السبع الاواخر من شهر رمضان، فتعجب عمر، فقال ما وافقني فيها احد إلا هذا الغلام الذي لم تستو شؤون رأسه، ثم قال يا هؤلاء من يؤديني في هذا كاداء ابن عباس ؟ ! " الاتقان ٢: ١٨٨. (*)

المسلمين، بعد ان كانوا يفهمون القرآن فهما ساذجا وفي مستوى الخبرة العامة المتوفرة لديهم حينذاك (١). ٢ - مصادر المعرفة التفسيرية في هذا العصر: وفي ضوء معرفتنا لطبيعة هذه المرحلة يمكن ان نتعرف أيضا على المصادر التي كانت تعتمد عليها المرحلة في معرفة مدلول النص القرآني، والادوات التي كانت تستعملها لمواجهة المشكلة اللغوية والتأريخية، ويمكن ان نلخص هذه المصادر بالامور التالية: أ - (القرآن الكريم نفسه) لان القرآن الكريم بحكم طريقة نزوله، والاهداف التي كان يتوخاها من وراء هذه الطريقة التدريجية جاء - في بعض الاحيان - مبينا لما قد أجمله سابقا أو مقيدا أو مخصصا لما كان مطلقا أو عاما، أو ناسخا لحكم كان ثابتا في وقت سابق، وهذه الطريقة من القرآن الكريم تسمح لنا ان نستفيد من بعض الايات القرآنية لنفهم بها بعض الايات الاخرى. وقد سلك المفسرون هذا المنهج في طريقهم للتعرف على المعاني القرآنية واكتشاف اسرارها، ويمكن ان نعتبر الرسول الاعظم (صلى الله عليه وآله) - بما لدينا من شواهد - الرائد الاول لهذه الطريقة التي سار عليها بعض الصحابة من بعده، واتخذها بعض المفسرين منهجا عاما لتفسير القرآن. فقد روى عبد الله بن مسعود أنه لما نزل قوله تعالى: (الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم اولئك لهم الامن وهم مهتدون) (٢) شق ذلك على أصحاب رسول الله

---

(١) يراجع الاتقان ١: ١١٥ - ١٤٢. ففي هذه الصفحات نجد أن جميع ما يروى عن ابن عباس أو غيره يعيش هذه المشكلة. (٢) الانعام: ٨٢. (*)

وقالوا: اينا لم يلبس ايمانه بظلم. فقال: انه ليس بذاك، انما هو الشرك، الم تسمعوا قول لقمان: (... ان الشرك لظلم عظيم) (١). كما ان التأريخ يحدثنا أيضا أن علي ابن ابي طالب (عليه السلام) اتخذ مثل هذه الطريقة للتعرف على بعض المعاني القرآنية، فقد اخرج الحافظان ابن ابي حاتم، والبيهقي عن الدئلي: ان عمر بن

الخطاب رفعت إليه امرأة ولدت لستة اشهر، فهم برجمها، فبلغ ذلك عليا، فقال: ليس عليها رجم. فبلغ ذلك عمر (رضي الله عنه) فأرسل إليه فسأله. فقال: قال تعالى: (والوالدات يرضعن اولادهن حولين كاملين...) (٢) وقال: (... وحمله وفصاله ثلاثون شهرا...) (٣) فستة اشهر حمله، وحولين رضاعه، فذلك ثلاثون شهرا، فخلى عنها (٤). فقد فسر الامام علي (عليه السلام) مدة الحمل بستة أشهر على أساس الاية الاخرى التي تحدد مدة الرضاع بـ)حولين كاملين). ب - المأثور عن النبي (صلى الله عليه وآله) في تفسير القرآن، فقد كان الرسول الاعظم (صلى الله عليه وآله) يقوم بتفسير القرآن الكريم على المستوى العام - كما عرفنا ذلك في بحث التفسير في عصر الرسول - وهو على هذا المستوى وان لم يكن قد فسر القرآن كله الا أنه كان يفسر بمقدار ما تفرضه ظروفه بصفته صاحب رسالة، وقائد دولة تواجهه مشاكل المسلمين واسئلتهم، وبمقدار ما تقتضيه الدعوة الى الله وتبيان المفاهيم العامة عن الاسلام وتشريعاته، فكان هذا الشئ - الذي يصدر منه بهذا الصدد - يتلقاه المسلمون ويحفظه الكثير منهم، واعتمدوا عليه من بعده في ايضاح بعض جوانب

---

(١) لقمان: ١٣. رواه البخاري بصورة مختلفة راجع فتح الباري ١: ٩٥ و ١٠: ١٣١. (٢) البقرة: ٢٣٣. (٣) الاحقاف: ١٥. (٤) الغدير ٦: ٩٣. (*)

القرآن بالنسبة الى غيرهم. وفي كتب الحديث شواهد كثيرة على ذلك فعن سعيد بن جبير: في تأويل قوله تعالى: (واذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو امضي حقبا) (١). " قال: قلت لابن عباس: إن نوفا يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى صاحب بني اسرائيل. فقال ابن عباس: حدثني ابي بن كعب أ نه سمع من رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول: إن موسى قام خطيبا في بني اسرائيل، فسئل: اي الناس اعلم ؟ فقال: أنا، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه] الى الله [. فأوحى الله إليه: إن لي عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك، قال موسى: يا رب فكيف لي به ؟ قال: تأخذ معك حوتا فتجعله في مكتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثم... " (٢). فمن اجل ان يظهر ابن عباس خطأ نوف في دعواه استند الى رواية ابي بن كعب عن رسول الله (صلى الله عليه وآله). ج - حديث بعض الصحابة الذين عاصروا أحداث نزول القرآن، لان من المعروف أن بعض القرآن الكريم ارتبط في نزوله ببعض الاحداث التي عاشتها الدعوة الاسلامية في مراحلها المختلفة، وبما أن هذه الاحداث تشكل جزءا من عوامل تحديد المعنى القرآني، وتساهم في حل المشكلة اللغوية والتأريخية ذات الجوانب المتعددة التي واجهت المسلمين بعد الرسول فمن الطبيعي ان يلتفت المسؤولون عن حل هذه المشكلة الى الاشخاص الذين عاصروا الاحداث ليتعرفوا منهم على ظروفها وخصوصياتها، ومن ثم على ما تمنحه للمعنى القرآني من ايضاح وتبيين. وقد اهتم الباحثون بمعرفة (اسباب النزول) على اساس الارتباط الوثيق بينها

---

(١) الكهف: ٦٠. (٢) رواه البخاري. فتح الباري ١٠: ٢٤. (*)

وبين تحديد المعاني القرآنية، واعتبروا فهم القرآن الكريم متوقفا على معرفتها. فقد قال الواحدي: لا يمكن معرفة تفسير الاية دون الوقوف على قصتها، وبيان النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن. وقال ابن تيمية: معرفة سبب النزول يعين على فهم الاية (١). والشواهد في حياة الصحابة على هذا الارتباط بين اسباب النزول وفهم الاية القرآنية كثيرة، عرفنا منها قضية قدامة بن مظعون (٢) وقد ذكر السيوطي لذلك بعض الامثلة (٣). د - معرفة اللغة العربية المتداولة في الكلام العربي على اختلاف لهجاتها، فان القرآن الكريم - كما نعرف - نزل بلغة العرب، ولم يكن الصحابة على اطلاع كامل بمفردات اللغة العربية، ولذا كانوا يتوقفون في بعض الاحيان عند بعض الكلمات القرآنية لعدم معرفتهم معناها، حتى يقع في ايديهم شئ من كلام العرب يتضح به ما غمض لديهم من القرآن. وقد أشرنا الى بعض الشواهد التي حصل فيها مثل هذا الشئ في بحث سابق (٤). كما أن طبيعة المرحلة وهي مواجهة القرآن كمشكلة لغوية تفرض ان يكون من ابرز المصادر للتفسير هو اللغة العربية نفسها، كشرط اساسي في محاولة تفسير القرآن الكريم (٥).

---

(١) نقل هذه الاقوال السيوطي في مقدمة كتابه أسباب النزول: ٣. (٢) راجع بحث التفسير في عصر الرسول. (٣) الاتقان ١: ٢٩. (٤) التفسير في عصر الرسول. (٥) البرهان للزركشي ٢: ١٦٠ و ١٦٤. (*)

ويبدو أنه قد اثير الجدل في مدة متأخرة عن هذا العصر حول صحة الاعتماد على نصوص اللغة العربية لمعرفة معاني القرآن وخصوصيات اسلوبه، وقد اشار السيوطي الى ذلك في كلام نقله عن ابي بكر بن الانباري، هذا نصه: " قد جاء عن الصحابة والتابعين كثيرا الاحتجاج على غريب القرآن ومشكله بالشعر، وانكر جماعة لا علم لهم على النحويين ذلك، وقالوا إذا فعلتم ذلك جعلتم الشعر أصلا للقرآن، قالوا: وكيف يجوز ان يحتج بالشعر على القرآن وهو مذموم في القرآن والحديث ؟ ! قال: وليس الامر كما زعموه من أنا جعلنا الشعر اصلا للقرآن، بل اردنا تبيين الحرف الغريب من القرآن بالشعر، لان الله تعالى قال: (انا جعلناه قرآنا عربيا...) (١) وقال (بلسان عربي مبين) (٢). وقال ابن عباس: " الشعر ديوان العرب، فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي انزله الله بلغة العرب رجعنا الى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه " (٣). ففي هذا النص نجد ابن الانباري يناقش المسألة على اساس طبيعة الموقف التفسيري، وتصرف الصحابة والتابعين الذين كانوا يعتمدون على نصوص اللغة العربية عند محاولتهم التعرف على المعاني القرآنية، ويستشهد بما روى عن ابن عباس في ذلك. والشواهد العملية في حياة الصحابة وتفسيرهم على ذلك كثيرة، ويكفينا أن نذكر منها ما رواه السيوطي في الاتقان بسنده المتصل عن حميد الاعرج وعبد الله ابن ابي بكر بن محمد عن أبيه قالوا:

---

(١) الزخرف: ٣. (٢) الشعراء: ١٩٥. (٣) الاتقان ١: ١١٩ طبعة المكتبة التجارية الكبرى. (*)

" بينا عبد الله بن عباس جالس بفناء الكعبة قد اكتنفه الناس يسألونه عن تفسير القرآن، فقال نافع بن الازرق لنجدة بن عويمر: قم بنا الى هذا الذي يجترئ على تفسير القرآن بما لا علم له به، فقاما إليه، فقالا: إنا نريد ان نسألك عن أشياء من كتاب الله فتفسرها لنا وتأتينا بمصادقة من كلام العرب، فان الله تعالى انما انزل القرآن بلسان عربي مبين، فقال ابن عباس: سلاني عما بدا لكما. فقال نافع: اخبرني عن قول الله تعالى: (عن اليمين وعن الشمال عزين) (١) قال العزون الحلق الرقاق. قال: وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال: نعم، أما سمعت عبيد بن الابرص وهو يقول: فجاؤوا يهرعون إليه حتى يكونوا حول منبره عزينا (٢) وعلى هذا الشكل يستمر نافع في السؤال، ويستمر ابن عباس في الجواب حتى يصل العدد الى نحو مائتي مسألة (٣). ويدخل في مفردات اللغة العربية بعض المصطلحات والاسماء التي كانت

---

(١) المعارج: ٣٧. (٢) الاتقان ١: ١٢٠. (٣) من المعقول ان يأخذنا الشك في صحة هذه الرواية بتفاصيلها المروية في الاتقان على اساس استبعاد وقوع مثل هذه المناقشة الطويلة في مجلس واحد، واستحضار ابن عباس لكل هذه النصوص العربية - كما تحاول الرواية ادعاء ذلك - ولكن من المعقول أيضا أن يكون لهذه الرواية أصل يقتصر على بعض هذه المناقشة، واضيف إليها بعد ذلك الاجزاء الاخرى مما روى عن ابن عباس تكملة للفائدة أو لاغراض سياسية أشرنا إليها سابقا. خصوصا إذا لاحظنا أن المحدثين الذين أخرجوها في وقت سابق على السيوطي لم يخرجوها بهذا التفصيل، كما يصرح السيوطي نفسه بذلك، والذي نريد اثباته هنا بهذه الرواية هو أن نصوص اللغة العربية كانت مصدرا لتفسير القرآن، وفي هذا يكفي ان نثبت أصل هذه الرواية. (*)

متداولة ويعرفها المعاصرون من الصحابة أو العارفون باللغة العربية، مثل الانصاب والازلام واللات والعزى ومناة، أو غير ذلك من العادات والتقاليد. هـ - اقوال اهل الكتاب من اليهود والنصارى، ذلك لان القرآن الكريم عالج موضوعين مهمين لهما صلة بأهل الكتاب. وهما ما يلي: أحدهما: تحدث القرآن الكريم عن الحوادث والوقائع التي وقعت لبعض الانبياء والشعوب التي سبقت الاسلام، من اجل ان يستخلص العبرة والموعظة للمسلمين من خلال ذلك، ولذلك جاء الحديث القرآني عنها غير مستوعب للتفاصيل والجزئيات التي لا تمت الى هذه الغاية بصلة، في الوقت الذي تتحدث فيه التوراة والانجيل المتداولان عند أهل الكتاب فعلا عن هذه الامور حديث المؤرخ للقضايا والوقائع، فتسرد فيهما الحوادث بشكل تفصيلي ومحدد. والاخرى: انتقد القرآن الكريم اهل الكتاب في الكثير من عاداتهم وتقاليدهم واساليبهم، كما كشف التحريفات التي تعرض لها كتاب التوراة والانجيل، وكان في بعض الاحيان يخاطب أهل الكتاب انفسهم مشيرا الى انحرافاتهم: (ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب واكثرهم لا يعقلون) (١). وقد كان من الطبيعي أن يلجأ الصحابة الى أهل الكتاب لاستيضاح هذه الجوانب ومعرفة التفصيلات - بعد إقصاء اهل البيت عن المرجعية الفكرية (٢) - عندما تواجههم الاسئلة عنها، ولا يجدون فيما لديهم من معرفة تفسيرية ما يسد

---

(١) المائدة: ١٠٣. (٢) اشير الى نصوص دلت على أن النبي أرجع المسلمين في معرفة القرآن والاسلام الى اهل البيت (عليهم السلام) ولكنهم بعده لم يرجعوا الى اهل البيت بشكل عام، بل رجعوا الى عموم الصحابة وبشكل جزئي الى أهل البيت، لاسباب لا مجال للحديث عنها في هذا البحث. (*)

هذا الفراغ ويجيب عن هذه الاسئلة، خصوصا إذا اخذنا بنظر الاعتبار أن بعض اهل الكتاب ممن رجع إليهم الصحابة في هذه التفصيلات قد اظهر الاسلام، وانسجم مع القادة المسلمين في احكامهم واطاراتهم، الامر الذي ادى الى ان يصبحوا من المقربين والمستشارين لهؤلاء القادة، أمثال كعب الاحبار. وخير ما يشهد لنا على رجوع بعض الصحابة الى اهل الكتاب في تفسير القرآن هو التفصيلات التي وردت على لسان الصحابة في التفسير عن الاحداث التأريخية السابقة المرتبطة بقصص الانبياء، لاننا نعرف أن الرسول (صلى الله عليه وآله) لم تسمح له ظروفه الخاصة بأن يفسر القرآن بهذا الشكل الواسع الدقيق وعلى المستوى العام للمسلمين، اضف الى ذلك اتفاق تفاسيرهم مع ما جاء في التوراة والانجيل في الخصوصيات (١)، ونحن حين نقول ذلك لا نعني أن النصوص التي تصرح بهذا الاعتماد غير متوفرة (٢) كما أن العلماء اعترفوا بهذه الحقيقة التأريخية عندما تحدثوا عن التفسير (٣).

---

(١) تفسير الطبري ١: ٢٢٥ - ٢٢٧ وغير ذلك من المواضع. (٢) راجع تفسير الطبري ١: ١٥١، ١٥٢، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٥. (٣) راجع الاتقان ٢: ٢٠٥. فقد نقل عن ابن كثير أن ابن عباس تلقى حديثا طويلا من الاسرائيليات. (*)

نقد التفسير في عصر الصحابة والتابعين *: يجدر بنا - ونحن نريد أن نمحص نتاج هذه المرحلة التفسيرية (١) - أن نستذكر حصيلة أبحاثنا السابقة، خصوصا فيما يتعلق بالمحتوى الداخلي لرجال المرحلة من الصحابة والتابعين، ذلك لان المعرفة التفسيرية تتأثر - بطبيعة الحال - بخصائص هذا المحتوى ومقوماته، لانها عطاؤه ونتاجه. وعندما نريد ان نتعرف على هذا المحتوى نقسمه الى جانبين رئيسين: الاول: الجانب الفكري، ونعني به مقدار الثقافة الاسلامية التي كان يتمتع بها الصحابة، وما يستلزم ذلك من وعي وشعور بالمسؤولية تجاه الثقافة ومعرفة الاساليب لحمايتها. الثاني: الجانب الروحي، ونعني به درجة التفاعل مع الثقافة الاسلامية، والامتزاج الروحي والوجداني بها، ومدى الايمان بصحتها والاخلاص لها.

---

(١) حينما ندرس التفسير في عصر الصحابة والتابعين لا يفوتنا أن نؤكد امرين، منعا لما يمكن ان يقع فيه بعض القراء من الالتباس: ١ - اننا ندرس الصحابة على أساس المستوى العام الذي كان يتمتع به هؤلاء الرجال والذي كان يمثل روح ذلك العصر من ناحية فكرية واجتماعية، وهذا لا يعني وجود بعض الرجال من الصحابة والتابعين، ممن كانوا على درجات متفاوتة وعالية من الوعي والاخلاص والعلم. ٢ - لا يمكننا - بالرغم من كل نقاط الضعف التي اصيبت بها المعرفة التفسيرية في عصر الصحابة والتابعين - ان ننكر عظيم الخدمات التي قام بها هؤلاء الرجال والعطاء الذي وهبوه للمعرفة التفسيرية، الشئ الذي كان موضع استلهام كثير من المدارس التفسيرية حتى عصرنا الحاضر. (*)

وبهذا الصدد عرفنا سابقا: أن الصحابة بالنسبة الى الجانب الاول كانوا على جانب من البساطة الفكرية، وذلك بحكم أن الرسول الاعظم (صلى الله عليه وآله) لم يخطط الى تهيئة عامة الصحابة لقيادة التجربة الاسلامية بشكل رئيس، لان مجمل الظروف لم تكن

تساعده على انجاز هذه المهمة، وانما أوكل القيادة السياسية والفكرية الى أشخاص معينين هيأهم لهذه المهمة القيادية وهم أهل البيت (عليهم السلام) (١) ولكنهم اقصوا عنها بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وآله) (٢) فكان من نتائج ذلك: أ - عدم استيعاب عامة الصحابة للثقافة الاسلامية، نتيجة لعدم تفسير الرسول الاعظم للقرآن بشكل شامل على المستوى العام. ب - سذاجة الوسائل التي اتبعها الصحابة في ضبط وحماية أقوال الرسول وسلوكه. ج - بقاء الصحابة على سذاجتهم الفكرية وميلهم للبساطة وعدم التعمق، وتأثرهم في فهم الاسلام باطاراتهم الفكرية الخاصة. وأما بالنسبة الى الجانب الثاني فقد عرفنا أن عامة الصحابة كانوا مختلفين في درجة الانفعال بالثقافة الاسلامية والاخلاص لها، نتيجة لمختلف الظروف الموضوعية التي أحاطت بظروف انتمائهم الى الاسلام واتصالهم بالنبي (صلى الله عليه وآله) ومدى طموحهم وآمالهم، فقد كان بعضهم على مستوى عال من التأثر الروحي والنفسي بالثقافة الاسلامية، بل يمكن ان يكون هذا التفاعل هو الطابع العام للسابقين الاولين من المهاجرين والانصار الذين دخلوا الاسلام عن يقين ومعرفة، بخلاف عامة المسلمين الذين دخلوا الاسلام في مرحلة متأخرة من الفتح أو كانوا من

---

(١) راجع التفسير في عصر الرسول. (٢) ذكرنا ذلك في تكون علم التفسير. (*)

أعراب البادية. وقد رجعت الامة - بعد اتساع دائرة الاسلام بشكل كبير - الى جميع هؤلاء دون تمييز بين المخلصين منهم أو الاقل اخلاصا أو المنافقين، لانهم طرحوا جميعا للامة على اساس أنهم يمثلون المرجع الفكري لها بسبب وجود الفراغ في هذا الجانب، فكان من نتائج ذلك تأثر الثقافة الاسلامية التي اعطيت للمسلمين - من قبل الصحابة - ما يلي: أ - بالاتجاهات السياسية المختلفة أو الثقافات الرسوبية التي عاشتها تلك الحقبة. ب - بالاتجاهات المصلحية ذات الطابع الشخصي أو القبلي. مظاهر هذه النتائج في المعرفة التفسيرية: وقد تأثرت المعرفة التفسيرية بهذه النتائج التي فرضها المحتوى الداخلي للصحابة على الثقافة الاسلامية، فاتسمت بدورها بنفس نقاط الضعف التي اتسمت بها الثقافة الاسلامية بشكل عام في ذلك العصر. ومن أجل ان نحدد هذه النقاط ونوضح مدى تأثر المعرفة التفسيرية بها يجدر بنا ان نذكر بعض الشواهد من المعرفة التفسيرية على مظاهر نقاط الضعف، ولنأخذ كل واحد منها بشكل مستقل: اولا: عدم استيعاب عامة الصحابة للثقافة الاسلامية: لسنا بحاجة هنا الى ان نرجع مرة اخرى لنعرف مدى صحة هذا الحكم بعد ان عرفنا ذلك في بحث (التفسير في عصر الرسول) ولا نريد هنا إلا أن نبحث عن المظاهر التي أشاعتها في المعرفة التفسيرية نقطة الضعف هذه، ويمكن ان نلخص ذلك في النقاط التالية:

أ - ان طبيعة المرحلة التي عرفناها سابقا وهي مواجهة القرآن الكريم كمشكلة لغوية وتأريخية يمكن ان ترجع ببعض جوانبها الى هذه النقطة، لان الصحابة حين فقدوا العنصر الخارجي (١) الاصيل الذي كان من الممكن ان يساهم في معرفتهم التفسيرية مساهمة فعالة، كان من الطبيعي ان ينحصر نتاجهم التفسيري بما يقتضيه

المحتوى الداخلي لهم والمعلومات العامة التي حصلوا عليها من خلال معاشرتهم العامة مع النبي (صلى الله عليه وآله)، ولم يكن ذلك المحتوى بالمستوى الذي يمكنه ان يواجه القرآن الكريم بشكل اعمق من المشكلة اللغوية والتأريخية، فجاءت هذه المرحلة وهي لا تعنى بكثير من الجوانب العقلية والاجتماعية التي اهتمت بها مراحل متأخرة، خصوصا إذا اخذنا بنظر الاعتبار التطورات المهمة التي حصلت في المجتمع الاسلامي في عصر الصحابة بسبب الفتح وانتشار الاسلام. ب - انفتاح باب الرأي والاستحسان، الامر الذي ادى الى نتائج خطيرة في المعرفة التفسيرية، وانتهى الى ظهور الصراع التأريخي بين مذاهب التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي. ج - اعتماد الصحابة على أهل الكتاب في تفسير القرآن، لان السبب الرئيس لوقوع الصحابة في مثل هذه المفارقة هو الفراغ الذي كانوا يعانونه في المعرفة التفسيرية، نتيجة لعدم الاستيعاب - من جانب - والمتطلبات الفكرية التي كانت تواجههم كقادة فكريين - من جانب آخر - وسوف نعرف قريبا مدى الخطأ الذي

---

(١) نقصد بالعنصر الخارجي الاصيل: الوحي الالهي الذي كان يأتي على يد النبي (صلى الله عليه وآله) من خلال تعليمه وتفسيره، والدور التعليمي المهم الذي كان يمكن ان يقوم به الامام علي (عليه السلام) ومدرسته، والعنصر الخارجي غير الاصيل وهم اهل الكتاب الذين كانوا يمثلون مصدرا من مصادر التفسير. (*)

وقع فيه بعض الصحابة نتيجة هذا الرجوع منهم الى هذا المصدر في التفسير. د - بعض المضاعفات التي سوف نتعرف عليها في نقاط الضعف الاتية، حيث كان من الممكن تفادي هذه الاخطاء لو تهيأت للصحابة الظروف التي تجعلهم في مستوى الثقافة الاسلامية في التفسير، ومن هذه المضاعفات تأثرهم ببعض الاطارات الفكرية الخاصة في تفسيرهم للقرآن، أو فهمهم للاستعارة القرآنية بشكل آخر لا ينسجم مع الواقع القرآني، بسبب عدم اطلاعهم على الاطار الفكري والنظرية العامة لتلك الاستعارة القرآنية. ثانيا: سذاجة الصحابة في ضبط وحماية المعرفة الاسلامية: لم يكن اكثر الصحابة في عصر الرسول الاعظم يتمتعون بالمقدار الكافي من الوعي للظروف والمضاعفات السلبية التي سوف تواجهها المعرفة الاسلامية وما يستدعيه مرور الزمن وانتهاء عصر الوحي من مشكلات، ولذا لا نجد التخطيط المركزي الذي يتخذ المبادرة لوضع الضمانات لحماية المعرفة التفسيرية وغيرها من المعرفة الاسلامية وضبطها، فنجم عن هذا الاهمال مجموعة من المضاعفات ونقاط الضعف أصابت جوانب من المعرفة التفسيرية. فقد عرفنا: أن المعرفة التفسيرية في عصر الصحابة والتابعين اعتمدت على مجموعة من المصادر كان منها النص القرآني، والمأثور عن الرسول (صلى الله عليه وآله)، وأقوال الصحابة الذين عاشوا الاحداث الاسلامية التي ارتبط بها النص القرآني، ومن اجل ان تكون هذه المصادر الاصيلة ذات دور ايجابي في عملية التفسير كان يجب ان تكون موضع اهتمام في صيانتها وضبطها وحمايتها، ليمكنها ان تؤدي مهمتها في تغذية المعرفة التفسيرية.

ونحن نلاحظ مجموعة من نقاط الضعف اكتنفت عملية الاستفادة من هذه المصادر نتيجة للسذاجة في الضبط والحماية، الامر الذي نجم عنه مجموعة من المشكلات: ١ - مشكلة تعدد القراءات: نلاحظ أن

بعض الالفاظ القرآنية تقرأ بأساليب مختلفة، تؤدي في بعض الاحيان الى الاختلاف في معنى اللفظ ومؤداه، هذ الشئ الذي أدى في نهاية تطوره الى ولادة علم القراءات. وقد حاول بعضهم أن يفسر ظاهرة تعدد القراءات في البحوث التفسيرية العامة على اساس أن القرآن الكريم جاء به الوحي الى الرسول الاعظم (صلى الله عليه وآله) بهذا الشكل المتعدد، وأ نه نزل على عدة حروف، وأن القراءات المتعددة هي هذه الحروف المتعددة. وإذا كنا نقبل هذه المعالجة في بعض الحالات لا يمكن أن نقبلها بشكل مطلق وفي جميع الحالات، خصوصا في الحالات التي يكون لاختلاف القراءة تأثير على المعنى، ويكون المعنى بدوره مرتبطا بحكم شرعي كما في " يطهرن " بالتخفيف و " يطهرن " بالتشديد، إذ في مثل هذه الحالة لا يمكن ان نتعقل الترديد في الحكم الشرعي المستفاد منها (١). وحينئذ نجد أنفسنا أمام تفسيرين لهذه الظاهرة بشكل عام، أو على الاقل في بعض الحالات: احدهما: هو اهمال ضبط الكلمات القرآنية بشكل معين في عهد الرسول من

---

(١) يحسن بهذا الصدد مراجعة البيان في تفسير القرآن لاية الله السيد الخوئي (قدس سره) (المدخل): ١٠٢ - ١١٧. (*)

قبل بعض الصحابة انفسهم، أو نسيان الطريقة الصحيحة لنطق اللفظ نتيجة عدم التدوين. والاخر: تدخل عنصر الاجتهاد والاستحسان في القراءة بعد فقدان حلقة الوصل التي كانت تربط بين بعض الصحابة والرسول. ومن الممكن ان يكون السببان مشتركين في نشوء هذه الظاهرة. ويبدو لنا بشكل واضح تأثير اختلاف القراءات على فهم النص القرآني، إذا لاحظنا هذا النص التأريخي عن مجاهد احد كبار مفسري التابعين: " لو كنت قرأت قراءة ابن مسعود لم احتج الى ان أسأل ابن عباس عن كثير من القرآن " (١). ٢ - ظاهرة ادعاء نسخ التلاوة: ولعل من أبرز مظاهر عدم الضبط وأبعدها أثرا في القرآن الكريم هو ما يقال عن نسخ التلاوة، حيث لا يمكن تفسير بعض النصوص التي تتحدث عن هذا النسخ - إذا أردنا ان نحسن الظن في الصحابي الذي رواها - إلا على اساس أنه كان يسمع من النبي (صلى الله عليه وآله) الحديث أو الدعاء فيتصوره قرآنا أو يختلط عليه الامر بعد ذلك، وإلا فكيف نفسر ادعاء عمر بن الخطاب آية الرجم، أو ادعاء عائشة آية الرضاع، مع أنها تصرح أنها مما مات عنه الرسول وهو يقرأ من القرآن ؟ ! (٢)

---

(١) الترمذي ١١: ٦. (٢) البخاري ٨: ٢٦ طبعة بيروت. والاتقان ١: ٥٨. وصحيح مسلم ٤: ١٦٧. وإليك الروايتين: ١ - روى ابن عباس أن عمر قال فيما قال وهو على المنبر: " ان الله بعث محمدا (صلى الله عليه وآله) بالحق وأنزل عليه الكتاب، فكان مما انزل الله آية الرجم، فقرأناها وعقلناها ووعيناها، فلذا رجم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ورجمنا بعده، فأخشى ان طال بالناس زمان أن يقول قائل: والله ما نجد آية الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله، والرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا احصن من الرجال... ". ٢ - روت عمرة عن عائشة أنها قالت: كان فيما انزل من القرآن " عشر رضعات معلومات يحرمن " ثم نسخن بـ " خمس معلومات " فتوفي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وهن فيما يقرأ من القرآن ". (*)

وهل معنى ذلك إلا القول بتحريف القرآن أو الالتزام بعدم ضبط هؤلاء الصحابة للنص القرآني بشكل كامل (١). ٣ - ظاهرة اختلاف الحديث والتأريخ: والى جانب القرآن الكريم تعرض المأثور عن رسول الله الى هذه الظاهرة، ونلاحظ ذلك في اختلاف ما يروى عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) في التفسير (٢). كما نجد مثل هذا الشئ في نقل الحوادث التأريخية التي ارتبطت بها بعض الايات القرآنية، حيث نلاحظ مفارقات كثيرة في ذلك مما أدى في بعض العصور المتأخرة الاسلامية الى نشوء بعض الفرق والمذاهب المختلفة، ويظهر ذلك بمراجعة اي كتاب من كتب أسباب النزول (٣) ومن الواضح أن تفسير هذه الظاهرة انما

---

(١) ذكرنا في بحث النسخ عدم صحة ادعاء نسخ التلاوة، لانه يؤدي الى القول بتحريف القرآن، وأشرنا الى الشواهد على عدم صحة هذه الروايات. (٢) كمثال على ذلك قارن بين الروايات التي يذكرها السيوطي في الاتقان ٢: ١٩١ - ٢٠٥. (٣) وبصدد أسباب النزول نجد علماء التفسير يأخذون قول الصحابي بمنزلة المرفوع في أسباب النزول من دون تردد، والكثير منهم يعمم هذا الحكم الى جوانب المعرفة التفسيرية، في الوقت الذي يجب علينا كباحثين ان نميز بين الصحابة الذين عاشوا هذه الاحداث عن كثب وشاهدوا تفاصيلها، وبين الاخرين الذين اعتمدوا في نقلهم لها على الشائعات والاقاويل، الامر الذي يؤدي في اكثر الاحيان الى الالتباس في نقل الخصوصيات والتفصيلات، فنحن حين نشاهد بعض المسلمين يختلفون في زمن الرسول (صلى الله عليه وآله) في المسجد الذي اسس على التقوى هل هو مسجد " قبا " أو مسجد الرسول (صلى الله عليه وآله) ويرفعون هذا الاختلاف للرسول الاعظم ليحكم فيه... نسمح لانفسنا ان نشكك في كل ما يروى عن الصحابة بهذا الشأن إذا لم يكن الشخص الراوي قد عاش الحادثة بنفسه. (الترمذي ١١: ٢٤٥ - ٢٤٦) ويروي الترمذي بعد هذه الرواية نصا آخر يدل بالدلالة الالتزامية على أن المسجد هو مسجد " قبا " في الوقت الذي نجد هذه الرواية تصرح بأن المسجد هو مسجد النبي. (*)

يكون بموجب نفس الاسس السابقة التي عللنا بها ظاهرة تعدد القراءات، حيث يمكن ارجاع ذلك لعدم ضبط الصحابة لاقوال الرسول وسلوكه، أو الى عدم التدوين الذي أدى في عصر ما بعد الصحابة الى هذا الاختلاط. ٤ - ظاهرة الاسرائيليات: وقد تعرضت المعرفة التفسيرية الى نقطة ضعف مهمة نتيجة لهذه البساطة في الشعور بالمسؤولية وعدم التقدير الواعي لظروف الحماية وأساليبها، حيث نجد المرحلة تعتمد بشكل رئيس على أقوال أهل الكتاب ونظرياتهم. وقد وقع بعض الصحابة نتيجة لهذا الاعتماد في مفارقات فكرية وعقيدية تختلف عن الاتجاهات الاسلامية الصحيحة، فهناك كثير من الافكار الاسرائيلية عن الانبياء وعالم الاخرة والملائكة اضيفت الى القرآن الكريم نتيجة هذا الربط التفسيري بين الوقائع التى تسردها الكتب الاسرائيلية أو التى يرويها الاسرائيليون، والوقائع التي يشير إليها القرآن الكريم لاستخلاص العبرة والموعظة منها. والشواهد على هذه المفارقات في النصوص التفسيرية (الصحيحة !) المأثورة عن الصحابة كثيرة، واليك نماذج منها: أ - عن أبي هريرة في قوله تعالى: (واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم

ذريتهم...) (١) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) " لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط كل نسمة هو خالقها من ذريته الى يوم القيامة، وجعل بين عيني كل انسان منهم وبيصا (٢) من نور ثم عرضهم على آدم. فقال آدم: أي رب من هؤلاء ؟ قال هؤلاء ذريتك. فرأى رجلا منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه فقال: أي رب

من هذا ؟ فقال: رجل من آخر الامم من ذريتك يقال له داود. فقال رب كم جعلت عمره ؟ قال ستين سنة. قال: أي رب زده من عمري اربعين سنة. فلما مضى آدم جاءه ملك الموت. فقال: أو لم يبق من عمري اربعون سنة ؟ ! قال أو لم تعطها ابنك داود ؟ فجحد آدم فجحدت ذريته، ونسي آدم فنسيت ذريته، وخطئ آدم فخطئت ذريته (٣). وهذا الحديث وان كان يرويه أبو هريرة عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) ولكننا نقطع بعدم صدوره من رسول الله لوجود التشابه بينه وبين الاسرائيليات في نظرتها الى الانبياء واتهامها لهم بعظائم الامور، كما انه يحاول أن يصور بني اسرائيل على اساس أنهم آخر الامم، وعدم وجود ارتباط واضح بين الفقرات الثلاث الاخيرة وواقع القصة، ان لم نقل يتناقضها. ب - عن ابن عباس أن النبي (صلى الله عليه وآله) قال: " لما أغرق الله فرعون قال: (آمنت أنه لا اله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل...). فقال جبرئيل فلو رأيتني وأنا آخذ من حال (٤) البحر فأدسه في فيه مخافة ان تدركه الرحمة " (٥).

---

(١) الاعراف: ١٧٢. (٢) الوبيص: البريق. ابن الاثير، البداية والنهاية ٤: ١٩١. (٣) الترمذي ١١: ١٩٦ - ١٩٩. (٤) الحال: الطين الاسود كالحمأة. ابن الاثير، البداية والنهاية ١٠: ٢٧٣. (٥) يونس: ٩٠، الترمذي ١١: ٢٧١ راجع الحديث الذي بعده. (*)

فان هذه الرواية تصور لنا جبرئيل شخصا يحب الانتقام من الناس وهلاكهم، فإذا قارنا ذلك بما ينظر اليهود به الى جبرئيل وأ نه ملك العذاب كما جاءت بذلك بعض النصوص التأريخية في اسباب نزول قوله تعالى: (من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال...) (١)... نعتقد أن هذه الرواية لم تأت عن النبي وانما جاءت على لسانه تأييدا لوجهة النظر الاسرائيلية، أو تأثرا بأفكار الاسرائيليات، والا فنحن لا نفهم لماذا يخاف جبرئيل ان تدرك رحمة الله احدا من الناس حتى لو كان ذلك فرعون !. ج - عن أبي هريرة رفعه " لم يكذب ابراهيم الا في ثلاث: قوله: (... اني سقيم...) ولم يكن سقيما. وقوله لسارة: اختي. وقوله: (... بل فعله كبيرهم هذا...) " (٢). ولا يمكننا الا ان ننسب هذا الحديث الى الاسرائيليات لما فيه من اتهام ابراهيم بالكذب على هذه الصورة المشينة، خصوصا إذا اخذنا بنظر الاعتبار عدم ورود قصة ادعاء ابراهيم ان سارة اخته في القرآن الكريم مع وجود تفسير واضح لكل من الحادثتين الاخريين لا يتسم بالكذب. د - جاء في الطبري عن سعيد بن المسيب أنه كان يحلف ان آدم لم يأكل من الشجرة الا بعد ان شرب الخمر (٣). وسعيد بن المسيب هذا نجده في موضع آخر لا يرضى ان يقول في القرآن شيئا من التفسير ؟ ! (٤) فكيف يمكن ان نوفق بين يمينه ذاك ورأيه هذا ؟ !

---

(١) البقرة: ٩٨. (٢) الصافات: ٨٩، الانبياء: ٦٣، الترمذي ١٢: ٢٤. (٣) تفسير الطبري ١: ٢٣٧. (٤) المصدر السابق ١: ٣٨. (*)

هـ - عن ابي سعيد الخدري قال: " قرأ رسول الله (صلى الله عليه وآله) (وانذرهم يوم الحسرة...) (١) قال يؤتى بالموت كأنه كبش أملح، حتى يوقف على السور بين الجنة والنار. فيقال: يا أهل الجنة ! فيشرئبون. ويقال يا أهل النار ! فيشرئبون. فيقال: هل تعرفون هذا ؟

فيقولون: نعم هذا الموت. فيضجع فيذبح. فلولا ان الله قضى لاهل الجنة الحياة فيها والبقاء لماتوا فرحا، ولولا ان الله قضى لاهل النار الحياة فيها لماتوا ترحا " (٢). ويمكن ان نعرف مدى صحة هذا النص إذا درسنا النصوص التي تروى عن ابي سعيد هذا ووجدنا أنها تلتقي في نقطة واحدة وهي التحدث عن أشياء غريبة ترتبط بعالم الاخرة، وكأنه شخص اختصاصي لا يمارس الا هذا اللون من التفسير (٣).
قيمة الاسرائيليات في المعرفة التفسيرية: ويجدر بنا ونحن نتحدث عن المفارقات التي وقع فيها بعض الصحابة والتابعين، نتيجة اعتمادهم على الاسرائيليات في التفسير ان نعرف مدى قيمة هذا المصدر من ناحية اسلامية في المعرفة التفسيرية. ويمكننا ان نجزم بسهولة بأن هذا المصدر لا يمثل في وجهة النظر الاسلامية أي قيمة حقيقية بعد ان نلاحظ الامرين التاليين: اولا: ان القصص والتفصيلات التي سردتها التوراة والانجيل بوجودهما الفعلي لا يمكن الاعتماد عليها لانها محرفة، وفيها اتجاهات أخلاقية وعقيدية لا يقرها

---

(١) مريم: ٣٩. (٢) الترمذي ١٢: ١٤. (٣) يمكن ملاحظة ما رواه السيوطي في الاتقان عنه ٢: ١٩١ - ٢٠٥. والترمذي في كتاب التفسير. (*)

الاسلام الحنيف، وقد صرح القرآن الكريم في مواضع مختلفة بهذا التحريف الذي أصاب هذين الكتابين، وذم أهل الكتاب بصورة عامة على قيامهم بهذا التحريف والتزامهم له، فكيف يصح لنا بعد هذا كله ان نعتمد على شئ من هذه التفصيلات في تفسير القرآن الكريم.
ثانيا: ان الصحابة والتابعين حين كانوا يأخذون من أهل الكتاب هذه التفصيلات لم تكن لديهم وسائل الاطلاع على ذات التوراة والانجيل، وانما كانوا يعتمدون في ذلك على بعض من دخل الاسلام من اهل الكتاب وغيرهم، وقد كان بعض هؤلاء قد تظاهر بالاسلام وهو غير مخلص له، فمن الطبيعي ان يقوم بعملية تشويه للمفاهيم الاسلامية بادخال بعض الاتجاهات الفكرية والاخلاقية فيما يرويه عن التوراة والانجيل بصورة محرفة، وهذا الشئ وان كان غير وارد في الوقت الحاضر على اساس انتشار العهدين القديم والجديد، ولكنه كان ذا مفعول قوي في تشويه الفكر الاسلامي أيام الصحابة والتابعين. بل نجد في ثقافة اهل الكتاب معلومات وأفكارا كانوا يتداولونها ويتوارثونها جيلا عن جيل ويحرفونها ويحورونها لاسباب مختلفة، وهي ليست موجودة بالاصل في التوراة والانجيل، بل هي من الثقافة العامة لهم، ولذا كان يعاتبهم القرآن ويدعوهم - احيانا - للرجوع الى ما بأيديهم من التوراة والانجيل لمعرفة الحقيقة. وقضية اعتماد بعض الصحابة على الاسرائيليات في التفسير يمكن ان تعتبر بداية المشكلة لعصر التابعين، حيث كان هذا الاتجاه اتجاها رئيسا في عصرهم قامت عليه بعض المدارس التفسيرية وتبنته بعض الاساليب الثقافية كمصدر مهم من مصادر التموين. فقد ظهرت في هذه المدة من الزمن حركة اتخذت من سرد الحوادث التأريخية

حرفة خاصة (١). وبرزت الاسرائيليات التي تتحدث عن حياة الانبياء السابقين - بصفتها جزءا من الثقافة الاسلامية العامة - الى جانب السيرة النبوية وتفصيلاتها. بل تأثر بهذا الاسلوب رواة السيرة النبوية وتأريخ الفتح الاسلامي وملاحم العرب الجاهلية، فوضعوا القصص والملاحم والكتب التي تتحدث عن الغزوات ومعارك المسلمين

والجاهليين من العرب وبشكل اسطوري له اهداف سياسية أو ثقافية معينة. كما اختلقت قصص وأساطير وهمية حول شخصيات حقيقية اريد منها تشويه الحقائق السياسية والاجتماعية، وتبرير أو تغطية الخلافات القبلية التي برزت في عهد الامويين، أو السياسية والمذهبية، بل حتى تمادى بعضهم باختلاق الشخصيات ونسبة أدوار مهمة لهم من أجل هذه الاهداف، مثل قصص عنترة بن شداد، أو عبد الله بن سبأ، أو القعقاع التميمي، أو أيام العرب الجاهلية وغيرهم من الشخصيات الوهمية أو الحقيقية التي احيطت بهالات واطر وبطولات وهمية. وبعد هذا كله يمكننا أن ندرك بوضوح مقدار ما أصاب الثقافة الاسلامية من ضياع وتشويه نتيجة هذه السذاجة في الضبط والحماية. ثالثا: سذاجة عامة الصحابة الفكرية، وميلهم للبساطة، وتأثرهم في فهم الاسلام باطارتهم الخاصة: لقد كانت السذاجة الفكرية لجمهور الصحابة، وتأثرهم في فهم الاسلام اطاراتهم الخاصة احدى النقاط المهمة التي كانت لها نتائجها ومضاعفاتها في المعرفة التفسيرية، ونذكر من تلك النتائج ما يلي:

---

(١) يشير الى هذا ما ذكره هبة الله بن سلامة في كتابه الناسخ والمنسوخ المطبوع بهامش أسباب النزول للواحدي: ٦ - ٨. (*)

---

١ - فقد كان من مظاهر ذلك ما أشرنا إليه سابقا من طبيعة المرحلة التي فرضت على الصحابة أن يعيشوا القرآن كمشكلة لغوية وتأريخية، فان ذلك كان بسبب عاملين: احدهما خارجي: وهو عدم استيعاب الصحابة للثقافة الاسلامية. والاخر داخلي: وهو المستوى العقلي والفكري الذي كان يعيشه رجال المرحلة، حيث كانوا ينظرون الى البحث والتأمل خارج حدود المشكلة اللغوية والتأريخية بحثا غير اسلامي، قد ينتهي بهم الى الانحراف في فهم الدين والضلال عنه. في الوقت الذي نجد القرآن الكريم يحث على التأمل في الكون، والتدبر في آيات القرآن الكريم ومفاهيمه، واستعمال العقل أداة لادراك بعض المفاهيم الكونية والاجتماعية من خلال النظرية الاسلامية ومفاهيمها. ٢ - كما كان من نتائج هذه السذاجة موقف الصحابة من القرآن الكريم - بصفته مصدرا مهما من مصادر المعرفة التفسيرية في ذلك العصر - حيث لم يتمكنوا من الاستفادة الكاملة من العطاء القرآني في هذا المجال، ويلاحظ ذلك في ندرة ما ورد عنهم من محاولات تفسيرية تعتمد في فهم القرآن الكريم على القرآن نفسه، في الوقت الذي نعرف أن طبيعة نزول القرآن الكريم واسلوبه وترابط النظرية الاسلامية وتكاملها يحتم علينا فهم المقطع القرآني في ضوء جميع ما ورد في القرآن الكريم بصدد معناه. وفي بعض الموارد حاول الصحابة الاستفادة من عطاء هذا المصدر الاصيل، فتجدهم يخضعون النص القرآني لاطاراتهم الفكرية الخاصة. ومن الشواهد التي تدل على ذلك تلك المحاولة التي تنسب الى بعض الصحابة، حين حاول التعرف على حقيقة ابليس وماهيته، وانه من الجن أو الملائكة حيث خرج - بعد مقارنته لقوله تعالى: (واذ قلنا للملائكة اسجدوا لادم فسجدوا الا

ابليس أبى...) (١) مع قوله تعالى: (واذ قلنا للملائكة اسجدوا لادم فسجدوا الا ابليس كان من الجن...) (٢) - بنتيجة معينة تقول: إن ابليس كان ينتمي الى قبيلة من الملائكة تسمى بالجن (٣). ٣ -

وعملية اخضاع النص القرآني للاطارات الفكرية الخاصة التي كان يعيشها بعض الصحابة والتابعين هي: احدى المظاهر التي اصيبت بها المعرفة التفسيرية في ذلك العصر نتيجة للسذاجة الفكرية، ولدينا شواهد كثيرة على هذا التأثر في العمليات التفسيرية المنسوبة الى بعض الصحابة والتابعين (٤). ٤ - والى جانب ذلك كانت تبدو البساطة في فهم المعنى القرآني، والاستعارة القرآنية واضحة المعالم في تفاسير بعض الصحابة والتابعين: فعكرمة أحد التابعين يرى في قوله تعالى: (... لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) (٥) على أنه من تقديم ما حقه التأخير، إذ يفهم الاية على اساس أن تركيبها الاصلي " لهم عذاب شديد يوم الحساب بما نسوا " حيث لا يرى عكرمة أن نسيان يوم الحساب يمكن ان يكون سببا معقولا للعذاب الشديد (٦). وكذلك ابن عباس يرى في قوله تعالى: (... فقالوا أرنا الله جهرة...) (٧) أن (جهرة) كان حقها التقديم في الكلام، فتأخرت حيث لا يعقل أن تتصف الرؤية

---

(١) البقرة: ٣٤. (٢) الكهف: ٥٠. (٣) الطبري ١: في تفسير الاية ٣٤ من سورة البقرة. دار المعرفة - بيروت. (٤) راجع بهذا الصدد الاتقان ١: ١٤٤ و ٢: ١٤١. والترمذي ١١: ٢٤٦. (٥) ص: ٢٦. (٦) الاتقان ٢: ١٣. (٧) النساء: ١٥٣. (*)

ب)الجهرة) لانهم إذا رأوا فقد رأوا، وانما كان قولهم الذي طلبوا فيه الرؤية جهرة وعلنا (١). وهكذا نجد الصحابة في هذا ونظائره يفسرون القرآن حسب مدركاتهم واجتهاداتهم العقلية الخاصة، ويخضعون المجاز القرآني بأقسامه المختلفة لهذه المدركات على بساطتها وسذاجتها. ٥ - وقد انفتح بعض الصحابة والتابعين - نتيجة لهذه السذاجة الفكرية - على بعض الافكار الاسرائيلية وتفسيراتهم لبعض الالفاظ القرآنية، حين لم يجدوا فيها ما يتنافى مع أفكارهم الخاصة ومدركاتهم العقلية، خصوصا ما يرتبط منها بعالم الغيب، هذا العالم الذي كانوا يجهلون الكثير من تفاصيله ودقائقه (٢)، فكان أن فرضت على الثقافة القرآنية مجموعة غريبة من الافكار والمفاهيم، ونظر إليها في العصور المتأخرة على اساس أنها جزء من الثقافة الاسلامية. رابعا: التفسير لاغراض سياسية وشخصية: لقد عرفنا سابقا أن تسلم الصحابة لقيادة المسلمين فكريا لم يتم على أساس التمييز بين رفاق النبي (صلى الله عليه وآله) الذين أخلصوا له ولرسالته، وبين الاخرين الذين لم يكونوا قد انفعلوا بدرجة كافية برسالة الاسلام وامتزجوا بها روحيا. وكان لهذا التوجيه الخاطئ نتائجه الكثيرة في الثقافة الاسلامية بشكل عام، ولم تسلم المعرفة التفسيرية من مضاعفاته وآثاره، فتعرضت ثقافة القرآن الكريم للتزوير والتشويه بقصد الاستفادة السياسية أو الشخصية. ويلاحظ الباحث في المعرفة التفسيرية لذلك العصر مواقف كثيرة كانت تتسم

---

(١) الاتقان ٢: ١٣. (٢) راجع الترمذي ١١: ٢٨٤. والاتقان ٢: ١٤١ وغير ذلك. (*)

بهذا الاتجاه الخاص وتحقق أغراضا وأهدافا معينة. وهناك شواهد كثيرة تشير الى اتهام اولئك الابطال الذين اشتروا آيات الله بأثمان قليلة، فراحوا يخدمون جهات معينة سياسية أو شخصية، ويتقاضون أجر ذلك منصبا زائلا أو ذهبا رنانا. ولعل من أبرز هذه الشواهد هو ما

نفهمه حين نقارن بين ما يذكره علماء القرآن في شأن المفسرين من الصحابة، حيث يذكرون: أن عليا (عليه السلام) من أكثر الصحابة تفسيرا للقرآن، وأن أبا هريرة من أقلهم تفسيرا (١)... وبين ما يذكر في كتب التفسير (الصحيحة !) حيث نجد ما يروى عن أبي هريرة أكثر مما يروى عن علي (عليه السلام) (٢). ولا شك أن هذه المفارقة ذات الدلالة على الظروف السياسية التي منعت من الرواية عن علي (عليه السلام) ودفعت الناس للاخذ من أبي هريرة، الامر الذي سمح لهؤلاء نسبة ما يقولونه الى رسول الله (صلى الله عليه وآله) والقرآن الكريم. نماذج للتفسير بدوافع مختلفة: أ - نماذج من التفسير لاغراض سياسية: ١ - أحتج أبو بكر على الانصار يوم السقيفة بقوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) (٣) وفسر " الصادقين " في هذه الاية بالمهاجرين بقرينة قوله تعالى: (للفقراء المهاجرين الذين اخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون

---

(١) الاتقان ٢: ١٨٧ - ١٨٩. (٢) قارن ما ذكرناه، بالروايات المذكورة عن علي (عليه السلام) وأبي هريرة من كتابي التفسير للبخاري والترمذي. (٣) التوبة: ١١٩. (*)

فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله اولئك هم الصادقون) (١) (٢). إذ من الواضح أن هذا اللون من التفسير لم يقصد منه الا الغرض السياسي مع ابتعاده عن الغرض القرآني الاصيل. ٢ - عن علي بن أبي طالب: قال صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاما، فدعانا وسقانا الخمر، فأخذت الخمر منا، وحضرت الصلاة، فقدموني فقرأت: قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون ! قال فأنزل الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون...) (٣). ولا يشك أي مسلم يعرف القليل عن شخصية الامام علي (عليه السلام) بوضع هذا الحديث على لسانه، حيث إن الامام علي (عليه السلام) تربى في حجر الرسول منذ أن كان طفلا وتخلق باخلاقه، فكيف يمكن ان نتصور وقوع هذا الشئ منه، خصوصا إذا أخذنا بعين الاعتبار نزول بعض الايات القرآنية في ذم الخمر قبل هذا الوقت، وإذا لاحظنا وجود بعض النصوص التي تذكر نزول الاية في شخص آخر من كبار الصحابة، ممن كان قد اعتاد شرب الخمر في الجاهلية عرفنا الهدف السياسي فيها. ب - نماذج من التفسير لاغراض شخصية: ١ - عن عمر بن الخطاب، قال: " قال رسول الله يوم احد اللهم العن أبا سفيان، اللهم العن الحرث بن هشام، اللهم العن صفوان بن امية، فنزلت (ليس

---

(١) الحشر: ٨. (٢) ذكر هذه الواقعة الزركشي في كتابه: البرهان في علوم القرآن ١: ١٥٦. ولسنا على يقين من صحة صدور هذا التفسير عن شخص أبي بكر، ولكن الرواية - مع ذلك - تدل على لون من ألوان الوضع السياسي في عصر متأخر عن أبي بكر. (٣) الترمذي ١١: ١٥٧. وسورة النساء: ٤٣. (*)

لك من الامر شئ أو يتوب عليهم أو يعذبهم...) (١) فتاب عليهم فأسلموا فحسن اسلامهم " (٢). ومن الواضح أن هذا الحديث وضع لصالح الامويين على لسان عمر بن الخطاب، إذ لا يتفق هذا الحديث مع الواقع التأريخي المعروف عن هؤلاء الاشخاص بعد اسلامهم في

حياة النبي (صلى الله عليه وآله) وبعدها. ولكن يبدو أن التزوير غير متقن، لانه يفرض صدور التوبة من الله قبل اسلامهم !. ٢ - عن أبي بكر قال: " كنت عند رسول الله (صلى الله عليه وآله) فانزلت عليه هذه الاية: (... من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا) (٣) قلت يا رسول الله بأبي أنت وامي أينا لم يعمل سوءا وانا لمجزون بما عملنا، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) أما أنت يا أبا بكر والمؤمنون فتجزون بذلك في الدنيا حتى تلقوا الله وليس لكم ذنوب، واما الاخرون فيجمع لهم حتى يجزوا به يوم القيامة " (٤). فهذا الحديث بالرغم من مخالفته لظهور كثير من الايات القرآنية والاحاديث النبوية يحاول أن يبرئ موتى المسلمين - كما ترى - من التبعات الاخروية لاعمالهم، ليبقوا اولياء على كل حال في نظر الناس. ٣ - روى مسلم عن ابن عباس في رواية باذان: بعث رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) خالد ابن الوليد في سرية الى حي من أحياء العرب، وكان معه عمار بن ياسر فسار خالد حتى إذا دنا من القوم، عرس لكي يصبحهم، فأتاهم النذير، فهربوا عن

---

(١) آل عمران: ١٢٨. (٢) الترمذي ١١: ١٣١. (٣) النساء: ١٢٣. (٤) الترمذي ١١: ١٦٩ - ١٧٠. (*)

رجل قد كان أسلم، فأمر أهله أن يتأهبوا للمسير، ثم انطلق حتى أتى عسكر خالد، ودخل على عمار، فقال يا أبا اليقظان اني منكم وان قومي لما سمعوا بكم هربوا وأقمت لاسلامي أفنافعي ذلك، أو أهرب كما هرب قومي ؟ فقال: أقم فان ذلك نافعك، وانصرف الرجل الى أهله وأمرهم بالمقام. وأصبح خالد فغار على القوم فلم يجد غير ذلك الرجل، فأخذه وأخذ ماله، فأتاه عمار فقال اخل سبيل الرجل فانه مسلم، وقد كنت آمنته فأمرته بالمقام، فقال خالد أنت تجير علي وأنا الامير، فقال: نعم أنا أجير عليك وأنت الامير، فكان في ذلك بينهما كلام، فانصرفوا الى النبي (صلى الله عليه وآله) فأخبروه خبر الرجل، فآمنه النبي (صلى الله عليه وآله) وأجاز أمان عمار، ونهاه أن يجير بعد ذلك على أمير بغير اذنه. قال واستب عمار وخالد بين يدي رسول الله (صلى الله عليه وآله) فأغلظ عمار لخالد، فغضب خالد وقال يا رسول الله أتدع هذا العبد يشتمني، فوالله لولا أنت ما شتمني، وكان عمار مولى لهاشم بن المغيرة، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): يا خالد كف عن عمار، فانه من يسب عمارا يسبه الله، ومن يبغض عمارا يبغضه الله. فقام عمار فتبعه خالد فأخذ بثوبه، وسأله أن يرضى عنه فرضي عنه، فأنزل الله تعالى هذه الاية: (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول واولي الامر منكم) (١) وأمر بطاعة اولي الامر (٢). والتلفيق في هذه الرواية واضح لما فيها من التناقض في الاحكام والمواقف بالشكل الذي لا ينسجم مع أوضاع أبطالها الثلاثة: رسول الله وعمار وخالد، فلماذا يحتاج هذا الرجل المسلم الى أن يجيره شخص من السرية، ليكون آمنا ولا يكفيه اسلامه في ذلك حتى يقع النزاع بين عمار وخالد فيمن يجير ؟ ! وكيف يسب

---

(١) النساء: ٥٩. (٢) الواحدي، أسباب النزول: ١١٨. (*)

عمار خالدا بعد أن حقق عمار هدفه في الحصول على أمان للرجل من رسول الله (صلى الله عليه وآله) وبعد نهي رسول الله له - كما تفرض الرواية - بمخالفة أمير السرية ؟ ! ثم كيف ينتصر النبي لعمار على خالد والرواية تظهر عمارا كظالم لخالد ؟ ! ثم كيف يترضى خالد عمارا بعد ظلم عمار له، وبعد أن تكشف خالد عن نفسية جاهلية تأبى عليه هذا الذل ؟ ! وبعد كل هذا ألا يجوز لنا أن نحكم بتزوير هذه الرواية لمصلحة خالد بن الوليد على حساب الصحابي المجاهد المناهض للظلم عمار بن ياسر ؟

التفسير في مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) تمهيد: من أجل أن نوضح المعالم الاساسية والميزات الخاصة التي تتميز بها مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) في التفسير، لا بد أن نشير الى نقطتين لهما أهمية بهذا الصدد: الاولى: نظرة أهل البيت (عليهم السلام) الى القرآن الكريم. الثانية: نظرة أهل البيت (عليهم السلام) العامة الى طرق إثبات الحقائق والوصول الى فهم القرآن الكريم والشريعة الاسلامية ومعرفة السنة النبوية. نقطتان مميزتان للتفسير في مدرسة أهل البيت (عليهم السلام): النقطة الاولى: نظرة أهل البيت (عليهم السلام) الى القرآن الكريم: في البداية لا بد أن نشير الى نظرة أهل البيت (عليهم السلام) المتميزة في تقديس القرآن الكريم، حيث يضعونه في المرتبة الثانية بعد الله تعالى، والى اهتمامهم الخاص في حفظ وتعلم القرآن الكريم وقراءته فإنها أفضل العبادات، واحترامه وأهميته والتفاعل معه والتفكير والتدبر في آياته من خلال مئات الاحاديث التي وردت عنهم (عليهم السلام) في الحث على ذلك، وتقديرهم واحترامهم الخاص لحملة القرآن ودورهم في الحياة الاجتماعية وذكر مقاماتهم عند الله تعالى، وبيان الاجر والثواب المترتب على كل هذه الاعمال المرتبطة بالقرآن، فهو شفيع، يشفع يوم

القيامة، بل هو أفضل شفيع... (١) إضافة الى كل ذلك نذكر أمرين رئيسين: أحدهما: ثبوت النص القرآني: إن القرآن الكريم المتداول بين المسلمين هو مجموع ما نزل على النبي (صلى الله عليه وآله) في مدة نبوته ورسالته، باعتباره كلاما إلهيا دون زيادة أو نقصان، وهو ما نسميه بثبوت النص القرآني وسلامته من التحريف بالزيادة أو النقيصة، وقد أوضحنا القرائن والادلة على هذه الحقيقة في بحثنا السابق ثبوت النص القرآني. وبهذا الصدد لا بد أن نشير الى ظاهرتين مهمتين توضحان الصورة والموقف تجاه قضية تحريف القرآن الكريم: ١ - إن المسلمين جميعا سنة وشيعة - بالرغم من اختلاف مذاهبهم الفقهية والكلامية، وتعدد آرائهم، ومواقفهم في فهم التأريخ والسنة وتفسيرهم للاحداث - متفقون على تداول نص واحد من القرآن الكريم وفي جميع العصور، بحيث لا نجد في جميع الاصقاع والاقطار الاسلامية أو غيرها، وفي زوايا المكتبات القديمة والحديثة أي نص آخر للقرآن الكريم غير النص الذي يتداولونه بشكل عام، الامر الذي يؤكد حقيقة سلامة النص القرآني ويبطل كل الشبهات والاثارات التي يتداولها بعض الاشخاص لاتهام فرقة أو جماعة من المسلمين بأنهم يعتقدون بالتحريف. ولا شك أن هذه الاثارات والشبهات لها خلفية وأهداف سياسية أو اجتماعية أو مذهبية متعصبة، وان كان بعض من يتداولها ممن وقع في هوة التضليل والجهالة دون نية سيئة. ٢ - اننا نجد على مستوى الروايات والاحاديث، وأحيانا على مستوى الابحاث

(١) راجع ما ذكره صاحب كتاب جامع أحاديث الشيعة الجزء: ١٥، فانه ذكر أكثر من سبعمائة حديث تتناول مختلف هذه الابعاد. (*)

العلمية والاراء النظرية ما يمكن أن يوهم بالتحريف والنقيصة، سواء على مستوى علماء وحفاظ جمهور المسلمين، كالبخاري ومسلم وغيره، أو مستوى حفاظ وعلماء أتباع مذهب أهل البيت (عليهم السلام)، الامرالذيلا بدمن معالجته بالموقف الواضح والتسالم القطعي بين المسلمين على سلامة القرآن من التحريف أو تأويل هذه الروايات والاحاديث أو الاراء، كما أشرنا الى ذلك في بحث ثبوت النص القرآني. ولا يستفيد من مثل هذه الاثارات إلا أعداء الاسلام والقرآن من المستشرقين والمبشرين والصهاينة والاستكبار العالمي الغربي، أو الملاحدة والمرتدين من أوساط المجتمعات الاسلامية. ولكن لا بد أن نشير هنا الى أن هذه الروايات والاثارات انما كانت احدى النتائج الخطرة - التي تمت الاشارة إليها في البحث السابق - بسبب عدم التمييز بين المستويين (العام والخاص) من التفسير، وإبعاد أهل البيت (عليهم السلام) عن دورهم في المرجعية الدينية على المستوى الخاص وخصوصا في التفسير، الامر الذي جعل الامور تختلط على المسلمين بهذا الشكل، ولولا العناية الالهية والاهتمام الخاص الذي أولاه النبي (صلى الله عليه وآله)، وأهل البيت (عليهم السلام) وكبار الصحابة والمسلمون بشكل عام، في استظهار القرآن وحفظه لحدثت كارثة بين المسلمين تشبه ما تعرضت له الديانات الالهية السابقة. والاخر: القرآن الكريم هو المرجع العام للرسالة الاسلامية: إن القرآن الكريم هو المرجع الاول والمصدر العام للرسالة الاسلامية بكل أبعادها - والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - ومنها العقيدة والشريعة الاسلامية والسنن التأريخية والنظرة العامة للكون والحياة والمجتمع والسلوك الانساني. والسنة النبوية وان كانت تمثل المرجع الاخر، إلا أن القرآن الكريم يمتاز على

السنة النبوية في ثبوته بنصه يقينا وفي قدسيته باعتباره الكلام الالهي، ومن ثم يكون المرجع للسنه عند الشك في ثبوت مضمونها أو نصها، ولا يقبل من الحديث إلا ما كان موافقا للقرآن الكريم. كما أن أهل البيت (عليهم السلام) ينظرون الى السنة النبوية القطعية نظرة التقديس، ويضعونها حكما يمكن تمييز صحة حديثهم من خلال موافقتها، كما يمكن رد الحديث والحكم عليه بالبطلان من خلال مخالفته للسنة النبوية فضلا عن مخالفته للقرآن، ولا يجدون أي مبرر للاجتهاد في مقابل النص القرآني، ويمكن أن نحدد - بشكل إجمالي - نظرة أهل البيت الى منزلة القرآن الكريم من هذه الزاوية في الابعاد التالية: ١ - إن القرآن الكريم يمثل شاهدا على الحق والباطل في مضمون الاحاديث والروايات التي تنسب الى النبي (صلى الله عليه وآله) أو أهل البيت (عليهم السلام)، حيث يمكن من خلاله تمييز الحق من الباطل. فقد روى ثقة الاسلام الكليني في الكافي عن علي بن ابراهيم، عن أبيه، عن النوفلي، عن السكوني، عن أبي عبد الله قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " إن على كل حق حقيقة وعلى كل صواب نورا، فما وافق كتاب الله فخذوه وما خالف كتاب الله فدعوه ". وقد رواه البرقي في المحاسن والصدوق في الامالي بسندهما عن النوفلي والسكوني (١). وفي رواية اخرى

للكليني صحيحة السند عن هشام بن الحكم وغيره، عن أبي عبد الله (الصادق) (عليه السلام) قال: خطب النبي (صلى الله عليه وآله) بمنى، فقال: " أيها الناس ما جاءكم عني يوافق كتاب الله فأنا قلته وما جاءكم يخالف كتاب الله فلم أقله " (٢).

---

(١) وسائل الشيعة ١٨: ٧٨. (٢) المصدر السابق: ٧٩ الحديث ١٥. (*)

وقد رواه البرقي في المحاسن أيضا. وفي صحيحة اخرى للكليني عن جميل بن دراج، عن أبي عبد الله (الصادق) (عليه السلام) قال: " الوقوف عند الشبهة خير من اقتحام الهلكة، إن على كل حق حقيقة وعلى كل صواب نورا، فما وافق كتاب الله فخذوه وما خالف كتاب الله فدعوه " (١). ٢ - وقد ورد في بعض الروايات عن أهل البيت (عليهم السلام) أن لكل شئ في الشريعة الاسلامية أصلا في القرآن الكريم، ولكن لا يمكن لعامة الناس أن يفهموه ويرجعوه الى القرآن الكريم، فعن الامام الصادق (عليه السلام) قال: " ما من أمر يختلف فيه اثنان إلا وله اصل في كتاب الله ولكن لا تبلغه العقول " (٢). وسيأتي مزيد من التوضيح لهذا البعد في هذا البحث. ٣ - ارجاع جميع الشروط والالتزامات والعهود والعقود الى القرآن الكريم، بحيث لا يصح أن نقبل أي شئ من هذه الالتزامات والعهود، إذا كان مخالفا للكتاب. وقد ورد هذا المعنى في الاحاديث المروية عن طرق الفريقين وهو أمر متفق عليه بين عامة المسلمين. ففي حديث عن الصادق (عليه السلام): " المسلمون عند شروطهم إلا كل شرط خالف كتاب الله عز وجل فلا يجوز " وفي حديث آخر " وإن كان شرطا يخالف كتاب الله عز وجل فهو رد الى كتاب الله " (٣). ٤ - الرجوع الى الكتاب لتمييز وترجيح أحد الحديثين المختلفين في حالة

---

(١) وسائل الشيعة ١٨: ٨٦ الحديث ٣٥، والصفحة ٨٦ الحديث ٣٧. (٢) المصدر السابق ١٧: ٥٨١ الحديث ٣. (٣) المصدر السابق ١٢: ٣٥٣ الحديث ٢ و ٤. (*)

التعارض وذلك في الموارد التي يكون فيها الحديث مخصصا أو مقيدا أو مبينا للقرآن الكريم، ولكن يوجد ما يعارضه في مضمونه، فإن ما يكون موافقا للعام القرآني واطلاق الكتاب الكريم يكون مقدما ومرجحا على الحديث الاخر. فقد روى سعيد بن هبة الله الراوندي بسنده عن عبد الرحمن بن أبي عبد الله قال: قال الصادق (عليه السلام): " إذا ورد عليكم حديثان مختلفان فاعرضوهما على كتاب الله، فما وافق كتاب الله فخذوه وما خالف كتاب الله فردوه... " (١). كما روى الصدوق في عيون الاخبار بسند صحيح، عن محمد بن عبد الله السمعي، عن احمد بن الحسن الميثمي أنه سأل الرضا (عليه السلام) يوما وقد اجتمع عنده قوم من أصحابه، وقد كانوا يتنازعون في الحديثين المختلفين عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) في الشئ الواحد، فقال - في حديث -: " ما ورد عليكم من خبرين مختلفين فاعرضوهما على كتاب الله، فما كان في كتاب الله موجودا حلالا أو حراما فاتبعوا ما وافق كتاب الله... " (٢). كما إن في الاحاديث التي وردت بصدد البعد الاول ما يؤيد ويؤكد هذا المعنى. النقطة الثانية: نظرة أهل البيت: العامة الى طرق الاثبات: إن من الملاحظ أن أهل البيت (عليهم السلام) قد أكدوا في كثير من الروايات والنصوص أهمية

سلوك طريق العلم والمناهج العلمية في الوصول الى حقائق الاسلام والقرآن. وهنا يمكن أن يثار هذا السؤال وهو أننا نعرف بأن القرآن الكريم تناول هذا الموضوع بشكل واسع في مثل قوله تعالى: (... ان الظن لا يغني من الحق شيئا) (٣)

---

(١) وسائل الشيعة ١٨: ٨٤ الحديث ٢٩. (٢) المصدر السابق: ٨٢ الحديث ٢١. (٣) النجم: ٢٨. (*)

وقوله تعالى (ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسؤولا) (١) وغير ذلك من الايات الكثيرة. كما ان السنة النبوية الثابتة لدى المسلمين جميعا أكدت ذلك أيضا خصوصا في مجال تفسير القرآن، حيث ورد عن النبي (صلى الله عليه وآله): أنه من فسر القرآن برأيه فقد كفر، فما هو السبب في شدة تأكيد أهل البيت هذا الموضوع ؟ وهل هو مجرد انسجام مع القرآن الكريم والسنة النبوية، أو أن الاوضاع التي كان يعيشها المسلمون تقتضي هذا التأكيد ؟ والذي يبدو من خلال مراجعة التأريخ الاسلامي وخصوصا تأريخ تطور (علم الحديث) من ناحية، والظروف التي مر بها العالم الاسلامي في الصدر الاول للاسلام من ناحية اخرى، والنصوص الكثيرة التي وردت عن أهل البيت (عليهم السلام)، أن هناك مجموعة من القضايا والمشاكل والظواهر شهدتها الامة الاسلامية أدت الى هذه الاثارات والتأكيدات من قبل مدرسة أهل البيت، منها: ١ - المنع الذي فرضه الخليفة الثاني عمر على تدوين الحديث - وقد استمر الى عهد الخليفة الاموي عمر بن عبد العزيز مع غض النظر عن تفسير خلفياته وأسبابه - أدى بطبيعة الحال الى ضياع الكثير من السنة النبوية أو عدم ضبطها بشكل مناسب، الامر الذي فتح الباب واسعا أمام حركة (الرأي) و (الظن) و (الاجتهاد) للوصول الى الحكم الشرعي. ٢ - المشكلات الجديدة التي واجهها العالم الاسلامي بسبب الفتح الاسلامي الواسع سواء على المستوى الاجتماعي والاقتصادي، أو الحكم وادارته، أو على مستوى الفرد والجماعة والعلاقات السياسية والتي تحتاج الى معالجة على ضوء الشريعة الاسلامية.

---

(١) الاسراء: ٣٦. (*)

---

٣ - اضفاء الشرعية والحجية - في القول والعمل - على كل من عاصر النبي أو سمع منه ولو لمدة بسيطة أو في الاماكن العامة بحيث يكون مرجعا للمسلمين في الشؤون الدينية، استنادا الى فكرة عدالة جميع هؤلاء الافراد على الاطلاق دون وضع اصول وضوابط في ذلك، مثل: الورع، والضبط، والاستيعاب، والاحاطة بالظروف الحالية والمقالية التي ورد فيها النص، أو حتى الاطلاع على النصوص الاخرى والمعالم المتعددة للسنة النبوية من أقوال وأفعال واقرار، والتي تلقي الضوء على مضمون النص أو تفسيره وتوضيحه وتبيينه، فكان شأن المسلمين حينذاك في كثير من الاحيان شأن من يحاول استنباط الاحكام الشرعية في العصور المتأخرة بمجرد الرجوع الى رواية يجدها في أحد الكتب الحديثة دون الفحص عن الروايات الاخرى أو رجال الحديث الذين رووا هذه الرواية. إن صحبة رسول الله (صلى

الله عليه وآله) شئ مقدس ولها نتائج وإيحاءات روحية ومعنوية عظيمة، ولكن اضفاء هذا العنوان على كل من عاصر رسول الله أو التقى به أو سمع منه، مع أن فيهم (المنافق الذي مرد على النفاق)، و (الاعرابي)، و (الساذج)، أو الذي خلط عملا صالحا بآخر سيئ، أو عرف من الاسلام مجرد مفاهيم عامة وشعارات وطقوس دون أن يدخل الايمان الى قلبه أو يتربى على المعرفة والاخلاق والعقائد والاداب الاسلامية، أو دون أن يعرف التقوى حق المعرفة، أو كان ممن بقيت في اعماقه رواسب العادات والاخلاق الجاهلية والافكار الوثنية. إن وجود مثل هذه الاصناف في المجتمع الاسلامي الذي عاصر الرسول (صلى الله عليه وآله) حقيقة لا يمكن لاحد انكارها، حيث تحدث عنها القرآن الكريم والسنة النب والتأريخ الاسلامي، ودلت على هذه الحقيقة مجمل الاحداث والتصرفات والمواقف والسلوكيات التي صدرت عن هؤلاء المعاصرين.

---

٤ - الاغراض السيئة لبعض الجماعات والافراد التي كان لها مواقع في المجتمع الاسلامي، وخصوصا في العهد الاموي من دون فرق بين الاغراض السياسية، أو النفعية الذاتية، أو الاخلاقية التي تنطلق من الحسد والحقد أو النعرات الجاهلية في الصراعات القبلية الموروثة. إن هذه الاغراض كان لها دور كبير ومهم في ايجاد الفوضى والاضطراب، واستغلال الفراغ الذي تركه عدم تدوين السنة النبوية وعدم تشخيص المرجعية الدينية للمسلمين المتمثلة بأهل البيت (عليهم السلام). ولا نريد بهذه المعالجة أن نشير الى جميع هذه القضايا والمشاكل، ولكن نريد ان نوضح الاوضاع والظروف التي ولدت فيها حركة الرأي والاجتهاد والحدس الذي لا يعتمد على الضوابط والاصول. كما لا نريد هنا أيضا أن نتناول قضية تم بحثها في علم الاصول ترتبط بالادلة الظنية التي أنكرها أئمة أهل البيت (عليهم السلام)، مثل (القياس) و (الاستحسان) و (المصالح المرسلة) و (رأي الصحابي) وغيرها، فإن بحث هذا الموضوع له مجال آخر، وإنما نريد أن نشير هنا الى نقطة محورية في هذا البحث وهي: أن أهل البيت (عليهم السلام) كانوا يرون أن طريق الوصول الى حقائق الاسلام بقي مفتوحا وميسورا من خلالهم، أي من خلال الامام علي (عليه السلام) الذي هو باب مدينة العلم الذي اعتمده النبي (صلى الله عليه وآله) وعلمه القرآن وتفسيره، حيث دون كل هذه المعلومات في صحيفة جامعة، اشتملت على جميع تفاصيل الشريعة حتى ارش الخدش وأحاط بالقرآن الكريم: في المضمون وفي العمق، فهو يعرف ظاهره وباطنه ومحكمه ومتشابهه، وفي نصه وآفاقه، فهو يعرف ناسخه ومنسوخه وعامه وخاصه ومطلقه ومقيده.

وفي الظروف المحيطة به والقرائن الحالية التي اقترنت بنزوله، فهو يعرف في أي وقت نزلت وفي أي الاشخاص والجماعات، ولاجل أي غرض أو هدف. وحتى اولئك الذين يرون صحة الرجوع الى القياس وغيره من الادلة الظنية انما يصح ذلك في رأيهم أو يقولون بحجية هذه الادلة إذا فقدوا الدليل والنص على الحكم الشرعي والمعرفة الاسلامية، أي (إذا انسد باب العلم) الى هذه الحقائق كما يعبر الاصوليون. وأما إذا كانت الفرصة قائمة وموجودة للوصول الى الحكم الشرعي والمعرفة، من خلال طريق العلم ووسائل الاثبات اليقينية فلا يصح ذلك بالاجماع. وهذا ما عناه وأكده أهل البيت (عليهم السلام) في هذه الروايات الكثيرة وهو الذي كان سببا رئيسا في هذا القدر من الانكار والاستنكار على مدرسة الرأي. والايمان بصحة

هذا الامر هو الذي دعا جماعة كبيرة من كبار فقهاء الجمهور في عصور الائمة المختلفة للرجوع الى أهل البيت (عليهم السلام) من أجل أن يعرفوا هذه الحقائق اليقينية، وتأثروا بهم في مختلف مجالات المعرفة وخصوصا في التفسير (١). وهنا نشير الى بعض الروايات التي تعكس هذا التصور والفهم للموقف من قبل أهل البيت (عليهم السلام): ١ - الرواية التي رواها ثقة الاسلام الكليني وكذلك الصدوق في العقائد عن سليم بن قيس والتي تقدمت الاشارة إليها في هذا الموضوع. ٢ - ما رواه ثقة الاسلام الكليني بسند صحيح عن أبي الصباح (الكناني) قال: والله قال لي جعفر بن محمد (عليهما السلام): إن الله علم نبيه (صلى الله عليه وآله) التنزيل والتأويل، فعلمه

---

(١) تناولنا هذا الموضوع في كتابنا " دور أهل البيت في الحياة الاسلامية " الذي نأمل منه تعالى أن يوفقنا لاكماله وطبعه. (*)

رسول الله (صلى الله عليه وآله) عليا (عليه السلام)، ثم قال وعلمنا - والله - الحديث (١). ٣ - عن موسى بن عقبة ان معاوية (بن ابي سفيان) أمر الحسين (عليه السلام) ان يصعد المنبر فيخطب فحمد الله واثنى عليه، ثم قال: نحن حزب الله الغالبون وعترة نبيه الاقربون، وأحد الثقلين اللذين جعلنا رسول الله (صلى الله عليه وآله) ثاني كتاب الله، فيه تفصيل لكل شئ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والمعول علينا في تفسيره لا نتظنى تأويله بل نتبع حقائقه، فأطيعونا فإن طاعتنا مفروضة، إذ كانت بطاعة الله مقرونة. قال الله تعالى: (... أطيعوا الله وأطيعوا الرسول واولي الامر منكم فإن تنازعتم في شئ فردوه الى الله والرسول...) (٢) وقال: (ولو ردوه الى الرسول والى اولي الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم...) (٣). وروى الطبري نحوه في بشارة الاسلام بسنده عن الحسن بن علي (٤). ٤ - وروى الكليني بسند صحيح عن أبي عبيدة (الحذاء) قال: قال أبو جعفر (الباقر) (عليه السلام): " من أفتى الناس بغير علم ولا هدى من الله لعنته ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، ولحقه وزر من عمل بفتياه " (٥). وروى أيضا بسند معتبر في حديث عن أبي الحسن موسى (الكاظم) (عليه السلام)

---

(١) وسائل الشيعة ١٨: ١٣٥ الحديث ١٩. (٢) النساء: ٥٩. (٣) النساء: ٨٣. (٤) وسائل الشيعة ١٨: ١٤٤ الحديث ٤٥. (٥) المصدر السابق: ٩ الحديث ١ ولاحظ أحاديث هذا الباب والتأكيد الذي ورد عن أئمة أهل البيت بعدم الفتيا أو القضاء بغير علم، وأهمية التعلم ووجوبه. (*)

قال: " ما لكم والقياس، انما هلك من قبلكم بالقياس... ثم قال: إذا جاءكم ما تعلمون فقولوا به، وإذا جاءكم ما لا تعلمون فها (وأومأ بيده الى فيه) ثم قال: إن أبا حنيفة كان يقول: قال علي (عليه السلام) وقلت، وقالت الصحابة وقلت، ثم قال: أكنت تجلس إليه ؟ قلت: لا، ولكن هذا كلامه، فقلت: أصلحك الله، أتى رسول الله (صلى الله عليه وآله) الناس بما يكتفون به في عهده ؟ قال: نعم. وما يحتاجون إليه يوم القيامة. فقلت: فضاع من ذلك شئ ؟ فقال لا هو عند أهله " (١). معالم نظرية أهل البيت (عليهم السلام) في التفسير: بعد أن

عرفنا منطلقات أهل البيت (عليهم السلام) إلى القرآن الكريم وتفسيره، يحسن بنا أن نشير الى معالم نظرية أهل البيت في التفسير، حيث يمكن أن نلخصها في المعالم الاربعة التالية: الاول: الوحدة البيانية للقرآن: النظر الى القرآن الكريم كوحدة لفظية وكلامية متكاملة بحيث لا يمكن أن نفهم فقراته أو آياته إلا من خلال النظر الى جميع أبعاد وجوانب هذه الوحدة اللفظية وكذلك الى جميع فقراتها. ويعتمد هذا الفهم للقرآن الكريم على رؤية علمية وواقعية مستنبطة من القرآن الكريم وطبيعة الظروف التي أحاطت بنزوله.

---

(١) وسائل الشيعة ١٨: ٢٣ حديث ٣. راجع أيضا حديث ٥ و١٦ و ١٨ و ٣٣ و ٤١ و ٤٩ وغيرها من أحاديث الباب ٦ من أبواب صفات القاضي ج ١٨. (*)

فالقرآن الكريم كما نعرف هو (... كتاب احكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) (١). فهو (كلام واحد) يعبر عن تصور متكامل وشامل للكون والحياة والدين، ولكن شاءت الحكمة الالهية أن ينزل هذا الكلام بشكل تدريجي و (منجما) لتحقيق أغراض عديدة تحدثنا عنها في محله من علوم القرآن، كما أشار إليه القرآن الكريم نفسه (٢). وقد أحاطت بالنزول التدريجي هذا ظروف وأحداث تلقي الضوء على معانيه وأهدافه من ناحية، وكان لها تأثير في اسلوب العرض والبيان والمقاصد أحيانا اخرى. فقد يأتي البيان في البداية (عاما) لمصلحة سياسية أو تربوية أو لرسم الاساس الفكري والمنطلقات النظرية، ثم يأتي تخصيص هذا (العام) وبيان الاستثناءات التي تقتضيها المصالح السياسية أو الاجتماعية، خصوصا إذا اخذنا بنظر الاعتبار أن بعض هذه التخصيصات جاءت من السنة النبوية الشريفة، وهو شئ يقبله جمهور علماء الاسلام استنادا لقوله تعالى: (... ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا...) (٣). أو يثبت القرآن الكريم موقفا سياسيا أو حكما شرعيا مراعيا تطور الدعوة والرسالة وحركتها في أرض الواقع، ثم (ينسخ) ذلك الموقف والحكم بعد أن تتغير الظروف وتتطور لصالح تثبيت حكم آخر أكثر انسجاما مع تطور المرحلة واستقرار الكيان السياسي أو الاوضاع الاجتماعية (٤).

---

(١) هود: ١. (٢) تحدثنا عن هذه الظاهرة وأغراضها في أبحاث علوم القرآن الصفحة... (٣) الحشر: ٧. (٤) تحدثنا عن تفسير النسخ وأهدافه وكذلك الغرض من العموم والخصوص والاطلاق والتقييد في أبحاث علوم القرآن، راجع الصفحة... (*)

ومن هنا فلا يمكن أن يفهم القرآن الكريم بشكل صحيح دون الاحاطة الكاملة بكل هذه الابعاد والجوانب (العام والخاص) و (الناسخ والمنسوخ)... وفي جانب آخر اقتضت الحكمة الالهية في نزول القرآن الكريم أن يكون مشتملا على الايات (المحكمة) التي هي أم الكتاب والاخرى (المتشابهة) التي لا بد من ارجاعها الى الايات المحكمة لفهمها والاستفادة منها (١) حيث تعتمد عملية تقريب الصورة للمعاني القرآنية واحاطتها بالابعاد المتعددة للمعنى على هذه الايات المتشابهة إضافة الى أن طبيعة المداليل اللفظية تقبل الاحتمالات المتعددة - كما سوف نشير إليه في بحث قريب - الامر الذي يفرض التشابه في الكلام ومن ثم يمكن تحديد الصورة وفهمها بشكل كامل من خلال الرجوع الى المحكمات أو المقارنة بين المتشابهات

المتعددة. وعلى هذا الاساس كان يوجه أهل البيت الانتقاد الى اولئك المفسرين الذين كانوا يمارسون عملية التفسير دون هذه الاحاطة. ففي رواية رواها البرقي في المحاسن عن أبي الوليد البحراني ثم البحري، عن أبي جعفر (عليه السلام)، أن رجلا قال له: أانت الذي تقول ليس شئ من كتاب الله إلا معروف ؟ " قال: ليس هكذا قلت. إنما قلت: ليس شئ من كتاب الله إلا عليه دليل ناطق عن الله في كتابه مما لا يعلمه الناس... الى ان قال: إن للقرآن ظاهرا وباطنا ومعانيا وناسخا ومنسوخا ومحكما ومتشابها وسننا وامثالا وفصلا ووصلا

---

(١) ذكرنا السبب في اشتمال القرآن الكريم على الايات المتشابهة في بحث المحكم والمتشابه. (*)

وأحرفا وتصريفا، فمن زعم ان الكتاب مبهم فقد هلك وأهلك... " (١).
الثاني: الاحاطة بظروف النص القرآني: الاحاطة الكاملة بجميع ظروف النص القرآني سواء على مستوى الاحداث والوقائع التي اقترن بها نزول النص القرآني وما يسمى بـ " أسباب النزول "، أو على مستوى العادات والتقاليد التي كان يعيشها المجتمع الجاهلي خصوصا في مكة والمدينة، أو على مستوى الاوضاع السياسية والاخلاقية التي كان يعيشها المسلمون أنفسهم. إذ من الواضح أن القرآن الكريم، في الوقت الذي يمثل الكتاب الالهي الذي جاء لتبيان رسالة الامة الخاتمة، كذلك يمثل الكتاب الذي استهدف تغيير الامة التي نزل في أوساطها من الاميين وأبناء ام القرى بشكل مباشر من اجل أن يخلق قاعدة قوية ثابتة قادرة على تحمل أعباء الرسالة ومسؤولية ابلاغها وإيصالها الى الامم والناس جميعا (٢). ولذلك نجد القرآن الكريم راعى الظروف والاوضاع السياسية والاجتماعية والنفسية والعادات والتقاليد التي كان يعيشها المجتمع الجاهلي، ولم يأت مجردا عن كل هذه الظروف، فهي بطبيعة الحال تلقي بظروفها على فهم القرآن الكريم ومقاصده، وفهمها ومعرفتها له دور كبير في فهم القرآن وتفسيره. إضافة الى أن فرز وتمييز المعاني أو الجوانب المرتبطة بالاحداث خصوصا عن غيرها من المفاهيم ذات الطبيعة الشمولية تحتاج الى هذه الاحاطة والاستيعاب الكامل لكل هذه الظروف، وهذا ما يؤكده أهل البيت (عليهم السلام) في بعض الروايات

---

(١) وسائل الشيعة ١٨: ١٤١ الحديث ٣٩، ١٤٢ الحديث ٤٠ و ٤٢، وص ١٣٨ الحديث ٣١ و ٣٨. (٢) أوضحنا هذه الفكرة في كتابنا (الهدف من نزول القرآن الكريم). (*)

من خلال بيان معرفتهم بزمان نزول الايات ومن نزلت فيه و... (١)، فإن هذا التأكيد لا يراد منه مجرد بيان سعة علمهم بالاحداث، وانما لبيان ارتباط ذلك بفهم القرآن وتفسيره. الثالث: الاعتماد على السنة الصحيحة في التفسير: الاخذ المباشر في التفسير عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) والاعتماد على السنة النبوية، وتعليم رسول الله القواعد والضوابط التي يمكن من خلالها تفسير القرآن وفهمه ومعرفة مقاصده وأغراضه، كل تلك الامور شدد أهل البيت (عليهم السلام) على الالتزام بها في أحاديثهم انطلاقا من نقطتين رئيستين: الاولى: ما أشرنا إليه من تعليم رسول الله (صلى الله

عليه وآله) عليا (عليه السلام) تفسير القرآن بشكل كامل، إضافة الى النصوص السابقة التي أشرنا إليها، نجد بعض النصوص تؤكد هذا المعنى بشكل خاص. الثانية: إن القرآن الكريم والسنة النبوية قد استوعبا كل القضايا التي يحتاجها الانسان في حياته، لانهما يمثلان الرسالة الخاتمة للبشرية ولا بد لهما من هذا الاستيعاب، ولذلك فلا بد من الرجوع اليهما في كل هذه القضايا، وعدم جواز الاخذ بالرأي والقياس والاجتهاد والظنون. غاية الامر أن الناس العاديين ليس لهم القدرة على فهم القرآن والسنة بالشكل الذي يستوعب كل هذه القضايا، أو لم يتلقوا من الرسول (صلى الله عليه وآله) كل هذه الامور كما ذكرنا في النقطة الاولى. ومن هنا نجد أهل البيت (عليهم السلام) يؤكدون هذه الشمولية والاستيعاب للقرآن الكريم والسنة النبوية، ويرفضون أي طريق آخر للوصول الى الاحكام الشرعية، ولا يسمحون حتى لاصحابهم أن يسلكوا الطرق الاجتهادية، كالقياس من دون

---

(١) راجع النص السابق الذي رواه الكليني عن سليم بن قيس. (*)

فرق في ذلك بين الاستناد الى الاحاديث العامة أو الاحاديث الخاصة التي عرفوها عن أئمتهم. فقد روى الكليني بسند صحيح عن أبي عبد الله (الصادق) (عليه السلام)، قال: " إن الله تبارك وتعالى أنزل في القرآن تبيان كل شئ حتى - والله - ما ترك شيئا يحتاج إليه العباد، حتى لا يستطيع عبد أن يقول: لو كان هذا انزل في القرآن ؟ إلا وقد أنزله الله فيه " (١). وفي حديث آخر معتبر عن أبي عبد الله قال: سمعته يقول: " ما من شئ إلا وفيه كتاب وسنة " (٢). ويتحدث أهل البيت (عليهم السلام) عن وجود صحيفة جامعة عند علي (عليه السلام) تشتمل على تفاصيل الشريعة وقواعدها واصولها: روى الكليني بسنده عن أبي شيبة، قال: " سمعت أبا عبد الله (الصادق) (عليه السلام) يقول ضل علم (ابن شبرمة)، عندنا (الجامعة) املاء رسول الله (صلى الله عليه وآله) وخط علي (عليه السلام) بيده: إن (الجامعة) لم تدع لاحد كلاما، فيها علم الحلال والحرام، إن أصحاب القياس طلبوا العلم بالقياس فلم يزدادوا من الحق إلا بعدا، إن دين الله لا يصاب بالقياس " (٣). ويؤكد أهل البيت (عليهم السلام) أن حلال محمد حلال الى يوم القيامة، وحرامه حرام الى يوم القيامة، فلا بد أن يكون كل ذلك مذكورا ومعروفا من قبل رسول الله: روى الكليني بسند معتبر عن زرارة، قال: سألت أبا عبد الله (الصادق) (عليه السلام) عن الحلال والحرام، فقال: " حلال محمد حلال أبدا الى يوم القيامة، وحرامه حرام أبدا الى يوم القيامة، لا يكون غيره ولا يجئ غيره وقال: قال علي (عليه السلام):

---

(١) الكافي ١: ٥٩ الحديث ١. (٢) المصدر السابق، الحديث ٤. (٣) المصدر السابق: ٥٧، الحديث ١٤ وص ٢٣٨، الحديث ١ وص ٢٤١، الحديث ٥ و ٦ و ٧. (*)

ما أحد ابتدع بدعة إلا ترك بها سنة " (١). الرابع: القرآن تحدث عن كل عصر وزمان: إن القرآن الكريم حي لا يموت، تجري أحكامه وأمثاله ومفاهيمه في جميع الازمان والعصور، فهو وإن كان قد نزل في عصر معين وعالج قضايا وأحداثا خاصة، وتحدث عن أشخاص معينين

ماضين أو معاصرين في القصص، أو أحداث نزول الرسالة وتطورها مما يرتبط بأسباب النزول، وبنى قاعدة بشرية قوية من خلال هذه المعالجة تحملت أعباء الرسالة الاسلامية - كما أشرنا سابقا - إلا أن القرآن - مع ذلك كله - هو الكتاب الالهي للرسالة الخاتمة والمعجزة الخالدة للاسلام ونبيه الكريم، يتحدث الى جميع الناس في مختلف العصور والازمان. وفي هذا المجال توجد نظرة شمولية يتميز بها أهل البيت (عليهم السلام)، فإنه بالرغم من أن أكثر علماء الاسلام ذهبوا الى مبدأ " إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب " ومن ثم فهم يرون أن خصوص السبب لا يتقيد بخصوص الاحداث والوقائع التي تحدث عنها أو نزل فيها، لان جميع هذه القضايا انما جاء بها القرآن الكريم للعبرة والهداية والموعظة، كما دلت على ذلك الايات الكريمة: (لقد كان في قصصهم عبرة لاولي الالباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شئ وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) (٢). (هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين) (٣). (ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفورا) (٤).

---

(١) الكافي ١: ٥٨ الحديث ١٩ راجع أيضا الحديث ١ و ٢ و ٣. (٢) يوسف: ١١١. (٣) آل عمران: ١٣٨. (٤) الاسراء: ٨٩. (*)

حيث نلاحظ أن القرآن الكريم ضرب الامثال وتحدث عن الاحداث والوقائع بروح التربية والتزكية والهداية، فكما ان هذا المثل له مصاديقه في عصر النزول، فهو له مصاديق (يؤول) إليها في العصور الاخرى. وكما ان قصة نوح وابراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الانبياء تمثل حقائق عاصرها الانبياء، ولم يذكرها القرآن الكريم لمجرد التسلية أو تسجيل حوادث التأريخ وتوثيقها، بل لانها تمثل أيضا حقائق وقعت في عصر نزول القرآن، فكذلك هي - في نظر أهل البيت (عليهم السلام) - تمثل حقائق متشابهة ومطابقة لها في العصور والازمنة الاخرى التي تلت عصر الرسالة الاسلامية، وفي كل عصر وزمان. وهكذا الحال في الاحكام الشرعية والاخلاق الاسلامية والسنن التأريخية والحقائق الكونية كلها تتحدث عن مصاديق ونظائر ومفردات وتطبيقات لعصر الرسالة، بل ولكل عصر وزمان. ونحن هنا لا نريد ان نفصل في الاستدلال على صحة هذه (الرؤية) فإن لذلك مجالا آخر، وانما نريد هنا أن نذكر الجانب (التصوري) لهذه (النظرية) من خلال ما ذكره أهل البيت (عليهم السلام). ولعل هذا المعلم يمثل أحد أهم المعالم التي تتميز بها (رؤية) أهل البيت لتفسير القرآن الكريم بشكل واضح وأساسي عن بقية النظريات في المذاهب الاسلامية. نظرية أهل البيت (عليهم السلام) في فهم القرآن الكريم: لقد تناول هذا الموضوع عدد كبير من الروايات التي وردت عن أهل البيت (عليهم السلام)، كما ورد بعضها عن النبي (صلى الله عليه وآله)، وذكرت في كتب علماء أهل السنة، الامر الذي يؤكد أهمية الموضوع ودقته.

كما أننا نلاحظ أيضا في هذه الروايات أنها متفاوتة في مضامينها بحيث قد تبدو أحيانا وكأنها متناقضة أو متضاربة أو مختلفة، وفي نفس الوقت اختلفت آراء العلماء في تفسيرها والاخذ منها حتى تباينت واضطربت. وقد تركز البحث فيها حول موضوعين رئيسين: احدهما: بحث (المحكم والمتشابه) والتفسير والتأويل الذي دار حول

الاية السابعة من سورة آل عمران، وهي قوله تعالى: (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن ام الكتاب واخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا اولوا الالباب) (١). والاخر: بحث (التفسير بالرأي) الذي ورد النهي عنه في أحاديث مسلمة عند المسلمين، وجاء فيها الوصف بالكفر لمن صنع ذلك في القرآن الكريم، حيث وقع الخلاف في تحديد معنى (الرأي) هذا. ولعل من أفضل الابحاث استيعابا وتحليلا واختصارا وفائدة هو ما ذكره العلامة الطباطبائي (قدس سره) في كتابه " الميزان في تفسير الميزان " والذي استنبط فيه النظرية القرآنية التي تبناها أهل البيت (عليهم السلام) في هذا المجال واستند فيها الى الايات الشريفة والسنة النبوية المروية عن النبي وأهل بيته الكرام (٢). ومن أجل أن تتضح صورة هذا المعلم من التفسير، نشير الى مجموعة من الروايات والنصوص التي تدل أو تشير الى وجود مستويين من تفسير القرآن والاخذ منه: الاول: تفسير القرآن على مستوى الظاهر أو المحكم أو التنزيل... حسب ما

---

(١) آل عمران: ٧. (٢) راجع الميزان ٣: ١٩ - ٨٧ لمعرفة تفصيل حديثه. (*)

ورد في التعبير عنه في هذه النصوص. الثاني: التفسير على مستوى الباطن أو المتشابه أو التأويل... حيث يبدو من هذه النصوص وغيرها أن المستوى الاول من التفسير يمكن تناوله لعامة الناس، بعد الاحاطة الكاملة بالقرآن الكريم ومفاهيمه وآياته. وأما المستوى الاخر من التفسير فهو مما اختص به النبي (صلى الله عليه وآله) وأهل بيته الكرام. وهذا المستوى (الكامل) يمكن أن نراه في أحد الخطوط التالية التي أشارت إليها الروايات والاحاديث من هذه الطائفة: أ - المعلومات القرآنية التي تجري مجرى المعلومات الغيبية في مستقبل الاحداث التي تمر بالانسان والحياة، والتي يمكن استنباطها من القرآن الكريم. ب - المعلومات المرتبطة بتفاصيل الشريعة الاسلامية ذات العلاقة بالموضوعات الشرعية التي تناولها القرآن الكريم، أو التي لها علاقة بالامور المستجدة والمستحدثة في الحياة الاسلامية، والتي تعلمها الامام علي (عليه السلام) وأولاده الائمة المعصومون من رسول الله (صلى الله عليه وآله). ج - التطبيق الدقيق للمفاهيم والسنن والاحداث التي أشار إليها القرآن الكريم والتشخيص الكامل للمصاديق والمفردات الخارجية لها، والتي (تؤول) إليها الاوضاع الاجتماعية والسياسية في حركة المجتمع الاسلامي في مختلف العصور والازمنة. د - التمثيل والتشبيه للمضامين القرآنية والامثال والمفردات التي وردت في القرآن الكريم، نظير الامثلة التي ضربها القرآن الكريم مفهوميا، أو من خلال الاشارة لاحداث سابقة بشكل ينطبق على أحداث الرسالة، حيث قام الائمة أيضا بضرب هذه الامثلة من خلال النصوص القرآنية وتطبيقها على أحداث كانت في عصر الرسالة أو بعدها، فإن علم هذا النوع من التفسير مختص بالنبي

والائمة من أهل بيته عليهم الصلاة والسلام. وهنا نشير الى مجموعة من الروايات ذات العلاقة بهذه الطائفة من الاخبار: ١ - روى

محمد بن الحسن الصفار في بصائر الدرجات بسند معتبر عن فضيل ابن يسار، قال: سألت أبا جعفر (عليه السلام) عن هذه الرواية: ما من القرآن آية إلا ولها ظهر وبطن، قال: ظهره وبطنه تأويله، ومنه ما قد مضى ومنه ما لم يكن، يجري كما تجري الشمس والقمر كلما جاء تأويل شئ يكون على الاموات كما يكون على الاحياء، قال الله: (وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم) (١) نحن نعلمه (٢). ٢ - روى الصفار أيضا في بصائر الدرجات بسند معتبر (٣) عن اسحاق بن عمار قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: إن للقرآن تأويلا، فمنه ما قد جاء، ومنه ما لم يجئ، فإذا وقع التأويل في زمان إمام من الائمة عرفه إمام ذلك الزمان (٤). ٣ - عن جميل بن دراج، عن زرارة، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: تفسير القرآن على سبعة أوجه، منه ما كان، ومنه ما لم يكن بعد، تعرفه الائمة (عليهم السلام) (٥). ٤ - روى الصدوق في معاني الاخبار بسنده عن حمران بن أعين قال: سألت أبا جعفر (عليه السلام) عن ظهر القرآن وبطنه، فقال: ظهره الذين نزل فيهم القرآن، وبطنه الذين عملوا باعمالهم، يجري فيهم ما نزل في اولئك (٦).

---

(١) آل عمران: ٧. (٢) وسائل الشيعة ١٨: ١٤٥ الحديث ٤٩. (٣) اعتبار السند لان المرزبان بن عمر روى عنه صفوان بن يحيى فيكون معتمدالان صفوان من الثلاثة التي أجمعت الصحابة على تصحيح ما يصح عنهم، كما ذكر الشيخ الطوسي في العدة وهم محمد بن أبي عمير وأحمد بن محمد بن أبي نصر وصفوان بن يحيى. (٤) وسائل الشيعة ١٨: ١٤٥ الحديث ٤٧. (٥) المصدر السابق: ١٥٤ الحديث ٥٠. (٦) بحار الانوار ٩٢: ٨٣ الحديث ١٤. (*)

ملاحظات واستنتاجات عامة: وفي ختام هذا الحديث يحسن بنا أن نسجل بعض الملاحظات العامة والاستنتاجات حول مجموع ما ورد عن أهل البيت (عليهم السلام) بشأن تفسير القرآن: الملاحظة الاولى: توثيق الروايات سندا ومضمونا: إن هذه الروايات التي وردت عن أهل البيت (عليهم السلام) تحتاج الى بحث علمي دقيق طبقا للضوابط والاصول المحققة في علم الحديث. ذلك أن حديث أهل البيت قد تعرض الى مجموعة من المشاكل الاساسية والمهمة التي ألقت بثقلها على هذه الروايات، باعتبار أهمية القرآن الكريم من ناحية والارتباط الوثيق بينه وبين أهل البيت من ناحية ثانية، وتعرض القرآن الى التفسير بالرأي لتحقيق أغراض سياسية أو ذاتية أو لمجرد ضعف التقوى والايمان والتساهل في الدين، أو لاي سبب آخر من الاسباب التي أشرنا إليها سابقا من ناحية ثالثة. ثم تصدى أهل البيت باعتبار شعورهم بالمسؤولية تجاه الاسلام والامة الاسلامية لكل هذه القضايا، وما تعرضت له الامة الاسلامية من مشكلات ثقافية أو عقائدية أو سياسية. ويمكن أن نلخص أهم هذه المشكلات التي تعرض لها حديث أهل البيت (عليهم السلام) بالامور التالية: ١ - الدس والوضع والتزوير في حديثهم، حيث تعرض حديثهم لذلك في زمن الائمة فضلا عن العصور المتأخرة عنهم، ويمكن أن نلاحظ هذه الظاهرة بوضوح من خلال مراجعة ترجمة بعض الاشخاص في كتب الرجال، ولعل من أطرف الروايات في هذا المجال ما رواه الكشي عن محمد بن عيسى بن عبيد، عن يونس ابن عبد الرحمن، قال ابن عبيد: " إن بعض أصحابنا سأل يونس بن عبد الرحمن

وأنا حاضر، فقال له يا أبا محمد ما أشدك في الحديث، وأكثر أنكارك لما يرويه أصحابنا، فما الذي يحملك على رد الاحاديث ؟ ! فقال: حدثني هشام بن الحكم أنه سمع أبا عبد الله (الصادق) (عليه السلام) يقول: " لا تقبلوا علينا حديثا إلا ما وافق القرآن والسنة أو تجدون معه شاهدا من أحاديثنا المتقدمة، فإن المغيرة بن سعيد لعنه الله دس في كتب أصحاب أبي أحاديث لم يحدث بها أبي، فاتقوا الله ولا تقولوا علينا ما خالف قول ربنا تعالى وسنة نبينا محمد (صلى الله عليه وآله) فانا إذا حدثنا قلنا: قال الله عز وجل وقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) " (١). " قال يونس: وافيت العراق فوجدت بها قطعة من أصحاب أبي جعفر (الباقر) (عليه السلام) ووجدت أصحاب أبي عبد الله (عليه السلام) متوافرين، فسمعت منهم وأخذت كتبهم، فعرضتها من بعد على أبي الحسن الرضا (عليه السلام) فأنكر منها أحاديث كثيرة أن يكون من أحاديث أبي عبد الله (عليه السلام)، وقال لي: ان أبا الخطاب كذب على أبي عبد الله (عليه السلام)، لعن الله أبا الخطاب، وكذلك أصحاب أبي الخطاب، يدسون في هذه الاحاديث الى يومنا هذا في كتب أبي عبد الله (عليه السلام)، فلا تقبلوا علينا خلاف القرآن، فإنا إن تحدثنا حدثنا بموافقة القرآن وموافقة السنة... " (٢). ٢ - الغلو والتطرف في حب أهل البيت (عليهم السلام) والاعتقاد بهم، حيث كان لهذه الحركة السياسية والعقائدية أسبابها وظروفها المختلفة السياسية والاجتماعية والنفسية والثقافية، وانعكست على الاخبار في فهمها أو تزويرها وتحريفها. وكتب رجال الحديث فيها عدد من تراجم من كان يرمى بالغلو، أو ممن طردهم أئمة أهل البيت من حوزتهم ومصاحبتهم وأعلنوا البراءة منهم. ٣ - الانحرافات والانشقاقات التي كانت تحصل في جماعة أتباع أهل البيت،

---

(١) بحار الانوار ٢: ٢٤٩. (٢) رجال الكشي: ١٤٦. (*)

بسبب الظروف السياسية أو الاخلاقية والاجتماعية، كما حصل في ظهور الزيدية والاسماعيلية والواقفية وغيرهم، حيث استمرت هذه الظاهرة الى زمن الامام الحسن العسكري (عليه السلام) وبعده. ٤ - ظروف الاضطهاد والمطاردة والسرية في العمل والحركة، الامر الذي كان سببا مهما لاختفاء البيانات الواقعية أو للدس والتزوير تحت شعار (التقية) (١) حيث استغل أعداء أهل البيت أو الفاسدون من الاشخاص الذين يتظاهرون بالارتباط بهم هذه الظروف، لتمرير الكثير من الاحاديث أو تشويهها وتزويرها. ٥ - التعصب والنصب والعداء وعمليات كتمان الحقائق أو التشويه وإلصاق التهم الباطلة ونشر الاشاعات، حيث كان كل ذلك سببا لنشر الكثير من الاحاديث ووضعها وتضليل البسطاء من المسلمين بها، وقد أشرنا سابقا الى أن هذا العداء والتعصب كان سببا لكتمان الكثير من أسباب النزول المرتبطة بأهل البيت (عليهم السلام). ٦ - عدم الدقة النقل أو سوء الفهم والتلقي والاخذ عن الائمة، ولذلك نجد (عليهم السلام) يؤكدون الضبط وأهميته من ناحية وأن في أحاديثهم المحكم والمتشابه من ناحية اخرى، كما سوف نوضح ذلك. ٧ - الجمود على نصوص الالفاظ وفصلها بعضها عن بعض. ٨ - ضياع الكثير من القرائن الحالية والمقالية التي كانت تقترن بالروايات والاحاديث وتوضح المقصود منها (٢).

---

(١) بحثنا موضوع التقية في كتابنا " الوحدة الاسلامية من منظور الثقلين " وبحث التقية في نظر الشيخ المفيد، حيث وضع أهل البيت ضوابط لتمييز موارد التقية عن

غيرها. (٢) للمزيد من الاطلاع والوضوح راجع بحث سيدنا الاستاذ الشهيد (قدس سره) في بحوث علم الاصول، تقريرات آية الله السيد محمود الهاشمي ٧: ٢٨.... وكذلك كتب الرجال مثل كتاب الخلاصة للعلامة الحلي، قسم الضعفاء. (*)

إن هذه الطوائف والاخبار يجب أن تخضع للبحث والتمحيص والغربلة العلمية سواء على مستوى السند أو المضمون والدراية، وكذلك الى المقارنة بين بعضها وبعضها الاخر لمعرفة المحكم من المتشابه منها، والعام من الخاص، والمطلق من المقيد، والراجح من المرجوح، الى غير ذلك من الموازين العلمية. وهنا لا بد أن نشير الى أنه لا يوجد في (مدرسة أهل البيت) (عليهم السلام) (حديث) لا يقبل الدرس والمناقشة والتمحيص إلا النادر من الاحاديث المتواترة، ولذلك فهم يخضعون كل هذه الاحاديث وغيرها مهما كانت الكتب التي دونتها أو الرجال الذين رووها الى الدرس والتمحيص. نعم يوجد اتجاه بين العلماء من الاخباريين من يحاول أن يضفي صفة الاعتبار والصحة على الكتب الاربعة المعروفة، وهي الكافي للشيخ الكليني، ومن لا يحضره الفقيه للشيخ الصدوق، والتهذيب والاستبصار للشيخ الطوسي، ولكن الاتجاه العام والسائد عند علماء مدرسة أهل البيت لا يقبل مثل ذلك (١). ومن هذا المنطلق نجد سيدنا الاستاذ الشهيد الصدر (قدس سره) يرفض الاخبار التي تقول بأن فهم القرآن مختص بأئمة أهل البيت (عليهم السلام) بعد أن يسلم دلالتها، لانها مخالفة للقرآن الكريم والسنة النبوية القطعية، ولان رواتها ضعفاء متهمون بالغلو (٢). ولكن العلامة الطباطبائي - كما عرفنا - يحاول أن يؤول هذه الاخبار بأنها بصدد بيان أن (الائمة) لهم دور التعليم والدلالة الى طريق التفسير، لا ان القرآن لا يفهمه إلا الائمة من أهل البيت (عليهم السلام) ولكننا يمكن أن نحمل هذه الروايات على انهم (عليه السلام) بمستوى خاص من التفسير. الملاحظة الثانية: التفسير مفهوم واسع:

(١) راجع معجم رجال الحديث للسيد الخوئي ١: ٢٢ - ٣٦. (٢) بحوث في علم الاصول ٤: ٢٨٤. (*)

ان التفسير في نظر أهل البيت له مفهوم واسع يشمل فهم الظهور القرآني، كما يشمل معرفة المصاديق والامثلة والتفاصيل المرتبطة بالقرآن الكريم، سواء كانت في قصص الانبياء أو الامثال المضروبة أو الاحكام التفصيلية للشريعة، أو الاحداث التي اقترنت بنزول القرآن الكريم، أو التطبيقات التي يمكن أن تتحقق في مستقبل الايام، كما أوضحنا ذلك قبل الحديث عن الملاحظات. وهذا الفهم للتفسير يعتمد على عدة منطلقات - أشرنا إليها سابقا - مثل تعرض القرآن وبيانه لكل شئ (١)، وكذلك ثبوت تفسير النبي (صلى الله عليه وآله) للقرآن الكريم بهذا الشكل الواسع وتعليمه للامام علي (عليه السلام) بشكل خاص (٢)، أو ارتباط بقاء القرآن الكريم حيا ونورا هاديا على مر العصور والاجيال بهذا الفهم الواسع للتفسير (٣). وهذا الفهم لشمولية التفسير لا ينافي أيضا ما عرفناه في بعض الاخبار والنصوص من هداية القرآن وأ نه مبين وبيان وهداية ورحمة، وقد حث أئمة أهل البيت على الاخذ به والرجوع إليه والعرض عليه، فإن ذلك لا شك أمر قائم وموجود في القرآن، حيث يمكن للناس في كل عصر وزمان أن يفهموا ظاهره ومحكماته، ويتعرفوا على مصاديقه بالمقدار الذي آتاهم الله من العلم والفهم وما اكتسبوه من التعلم واتصفوا به

من الطهارة، ولا يجب أن يعرف كل واحد من الناس جميع الابعاد والوجوه الاخرى. خصوصا إذا عرفنا انه لا يوجد أي منافاة بين الظاهر والباطن أو المحكم والمتشابه، أو التنزيل والتأويل، بل كل واحد من الظاهر والمحكم والتنزيل يدل على الباطن والمتشابه والتأويل بنحو من الدلالة، غاية الامر أن بعض هذه الدلالة

---

(١) الانعام: ٣٨، ويوسف: ١١١، والاسراء: ١٢، والنحل: ٨٩، وغيرها. (٢) راجع فصل مرجعية أهل البيت في هذا البحث. (٣) راجع الروايات التي ذكرناها سابقا عند التعرض لنظرية أهل البيت في التفسير. (*)

لا يعلمها إلا الله تعالى والراسخون في العلم بعد ان علمهم الله تعالى إياها، أو بما وفقهم إليه من الطهارة والنقاوة والمعرفة. وشأن ذلك شأن الحوادث المستجدة أو المكتشفات العلمية الحديثة أو الموضوعات الشرعية الجديدة الحادثة التي يمكن أن نفهم مضمونها والاشارة إليها أو الى حكمها من القرآن الكريم مع أنها لم تكن معلومة سابقا، وكانت بالنسبة لانسان عصر النزول من عوالم الغيب وعرفها اللاحقون فكانت من عالم الشهود، فمعرفة كل ذلك يمثل تفسيرا للقرآن الكريم كان يعلمه أهل البيت (عليهم السلام). أو شأن ذلك شأن تأويل الاحاديث الذي أشار إليه القرآن الكريم في قصة يوسف (عليه السلام)، حيث أمكن ليوسف أن يفهم من الرؤيا التي رآها الملك هذا المعنى الخاص الذي يمثل باطنا للصورة الظاهرية التي انعكست في ذهنه عند الرؤيا، فالبقرات العجاف والسنابل اليابسة هي سنين القحط، والبقرات السمان والسنابل الخضراء هي سنين الرخاء، وكذلك الرؤيا التي رآها السجينان في السجن ومداليلها الباطنية. الملاحظة الثالثة: التأويل في نظر القرآن وأهل البيت (عليهم السلام): ان أهل البيت (عليهم السلام) ركزوا بشكل واضح في هذه الروايات - على اختلافها - على قضية التأويل والظاهر والباطن، وهذا الموضوع مما أجمع المسلمون على صحته ونسبته للقرآن الكريم وإن اختلفوا في تحديد مفهومه. ومن أجل أن تتضح الفكرة الاساسية في نظرية أهل البيت بشكل أفضل، بحيث تنسجم مع ما ورد في القرآن الكريم من نصوص من ناحية ومع المضمون الاجمالي للروايات السابقة من ناحية اخرى، يحسن بنا أن نقف عند كلمة (التأويل) بعض الشئ، ويمكن من خلالها أن نفهم الباطن والمتشابه أيضا إضافة

الى التوضيحات التي قدمها العلامة الطباطبائي في بحثه السابق (١). لقد اختلف علماء الاسلام والقرآن بشكل خاص حول تحديد المقصود من كلمة التأويل خصوصا المعنى المصطلح لها، ونحن هنا لا نريد أن نعالج الجانب الاصطلاحي ولا حتى الجانب اللغوي المفهومي لها، إذ يمكن معرفة ذلك من خلال بحثنا السابق في التفسير والتأويل. وإنما نريد أن نعالج هنا مدلول الكلمة قرآنيا على مستوى (تفسير المعنى) وتشخيص المصداق، من خلال مراجعة الايات الشريفة التي وردت في القرآن الكريم وسياقها. وفي هذا المجال يمكن أن نرى أمامنا إرادة المصاديق التالية من القرآن الكريم: ١ - في سورة يوسف الايات (٦ و ٢١ و ٣٦ و ٣٧ و ٤٤ و ٤٥ و ١٠٠ و ١٠١) حيث يبدو منها أنها وردت في بيان تفسير وتأويل الاحلام والرؤى في المنام، بمعنى بيان مصاديقها وتجسيداتها الخارجية. ٢ -

في سورة الكهف الايتان (٧٨ و ٨٢) حيث يراد بالتأويل منهما بيان سلامة وصحة سلوك (العبد الذي آتاه الله من لدنه علما) وانسجامه مع الحق والعدل والمصلحة، مع انه كان يبدو بحسب الظاهر الذي كان يراه موسى (عليه السلام) (٢) أنه غير منسجم مع الشرع والمصلحة العقلائية، ولذا أثار استغرابه وتعجبه وتساؤله. ٣ - في سورة يونس الاية (٣٩) جاء التأويل فيها بمعنى تحقق ما ذكره القرآن الكريم من تصديق الرسالات السابقة وتفاصيل الشريعة والرسالة، وما يمكن أن يتحقق في مسيراتها بعد ذلك من أحداث.

---

(١) راجع الميزان ٣: ٨٠ - ٨٧. (٢) لم يصرح القرآن أن موسى هو النبي موسى (عليه السلام)، ولكن المفسرين يستظهرون ذلك إذ لم يأت في القرآن ذكر لموسى آخر غير النبي، مع أنه تحدث كثيرا عن موسى النبي. (*)

---

٤ - في سورة الاعراف الاية (٥٣) جاء التأويل فيها بمعنى تحقق ما أخبر به الكتاب أو القرآن الكريم بما يقع يوم القيامة من العذاب والثواب ومصائر الناس، حيث يصدق الانسان ما جاءت به الرسل عن الله تعالى من حقائق هذا اليوم. ٥ - في سورة آل عمران الاية (٧) جاء التأويل فيها بمعنى الاخذ بالمتشابه بتطبيقه على أحد مصاديقه التي تؤدي الى الفتنة والزيغ، بدون الرجوع الى المحكم من القرآن لتشخيص المصداق الصحيح. ٦ - في سورة النساء الاية (٥٩) جاء التأويل فيها بمعنى بيان الموضوع أو تشخيص نوع الحكم الشرعي عند الاختلاف فيه. ٧ - في سورة الاسراء الاية (٣٥) جاء التأويل فيها بمعنى الالتزام بالضوابط والموازين في تشخيص الحقائق ومعرفة المقادير. وإذا أردنا أن نجمع بين مصاديق هذه الموارد نرى بوضوح أن التأويل هو بيان الحقيقة والواقع الذي يغيب عن نظر الانسان عادة، كالامور الغيبية أو الدقيقة التي قد يحصل الاختلاف فيها، وإن كان هناك ما يدل عليها ويومئ إليها مثل الرؤى والصور في المنام، أو الاخبارات الغيبية بواسطة الوحي الالهي، أو الافعال الصادرة عن أهل العلم والحكمة والدين، أو الموازين والضوابط الشرعية، كالرجوع الى مصدر الشريعة والمرجع فيها، أو الموازين العقلائية كاستخدام الكيل أو الوزن لمعرفة المقادير. ويؤكد هذ الفهم لمعنى التأويل الاحاديث الواردة عن أهل البيت (عليهم السلام)، حيث تشير أيضا الى أن التأويل في الغالب هو تطبيق مفاهيم القرآن على المصاديق المستقبلية، كما يفهم ذلك من رواية الفضيل بن يسار المعتبرة، ورواية المرزبان عن اسحاق بن عمار المعتبرة أيضا، ورواية زرارة عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) والتي مرت الاشارة إليها.

أو يكون التأويل هو اتباع الضوابط في تشخيص موارد الاختلاف والوجوه المتعددة، مثل رواية العياشي عن عبد الرحمن السلمي: " ان عليا مر على قاض فقال له أتعرف الناسخ من المنسوخ، قال: لا. قال: هلكت وأهلكت، تأويل كل حرف من القرآن على وجوه " (١). أو رواية النعماني في تفسيره عن اسماعيل بن جابر في قول الصادق (عليه السلام): " ذلك بأنهم ضربوا القرآن بعضه ببعض واحتجوا بالمنسوخ وهم يظنون أنه، الناسخ واحتجوا بالخاص وهم يقدرون أنه العام، واحتجوا بأول الاية وتركوا السنة في تأويلها، ولم ينظروا الى ما يفتح الكلام والى ما يختمه... " (٢). وكذلك حديث أبي داود عن أنس بن مالك، عن النبي (صلى الله عليه وآله): " يا علي أنت تعلم

الناس تأويل القرآن مما لا يعلمون، فقال علي: على ما ابلغ رسالتك من بعدك يا رسول الله ؟ قال: تخبر الناس بما يشكل عليهم من تأويل القرآن " (٣). إذن فالتأويل عملية تطبيق وتشخيص تنسجم مع الظاهر والتنزيل والمحكم، وتعتمد على المعلومات والقواعد والضوابط العامة أو الخاصة التي يتلقاها الانسان الصالح من الله تعالى، كما في قوله تعالى: (... وما فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا) (٤). وكذلك قوله تعالى في أول سورة يوسف:

---

(١) وسائل الشيعة ١٨: ١٤٩، الحديث ٦٥. (٢) المصدر السابق: الحديث ٦٢. (٣) المصدر السابق: ١٤٤، الحديث ٤٦. (٤) الكهف: ٨٢. (*)

(وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الاحاديث...) (١). وقوله تعالى في وسطها: (قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمني ربي...) (٢). وقوله تعالى في آخرها: (رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الاحاديث فاطر السماوات والارض...) (٣). أو تعتمد على الضوابط والقوانين والقواعد اللغوية أو القرائن الحالية والمقالية أو المعلومات العلمية أو الحسية أو الشرعية أو الطبيعية أو غير ذلك من قوانين العلم والتوثيق. الملاحظة الرابعة: اختصاص أهل البيت (عليهم السلام) بهذا العلم: أن أهل البيت (عليهم السلام) وهم رسول الله محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وآله) والصديقة الزهراء والائمة الاثنا عشر (عليهم السلام) يختصون من بين المسلمين بامتيازات كثيرة، أحدها هي أنهم يعلمون تنزيل القرآن وتأويله وظاهره وباطنه ومحكمه ومتشابهه. ومع غض النظر عن مصدر هذا العلم (٤) فانه لا بد أن نشير في هذا المجال الى عدة نقاط:

---

(١) يوسف: ٦. (٢) يوسف: ٣٧. (٣) يوسف: ١٠١. (٤) يوجد بحث كلامي وروائي في أن هذا العلم هل هو من باب التلقي عن الرسول (صلى الله عليه وآله)، أو من باب الالهام والالقاء من الله تعالى، أو من باب العلم بالغيب الذي اطلع الله تعالى بعض عباده عليه، أو هو من جميع هذه المصادر ولا يهمنا الان الدخول في هذا البحث. (*)

الاولى: إن المراد من اختصاصهم بهذا العلم كما هو مقتضى الجمع بين هذه الروايات هو اختصاص العلم بـ)جميع) تفسير القرآن و (كل) القرآن بهذا المعنى الواسع الذي أشرنا إليه، لا أن القرآن لا يفهمه غير أهل البيت (عليهم السلام)، ولذا جاء التعبير بهذا الاختصاص مقرونا - أحيانا - بكلمة (كل) و (جميع) (١)، وجاء هذا التعبير مقرونا - أحيانا اخرى - ببيان تفصيل أبعاد هذا العلم (٢). وهذا المعنى لا ينافي - كما ذكرنا - أن يكون القرآن هاديا للبشرية ولجميع الناس، حيث يمكن للناس أن يفهموا القرآن ويرجعوا إليه فيما يعرفونه من معانيه، وفق الضوابط والقوانين العلمية الصحيحة. الثانية: أن أهل البيت في الكثير من هذه الروايات كانوا يحاولون معالجة الواقع الخطير الذي كان عليه بعض المفسرين للقرآن الذين اعتمدوا على الرأي والظنون دون الرجوع الى الضوابط العلمية والسنة المروية والعترة الطاهرة التي جعلها النبي الاكرم مرجعا للمسلمين والثقل الاخر الذي لا يفترق عن القرآن الكريم. فأهل البيت انكروا على بعض المسلمين العدول عن العلم الى الظن، وهذا غير جائز باجماع

المسلمين. الثالثة: أن من الطبيعي أن يكون أهل البيت (عليهم السلام) لهم هذا النوع من الاختصاص إذا أخذنا التفسير بمعناه الواسع الذي أشرنا إليه. فكما صح أن يكون هذا النوع من الاختصاص ليوسف (عليه السلام) وهو من أنبياء بني اسرائيل، أو يكون لعبد من عباد الله الصالحين آتاه الله العلم والمعرفة، يمكن أن يكون هذا الامر للائمة الطاهرين وهم ورثة النبي في علمه.

---

(١) الكافي ١: ٢٢٨، الحديث ١ و ٢ وص ٢٢٩، الحديث ٥ وص ٢٥٧، الحديث ٣. (٢) وسائل الشيعة ١٨: ١٣٥، الحديث ٢٣ وص ١٣٦، الحديث ٢٥ وص ١٤١، الحديث ٣٩. (*)

وهذا النوع من المعلومات لا دليل على وجود قواعد وضوابط يمكن من خلالها الاطلاع عليها وتعلمها - كما يحاول أن يذهب الى ذلك العلامة الطباطبائي - بل قد تكون هي من الامور الغيبية التي يكون علمها عند الله - تعالى - وهو الذي يلقيها ويعلمها للانبياء، أولهم وللاوصياء والاولياء الذين يختارهم - تعالى - ويصطفيهم عندما تقتضي حكمته ذلك، أو يحجبها عنهم عند اقتضاء الحكمة ذلك. ولعل هذا هو وجه الجمع بين الالتزام بالوقف على قوله تعالى: (... لا يعلم تأويله إلا الله...) (١) وبين قوله تعالى: (لا يمسه إلا المطهرون) (٢). فالراسخون في العلم لا يعلمون التأويل الذي هو من الغيب بل يؤمنون به و (... يقولون آمنا به كل من عندنا ربنا...) (٣)، ولكنهم في نفس الوقت يعلمون التأويل بتعليم الله تعالى لهم عندما يكونوا من المطهرين كما أشار الى ذلك العلامة الطباطبائي نفسه. فأهل البيت (عليهم السلام) يختصون بعلم (جميع) تفسير القرآن، وهذا الاختصاص أمر طبيعي بعد أن كان هذا الجانب من العلم من الامور الغيبية التي علمهم الله - تعالى - إياها. كما أنهم في نفس الوقت يشاركون الناس، بل أهل المعرفة بالعلم بظواهر القرآن الكريم، بل هم أحد الضوابط والموازين المهمة في هذه المعرفة العامة للناس وبهذا يمكن أيضا أن نجمع بين روايات اختصاص تفسير القرآن بأهل البيت (عليهم السلام) وما ورد من الايات والروايات التى تدل على ان القرآن ميسر الفهم لجميع الناس. حيث يكون القرآن ميسرالفهم طبقا للضوابط العامه للغة التى

---

(١) آل عمران: ٧. (٢) الواقعة: ٧٩. (٣) آل عمران: ٧. (*)

يمكن للعلماءأن يعرفوها. ولكن في - الوقت نفسه يكون هناك جانب من الاختصاص يرتبط بتطبيق مفاهيم القرآن على الامور الغيبة وتفاصيل الشريعة و غيرها كما أشار إلى ذالك العلامة الطباطبايى، فلا نحتاج إلى رد هذه الروايات بسبب مخالفتها للقرآن كما قد يفهم ذالك من الشهيد الصدر في بحوثه الاءصوليه التى أشرنا إليها.

القسم الرابع التفسير الموضوعي القصص القرآني. فواتح السور. استخلاف آدم (الانسان).

---

[٣٤٣]

التفسير الموضوعي تمهيد: التعريف بالتفسير الموضوعي: حين نريد أن نلاحظ الدراسات التفسيرية منذ العصور الاسلامية الاولى نجد بينها اختلافا كثيرا في الانطباعات، وتفاوتا كبيرا بالموضوعات ذات العلاقة في البحوث القرآنية، حيث نرى بعض المفسرين يتجه الى تأكيد الجوانب اللغوية واللفظية في النص القرآني، وبعضهم الاخر يتجه الى تأكيد الجانب التشريعي والفقهي من القرآن، وبعض آخر يتجه الى تأكيد الجانب العقيدي أو الاخلاقي أو العلمي التجريبي أو الجانب العرفاني منه، وهكذا بالنسبة الى بقية الموضوعات القرآنية كالقصة وغيرها. وبالرغم من هذا الاختلاف الكبير لا نكاد نجد اختلافا مهما في منهج الدراسة والبحث، ذلك أنهم اعتادوا على أن ينهجوا في البحث طريقة تفسير الايات القرآنية بحسب تسلسل عرضها في القرآن الكريم، وتنتهي مهمة تفسيرها عند تحديد معنى الاية موضوع البحث مع ملاحظة بعض ظروف السياق أو بعض الايات الاخرى المشتركة معها في نفس الموضوع، ويمكن أن نسمي هذا المنهج بالتفسير التجزيئي أو الترتيبي للقرآن الكريم. نعم نلاحظ ان مجموعة من الايات اهتم المفسرون بها بشكل خاص لوجود قاسم مشترك بينها، كآيات الاحكام أو القصص القرآني أو الايات الناسخة والمنسوخة أو غيرها، ولكن لم تدرس كموضوع مستقل بل باعتبار وجود الجامع

---

[٣٤٤]

والخصوصية المشتركة. وفي وقت متأخر من تأريخ علم التفسير أخذت تنمو بوادر منهج جديد في التفسير أو البحث القرآني، يقوم على أساس محاولة استكشاف النظرية القرآنية في جميع المجالات: العقيدية والفكرية والثقافية والتشريعية والسلوكية من خلال عرضها في مواضعها المختلفة من القرآن الكريم. فحين نريد أن نعرف رأي القرآن الكريم في (الالوهية)، يستعرض هذا المنهج الجديد الايات التي جاءت تتحدث عن هذا الموضوع في مختلف المجالات وفي جميع المواضع القرآنية، سواء في ذلك ما يتعلق بأصل وجود الاله أو بصفاته وحدوده، ومن خلال هذا العرض العام والمقارنة بين الايات، وحدودها نستكشف النظرية القرآنية في (الاله). ونظير هذا الموقف يتخذه في كل المفاهيم والنظريات أو بعض الظواهر القرآنية، فيبحث عن (الاسرة) أو (التقوى) أو (الامر بالمعروف والنهي عن المنكر) أو (المجتمع) أو (الجهاد) أو (فواتح السور) أو (القصص القرآني) أو (الانسان) أو غير ذلك من الموضوعات القرآنية. وقد يقتصر البحث على مقطع قرآني واحد لان القرآن لم يعرض لموضوع البحث إلا في هذا المقطع، ومع ذلك نجد هذا الاختلاف بين المنهج الجديد والمنهج السابق في دراسة هذا المقطع الواحد، حيث تكون مهمة المنهج الجديد استخلاص الفكرة والنظرية من خلال هذا المقطع دون المنهج السابق. فالتفسير الموضوعي - إذن - يقوم على أساس دراسة موضوعات معينة تعرض لها القرآن الكريم في مواضع متعددة أو في موضع واحد، وذلك من أجل تحديد النظرية القرآنية بملامحها وحدودها في الموضوع المعين، ومن أجل أن يتضح المراد من التفسير الموضوعي يحسن بنا أن نفهم مصطلح الموضوعية، كما شرحه

استاذنا الشهيد الصدر (قدس سره) فقد ذكر ثلاثة معان لمصطلح الموضوعية: أولا: (الموضوعية) في مقابل (الذاتية) و (التحيز)، والموضوعية بهذا المعنى عبارة عن الامانة والاستقامة في البحث (١)، والتمسك بالاساليب العلمية المعتمدة على الحقائق الواقعية في نفس الامر والواقع، دون أن يتأثر الباحث بأحاسيسه ومتبنياته الذاتية ولا أن يكون متحيزا في الاحكام والنتائج التي يتوصل إليها. وهذه (الموضوعية) أمر صحيح ومفترض في كلا المنهجين (التجزيئي) و (الموضوعي) ولا اختصاص لاحدهما بها. ثانيا: (الموضوعية) بمعنى أن يبدأ في البحث من (الموضوع)، الذي هو (الواقع الخارجي) ويعود الى (القرآن الكريم) (٢) لمعرفة الموقف تجاه الموضوع الخارجي. " فيركز] المفسر في منهج التفسير الموضوعي [نظره على موضوع من موضوعات الحياة العقائدية أو الاجتماعية أو الكونية، ويستوعب ما أثارته تجارب الفكر الانساني حول ذلك الموضوع من مشاكل، وما قدمه الفكر الانساني من حلول، وما طرحه التطبيق التأريخي من أسئلة ومن نقاط فراغ، ثم يأخذ النص القرآني... ويبدأ] معه [حوارا، فالمفسر يسأل والقرآن يجيب... وهو يستهدف من ذلك أن يكتشف موقف القرآن الكريم من الموضوع المطروح... " (٣). وقد سمى هذا المنهج أيضا بالمنهج (التوحيدي) " باعتبار أنه يوحد بين (التجربة البشرية) و (القرآن الكريم) لا بمعنى أنه يحمل التجربة البشرية على القرآن... بل بمعنى أنه يوحد بينهما في سياق بحث واحد لكي يستخرج نتيجة هذا السياق... المفهوم القرآني الذي يمكن أن يحدد موقف الاسلام تجاه هذه التجربة أو

---

(١) المدرسة القرآنية، الدرس الثاني: ٢٩. ط. بيروت. (٢) المصدر نفسه: ٢٨. (٣) المصدر نفسه: ١٩. (*)

المقولة الفكرية " (١). ثالثا: وقد يراد من (الموضوعية) ما ينسب الى الموضوع، حيث يختار المفسر موضوعا معينا ثم يجمع الايات التي تشترك في ذلك الموضوع فيفسرها، ويحاول استخلاص نظرية قرآنية منها فيما يخص ذلك الموضوع. ويمكن أن يسمى مثل هذا المنهج منهجا توحيديا أيضا " باعتبار انه يوحد بين هذه الايات ضمن مركب نظري واحد " (٢). ولا شك أن المعنى الاول ليس موضوع البحث، إذ لا يختلف التفسير الموضوعي عن التفسير التجزيئي في ضرورة توفر هذا الوصف فيه، ويبقى عندنا المعنى الثاني والثالث. وقد خضع هذا المنهج في البحث لقانون التطور الذي يحدث عادة في مناهج البحث فمر بمراحل متعددة، حيث قام المنهج القديم للتفسير بدور الحضانة له ثم بلغ رشده وانفصل عنه، فإذا بالموضوعات القرآنية المتخلفة تتخذ صفة البحث المستقل عن (الهيكل العام للتفسير القديم). حاجة العصر الى التفسير الموضوعي (٣): لقد عرف الاسلام في أنظمته وتشريعاته طريقه الى المجتمع في بداية الامر من خلال التطبيق، وذلك لان الجانب الاجتماعي من الاسلام لم يطرحه الرسول

---

(١) المدرسة القرآنية، الدرس الثاني: ٢٨. (٢) المصدر نفسه. (٣) لمعرفة مزيد من أهمية التفسير الموضوعي وميزاته تراجع المدرسة القرآنية للشهيد الصدر (قدس سره) - الدرس الاول والثاني، وكراس محاضرات في تفسير القرآن (مقدمة التفسير) لمؤلف هذا الكتاب. (*)

الاعظم (صلى الله عليه وآله) كنظريات عامة ومبادئ دستورية عن المجتمع وعلاقاته المختلفة، ثم جاء التشريع والتقنين بناء فوقيا لها ليشمل جميع مناحي الحياة، وانما طرحه الرسول الاعظم (صلى الله عليه وآله) في كثير من الاحيان من خلال التقنين والتشريع وبيان الاحكام المختلفة في قضايا المجتمع التفصيلية. ومن هنا لا نجد البحث الموضوعي النظري يدخل في الشريعة الاسلامية الا في العصور المتأخرة من تأريخ المسلمين، لان المجتمع الاسلامي كان يباشر التطبيق للقانون الاسلامي على أساس أنه تشريع واحكام من قبل الله سبحانه لا بد من الالتزام بها ضمن نطاقها المعين وفي حدودها الخاصة، بلا حاجة الى معرفة النظرية التي يقوم عليها الحكم الشرعي، وكيفية معالجتها لمشاكل الحياة الاجتماعية. ويكاد يختص هذا الامر بالشريعة فقط دون الجانب العقيدي للاسلام، فانه كان ولا يزال مجالا للبحث النظري بسبب أن جانب التطبيق فيه هو فهم النظرية والايمان بها، وهذا ما فعله رسول الله (صلى الله عليه وآله) فأنه طرح في العقيدة النظرية الاسلامية بشكلها العام. وحين انحسر الاسلام عن التطبيق في مجتمع المسلمين وواجه النظريات المذهبية المختلفة ظهرت الحاجة الملحة الى البحث الموضوعي القرآني في مختلف المجالات، لان الاسلام أصبح بحاجة الى أن يعرض ك)نظرية) مذهبية جاء بها الرسول محمد (صلى الله عليه وآله) عن طريق الوحي، وذلك من أجل مواجهة النظريات المذهبية الاخرى، ومن أجل أن يتضح مدى صلاحيته لمعالجة مشاكل الحياة المعاصرة وصلته بتلك النظريات المذهبية، كما أن فهم الاسلام ك (نظرية) عامة هو الذي ييسر لنا سبيل ان نتبناه نظاما للحياة، ندافع عنه ونكافح من أجل تطبيقه وصيانته. فالحاجة الى التفسير الموضوعي في هذا العصر تنبع - في الحقيقة - من الحاجة الى عرض الاسلام ومفاهيم القرآن عرضا نظريا، يتكفل الاساس الذي تنبثق

منه جميع التفصيلات والتشريعات الاخرى، حيث من الممكن ان نستكشف النظريات العامة من خلال التشريع والقانون الاسلامي لوجود الارتباط الوثيق بين النظرية والتطبيق (١). الموضوعات التي عرض لها القرآن اجمالا وطريقته في هذا العرض: لقد عرض القرآن الكريم الى موضوعات كثيرة، حيث تناول في ما تعرض له أكثر الجوانب الفكرية والثقافية المرتبطة بالحياة والكون والمجتمع سواء، ما يتعلق منها بالعقيدة أو بالتشريع أو بالاخلاق أو الحكم والعلاقات الاجتماعية أو التأريخ أو غير ذلك من الجوانب الاخرى. وهنا نشير الى فهرست عام للنقاط الرئيسة التي تناولها القرآن الكريم، علما بأن أكثر هذه النقاط تتفرع الى نقاط اخرى وموضوعات ثانوية تصلح للبحث الموضوعي والدرس العلمي، وهذه النقاط هي كالتالي: الالوهية، أفعال الله، عالم الغيب، الانسان قبل الدنيا، الانسان في هذه الدنيا، الانسان بعد هذه الدنيا، الاخلاق الانسانية، التشريع الاسلامي، الكون والحياة، وحركة الدعوة الاسلامية. وتتناول النقطة الاولى: كل المعلومات التي ترتبط باسماء الله سبحانه وصفاته من الحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر وغيرها. وتتناول النقطة الثانية: كل المعلومات التي ترتبط بالخلق والارادة والامر والمشيئة والهداية والاضلال والقضاء والقدر والجبر والتفويض والرضا والسخط والحب وغيرها. وتتناول النقطة الثالثة: كل المعلومات التي ترتبط بالحجب واللوح والقلم

(١) راجع بهذ الصدد " اقتصادنا " لاستاذنا السيد محمد باقر الصدر (قدس سره) ٢: ١٦. (*)

والعرض والكرسي والبيت المعمور والسماء والارض والملائكة والشياطين والجن، وغير ذلك. وتتناول النقطة الرابعة: كل المعلومات التي ترتبط بآدم وكيفية خلقه وخلافته وخلق ابليس وعلاقته بآدم وذريته وحياته في الجنة مع زوجه وغيرها. وتتناول النقطة الخامسة: كل المعلومات التي ترتبط بتأريخ الانسان ومزاجه النفسي والروحي والعقلي والقوانين الاجتماعية العامة التي تتحكم في سلوكه وعلاقاته وحركته الاجتماعية والتأريخية، ومدى صلته بالسماء وأساليب هذه الصلة من النبوة والوحي والالهام والدين والكتاب والشريعة، وجميع صفات الانبياء التي تستنبط من قصصهم. وتتناول النقطة السادسة: كل المعلومات التي ترتبط بالبرزخ والمعاد والجنة والنار... وتتناول النقطة السابعة: كل المعلومات التي ترتبط بالقيم والمثل والصفات التي يجب أن يتحلى بها الانسان والتي ترتفع به في عالم الانسانية وتوصله الى الكمال المنشود، وكذلك الامثال والمواعظ التي لها دور في تربية هذا الانسان وتكميله وتوجيهه. وتتناول النقطة الثامنة: كل المعلومات التي ترتبط بالشريعة الاسلامية بجوانبها الاقتصادية والاجتماعية والفردية والتجارية والحربية وغيرها (١). وتتناول النقطة التاسعة: كل المعلومات المرتبط بالسماء والارض والجبال والماء والحيوان والنبات والمطر والرياح، والعوالم التي تحيط بهذا الانسان في هذا الكون الواسع. وتتناول النقطة العاشرة: كل الاحداث التي واجهها النبي والمسلمون، والمواقف

(١) راجع بهذا الصدد الميزان، مقدمة تفسير الميزان: ١١. (*)

التي اتخذها القرآن الكريم تجاهها، وكذلك الاثارات والاسئلة والشبهات والمشكلات التي كانت تطرح من قبل أعداء الرسالة أو المسلمين أنفسهم ومعالجتها والتطورات والمراحل التي مرت بهذه الرسالة والقضايا ذات العلاقة ببناء القاعدة الانسانية الثورية التي حملت أعباء الرسالة بعد ذلك. وقد سلك القرآن الكريم لتبيان هذه الموضوعات منهجا فريدا يكاد يتميز عن سائر مناهج الكتب الدينية الاخرى حيث نرى أنه لا تكاد تمر سورة من القرآن الكريم أو جزء منه إلا وقد تناول الكثير من هذه الموضوعات، باسلوب غاية في التناسق والربط والانسجام. كما نجد القرآن الكريم - من ناحية اخرى - يعمل على ايضاح بعض المفاهيم والافكار غير المادية (الغيبية) عن طريق الامثلة والصور المادية، ليقرب بذلك (الفكرة) الى ذهن الانسان الذي لا يدرك إلا من خلال هذه الصور ويحدد الفكرة عن طريق تكرار الامثلة وتكثير الصور، لتخلص مما قد يعلق بها من شوائب المادة وحدودها، كما أشرنا الى ذلك في بحث المحكم والمتشابه. ونحن نعرف أن الهدف الاساس الذي استهدفه القرآن الكريم في نزوله هو التربية والتغيير الاجتماعي لا التثقيف والتعليم فحسب، ولذا نجد الاسلوب القرآني يخضع في جميع مراحله الى هذا الهدف ويأتي بهذا الشكل الذي قد يبدو متداخلا ولكنه يؤدي الى الغاية والهدف، وقد أوضحنا في بعض أبحاثنا السابقة جوانب متعددة من هذه الطريقة في

العرض والبيان. وباعتبار أن موضوعات القرآن الكريم واسعة وكثيرة، لذا سوف نختار في بحثنا هذا بعض النماذج من الموضوعات لبحث التفسير، حيث نكون على معرفة من هذا المنهج من خلال التطبيق أولا، والاستفادة من المضمون العلمي لهذه الموضوعات ثانيا، وقد اخترنا الموضوعات التالية لاهميتها في بحث علوم القرآن:

---

١ - القصص القرآني. ٢ - فواتح السور المقطعة. ٣ - خلافة الانسان.

القصص القرآني الفرق بين القصص القرآني وغيره: يختلف القصص القرآني عن غيره من القصص في ناحية أساسية هي ناحية الهدف والغرض الذي جاء من أجله، ذلك أن القرآن الكريم لم يتناول القصة لانهاعمل (فني) مستقل في موضوعه وطريقة التعبير فيه، كما انه لم يأت بالقصة من أجل التحدث عن أخبار الماضين وتسجيل حياتهم وشؤونها - كما يفعل المؤرخون - وانما كان عرض القصة في القرآن الكريم مساهمة في الاساليب العديدة التي سلكها لتحقيق أهدافه وأغراضه الدينية التي جاء الكتاب الكريم من أجلها، بل يمكن أن نقول: ان القصة هي من أهم هذه الاساليب. فالقرآن الكريم - كما عرفنا في وقت سابق عند الحديث عن الهدف من نزول القرآن - رسالة دينية قبل كل شئ تهدف بصورة أساسية الى عملية التغيير الاجتماعي بجوانبها المختلفة، هذه العملية التي وجدنا بعض مظاهرها وآثارها في طريقة نزول القرآن التدريجي وفي طريقة عرض المفاهيم المختلفة، وفي ربط نزول القرآن بالاحداث والوقائع والاسئلة، وفي اسلوب القرآن في القصر والايجاز، أو المزج بين الصور والمشاهد المتعددة، الامر الذي أدى الى نشوء كثير من الدراسات القرآنية، عرفنا منها الناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه والمكي والمدني وغيرها. لذا فلا بد لنا - حين نريد أن ندرس القصة القرآنية - أن نضع أمامنا هذا الهدف

القرآني العام لنتعرف من خلاله على الاسلوب الذي اتبعه القرآن الكريم في عرضه القصة القرآنية مساهمة منه في تحقيق هذا الهدف. أغراض القصة في القرآن الكريم (١): لقد جاءت القصة في القرآن الكريم لتساهم في عملية التغيير الانساني بجوانبها المتعددة، فما هي الاغراض ذات الاثر الرسالي التي استهدفتها القصة القرآنية ؟ وبهذا الصدد نجد القصة القرآنية تكاد تستوعب في مضمونها وهدفها جميع الاغراض الرئيسة التي جاء من أجلها القرآن الكريم (٢)، ونظرا لكثرة هذه الاغراض تشعبها نجد من المستحسن أن نقتصر في عرضنا لاغراض القصة في القرآن على الاغراض القرآنية المهمة، لنتعرف - من خلال ذلك - أهمية ذكر القصة في القرآن الكريم والفوائد التي تترتب عليها: أ - اثبات الوحي والرسالة: ان ما جاء به القرآن الكريم لم يكن من عند محمد (صلى الله عليه وآله) وانما هو وحي أوحاه الله تعالى إليه وأنزله هداية للبشرية.

(١) راجع في بحث أغراض القصة ما كتبه سيد قطب في كتابه " التصوير الفني في القرآن ": ١٢٠ - ١٤١، وما سجله السيد رشيد رضا في مواضع مختلفة من كتابه " تفسير المنار ". (٢) يمكن ان نقسم الاغراض القرآنية للقصة الى قسمين رئيسين: أولا: الاغراض ذات المدلول الموضوعي، كمحاولة القرآن الكريم من وراء سرد القصة اثبات صحة النبوة أو اثبات وحدة الرسالات الالهية أو شرح بعض القوانين والسنن التأريخية التي تتحكم في مسيرة المجتمع الانساني. ثانيا: الاغراض ذات المدلول الذاتي التربوي، كمحاولة القرآن الكريم من وراء سرد القصة تربية الانسان على الايمان بالغيب أو خضوعه للحكمة الالهية أو التزامه بالاخلاق الاسلامية والاعتبار أو الاقتداء بسيرة الماضين. (*)

وقد أشرنا الى هذا الهدف القرآني من القصة عند بحثنا لاعجاز القرآن الكريم حيث عرفنا: أن حديث النبي محمد (صلى الله عليه وآله) عن اخبار الامم السالفة وأنبيائهم ورسلهم بهذه الدقة والتفصيل والثقة والطمأنينة، مع ملاحظة ظروفه الثقافية والاجتماعية كل ذلك يكشف عن حقيقة ثابتة وهي تلقيه هذه الانباء والاخبار من مصدر غيبي مطلع على الاسرار وما خفي من بواطن الامور، وهذا المصدر هو الله سبحانه وتعالى. وقد نص القرآن الكريم على أن من أهداف القصة هو هذا الغرض السامي، وذلك في مقدمة بعض القصص القرآنية أو ذيلها، فقد جاء في سورة يوسف: (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن وان كنت من قبله لمن الغافلين) (١). وجاء في سورة القصص بعد عرضه لقصة موسى: (وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا الى موسى الامر وما كنت من الشاهدين * ولكنا انشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاويا في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين * وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون) (٢). وجاء في سورة آل عمران في مبدأ قصة مريم: (ذلك من انباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم ايهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون) (٣). وجاء في سورة (ص) قبل عرضه لقصة آدم: (قل هو نبأ عظيم * انتم عنه

(١) يوسف: ٣. (٢) القصص: ٤٤ - ٤٦. (٣) آل عمران: ٤٤. (*)

معرضون * ما كان لي من علم بالملاء الاعلى إذ يختصمون * ان يوحى إلي الا انما أنا نذير مبين) (١). وجاء في سورة هود بعد قصة نوح: (تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ان العاقبة للمتقين) (٢). فكل هذه الايات الكريمة وغيرها تشير الى أن القصة انما جاءت في القرآن تأكيدا لفكرة الوحي التي هي الفكرة الاساس في الشريعة الاسلامية. ب - وحدة الدين والعقيدة لجميع الانبياء: اكدت القصة أن الدين كله من الله سبحانه وان الاساس للدين الذي جاء به الانبياء المتعددون هو أساس واحد لا يختلف بين نبي وآخر، فالدين واحد ومصدر الدين واحد أيضا وجميع الانبياء امة واحدة تعبد هذا الاله الواحد وتدعو إليه. وهذا الغرض من الاهداف الرئيسة للقرآن الكريم حيث يهدف القرآن من جملة ما يهدف إليه ابراز الصلة الوثيقة بين الاسلام الحنيف وسائر الاديان الالهية الاخرى التي دعا إليها الرسل والانبياء الاخرون، ليحتل الاسلام منها مركز الخاتمية التي يجب على الانسانية أن تنتهي إليها، ويسد الطريق على الزيغ الذي يدعو الى التمسك بالاديان السابقة على أساس أنها حقيقية موحاة من قبل الله تعالى.

إضافة الى ذلك تظهر الدعوة على انها ليست بدعا في تأريخ الرسالات وانما هي وطيدة الصلة بها في أهدافها وأفكارها ومفاهيمها: (قل ما كنت بدعا من الرسل...) (٣)، بل انها تمثل امتدادا لهذه الرسالات الالهية وتلك الرسالات تمثل

---

(١) ص: ٦٧ - ٧٠. (٢) هود: ٤٩. (٣) الاحقاف: ٩. (*)

الجذر التأريخي للرسالة الاسلامية، فهي رسالة أخلاقية وتغييرية لها هذا الامتداد في التأريخ الانساني ولها هذا القدر من الانصار والمضحين والمؤمنين. وعل اساس هذا الغرض تكرر ورود عدد من قصص الانبياء في سورة واحدة ومعروضة بطريقة خاصة، لتؤكد هذا الارتباط الوثيق بينهم في الوحي والدعوة التي تأتي عن طريق هذا الوحي، ولنضرب لذلك مثلا ما جاء في سورة الانبياء (١): (ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرا للمتقين * الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون * وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون ؟). (ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين * إذ قال لابيه وقومه ما هذه التماثيل التي انتم لها عاكفون * قالوا: وجدنا آباءنا لها عابدين) الى قوله (وأرادوا به كيدا فجعلناهم الاخسرين * ونجيناه ولوطا الى الارض التي باركنا فيها للعالمين * ووهبنا له اسحاق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين * وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات، واقام الصلاة وايتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين). (ولوطا آتيناه حكما وعلما ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث انهم كانوا قوم سوء فاسقين * وأدخلناه في رحمتنا انه من الصالحين). (ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا انهم كانوا قوم سوء فاغرقناهم اجمعين). (وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين. ففهمناها سليمان - وكلا آتينا حكما وعلما - وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين * وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل انتم شاكرون ؟).

---

(١) الانبياء: ٤٨ - ٨٢. (*)

(ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره الى الارض التي باركنا فيها وكنا بكل شئ عالمين * ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حافظين). (وايوب إذ نادى ربه اني مسني الضر وانت ارحم الراحمين فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين). (واسماعيل وادريس وذا الكفل كل من الصابرين * وادخلناهم في رحمتنا انهم من الصالحين). (وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن ان لن نقدر عليه فنادى في الظلمات ان لا اله الا انت سبحانك اني كنت من الظالمين * فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين). (وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرني فردا وانت خير الوارثين * فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه انهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين). (والتي احصنت فرجها فنفخنا فيها

من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين). (ان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاعبدون) (١). ويبدو أن القرآن الكريم يريد أن يشير الى الغرض الاصيل من هذا الاستعراض لقصص الانبياء بالاية الخاتمة المعبرة عن هذه الوحدة العميقة الجذور في القدم للامة المؤمنة بالاله الواحد، وتأتي بقية الاغراض الاخرى في ثنايا هذا الغرض. ومثال آخر يوضح وحدة العقيدة الاساسية التي استهدفها الانبياء في تأريخهم الطويل وفي نضالهم المتواصل، هذه العقيدة التي تدعو الى الايمان بالله سبحانه الها واحدا لا شريك له في ملكه، وذلك ما جاء في سورة الاعراف:

---

(١) الانبياء: ٨٣ - ٩٢. (*)

(لقد ارسلنا نوحا الى قومه فقال: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره...) (١). (والى عاد اخاهم هودا قال: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره...) (٢). (والى ثمود اخاهم صالحا قال: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره...) (٣). (والى مدين اخاهم شعيبا قال: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره...) (٤). فالاله واحد والعقيدة واحدة والانبياء امة واحدة والدين واحد وكله لواحد هو الله سبحانه. ج - تشابه طرق الدعوة والمجابهة: من اغراض القصة بيان ان وسائل الانبياء وأساليبهم في الدعوة واحدة وطريقة مجابهة قومهم لهم واستقبالهم متشابهة، وان القوانين والسنن الاجتماعية التي تتحكم في تطور الدعوة وسيرها واحدة أيضا، فالانبياء يدعون الى الاله الواحد ويأمرون بالعدل والاصلاح والناس يتمسكون بالعادات والتقاليد البالية ويصر على ذلك أصحاب المنافع الشخصية والاهواء الخاصة بشكل خاص، والطواغيت والجبابرة منهم بشكل أخص. وتبعا لهذه الاهداف ترد قصص كثيرة من الانبياء مجتمعة مكررة فيها طريقة الدعوة على نحو ما جاء في سورة هود: (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه: إني لكم نذير مبين * ان لا تعبدوا الا الله اني أخاف عليكم عذاب يوم أليم * فقال الملا الذين كفروا من قومه ما نراك الا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم

---

(١) الاعراف: ٥٩. (٢) الاعراف: ٦٥. (٣) الاعراف: ٧٣. (٤) الاعراف: ٨٥. (*)

كاذبين) الى ان يقول: (ويا قوم لا أسألكم عليه مالا ان اجري الا على الله...) والى ان يقولوا له: (... يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين) (١). (والى عاد اخاهم هودا قال: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ان انتم الا مفترون * يا قوم لا اسألكم عليه أجرا ان أجري الا على الذي فطرني أفلا تعقلون ؟) الى قوله: (قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين * ان نقول: الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال: إني أشهد الله واشهدوا اني برئ مما تشركون * من دونه فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون) (٢). (والى ثمود اخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره هو انشأكم من الارض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه ان ربي قريب مجيب *

قالوا: يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا واننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب) (٣). ومثل هذه المواقف نجدها في سورة الشعراء أيضا. د - النصر الالهي للانبياء: بيان نصرة الله لانبيائه وان نهاية المعركة تكون في صالحهم مهما لاقوا من العنت والجور والتكذيب - كل ذلك - تثبيتا لرسوله محمد (صلى الله عليه وآله) وأصحابه وتأثيرا في نفوس من يدعوهم الى الايمان. وقد نص القرآن الكريم على هذا الهدف الخاص أيضا بمثل قوله تعالى: (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق

---

(١) هود: ٢٥ - ٣٢. (٢) هود: ٥٠ - ٥٥. (٣) هود: ٦١ - ٦٢. (*)

وموعظة وذكرى للمؤمنين) (١). وتبعا لهذا الغرض وردت بعض قصص الانبياء مؤكدة على هذا الجانب بل جاءت بعض هذه القصص مجتمعة ومختومة بمصارع من كذبوهم وقد يتكرر عرض القصة نتيجة لذلك كما جاء في سورة هود والشعراء والعنكبوت ولنضرب مثلا من سورة العنكبوت: (لقد ارسلنا نوحا الى قومه فلبث الف سنة - الا خمسين عاما - فأخذهم الطوفان وهم ظالمون * فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين). (وابراهيم إذ قال لقومه: اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون) (٢). الى ان يقول: (فما كان جواب قومه الا ان قالوا: اقتلوه أو حرقوه فانجاه الله من النار ان في ذلك لايات لقوم يؤمنون) (٣). (ولوطا إذ قال لقومه انكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين) (٤). الى ان يقول: (إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون * ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون). (والى مدين اخاهم شعيبا فقال: يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الاخر ولا تعثوا في الارض مفسدين فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين). (وعادا وثمودا - وقد تبين لكم من مساكنهم - وزين لهم الشيطان اعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين).

---

(١) هود: ١٢٠. (٢) العنكبوت: ١٤ - ١٦. (٣) العنكبوت: ٢٤. (٤) العنكبوت: ٢٨. (*)

(وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الارض وما كانوا سابقين). (فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الارض ومنهم من اغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون) (١) فهذه هي النهاية الحتمية التي يريد ان يصورها القرآن الكريم لمعارضي الانبياء والمكذبين بدعوتهم. هـ - تصديق التبشير والتحذير: فقد بشر الله سبحانه عباده بالرحمة والمغفرة لمن أطاعه منهم وحذرهم من العذاب الاليم لمن عصاه منهم، ومن أجل ابراز هذه البشارة والتحذير بصورة حقيقية متمثلة في الخارج عرض القرآن الكريم لبعض الوقائع الخارجية التي تتمثل فيها البشارة والتحذير، فقد جاء في سورة الحجر التبشير والتحذير أولا، ثم عرض النماذج الخارجية لذلك ثانيا: (نبئ عبادي أني انا الغفور الرحيم * وأن عذابي هو العذاب الاليم) (٢). وتصديقا لهذه أو ذلك جاءت القصص على

النحو التالي: (ونبئهم عن ضيف ابراهيم * إذ دخلوا عليه فقالوا: سلاما قال: انا منكم وجلون * قالوا: لا توجل انا نبشرك بغلام عليم) (٣)... وفى هذه القصة تبدوا لرحمة والبشارة. ثم (فلما جاء آل لوط المرسلون * قال انكم قوم منكرون * قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون * وأتيناك بالحق وانا لصادقون * فأسر باهلك بقطع من الليل واتبع ادبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون * وقضينا إليه ذلك الامر: ان دابر

---

(١) العنكبوت: ٣٤ - ٤٠. (٢) الحجر: ٤٩، ٥٠. (٣) الحجر: ٥١، ٥٢. (*)

هؤلاء مقطوع مصبحين) (١). وفي هذه القصة تبدو (الرحمة) في جانب لوط ويبدو (العذاب الاليم) في جانب قومه المهلكين. ثم: (ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين * وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين * وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين * فأخذتهم الصيحة مصبحين * فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) (٢). وفي هذه القصة يبدو (العذاب الاليم) للمكذبين، وهكذا يصدق الانباء ويبدو صدقه في هذه القصص الواقع بهذا الترتيب. و - اللطف الالهي بالانبياء: بيان نعمة الله على انبيائه ورحمته بهم وتفضله عليهم وذلك توكيدا لارتباطهم وصلتهم معه، كبعض قصص سليمان وداود وابراهيم ومريم وعيسى وزكريا ويونس وموسى. ذلك أن الانبياء يتعرضون - عادة - الى مختلف ألوان الالام والمحن والعذاب، فقد يتوهم السذج والبسطاء من الناس أن ذلك اعراض من الله تعالى عنهم، فيأتي الحديث عن هذه النعم والالطاف الالهية التي شملتهم تأكيدا لعلاقة الله سبحانه وتعالى بهم، ولذلك نشاهد أن بعض الحلقات من قصص هؤلاء الانبياء تبرز فيها النعمة في مواقف شتى، ويكون ابرازها هو الغرض الاول منها وما سواه يأتي في هذا الموضوع عرضا. ز - عداوة الشيطان: بيان غواية الشيطان للانسان وعداوته الابدية له وتربصه به الدوائر والفرص وتنبيه بني آدم لهذا الموقف المعين منه، ولا شك أن ابراز هذه المعاني والعلاقات بواسطة القصة يكون واضحا وأدعى للحذر والالتفات، لذا نجد قصة آدم تكرر بأساليب مختلفة تأكيدا لهذا الغرض، بل يكاد أن يكون هذا الغرض هو الهدف

---

(١) الحجر: ٦١ - ٦٦. (٢) الحجر: ٨٠ - ٨٤. (*)

الرئيس لقصة آدم كلها. ح - أهداف بعثة الانبياء: بيان أن الغايات والاهداف من ارسال الرسل والانبياء هي من أجل هداية الناس وارشادهم وحل الاختلافات والحكم بالعدل بينهم ومحاربة الفساد في الارض، وفوق ذلك كله هو اقامة الحجة على الناس، ولذا جاء استعراض قصص الانبياء بشكل واسع لبيان هذه الحقائق. وقد أشار القرآن الكريم الى هذا الهدف من القصة في عدة مواضع: (كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه...) (١). (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما) (٢). (وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) (٣). فانها وردت

في سياق قوله تعالى: (ولقد أرسلنا الى امم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون...) (٤). (وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الاولين أو يأتيهم العذاب قبلا * وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ويجادل

---

(١) البقرة: ٢١٣. (٢) النساء: ١٦٥. (٣) الانعام: ٤٨. (٤) الانعام: ٤٢. (*)

الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتي وما انذروا هزوا) (١). وكذلك ما ورد في تعقيب قصص الانبياء من سورة الشعراء من قوله تعالى: (إن في ذلك لاية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم) (٢). ط - أهداف تربوية اخرى: وبيان أغراض آخرى ترتبط بالتربية الاسلامية وجوانبها المتعددة، فقد استهدف القرآن بشكل رئيس تربية الانسان على الايمان بالغيب وشمول القدرة الالهية لكل الاشياء، كالقصص التي تذكر الخوارق والمعاجز كقصة خلق آدم، ومولد عيسى، وقصة ابراهيم مع الطير الذي آب إليه بعد أن جعل على كل جبل جزءا منه، وقصة (... الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها...) (٣) وإحياء الله له بعد موته مائة عام. كما استهدف تربية الانسان على فعل الخير والاعمال الصالحة وتجنبه الشر والفساد، وذلك ببيان العواقب المترتبة على هذه الافعال، كقصة النبي آدم وقصة صاحب الجنتين، وقصص بني اسرائيل بعد عصيانهم، وقصة سد مأرب، وقصة أصحاب الاخدود. ومما استهدفه القرآن الكريم في التربية الاستسلام للمشيئة الالهية والخضوع للحكمة التي أرادها الله سبحانه من وراء العلاقات الكونية والاجتماعية في الحياة، وذلك ببيان الفارق بين الحكمة الالهية ذات الهدف البعيد والعميق في الحياة الانسانية والفهم الانساني للظواهر في الحياة الدنيا، والحكمة الانسانية القريبة العاجلة، كما جاء في قصة موسى التي جرت مع عبد (... من عبادنا آتيناه رحمة من

---

(١) الكهف: ٥٥ - ٥٦. (٢) الشعراء: ١٥٨، ١٥٩. (٣) البقرة: ٢٥٩. (*)

عندنا وعلمناه من لدنا علما) (١) الى آخر ذلك من الاغراض الوعظية والتربوية الاخرى التي سوف نطلع على بعضها في دراستنا التفصيلية لقصة موسى (عليه السلام). ظواهر عامة في القصة القرآنية: وفي ضوء هذه الاهداف للقصة يحسن بنا أن ندرس ثلاث ظواهر أساسية برزت في مجمل القصة القرآنية: أ - ظاهرة التكرار في القصة القرآنية. ب - ظاهرة اختصاص قصص الانبياء في القرآن بأنبياء منطقة الشرق الاوسط. ج - ظاهرة تأكيد قصص بعض الانبياء كابراهيم وموسى (عليهما السلام). أ - تكرار القصة في القرآن الكريم: من ظواهر القصة في القرآن الكريم هي ظاهرة تكرار القصة الواحدة في مواضع مختلفة من القرآن، وقد اثيرت بعض المشاكل حول هذه الظاهرة حيث يقال: إن هذا التكرار قد يشكل نقطة ضعف في القرآن الكريم، لان القصة بعد أن تذكر في القرآن مرة واحدة تستنفد أغراضها الدينية والتربوية والتأريخية، وقد اثيرت هذه المشكلة في زمن متقدم من البحث العلمي، لذا نجد الاشارة في

مفردات الراغب الاصفهانى، وفى مقدمة تفسير التبيان للشيخ الطوسي (٢). والطوسي وان كان يبدو أنه لم يعالج المشكلة بشكل رئيس، ولكنه يدل على الاقل أن المشكلة قد طرحت على صعيد البحث القرآني. ونحن هنا نذكر بعض الوجوه التي يمكن أن تكون تفسيرا لتكرار القصة

---

(١) الكهف: ٦٥. (٢) التبيان، مقدمة المؤلف ١: ١٤. (*)

الواحدة في القرآن الكريم: الاول: ان التكرار انما يكون بسبب تعدد الغرض الديني الذي يترتب على القصة الواحدة، وقد عرفنا في بحثنا السابق لاغراض القصة (١). أن أهداف القصة متعددة، فقد تجئ القصة في موضع لاداء غرض معين وتأتي في موضع آخر لاداء غرض آخر وهكذا. الثاني: أن القرآن الكريم اتخذ من القصة اسلوبا لتأكيد بعض المفاهيم الاسلامية لدى الامة المسلمة، وذلك عن طريق ملاحظة الوقائع الخارجية التي كانت تعيشها الامة، وربطها بواقع القصة من حيث وحدة الهدف والمضمون. وهذا الربط بين المفهوم الاسلامي في القصة والواقعة الخارجية المعاشة للمسلمين قد يؤدي الى فهم خاطئ للمفهوم المراد اعطاؤه للامة، فيفهم انحصاره في نطاق الواقعة التي عاشتها القصة وظروفها الخاصة، فتأتي القصة الواحدة في القرآن الكريم مكررة من أجل تفادي هذا الحصر والتضييق في المفهوم من أجل تأكيد شموله واتساعه لكل الوقائع والاحداث المتشابهة ليتخذ صفة القانون الاخلاقي أو التأريخي الذي ينطبق على كل الوقائع والاحداث... إضافة الى فاعليته كمنبه للامة على علاقة القضية الخارجية التي تواجهها - في عصر النزول أو بعده - بالمفهوم الاسلامي لتستمد منه روحه ومنهجه. ولعل هذا السبب هو ما يمكن أن نلاحظه في تكرار قصة موسى والفرق بين روحها العامة في القصص المكي وروحها في القصص المدني، فانها تؤكد في القصص المكي منها العلاقة العامة بين موسى من جانب وفرعون وملئه من جانب آخر، دون أن تذكر أوضاع بني اسرائيل تجاه موسى نفسه، إلا في موردين يذكر فيهما انحراف بني اسرائيل عن العقيدة الالهية بشكل عام، وهذا بخلاف الروح

---

(١) لزيادة الايضاح، راجع التصوير الفني في القرآن ١٢٨ - ١٣٤. (*)

العامة لقصة موسى في السور المدنية فانها تتحدث عن علاقة موسى مع بني اسرائيل، وتتحدث عن هذه العلاقة وارتباطها بالمشاكل الاجتماعية والسياسية. وهذا قد يدلنا على أن هذا التكرار للقصة في السور المكية انما كان يعني نزول القصة لمعالجة روحية تتعلق بحوادث مختلفة كانت تواجه النبي والمسلمين، ومن أهداف هذه المعالجة توسعة نطاق المفهوم العام الذي تعطيه قصة موسى في العلاقة بين النبي والجبارين من قومه أو القوانين التي تحكم هذه العلاقة، وان هذه العلاقة مع نهايتها لا تختلف فيها حادثة عن حادثة أو موقف عن موقف. ولعل الى هذا التفسير تشير الايات الكريمة التي جاءت في سورة الفرقان: (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة، كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا * ولا

يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا * الذين يحشرون على وجوههم الى جهنم أولئك شر مكانا وأضل سبيلا * ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا) (١). فان من الملاحظ في هذه الايات أن القرآن يذكر ان السبب في التدرج والترتيل في القرآن الكريم هو التثبيت للنبي من ناحية، والاتيان بالحق والتفسير الافضل للوقائع والاحداث والامثال من ناحية اخرى، ثم يأتي بهذا التفسير الاحسن من قصة موسى (عليه السلام). الثالث: ان الدعوة الاسلامية مرت بمراحل متعددة في سيرها الطويل، وقد كان القرآن الكريم يواكب هذه المراحل ويماشيها في عطائه وطبيعة اسلوبه، وهذا كان يفرض أن تعرض القصة الواحدة بأساليب متفاوتة في الطول والقصر، نظرا لطبيعة الدعوة وطريقة بيان المفاهيم والعبر فيها، كما نجد ذلك في قصص الانبياء حين تعرض في السورة القصيرة المكية، ثم يتطور العرض بعد ذلك الى شكل أكثر

---

(١) الفرقان: ٣٢ - ٤١. (*)

تفصيلا في السور المكية المتأخرة أو السور المدنية. الرابع: ان تكرار القصة لم يأت في القرآن الكريم بشكل يتطابق فيه نص القصة مع نص آخر لها، وانما تختلف الموارد في بعض التفاصيل وطريقة العرض، وطريقة عرض القصة القرآنية قد تستبطن مفهوما دينيا يختلف عن المفهوم الديني الاخر الذي تستنبطه طريقة عرض اخرى، هذا الامر الذي نسميه بالسياق القرآني وهذا يقتضي التكرار أيضا لتحقيق هذا الغرض السياقي الذي يختلف عن الغرض السياقي الاخر لنفس القصة، وسوف تتضح معالم هذه النقاط بشكل أكثر عند دراستنا التطبيقية التالية لقصة موسى في القرآن الكريم. ب - اختصاص القصة بأنبياء الشرق الاوسط: وأما الظاهرة الثانية فمن الملاحظ ان القرآن الكريم تحدث عن مجموعة من الانبياء يشتركون في خصوصية: أنهم يعيشون جميعا في منطقة الشرق الاوسط، أي المنطقة التي كان يتفاعل معها العرب الذين نزل القرآن في محيطهم ومجتمعهم. وقد تفسر هذه الظاهرة لاول وهلة بأن النبوات لما كانت بالاصل في هذه المنقطة ومن خلالها انتشر الهدى في جميع أنحاء العالم، حيث كانت البشرية تعيش في البداية بهذه المنطقة ولا يوجد في المناطق الاخرى نبوات وأنبياء، كما قد يفهم ذلك من خلال الاستعراض التأريخي للنبوات وتأريخ الانسان في التوراة، وحينئذ لا تعني هذه الخصوصية ظاهرة تحتاج الى تفسير، بل هي قضية فرضتها الحقيقة التأريخية ويكفي في تفسيرها هذا الواقع التأريخي. الرسالات الالهية لا تختص بمنطقة الشرق الاوسط: ولكن توجد شواهد في القرآن الكريم تنفي هذا التفسير لهذه الظاهرة، فالقرآن يشير في بعض آياته الى أن هناك مجموعة اخرى من الانبياء لم يتحدث

عنهم، مع أن حياتهم لا بد وأ نها كانت زاخرة بالاحداث شأنهم في ذلك شأن الانبياء الاخرين: (إنا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا * ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما) (١). كما ان هذا المضمون جاء أيضا في سورة

غافر: (٧٨). علما بأن سورة النساء من السور المدنية المتأخرة، ومن هنا فلا مجال لاحتمال أن هذه الاية نزلت في مدة زمنية لم يكن القرآن قد تعرض فيها الى جميع قصص الانبياء التي وردت في القرآن الكريم فعلا. كما ان هناك مجموعة من الايات تدل على أن الانبياء والرسل كانوا يبعثون الى كل قرية ومدينة لاقامة الحجة من الله على الناس، كما نفهم من الاية (١٦٥) من سورة النساء، التي جاءت في سياق الايتين السابقتين: (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما) (٢). إضافة الى موارد اخرى لها هذه الدلالة: (ولقد بعثنا في كل امة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) (٣).

---

(١) النساء: ١٦٣ - ١٦٤. (٢) النساء: ١٦٥. (٣) النحل: ٣٦. (*)

(وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون...) (١). (ولكل امة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون) (٢). (إنا ارسلناك بالحق بشيرا ونذيرا وان من امة إلا خلا فيها نذير) (٣). وجاء التعبير في بعض الايات عن ذلك بوجود الشهيد في كل امة (٤). تفسير الاختصاص بالمنطقة المحدودة: ومن هنا فلابد من تفسير هذه الظاهرة بتفسير آخر، ويمكن أن يكون هذا التفسير هو أن القرآن الكريم انما خص هؤلاء الانبياء بالذكر باعتبار أن الغرض الاساس من القصة - كما ذكرنا - هو انتزاع العبرة واستنباط القوانين والسنن التأريخية منها، ولم يكن الغرض من القصة السرد التأريخي لحياة الانبياء أو كتابة تأريخ الرسالات، ولذلك يتحدث القرآن عن الامور العامة المشتركة بين هؤلاء الانبياء عدا بعض الموارد التي يكون هناك غرض خاص في طرح بعض القضايا فيها. ولما كان تأثير القصة في تحقيق هذه الاغراض يرتبط بمدى ايمان الجماعة بواقعيتها، وادراكهم لحقائقها، ومدى انطباق ظروفها على ظروف الجماعة نفسها، لذا تكون القصة المنتزعة من تأريخ الامة نفسها، ومن واقعها وظروفها وحياتها، أكثر تأكيدا وانطباقا على السنة التأريخية. وبهذا تكون هذه القصص أكثر انسجاما مع هذا الهدف القرآني، بلحاظ أن القاعدة التي يريد أن يحقق القرآن الكريم التغيير فيها في المرحلة الاولى هي

---

(١) التوبة: ١١٥. (٢) يونس: ٤٧. (٣) فاطر: ٢٤. (٤) النساء: ٤١، النحل: ٨٤، القصص: ٧٥. (*)

الشعوب التي تسكن هذه المنطقة، وتتفاعل مع هذا التأريخ، وهذا لا يعني أن القرآن تختص هدايته بهذه الشعوب، بل ان أحد أغراض القرآن هو ايجاد التغيير في هذه الشعوب كقاعدة ينطلق منها التغيير ويستند إليها في مسيرته الى بقية الشعوب كما حصل ذلك فعلا. صحيح أ نه قد تكون القصة المنتزعة من تأريخ النبوات التي كانت في الهند أو الصين - على فرض وجودها في تلك المناطق وهو فرض منطقي ومقبول جدا - مؤثرة في الشعب الهندي أو الصيني، إلا أن القرآن الكريم كان مهتما بشكل خاص وفي مرحلة نزوله بتغيير القاعدة التي تتمثل بالشعب العربي والشعوب المتفاعلة معه فعلا

في ذلك الوقت، وضرب الامثال وسرد القصص عن هذه الامم، مع أنها لم تكن موجودة في المحيط الذي نزل فيه القرآن، يبعد القصة بأكملها عن الواقعية التي كان يحرص القرآن الكريم على تأكيدها في قصصه، ولم يكن يكتفي منها انها مجرد أمثال وتصورات، بل كان يؤكد صدقها. وبلحاظ أن التغيير العام للانسان الذي كان يستهدفه القرآن أيضا، اريد له أن يطلق من تلك القاعدة، وهذه القصص هي التي يمكن أن تساهم في تحقيقه. وتبقى النتائج العامة المشتركة بين الانبياء ذات تأثير عام بالنسبة الى مختلف الشعوب، فقصة النبي الواحد لها تأثير خاص يرتبط بالوسط الذي تواجد فيه ذلك النبي، باعتبارها حالة التجسيد المعاش في ذلك الوسط، وذات التأثير الشعوري والوجداني بالنسبة الى ذلك الوسط، وفي الوقت نفسه يكون للقصة تأثير عام ضمن المفاهيم العامة والسنن التأريخية التي توحي بها القصة، والعبر التي يمكن أن تستلخص منها، وهذا ما يمكن أن تستفيد منه كل الشعوب. وبذلك يتحقق للقرآن الكريم بعده العام الشامل ويبقى حيا ومؤثرا في هذا الوسط وغيره من الاوساط الانسانية.

ولكن يكون للبعد الاول المتمثل في التأثير الخاص أثره في تحقيق الهدف التغييري في خلق القاعدة التي تنطلق منها الرسالة. نعم من الصحيح أن نقول أيضا: إن أنبياء مثل: نوح وابراهيم وموسى وعيسى يمثلون الاصول العامة للنبوات في كل العالم، وكان خاتمهم النبي محمد (صلى الله عليه وآله) يمثل امتدادا لتلك النبوات، ولكن نجد أن القرآن لم يتحدث عن هذه الاصول وتفرعاتها فحسب، بل تحدث عن أنبياء مثل صالح وشعيب وهود ويونس وادريس وغيرهم ممن يمثلون نبوات ليست بهذا القدر من الاهمية على الظاهر. والله هو العالم بحقائق الامور. ج - ظاهرة تأكيد دور ابراهيم وموسى (عليهما السلام): وأما الظاهرة الثالثة: فمن الملاحظ ان القرآن الكريم أكد دور بعض الانبياء في ذكر تفاصيل حياتهم وظروفهم أكثر من دور بعضهم الاخر وبالخصوص النبي ابراهيم وموسى (عليهما السلام)، مع أن الخصائص العامة التي يراد منها بالاصل استنباط العبرة والموعظة واستخلاص القانون والسنة التأريخية متشابهة، ولذا تأتي الاشارة الى قصص مجموعة من الانبياء في كثير من الموارد في سياق واحد، فهل يعني هذا التأكيد أهمية شخصية هذا النبي وفضله بالمقارنة مع بقية الانبياء فقط ؟ أو يمكن أن يكون وراء ذلك - إضافة الى هذه الاهمية - مقاصد وأهداف اخرى اقتضت هذا اللون من التأكيد ؟ قد يكون في الحقيقة أن بعض هؤلاء الانبياء أفضل من بعضهم الاخر كما انه قد يكون هذا (البعض) هو ابراهيم وموسى، ولكن لا يعني ذلك أن يؤكد القرآن دور هذين النبيين مثلا، أو غيرهما كعيسى الذي جاء الحديث عنه بنسبة أقل لمجرد فضلهم، لان القرآن بالاصل ليس بصدد تقييم عمل هؤلاء الانبياء والحديث عن التفاضل بينهم، وانما الاهداف الاصلية للقصة التي أشرنا إليها وذكرها القرآن

هي: العبرة والموعظة والتثبيت واقامة الحجة والبرهان على صدق نبوة محمد (صلى الله عليه وآله) ومضمون رسالته: (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين) (١). (لقد كان في قصصهم عبرة لاولي الالباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شئ وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) (٢). (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون

للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما) (٣). ولذلك يمكن أن نقول بأن القرآن انما كان يؤكد دور هؤلاء الانبياء في حديثه عنهم لانه كان يواجه حقيقة هي: أن لهؤلاء الانبياء اتباعا واقواما يرتبطون بهم فعلا في المجتمع الذي كان يتفاعل القرآن معه عند نزوله، وهذا الامر كان يفرض - من أجل ايجاد القاعدة التغييرية - أن يتحدث عنهم القرآن باسهاب. أهمية تأكيد دور ابراهيم (عليه السلام): فالنبي ابراهيم (عليه السلام) كان يمثل لدى القاعدة (المشركين، واليهود، والنصارى) أبا لجميع الانبياء ويحظى باحترام الجميع. وتأكيد ارتباط الاسلام وشعائره به له أهمية خاصة في اعطاء الرسالة الاسلامية جذرا تأريخيا ممتدا الى ما هو أبعد من الديانتين اليهودية والنصرانية، ويعطي فكرة التوحيد التي طرحها القرآن على المشركين أصلا وانتماء يعيشه هؤلاء المشركون في تأريخهم:

---

(١) هود: ١٢٠. (٢) يوسف: ١١١. (٣) النساء: ١٦٥. (*)

(وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير) (١). ويتجلي هذا الربط التأريخي بشكل أوضح بحيث يصبح ابراهيم (عليه السلام) هو المبشر بالنبي العربي الامي، وتكون بعثة الرسول محمد (صلى الله عليه وآله) استجابة لدعاء ابراهيم (عليه السلام) وذلك في مثل قوله تعالى: (وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم * ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا امة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم * ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم) (٢). إضافة الى أنه يعطي الرسالة الاسلامية شيئا من الاستقلال عن اليهودية والنصرانية، ومن ثم عدم الشعور بالتبعية لعلماء اليهود والنصارى: (ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين * إن أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين) (٣). (وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين) (٤).

---

(١) الحج: ٧٨. (٢) البقرة: ١٢٧ - ١٢٩. (٣) آل عمران: ٦٧ - ٦٨. (٤) البقرة: ١٣٥. (*)

ومن هنا ياتي تأكيد قصة ابراهيم في بناء الكعبة التي جاءت في عدة موارد من القرآن الكريم، وندائه بالحج، وذلك للموقع الخاص الذي كانت تحتله الكعبة بين العرب عامة، وللقرار الذي كان القرآن قد اتخذه بجعل الكعبة قبلة للمسلمين، تأكيدا لاستقلالية الرسالة في كل معالمها لان صرف الانظار عن الارض المقدسة وبيت المقدس الذي كان يحظى بالقدسية الخاصة - وما زال - بسبب نشوء الديانات المختلفة فيه، ووجود ابراهيم وأنبياء بني اسرائيل كلهم في هذه

الارض يحتاج الى اعطاء هذه الاهمية للبيت والكعبة المشرفة وهذا الانتساب الاصيل الى ابرهيم (عليه السلام). أهمية تأكيد دور موسى (عليه السلام): وأما النبي موسى (عليه السلام) فان موقعه من الديانة اليهودية والشعب الاسرائيلي والانجاز السياسي والاجتماعي الذي حققه لهم، وكذلك ما تحقق من خلال التوراة من تشريع وحكمة وقانون، إضافة الى معاناته الطويلة التي تشبه معاناة رسول الله (صلى الله عليه وآله) سواء تجاه الطغاة الفراعنة أم المنافقين من الاسرائيليين، أم في توطيد دعائم الحكم الالهي في الارض، وموقعه من الديانتين اليهودية والنصرانية، لان النصرانية أيضا كانت تعترف بالتوراة القائمة (العهد القديم) كل هذه الامور كانت تفرض هذا اللون من التأكيد. ونجد ملامح الظروف الموضوعية القائمة التي كانت تواجهها الرسالة والقرآن الكريم في موطن نزوله، والمجتمع الذي يعمل على تغييره موجودة في كل هذه الامور المرتبطة بهذين النبيين العظيمين، لان القرآن كان يعايش ويتفاعل باستمرار مع أهل الكتاب وعلمائهم وأقوامهم، وكان بحاجة الى هذه التفاصيل، والحديث - أحيانا - حتى عن الحياة الشخصية لموسى (عليه السلام)، لما في ذلك من التأثير في أوساطهم.

خصوصا وان العرب المشركين كانوا ينظرون الى علماء اليهود - الذين يتصلون بهم أحيانا - أنهم أهل الذكر والكتاب والوحي والمعرفة كما أشار القرآن الكريم الى ذلك، وبذلك يكون القرآن الكريم أكثر تأثيرا في هذه الاوساط أيضا عندما يتحدث عن النبي موسى (عليه السلام). كما أن القرآن كان يسعى جادا لاعطاء فكرة أن هذه الرسالات انما تمثل امتدادا واحدا في الوحي الالهي، وانتسابا واحدا الى السماء في الوقت الذي كان يؤكد استقلالية الرسالة الاسلامية، بمعنى أ نها ليست تابعة ومتشعبة من التحرك الرسالي أو السياسي للرسالات الاخرى، كما انها ليست عملا تغييرا في اطار تلك الرسالات، بل هي من جانب مصدقة لها، ولكنها من جانب آخر وفي الوقت نفسه مهيمنة عليها: (وانزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات الى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) (١). ويتضح ذلك بشكل أفضل بملاحظة سياق الايات السابقة عليها والتي يشير فيها القرآن الكريم الى نزول التوراة والانجيل والنسبة بينهما، والتي تختلف عن نسبة القرآن اليهما. الحديث عن عيسى (عليه السلام): ومن الملاحظ أيضا - عندما ندرس ظاهرة القصة في ضوء الهدف التغييري - أن القرآن الكريم تعرض لقصص بعض الانبياء، أو لتفاصيل فيها على الاقل، من أجل أن يزيل ما علق في أذهان الجماعة التي نزل فيها القرآن من أفكار

(١) المائدة: ٤٨. (*)

وتصورات منحرفة عن الانبياء تنافي عصمتهم أو علاقتهم بالله أو طبيعة شخصيتهم، كما يتضح ذلك بشكل خاص في الحديث عن عيسى (عليه السلام) الذي تحدث القرآن الكريم عن شخصيته وظروفها أكثر مما تحدث عن أعماله ونشاطاته: (إن مثل عيسى

كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون * الحق من ربك فلا تكن من الممترين * فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين * إن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم) (١). وكذلك ما جاء من الحديث في القرآن عن حياة مريم وولادة عيسى في سورة آل عمران أو سورة مريم، أو الاهتمام بمناقشة فكرة الوهية عيسى التي جاءت في عدة موارد، منها ما جاء في سورة المائدة.

---

(١) آل عمران: ٥٩ - ٦٢. (*)

دراسة قصة موسى (عليه السلام): بعد دراسة الظواهر السابقة للقصة يحسن بنا أن نتناول قصص الانبياء موضوعا من موضوعات التفسير الموضوعي. ومن هذا المنطلق نجد أمامنا أبعادا متعددة وكثيرة لدراسة القصة في القرآن الكريم، من أهمها البعد الادبي والتصويري وكذلك البعد الذي يرتبط ببيان أغراض القصة في هذا الموضع أو ذاك، إضافة الى الجانب التأريخي أو السنن والمفاهيم العامة التي يمكن انتزاعها منها. ولكن سوف نتناول هنا مثالا واحدا للقصة وهو (قصة موسى) (عليه السلام)، حيث تعتبر قصة موسى (عليه السلام) من أكثر قصص الانبياء ورودا في القرآن الكريم وتفصيلا. ونعني هنا بالموارد القرآنية لهذه القصة: الموارد التي تحدث القرآن الكريم فيها عن علاقة موسى مع فرعون أو علاقته مع قومه أو لحالة اجتماعية قارنت عصره. وسوف ندرس قصة موسى في القرآن الكريم لنأخذها نموذجا لدراسة تفصيلية يمكن أن تستوعب قصص جميع الانبياء المذكورين في القرآن الكريم، كما اننا سوف ندرسها من خلال بعض الابعاد المهمة ذات العلاقة بالمضمون، وبالقدر الذي يتناسب مع هذه الدراسة من حيث الاختصار والمنهج. ١ - دراسة القصة بحسب مواضعها في القرآن الكريم: ونأخذ النقاط التالية بعين الاعتبار في دراستنا للقصة هذه: أ - التنبيه الى أسرار تكرار القصة الواحدة في القرآن. ب - التنبيه الى الغرض الذي سيقت له في كل مقام. ج - التنبيه الى أسرار تغاير الاسلوب في القصة بحسب المواضع.

---

٢ - قصة موسى بحسب تسلسلها التأريخي. ٣ - دراسة عامة للقصة من خلال المراحل التي مر بها موسى والموضوعات العامة التي تناولها. ونكتفي هنا بالتنبيه بشكل اجمالي الى هذه النقاط، لنترك معالجة جميع التفصيلات وكذلك الابعاد الاخرى الى دراسة مستوعبة في ظرف آخر. وعلى هذا الاساس سوف نتناول القصة من زاوية نحو تسعة عشر موضعا من القرآن الكريم ونترك المواضع الاخرى التي جاءت فيها القصة بشكل إشارات أو تلميحات. ١ - قصة موسى (عليه السلام) بحسب مواضعها من القرآن الكريم: الموضع الاول: الايات التي جاءت في سورة البقرة والتي تبدأ بقوله تعالى: (واذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون ابناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم * واذ فرقنا بكم البحر فانجيناكم واغرقنا آل فرعون وانتم تنظرون * واذ واعدنا موسى اربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وانتم ظالمون) (١) الى ان يختم بقوله تعالى: (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو

اشد قسوة وان من الحجارة لما يتفجر منه الانهار وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء وان منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون) (٢).

---

(١) البقرة: ٤٩ - ٥١. (٢) البقرة: ٧٤. (*)

والملاحظ في هذا المقطع: اولا: جاء في سياق قوله تعالى (يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي انعمت عليكم واوفوا بعهدي اوف بعهدكم واياي فارهبون) (١). ثانيا: انه يتناول احداثا معينة انعم الله بها على بني اسرائيل مرة بعد الاخرى، مع الاشارة الى ما كان يعقب هذه النعم من انحراف في الايمان بالله تعالى أو في الموقف العبادي الذي تفرضه طبيعة هذا الايمان. ثالثا: ان القرآن الكريم بعد أن يختم هذا المقطع يأتي ليعالج المواقف الفعلية العدائية لبني اسرائيل من الدعوة ويربط هذه المواقف بالمواقف السابقة لهم بقوله تعالى: (أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعدما عقلوه وهم يعلمون... وأني فضلتكم على العالمين) (٢). وعلى أساس هذه الملاحظة يمكننا أن نقول: إن هذا المقطع جاء يستهدف غرضا مزدوجا وهو تذكير بني اسرائيل بنعم الله المتعددة عليهم، وذلك موعظة وعبرة لهم تجاه موقفهم الفعلي من ناحية، ومن ناحية اخرى كشف الخصائص الاجتماعية والنفسية العامة التي يتصف بها الشعب الاسرائيلي للمسلمين، لئلا يقع المسلمون في حالة الشك والريب في هذه المواقف، فيتصور بعضهم أنها تنجم عن رؤية موضوعية تجاه الرسالة، الامر الذي جعل اليهود يتوقفون عن الايمان بها، خصوصا وأن اليهود هم أهل الكتاب في نظر عامة المسلمين فأراد القرآن هنا أن يبين أن هذا الموقف انما هو موقف نفسي وذاتي ومتأثر بهذه الخصائص الروحية والاجتماعية.

---

(١) البقرة: ٤٠. (٢) البقرة: ٧٥ - ١٢٢. (*)

وهذا الغرض فرض اسلوبا معينا على استعراض الاحداث إذ اقتصر المقطع على ذكر الوقائع التي تلتقي مع هذا الغرض وتتناسب مع هذا الهدف، دون أن يعرض التفصيلات الاخرى للاحداث التي وقعت لموسى (عليه السلام) مع فرعون أو الاسرائيليين. الموضع الثاني: الايات التي جاءت في سورة النساء، والتي تبدأ بقوله تعالى: (يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطانا مبينا) الى قوله تعالى: (وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل واعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما) (١). والملاحظ في هذا المقطع: أولا: إنه جاء ضمن سياق عرض عام لمواقف فئات ثلاث من أعداء الدعوة الاسلامية تجاهها وهو موقف المنافقين وموقف اليهود من أهل الكتاب وموقف النصارى من أهل الكتاب، وعرض الموقف الاول يبدأ بقوله تعالى: (بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما) (٢) وعرض الموقف الثاني يبدأ بقوله تعالى: (ان الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون ان يفرقوا بين الله ورسله ويقولون

نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون ان يتخذوا بين ذلك سبيلا) (٣). وعرض الموقف الثالث يبدأ بقوله تعالى:

---

(١) النساء: ١٥٣ - ١٦١. (٢) النساء: ١٣٨. (٣) النساء: ١٥٠. (*)

(يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته القاها الى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة...) (١). ثانيا: إن المقطع يتناول بعض الاحداث ذات الدلالة على نبوة موسى، والمواثيق الغليظة المأخوذة على اليهود بصدد الامتثال والطاعة، وموقف اليهود من ذلك والمخالفات التي ارتكبوها، سواء فيما يتعلق بالجانب العقيدي من الفكرة أو بالجانب العملي التطبيقي منها. وعلى اساس هاتين الملاحظتين يمكن أن نستنتج: أن هذا المقطع من القصة جاء ليوضح أن موقف اليهود من الدعوة بطلبهم المزيد من الايات والبينات ليس نابعا من الشك بالرسالة، وانما هو موقف شكلي ذرائعي يستبطن الجحود والطغيان، ولذا نجد المقطع يكتفي بعرض هذا الطلب العجيب الذي تقدم به اليهود الى موسى، ويضيف الى ذلك المواثيق التي اخذت منهم في الطاعة ونكولهم عنها بمخالفاتهم العديدة، الامر الذي يكشف عن اصرارهم على الجحود والطغيان وأنهم يتذرعون بمثل هذه المطالب. وقد فرض السياق العام للسورة الكريمة تكرار القصة على أساس ايضاح ومعالجة موقف اليهود من الدعوة الى جانب ايضاح ومعالجة موقف المنافقين والنصارى من أهل الكتاب، لان هذه المواقف هي المواقف الرئيسة التي كانت تواجهها الدعوة الاسلامية حينذاك. الموضع الثالث: الايات التي جاءت في سورة المائدة وهي قوله تعالى: (واذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت

---

(١) النساء: ١٧١. (*)

أحدا من العالمين * يا قوم ادخلوا الارض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين) الى قوله تعالى: (قال فانها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الارض فلا تأس على القوم الفاسقين) (١). ويلاحظ في هذا المقطع: اولا: انه جاء في سياق دعوة عامة لاهل الكتاب الى الايمان بالرسول الجديد، مع إيضاح حقيقة رسالته، ومناقشة ما يقوله اليهود والنصارى واقامة الحجة عليهم بذلك، إذ يختم هذا السياق بقوله تعالى: (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير، فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شئ قدير) (٢). ثانيا: إن المقطع يكتفي بأن يذكر دعوة موسى لقومه الى دخول الارض المقدسة حيث كان دخولها منتهى آمالهم، ولكنهم يأبون ذلك فيكون مصيرهم التيه اربعين سنة. وعلى أساس هاتين الملاحظتين يمكن أن نستنتج: أن القرآن الكريم يبدو وكأنه يريد أن يذكر أهل الكتاب ويفتح الطريق أمامهم ليحققوا أهدافهم الصحيحة من وراء الدين والشريعة بدخولهم دعوة الاسلام، ولا يكون موقفهم

كموقف قوم موسى حين دعاهم الى دخول الارض المقدسة، مع أنها امنيتهم وهدفهم، فتفوتهم الفرصة السانحة ويصيبهم التيه الفكري والعقائدي والاجتماعي في عصر نزول الرسالة، كما أصابهم التيه السياسي والاجتماعي من قبل. ومن هنا نعرف السر الذي كان وراء اكتفاء القرآن الكريم بذكر هذا الموقف الخاص لبني اسرائيل دون غيره لانه هو الذي يحقق هذا الغرض، خصوصا إذا

---

(١) المائدة: ٢٠ - ٢٦. (٢) المائدة: ١٩. (*)

عرفنا أن هذه القصة مما يؤمن به اليهود والنصارى. كما أن هذا الجانب من القصة لم يذكر في القرآن الكريم إلا في هذا الموضع. الموضع الرابع: الايات التي جاءت في سورة الاعراف والتي تبدأ بقوله تعالى: (ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا الى فرعون وملئه فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) والتي تختم بقوله تعالى: (وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون) (١). ونلاحظ في هذا الموضع من القصة عدة امور: الاول: أن القصة جاءت في عرض قصصي مشترك مع قصة نوح، وهود، ولوط، وشعيب، تكاد تتحدد فيه صيغة الدعوة والتكذيب والعقاب الذي ينزل بالمكذبين. الثاني: أن هذا العرض القصصي العام يأتي في سياق بيان القرآن الكريم لحقيقة حشر المخلوقات وصورته وأنهم يحشرون امما بكاملهم من الجن والانس، وعلى صعيد واحد يتلاعبون بينهم، أو يتحابون: (قال ادخلوا في امم قد خلت من قبلكم من الجن والانس في النار، كلما دخلت امة لعنت أختها، حتى إذا اداركوا فيها جميعا قالت اخراهم لاولاهم: ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار، قال: لكل ضعف ولكن لا تعلمون) (٢). (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفسا إلا وسعها اولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون * ونزعنا ما في صدورهم من غل تجري من تحتهم الانهار وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق،

---

(١) الاعراف: ١٠٣ - ١٧١. (٢) الاعراف: ٣٨. (*)

ونودوا ان تلكم الجنة اورثتموها بما كنتم تعملون) (١). ثم يعرض القرآن الكريم مشاهد متعددة من هذا الحشر وبعض العلاقات التي تسود الناس فيه، وانه تصديق لدعوة الرسل وما بشروا وأنذروا منه. الثالث: أن القصة على ما جاء فيها من التفصيل واستعراض للحوادث تبدأ في سرد الوقائع من حين بدء البعثة والدعوة، كما انها تذكر الوقائع في حدود المجابهة - التي كان يواجهها الرسول - الخارجية مع فرعون وملئه، والداخلية مع بني اسرائيل وفي اطار بيان ما ينزل بالمكذبين والمنحرفين من عذاب وعقاب واضرار. الرابع: أن القصة تتناول في معرض حديثها عن الحوادث جوانب من المفاهيم الاسلامية العامة والسنن التأريخية كتأكيد أهمية (الصبر)، و (وراثة المتقين للارض)، وأن الرحمة لا تنال إلا الذين اتقوا وآتوا الزكاة وآمنوا بآيات الله واتبعوا الرسول الامي الذي يجدونه مكتوبا عندهم. وعلى أساس هذه الملاحظة يمكن أن نستنتج: أن القصة جاءت منسجمة

مع السياق العام للعرض القصصي ومحققة لاغراضه على ما أشرنا إليه في حديثنا عن أغراض القصة، ومع ذلك فانه لا تغفل عن الفرصة المناسبة لتأكيد المفاهيم الاسلامية العامة منسجمة مع الهدف القرآني العام في التربية. كما أنها تؤكد بصورة خاصة نبوة محمد (صلى الله عليه وآله) وكأنها سيقت بتفاصيلها لتحقيق ربط هذه الدعوات والرسالات بهذه النهاية الخاتمة لها، وان هذه المفاهيم والسنن والاهداف التي عاشتها هذه الرسالات سوف تتحقق في نهاية المطاف في اتباع رسالة الاسلام: (الذين يتبعون الرسول النبي الامي الذي يجدونه مكتوبا عندهم

---

(١) الاعراف: ٤٢ - ٤٣. (*)

في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والاغلال التي كانت عليهم...) (١). على أن هناك شيئا تجدر الاشارة إليه وهو أن القرآن الكريم يهتم عادة بتفصيل قصص الرسل الذين هم من اولي العزم كنوح وابراهيم وموسى وعيسى، ذلك لاغراض متعددة (٢) يمكن أن يكون من جملتها: أ - ان هؤلاء الانبياء يمثلون مراحل مختلفة لرسالة السماء، وأنهم مع صلة القربى والوحدة في دعوتهم نجدهم يشكلون مواضع فاصلة في تطور الدعوة الدينية النازلة من السماء. ب - ان لبعض هؤلاء الانبياء اتباعا واما عاشت حتى نزول رسالة الاسلام مما يفرض الاهتمام بمعالجة أوضاعهم وعلاقتهم بدعوة الاسلام الجديدة. ج - ان أحداثا مفصلة ومختلفة عاشها هؤلاء مع اممهم وأقوامهم تمثل جوانب عديدة مما تعيشه كل دعوة دينية عامة واسعة النطاق تستهدف تغييرا جذريا لواقع ذلك المجتمع. الموضع الخامس: الايات التي جاءت في سورة يونس والتي تبدأ بقوله تعالى: (ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون الى فرعون وملئه باياتنا فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين) (٣) والتي تختم بقوله تعالى: (ولقد بوأنا بني اسرائيل مبوأ صدق ورزقناهم من الطيبات فما اختلفوا حتى جاءهم العلم ان ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) (٤).

---

(١) الاعراف: ١٥٧. (٢) تحدثنا عن هذا الموضوع بشئ من التفصيل في بداية هذا الفصل. (٣) يونس: ٧٥. (٤) يونس: ٩٣. (*)

وتلاحظ في هذا المقطع القرآني من القصة الامور التالية: اولا: إن المقطع جاء بعد مقارنة عرضها القرآن الكريم بين مصير اتباع الحق والمؤمنين بالله وبالرسل والمصدقين بهم، ومصير اتباع الباطل والمفترين على الله والمكذبين بالرسل: (الذين آمنوا وكانوا يتقون * لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الاخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم... قل ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون * متاع في الدنيا ثم الينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون) (١). ثانيا: إن هذا المقطع من القصة جاء بعد اشارة قصيرة الى نبأ نوح وقومه، تتبعها لمحة عامة عن الرسل من بعد نوح وموقف قومهم منهم. ثالثا: إن المقطع لا يتناول من التفاصيل الا القدر الذي يرتبط بموقف فرعون وملئه من موسى والمصير الذي لاقاه هؤلاء،

نتيجة لاعراضهم عن الدعوة وتكذيبهم بها كما انه يشير الى نهاية بني اسرائيل الطيبة بعد معاناتهم الطويلة في المجتمع الفرعوني. وبعد هذه الملاحظة يمكن ان نستنتج: أن القصة انما جاءت هنا من أجل تصديق (الحقيقة) التي ذكرها القرآن الكريم في مقارنته بين الذين آمنوا والذين يفترون على الله الكذب. كما ان السياق العام هو الذي فرض مجئ القصة بشئ من التفصيل لان قصة موسى تمثل بتفاصيلها الانقسام بين جماعتين، احداهما مؤمنة به، والاخرى كافرة بدعوته، حيث يقع الصراع بينهما وينتهي بالغلبة للمؤمنين على الكافرين، بخلاف قصص الانبياء الاخرين فانها تعرض في القرآن الكريم على أساس أن النبي لم يؤمن به إلا النزر اليسير من الناس، ولذلك ينزل العذاب بقومه بشكل عام، فهذه

---

(١) يونس: ٦٣ - ٧٠. (*)

القصص تمثل جانبا واحدا من المقارنة وهو جانب المصير الذي يواجهه المكذبون والمنحرفون، بخلاف قصة موسى فانها تمثل الجانبين معا: جانب المؤمنين وجانب المكذبين، ومن هنا يمكن أن نفسر مجئ قصة نوح في هذا الموضع مختصرة مع الاشارة العامة لموقف بقية الانبياء. إضافة الى ان نوحا يمثل بداية الانبياء الذي لاقى قومهم العذاب في قصص القرآن وموسى يمثل نهايتهم وختامهم. ويؤكد هذا التفسير لسياق القصة ما أشرنا إليه في الملاحظة الثالثة من أن التفاصيل التي تناولها المقطع انحصرت في بيان التزام بني اسرائيل الحق، دون أن تتعرض الى الجوانب الاخرى لموقفهم، والتي تمثل الانحراف والعصيان لاوامر موسى، وهذا الالتزام يكاد يشعرنا ان القصة سيقت لابراز صدق هذه المقارنة في التأريخ الانساني والتي كانت تتحكم في المواجهة التي يلاقيها الانبياء. ومن الممكن أن نلاحظ في تكرار القصة بهذا المقطع ملامح السبب الرابع من أسباب التكرار التي ذكرناها سابقا، حيث إن طريقة عرض القصة في هذا المقطع حققت غرضا معينا ما كان يحصل لو عرضت القصة بجميع تفاصيلها كما أشرنا. الموضع السادس: الايات التي جاءت في سورة هود وهي قوله تعالى: (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين * الى فرعون وملئه فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد * يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود * واتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود) (١). ويلاحظ في هذا المقطع القرآني من القصة ما يلي:

---

(١) هود: ٩٦ - ٩٩. (*)

اولا: إنه جاء في عرض قصصي عام يبدأ بنوح (عليه السلام) ويختم بهذه اللمحة عن قصة موسى (عليه السلام). ثانيا: إن هذا العرض العام جاء في سياق الحديث عن مكذبي الرسول (صلى الله عليه وآله) وما يجب أن يكون الموقف العام منهم والمصير الذي ينتظرهم في الاخرة، كما انه يختم العرض بما يشبه بيان الغاية منه، وهو قوله تعالى: (ذلك من انباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد * وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون

من دون الله من شئ لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيت * وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد) (١). ثالثا: إن المقطع جاء لمحة عابرة عن القصة ونهايتها على خلاف قصص الانبياء الاخرين التي جاءت في شئ من التفصيل. ومن هنا يمكن أن نستنتج أن الاتيان بهذا المقطع من القصة كان من أجل إكمال الصورة التي بدأها بنوح وأراد القرآن الكريم ان يختمها بموسى، ليظهر بذلك الارتباط الوثيق بين اسلوب الانبياء في الدعوة الى الله وجهودهم في سبيل هذه الغاية والمواجهة التي كانوا يلاقونها من اممهم واقوامهم، والنتيجة الحاسمة التي كان ينتهي إليها مصير هذه الامم من العذاب الشديد والعقاب القاسي. الموضع السابع: الايات التي جاءت في سورة ابراهيم وهي قوله تعالى: (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا ان أخرج قومك من الظلمات الى النور وذكرهم بأيام الله ان في ذلك لايات لكل صبار شكور * واذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ انجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون ابناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم * وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لازيدنكم ولئن كفرتم ان

---

(١) هود: ١٠٠ - ١٠٢. (*)

عذابي لشديد * وقال موسى ان تكفروا انتم ومن في الارض جميعا فان الله لغني حميد) (١). ويلاحظ في هذا المقطع القرآني من القصة ما يلي: أولا: إن القرآن الكريم قد مهد لهذه الاشارة بقوله: (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم) (٢). ثانيا: إن القرآن يتحدث بعد هذا المقطع من القصة عن المفاهيم العامة التي كان يطرحها الرسل، والاساليب التي كانوا يسلكونها لتحقيق أغراضهم الرسالية. ثالثا: إن الحديث عن القصة في المقطع جاء بشكل مختصر وقد أكد المشكلة العامة التي كان يعانيها الاسرائيليون، والنعمة العامة التي تفضل بها عليهم والدعوة لشكر النعمة وان الله لا يضره كفرانها. ومن هنا يمكن أن نستنتج: أن المقطع قصد به التمثيل على صدق الحقيقة التي أشار إليها القرآن الكريم من مجئ كل رسول بلسان قومه، حيث قد يراد بلسان القوم اللغة التي يتكلم بها القوم - كما لعله هو الظاهر - ولكن قد يراد من اللسان - كما يشير إليه السياق - هو الجوانب والمشاكل الاجتماعية والسياسية والانسانية المثيرة التي تستقطب اهتمام الامة ونظرتها ومشاعرها، فيكون تأكيدها اسلوبا ولسانا لالفات نظر الامة الى الدعوة وقيمتها الروحية والاجتماعية، ولذا جاءت قصة موسى مثالا لهذه الحقيقة لانه دعا لانقاذ قومه من مشكلة اجتماعية عامة كانوا يعانونها. ولعل ما يؤكد هذا القصد هو أن العرض جاء بلسان الخطاب الى القوم لا بلسان الحديث عن القضايا والاحداث.

---

(١) ابراهيم: ٥ - ٨. (٢) ابراهيم: ٤. (*)

ولما كانت الغاية الحقيقية من ارسال الرسل هي هداية الناس وارشادهم، لذلك نجدالقرآن الكريم، بعد هذه الاشارة الى قصة موسى وتصديق الحقيقة يعود فيتحدث عن المفاهيم العامة التي كان يطرحها الرسل، على أساس انها الشئ المطلوب من الناس التصديق به، دون أن يكون للاسلوب المعين المتبع في تحقيق هذا الهدف أهمية ذاتية خاصة. الموضع الثامن: الايات التي جاءت في سورة الاسراء وهي قوله تعالى: (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بني اسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون اني لاظنك يا موسى مسحورا * قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء الا رب السماوات والارض بصائر واني لاظنك يا فرعون مثبورا * فأراد أن يستفزهم من الارض فأغرقناه ومن معه جميعا * وقلنا من بعده لبني اسرائيل اسكنوا الارض فإذا جاء وعد الاخرة جئنا بكم لفيفا) (١). ويلاحظ في هذا المقطع القرآني من القصة ما يلي: اولا: أنه جاء في سياق المطاليب التعجيزية المتعددة التي كان يقترحها المشركون والكفار على الرسول (صلى الله عليه وآله) وعدم اكتفائهم بالقرآن الكريم دليلا ومعجزة على النبوة: (ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس الا كفورا * وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا * أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيرا * أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا) (٢). ثانيا: إن القرآن الكريم يعقب على القصة بالحديث عن القرآن بقوله:

---

(١) الاسراء: ١٠١ - ١٠٤. (٢) الاسراء: ٨٩ - ٩٢. (*)

(وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما ارسلناك الا مبشرا ونذيرا) (١). ثالثا: إن القرآن لم يشر في هذا المقطع من القصة الا الى الايات التسع التي جاء بها موسى، ورفض فرعون لدعوته ومصيره نتيجة لهذا الرفض. ويمكن أن نستنتج من هذه الملاحظة: أن القصة انما جاءت هنا شاهدا على أن هذه المطالب المتعددة التي صدرت من الكفار لم تكن بسبب حاجة نفسية يحسها هؤلاء الكافرون تجاه هذه المطاليب وانما هو اسلوب عام يتذرع به الكفار للتمادي في الضلال والاصرار عليه، والشاهد على ذلك قصة موسى (عليه السلام)، حيث جاء موسى بتسع آيات ومع ذلك فقد كان موقف فرعون منها موقف المكذبين، بالرغم من أن هذه الايات التسع جاءت في أزمنة متعددة. فالسياق هو الذي فرض الاتيان بالقصة على أساس الاستشهاد بها وهذا شئ تفرضه طبيعة الواقع التأريخي لرسالة موسى الذي أرسله الله سبحانه بالايات التسع. كما ان التكرار كان بسبب تأكيد مفهومين: الاول: أن طلبات الكفار وتمنياتهم ليست نتيجة لواقع نفسي يدعوهم الى الشك بالرسالة ويفرض عليهم التأكد من صحتها، ولا يكون عدم اتيان الرسول بمطاليبهم حينئذ بسبب فقدان صلته بالسماء، وانما بسبب كفاية القرآن الكريم لاقامة الحجة عليهم، كما دلت الاية الكريمة بعد القصة على ذلك. الثاني: ان مصير هؤلاء المكذبين كمصير فرعون من الهلاك والهزيمة، وان اتباع النبي يصيرون الى ما صار عليه بنو اسرائيل من وراثة الارض.

---

(١) الاسراء: ١٠٥. (*)

الموضع التاسع: الايات التي جاءت في سورة الكهف والتي تبدأ بقوله تعالى: (وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقبا * فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سربا) (١) والتي تختم بقوله تعالى: (وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا) (٢). ويبدو هذا المقطع منفصلا عن قصة موسى المذكورة في مواضع مختلفة من القرآن الكريم، لانه يتحدث عن جانب معين من شخصية هذا الانسان يختلف عن الجوانب الاخرى التي تصورها القصة، والتي تظهر فيها شخصية موسى النبي صاحب الرسالة والدعوة الذي يجاهد من أجل التوحيد واقامة العدل الالهي والدفاع عن المستضعفين، أو تتحدد فيها معالم هذه الشخصية من خلال سيرته ونشأته الذاتية، أما هنا فيبدو موسى الانسان الذي يسير في طريق التعلم والحريص على تفسير الظواهر غير العادية. وحين نلاحظ أن القرآن الكريم يأتي بهذا المقطع في سياق قوله تعالى: (وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا * تلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا) (٣) قد نستنتج أن الاتيان به كان من أجل التدليل على مدى مطابقة الحكمة الالهية للمصلحة وانسجامها مع واقع الاشياء مهما بدت غير واضحة المقصد والهدف.

---

(١) الكهف: ٦٠ - ٦١. (٢) الكهف: ٨٢. (٣) الكهف: ٥٨ - ٥٩. (*)

فان هاتين الايتين اللتين جاء المقطع في سياقهما تشيران الى وجود حكمة الهية من وراء تأخير العذاب وعدم التعجيل به مع استحقاق الظالمين له، مع انه قد يبدو في النظرة السطحية الانسانية ان التعجيل بالعذاب أوفق بالمصلحة، حيث يكون رادعا للاخرين عن الظلم، فجاء المقطع تأكيدا لحقيقة الحكمة الالهية ونظرتها البعيدة، وان هذه الحكمة قد تخفى حتى على الانبياء أنفسهم، حيث نلاحظ في هذا المقطع ثلاثة أعمال وتصرفات يقوم بها العبد الصالح كلها تبدو في ظاهرها أنها بعيدة عن العدل والمصلحة، الامر الذي يثير استغراب موسى الى الحد الذي يجعله يتخلى عن التزامه السابق بعدم السؤال، ثم يشرح العبد الصالح هذه الاعمال ويبين مدى انسجامها مع العدل والمصلحة العامة. فالسياق العام للسورة هو الذي فرض الاتيان بالقصة في هذا المورد، ولا حاجة الى تكراره في مواضع اخرى مستقلا أو في سرد الحوادث لانه، لا يحقق الغرض الذي جئ به في هذا المورد. الموضع العاشر: الايات التي جاءت في سورة مريم وهي قوله تعالى: (واذكر في الكتاب موسى انه كان مخلصا وكان رسولا نبيا * وناديناه من جانب الطور الايمن وقربناه نجيا * ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا) (١). وقد جاءت هذه اللمحة من القصة في عرض قصصي مشترك عن الانبياء، وذلك بصدد تعداد من أنعم الله عليهم من عباده وانبيائه، ومقارنتهم بمن خلف بعدهم ممن أضاع الصلاة واتبع الشهوات: (اولئك الذين انعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية ابراهيم واسرائيل وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا * فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة

(١) مريم: ٥١ - ٥٣. (*)

واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا) (١). فالسياق العام هو الذي فرض مجئ هذه القصة بهذا الشكل من العرض والاختصار وذلك لتعداد العباد الصالحين ونعمة الله عليهم. الموضع الحادي عشر: الايات التي جاءت في سورة طه والتي تبدأ بقوله تعالى: (وهل أتاك حديث موسى * إذ رأى نارا فقال لاهله امكثوا اني آنست نارا لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى) (٢). والتي تختم بقوله تعالى: (قال فاذهب فان لك في الحياة أن تقول لا مساس وان لك موعدا لن تخلفه وانظر الى الهك الذي ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفه في اليم نسفا انما الهكم الله الذي لا اله الا هو وسع كل شئ علما) (٣). ونلاحظ في هذا المقطع القرآني من القصة الامور التالية: الاول: ان القصة جاءت في سياق بيان أن القرآن الكريم لم ينزل من أجل أن يشقى النبي ويتألم، لمجرد أن قومه لم يؤمنوا به أو يظن في نفسه التخلف والتقصير أو القصور عن أداء الرسالة، وانما نزل القرآن تذكرة لمن يخشى من الناس: (طه * ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى * إلا تذكرة لمن يخشى) (٤). الثاني: ان هذا المقطع القرآني ينتهي بقوله: (كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكرا) (٥). الثالث: ان المقطع يؤكد بشكل خاص ملامح معاناة النبي موسى (عليه السلام) في سبيل

(١) مريم: ٥٨ - ٥٩. (٢) طه: ٩ - ١٠. (٣) طه: ٩٧ - ٩٨. (٤) طه: ١ - ٣. (٥) طه: ٩٩. (*)

الدعوة، سواء في ذلك المعاناة النابعة من الذات: من الانفعالات والمخاوف النفسية أو الحرص الشديد على نجاح الدعوة وسلامتها والتزام أبنائها بها، أو التي تكون نتيجة العقبات والمشاكل والصعوبات التي تثار عند المواجهة والتطبيق سواء من قبل الكافرين بالدعوة أصلا أو المؤمنين بها، أو نعم الله وألطافه به من خلال ذلك. فهناك عدة انعكاسات لمواقف الرسالة والدعوة في ذات موسى: الاول: مفاجأته بالرسالة، وكذلك فزعه من المعجزة وتحول العصا الى حية. الثاني: تردده في الاقدام على الدعوة بمفرده، وطلبه انضمام أخيه هارون إليه. الثالث: خوفه مع أخيه من التحدث الى فرعون ومواجهته بالدعوة، مع أنهما امرا أن يقولا قولا لينا. الرابع: احساسه بالخوف من سحرهم وتوجسه من نتائج المباراة. الخامس: موقفه مع ربه في المواعدة ومخاطبة الله له بأنه قد أعجل عن قومه. السادس: غضب موسى وأسفه وموقفه الصارم من قومه وأخيه والسامري. وقد صاغ القرآن الكريم هذه الانفعالات من خلال طريقة العرض على الشكل الذي يؤكد معاناة النبي ويبرز ملامح شخصيته، حيث كان يؤكد في طريقة العرض ضمير المخاطبة سواء بين الله وموسى أو بين موسى والاخرين. وإضافة الى ذلك نجد أمام موسى (عليه السلام) مجموعة من العقبات والمشاكل الحقيقية المهمة مثل محاولة السحرة تضليل الناس، أو استخدام فرعون لاسلوب القمع والتهديد به، أو مطاردة فرعون وجيشه لموسى وبني اسرائيل في محاولتهم للعبور، أو فتنة السامري للاسرائيليين وتمردهم على هارون. وعلى هذا الاساس يمكن أن نستنتج: أولا: إن القصة سيقت

لابراز معاناة الانبياء في دعواتهم بصفتها نتيجة طبيعية لعظم المسؤولية التي يتحملونها والمشاكل التي تواجههم، وبشكل خاص تشير

الى المعاناة الذاتية، ويشهد لذلك أن القصة تؤكد المواقف التي تظهر فيها انفعالات الرسول كما انها تؤكد ما ينعم به الله على الرسول خلال المجابهة، وحين ينتهي عرض دور الانفعال نجد القصة تنتقل الى عرض الدور الاخر دون أن تقف عند المشاهد الاخرى، فهي مثلا تنتقل من العبور الى المواعدة رأسا. كما اننا حين نقارن بين هذا المورد الطويل من القصة والمورد السابق الطويل منها الذي جاء في سورة الاعراف، أو المورد الثالث الطويل منها الذي يأتي في سورة القصص نجد هذا المورد هو الوحيد بينها يؤكد بهذا التفصيل هذه الملامح لشخصية الرسول. ثانيا: إن السبب الذي فرض على القصة هذا الاسلوب الخاص من العرض والتصوير واقتضى في نفس الوقت بعض التكرار هو مخاطبة الرسول وتخفيف الالم والعذاب النفسي اللذين كان يعانيهما تجاه الدعوة ويدلنا على ذلك ما لاحظناه في الامر الاول والثاني، حيث استهدف القرآن الكريم ابراز الصلة الوثيقة بين ما يعانيه رسول الله (صلى الله عليه وآله) في دعوته وبين ما كان الانبياء السابقون يعانونه: (ما انزلنا عليك القرآن لتشقى * الا تذكرة لمن يخشى) (كذلك نقص عليك من انباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكرا). الموضع الثاني عشر: الايات التي جاءت في سورة الشعراء والتي تبدأ القصة فيه بقوله تعالى: (واذ نادى ربك موسى ان ائت القوم الظالمين * قوم فرعون الا يتقون) (١) والتي تختم بقوله تعالى: (ان في ذلك لاية وما كان أكثرهم مؤمنين * وان ربك لهو العزيز الرحيم) (٢). ويلاحظ في هذا المقطع القرآني من القصة الامور التالية:

(١) الشعراء: ١٠ - ١١. (٢) الشعراء: ٦٧ - ٦٨. (*)

الاول: أن المقطع من القصة جاء بعد عتاب من الله سبحانه لرسوله محمد (صلى الله عليه وآله) في اجهاده لنفسه وارهاقها حتى يكاد يقتلها بسبب ان قومه لم يكونوا مؤمنين: (لعلك باخع نفسك الا يكونوا مؤمنين) (١) وبعد هذا العتاب يذكر القرآن الكريم قانونا اجتماعيا يتحكم في التأريخ وهو أن كل ذكر جديد من الله سبحانه يحدث ردة فعل كهذه لدى الكفار حيث يقاومونه ويعرضون عنه، ولم يكن ذلك بسبب عجز الله سبحانه وعدم قدرته على اخضاعهم لرسالته وارغامهم عليها: (إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين * وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين) (٢). الثاني: أن القرآن الكريم ينبه - بعد هذا التفسير العام للتأريخ - الى أن هذا الموقف العام للكافرين تجاه الذكر لم يكن بسبب عدم توفر الدليل الصالح على صحة الرسالة: (أو لم يروا الى الارض كم انبتنا فيها من كل زوج كريم * ان في ذلك لاية وما كان اكثرهم مؤمنين * وان ربك لهو العزيز الرحيم) (٣). الثالث: أن هذا المقطع جاء في عرض قصصي مشترك للانبياء يتميز بطابع خاص الى جانب هذا التفسير التأريخي للموقف العام وهو أن كل نبي نجده يبذل جهده في استعمال الاساليب المختلفة من الكلام اللين الهادئ أو التذكير بالنعم الالهية الظاهرة التي يتمتع بها

أقوامهم، وقد يعضد أقواله هذه أحيانا بآية ومعجزة سماوية تشهد له على صحة دعوته، ومع كل ذلك تكون النتيجة واحدة ويختتم بقوله تعالى: (ان في ذلك لاية وما كان أكثرهم مؤمنين). الرابع: أن القرآن الكريم بعد أن يأتي على نهاية العرض القصصي المشترك هذا

---

(١) الشعراء: ٣. (٢) الشعراء: ٤ - ٥. (٣) الشعراء: ٧ - ٩. (*)

يرجع فيتحدث عن (آيات الكتاب المبين) بوصفها شيئا مرتبطا بالسماء ومتصفا بجميع الصفات التي تبرز هذا الاتصال، مما يسمح لذوي البصيرة والقلوب النيرة ان يطلعوا على واقعه ويهتدوا به. وعلى أساس هذه الملاحظة يمكن أن نستنتج أن القصة جاءت لتحقيق هدفين ضمن عرض قصصي مشترك: أحدهما: ايضاح القانون الطبيعي الذي يتحكم في مواجهة الافكار الالهية الجديدة، وان تلكؤ الكافرين في الايمان بالدعوة الاسلامية ورسالتها ليس بسبب تخلف الرسول (صلى الله عليه وآله) عن المستوى الامثل للعمل والنضال، أو نتيجة لعدم توفر الادلة الكافية على صحة الرسالة، وانما هو قانون عام له أسبابه النفسية والاجتماعية الاخرى وخضعت له الرسالات الالهية كلها. والاخر: ان النهاية سوف تكون لعباد الله الصالحين وانهم هم الذين يرثون الارض، ومن أجل الفات النظر الى هذا الهدف - الذي قد يضيع ضمن العرض العام للقصص - وتأكيده جاءت قصة موسى بشئ من التفصيل الذي يؤكد هذا الجانب، ويمكن أيضا أن نفسر التكرار للقصة بأحد السببين التاليين أو كليهما: الاول: تأكيد هدف وغرض سبق أن استهدفه القرآن الكريم من قصة موسى نفسها في سورة طه وهو التخفيف من الالم الذي يعانيه الرسول (صلى الله عليه وآله) وهذا هو السبب الثاني من الاسباب الموجبة للتكرار. الثاني: أن القصة استهدفت غرضا دينيا جديدا وهو تصوير المفهوم الاسلامي العام عن طبيعة موقف المشركين تجاه الرسالة، وانه هو الموقف العام لهم تجاه كل الرسالات، وهذا هو السبب الاول من الاسباب الموجبة للتكرار. وقد جاءت القصة في اسلوبها وطريقة عرض الاحداث فيها منسجمة مع أهدافها وأغراضها حيث تناولت جوانب معينة من حياة موسى وعرضت بشكل

خاص تنتهي عند هذه الاهداف، فنجد الحديث في القصة مثلا ينتهي عند العبور، كما انها أكدت شكل الاسلوب الذي سار عليه موسى وهارون في مخاطبة فرعون. الموضع الثالث عشر: الايات التي جاءت في سورة النمل والتي تبدأ بقوله تعالى: (إذ قال موسى لاهله اني آنست نارا سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون) (١) والتي تختم بقوله تعالى: (وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) (٢). ويلاحظ في هذا المقطع القصير الذي يتحدث عن القصة بشكل عام الامور التالية: الاول: أن القصة جاءت في سياق التحدث عن الكافرين بالاخرة وما سوف يلاقون من عذاب، وعن واقع نزول القرآن وتلقيه: (ان الذين لا يؤمنون بالاخرة زينا لهم اعمالهم فهم يعمهون * اولئك الذين لهم سوء العذاب وهم في الاخرة هم الاخسرون * وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم) (٣). الثاني: أن هذا المقطع يختم بقوله تعالى: (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين). الثالث: أن المقطع على اختصاره

يكاد يختص بذكر الحوادث والايات الغيبية، فهو يذكر المناداة ومعجزة العصا واليد، ويشير الى الايات التسع. وهذه الملاحظة تدعونا لان نستنتج: أن القصة سيقت لاظهار حقيقة من

---

(١) النمل: ٧. (٢) النمل: ١٤. (٣) النمل: ٤ - ٦. (*)

الحقائق التي ترتبط بالجانب النفسي للمجتمع الذي يواجه دعوة جديدة، وهذه الحقيقة هي أن نكران الاخرة وعدم الايمان بها انما يقوم على أساس نفسي وعاطفي لا على أساس موضوعي ودراسة علمية، هذا الشئ الذي عبر عنه القرآن الكريم بالجحود، وذلك لان الدراسة الموضوعية كانت تقتضي ان تنتهي الحالة بالناس الى الايمان بالاخرة بعد ان أكدت الايات والمعاجز ارتباط النبي بعالم الغيب، وهذه الايات والمعاجز توفر عناصر اليقين عند الانسان العادي الذي يعيش وضعية عاطفية مستوية ومستقيمة ونتيجة لذلك (وهو عدم الايمان بالرغم من توفر الادلة والحجج) ينزل العذاب بالكافرين بعد أن لم يستجيبوا للحقائق والادلة. ولا يفوتنا ان ننبه هنا الى نكتة دقيقة ولطيفة وشاهد يؤكد لنا أن القصة سيقت لهذا الغرض هو أن القرآن يصور لنا خوف موسى من العصا بالشكل الذي يدعوه الى الهروب، وفي هذا تأكيد ان هذا التحول في حالة (العصا) كان نتيجة تدخل غيبي ولذا ترك أثره على موسى نفسه، لا أنه نتيجة عمل بشري قام به موسى، ولعل السر في تكرار القصة هنا هو السببان التاليان: الاول: أن المقطع جاء في عرض قصصي مشترك لتأكيد تفسير اسلامي لموقف المنكرين للقرآن والدعوة على اساس عدم كفاية الايات والمعجزات لاثباتها وقد عرفنا في هذا التأكيد السبب الثاني للتكرار كما سبق. الثاني: أن القصة جاءت مختصرة في تصوير الموقف وهذا يدعونا لان نرى أنها وردت في مرحلة متقدمة من مراحل الدعوة حين كان يعالج القرآن مشاكلها بشكل مختصر، وهذا ما ذكرناه سببا ثالثا للتكرار. الموضع الرابع عشر: الايات التي جاءت في سورة القصص والتي تبدأ بقوله تعالى: (نتلو عليك من

نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون) (١) والتي تختم بقوله تعالى: (وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين) (٢). ويلاحظ في هذا المقطع من القصة الامور التالية: الاول: أن السورة تكاد تبدأ بالقصة دون ان يسبقها شئ عدا آيتين: هما قوله تعالى: (طسم * تلك آيات الكتاب المبين) (٣). الثاني: أن القرآن الكريم يأتي في سياق القصة بعدها بقوله تعالى: (وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا الى موسى الامر وما كنت من الشاهدين *... وما كنت ثاويا في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين * وما كنت بجانب الطور إذ ناديا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون) (٤). الثالث: ان القصة تذكر تفاصيل وحوادث ذات طابع شخصي من حياة موسى (عليه السلام) تكاد تكون جانبيه، كحادثة القائه في اليم، واستنقاذ آل فرعون له، ورفضه للرضاعة من غير امه، وقتله الرجل ثم محاولته قتل الاخر وهروبه، ثم قضية زواجه مع تفاصيلها. الرابع: ان القصة تبدأ بذكر أحكام عامة عن الوضع الاجتماعي حينذاك والغاية المتوخاة من تغييره: (ان فرعون علا في الارض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبنائهم ويستحي نساءهم انه كان من المفسدين

* ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين * ونمكن

---

(١) القصص: ٢. (٢) القصص: ٤٢. (٣) القصص: ١ - ٢. (٤) القصص: ٤٤ - ٤٦. (*)

لهم في الارض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) (١). وعلى ضوء هذه الملاحظة يمكن أن نستنتج ان القصة استهدفت أمرين: الاول: ان القرآن الكريم كتاب منزل من الله سبحانه وتعالى وانه ليس من صنع محمد (صلى الله عليه وآله)، وهذا هو الهدف الرئيس من سرد القصة في هذا المورد - كما يشير الى ذلك الامر الاول والثاني - وهو في نفس الوقت من الاهداف المهمة التي يؤكدها القرآن الكريم في مناسبات كثيرة لما له من تأثير في سير الدعوة. وبهذا يمكن أن نفسر ما أشرنا إليه في الامر الثالث، لان في الحديث عن تفاصيل جانبية من حياة الرسول دلالة قوية على ارتباط القرآن بعالم الغيب، حيث من المفروض أن لا يطلع على هذه التفاصيل جميع الناس لا نها تعيش حياة الرسول حين كان فردا عاديا في المجتمع، على خلاف تفاصيل حياته بعد النبوة فانها - بطبيعة الحال - تكون معروفة للناس لتسليط الاضواء على شخصيته من قبلهم. الثاني: ايضاح أن عملية التغيير الاجتماعي قد تتم حتى في أبعد الظروف ملاءمة واحتمالا، وفي ظل أشد ظروف الظلم والاضطهاد والطغيان، بحيث تبدأ عملية التغيير من نقطة هي في منتهى البعد والضعف نسبة لهذه العملية وذلك نتيجة للايمان الواعي بالله وما يستلزمه ذلك من الاصرار والصبر على تبني العقيدة والنضال من أجلها. ولذلك نجد القصة في هذا الموضع تؤكد ملامح الاضطهاد الذي كان يعانيه المجتمع بشكل عام والاسرائيليون بشكل خاص، كما تؤكد الوضع القاسي الذي كان يعيشه شخص الرسول في كونه منذ البداية في معرض خطر الموت والهلاك، ثم مطاردا من المجتمع بتهمة القتل العدواني، ثم مهاجرا وبعيدا عن المواقع الطبيعية لحركة التغيير. وفي هذين الهدفين ما يبرر التكرار الذي يمكن أن يكون بالسبب

---

(١) القصص: ٤ - ٦. (*)

الاول أو الثاني من أسباب التكرار. الموضع الخامس عشر: الايات التي جاءت في سورة المؤمن والتي تبدأ بقوله تعالى: (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين * الى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب) (١) والتي تختم بقوله تعالى: (فستذكرون ما أقول لكم وافوض أمري الى الله ان الله بصير بالعباد * فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب) (٢). ويلاحظ في هذا المقطع من القصة ما يلي: الاول: ان السورة التي جاء فيها هذا المقطع تتحدث في مطلعها عن مصير من يجادل في آيات الله: (ما يجادل في آيات الله الا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد) (٣). الثاني: ان القصة تأتي في سياق أن هذا المصير للمجادلين نتيجة طبيعية لعنادهم بعد أن تأتيهم البينات فيكفرون بها: (أو لم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم

أشد منهم قوة وآثارا في الارض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق) (٤). الثالث: أن القصة تؤكد بشكل واضح موقف مؤمن آل فرعون والاساليب التي استعملها في دعوته لهم ومحاولته ذات الجانب العاطفي في هدايتهم مع تذكيرهم بمصير من سبقهم من الامم وما ينتظرهم نتيجة لعنادهم وكفرهم. وقبالة هذا الموقف يظهر لنا موقف فرعون وقد تمادى في غيه حتى حاول أن يطلع على اله موسى.

---

(١) المؤمن: ٢٣ - ٢٤. (٢) المؤمن: ٤٤ - ٤٥. (٣) المؤمن: ٤. (٤) المؤمن: ٢١. (*)

وعلى هذا الاساس يمكن أن نستنتج: أن القصة سيقت لتوضيح مصير من يجادل في آيات الله، مع ايضاح الفرق بين الاسلوب الذي يستعمله الداعية والاسلوب الذي يستعمله المجادل والكافر، وان العذاب لا ينزل بهؤلاء إلا بعد أن تتم الحجة عليهم. وان الهداية والحجة من الوضوح بحيث يمكن أن يقتنع بها حتى اولئك الاشخاص الذين يعيشون في الوسط المتنفذ والمترف - كما هو الحال بالنسبة الى مؤمن آل فرعون - كما انها تؤكد الدور الذي يجب أن يقوم به الانسان تجاه هداية الاخرين، وأنها مسؤولية شرعية وانسانية يتحملها كل الناس حتى لو كان من الوسط الضال، كما فعل مؤمن آل فرعون. وفي هذا العرض القرآني للقصة يظهر لنا أيضا هذا الامتزاج بين الرحمة والغفران، وبين النقمة وشدة العذاب: (غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير) (١) فان الله سبحانه يجعل تحت متناول عقول عباده وأنظارهم آياته وأدلته وبراهينه، ويتوسل الى هدايتهم بالوسائل المختلفة التي لا تشل عنصر الاختيار فيهم، كل ذلك رحمة منه وفسحة لقبول التوبة والاستغفار، ولكنه مع ذلك لا يعجزه شئ عن عقابهم أو القدرة على انزال العذاب فيهم. الموضع السادس عشر: الايات التي جاءت في سورة الزخرف والتي تبدأ بقوله تعالى: (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا الى فرعون وملئه فقال اني رسول رب العالمين) (٢) والتي تختم بقوله تعالى: (فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين فجعلناهم سلفا ومثلا

---

(١) المؤمن: ٣. (٢) الزخرف: ١٤٠. (*)

للاخرين) (١). ويلاحظ في هذا الموضع من القصة ما يلي: ان هذا المقطع القرآني من القصة جاء في سياق الحديث عن شبهة أثارها الكفار في وجه الدعوة: (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) (٢). وقد ناقش القرآن الكريم هذه الشبهة من ناحيتين: الاولى: أن الرزق والمال ليس عطاء بشريا أو نتيجة للجهد الشخصي والذكاء والعبقرية والفضل فحسب بل هو عطاء الهي له غاية اجتماعية تنظيمية: (أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون) (٣). الثانية: أن هذا العطاء الالهي المادي ليس مرتبطا بالفضل والامتياز عند الله والقربى لديه كما هو شأن العطاء البشري ومقاييسه، بل

قد يكون العكس هو الصحيح: (ولولا أن يكون الناس امة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون) (٤). فان ظاهر هذه الاية الكريمة هو أنه لولا مخافة أن يكون الناس امة واحدة على الكفر لجعلنا لمن يكفر بالرحمن... وقد يكون ذلك تعويضا لهم عما يلحق بهم من الخسران والعذاب في الدار الاخرة فان " الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر " (٥). ومن هذه الملاحظة يمكن أن نستنتج:

---

(١) الزخرف: ٥٥ - ٥٦. (٢) الزخرف: ٣١. (٣) الزخرف: ٣٢. (٤) الزخرف: ٣٣. (٥) من لا يحضره الفقيه ٤: ٣٦٣. (*)

ان هذا المقطع جاء ليضرب مثلا واقعيا تجاه هذه الحقيقة والفكرة التي عاشتها الانسانية، وهذا المثل هو موقف فرعون من دعوة موسى، حيث نزلت الرسالة على شخص فقير مطارد ويتعرض قومه الى الاضطهاد، مع أن فرعون هو صاحب الثروة والغنى. والذي يؤكد هذا الاستنتاج إن المقطع يتبنى اظهار جانب ما يتمتع به فرعون من ثروة وملك وغنى في مقابل موسى الذي هو مهين على حد تعبير فرعون وليس في المواضع الاخرى من القرآن ما يشبه هذا الموقف من فرعون. فالتكرار فرضه السياق القرآني الى جانب تحقيق الغرض الديني. الموضع السابع عشر: الايات التي جاءت في سورة الذاريات وهي قوله تعالى: (وفي موسى إذ أرسلناه الى فرعون بسلطان مبين * فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون * فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم) (١). وهذه اللمحة العابرة التي تأتي في عرض قصصي مشترك عن الانبياء من أجل تعداد آيات الله سبحانه، واثبات صدق الدعوة والنبوة، نجد اسلوب السورة المكية الذي كان يفرض طبيعة الموقف فيه ذكر القصص القرآنية بشكل مختصر وعابر. الموضع الثامن عشر: الاية التي جاءت في سورة الصف: (واذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون اني رسول الله اليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين) (٢). وفي هذه اشارة الى موقف معين لبني اسرائيل تجاه موسى، حيث آذوه مع

---

(١) الذاريات: ٣٨ - ٤٠. (٢) الصف: ٥. (*)

علمهم بنبوته، وقد كان الغرض من الاشارة إليه هو مقارنة موقف أصحاب النبي (صلى الله عليه وآله) تجاهه وموقف هؤلاء تجاه موسى، وكذلك موقف بني اسرائيل تجاه عيسى (عليه السلام) من تكذيبه ومخالفته بعد أن جاءهم بالبينات، وفي هذا تذكير لاصحاب النبي وتحذير لهم من الوقوع في مثل هذه المواقف والمخالفات، وإلا لساروا في طريق النفاق، وكانوا ممن يقولون ما لا يفعلون، كما يدل السياق على ذلك. الموضع التاسع عشر: الايات التي جاءت في سورة النازعات، وهي قوله تعالى: (هل أتاك حديث موسى * إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى * اذهب الى فرعون إنه طغى * فقل هل لك الى أن تزكى * وأهديك الى ربك فتخشى * فأراه الاية الكبرى * فكذب وعصى * ثم أدبر يسعى * فحشر فنادى * فقال أنا ربكم الاعلى * فأخذه الله نكال الاخرة والاولى) (١). وهذا المقطع

القرآني من القصة ينسجم مع السياق العام للسورة التي تتحدث عن الحشر وتصور قدرة الله سبحانه على تحقيقه (بزجرة) واحدة، لان الموقف فيها ينتقل من دعوة موسى لفرعون مع ما له من القدرة الدنيوية وتكبره وتجبره وعظمته، الى أخذ الله سبحانه له نكال الاخرة والاولى، فان هذا الانتقال يصور لنا هذه السرعة والقدرة في الحشر والنشر، ولذا نجد القرآن يرجع بعد اعطاء هذه الصورة الواقعية عن القدرة الى الاستدلال على هذه الحقيقة بأدلة وجدانية: (أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها * رفع سمكها فسواها * وأغطش ليلها وأخرج ضحاها * والارض بعد ذلك دحاها * أخرج منها ماءها ومرعاها * والجبال أرساها) (٢). وهذا المقطع القرآني من القصة ينسجم مع السياق العام للسورة التي تتحدث

---

(١) النازعات: ١٥ - ٢٥. (٢) النازعات: ٢٧ - ٣٢. (*)

عن الحشر وتصور قدرة الله سبحانه على تحقيقه (بزجرة) واحدة، لان الموقف فيها ينتقل من دعوة موسى لفرعون مع ما له من القدرة الدنيوية وتكبره وتجبره وعظمته، الى أخذ الله سبحانه له نكال الاخرة والاولى، فان هذا الانتقال يصور لنا هذه السرعة والقدرة في الحشر والنشر، ولذا نجد القرآن يرجع بعد اعطاء هذه الصورة الواقعية عن القدرة الى الاستدلال على هذه الحقيقة بأدلة وجدانية: (أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها * رفع سمكها فسواها * وأغطش ليلها وأخرج ضحاها * والارض بعد ذلك دحاها * أخرج منها ماءها ومرعاها * والجبال أرساها) (١). ٢ - قصة موسى (عليه السلام) في القرآن بحسب تسلسلها التأريخي (٢): الاسرائيليون في المجتمع المصري: لقد عاش الاسرائيليون في المجتمع المصري وتكاثروا فيه منذ هجرة يوسف وأبيه يعقوب وبقية أولاده الى مصر، وقد اضطهد الفراعنة الاسرائيليين في الحقبة السابقة على ولادة موسى، وبلغ الاضطهاد درجة مريعة حين اتخذ الفراعنة قرارا بذبح أبناء الاسرائيليين واستحياء نسائهم من أجل الخدمة والعمل، فأراد الله سبحانه وتعالى أن يتفضل على هؤلاء المستضعفين وينقذهم من حالتهم هذه فهيأ لهم نبيه موسى فعمل على انقاذهم من الفراعنة (٣) وهدايتهم من المجتمع الوثني الى المجتمع التوحيدي. ولادة موسى وارضاعه: وحين ولد موسى (عليه السلام) أوحى الله سبحانه الى امه أن ترضعه وحين تخاف عليه

---

(١) النازعات: ٢٧ - ٣٢. (٢) نذكر من أحداث القصة بمقدار ما تعرض له القرآن الكريم. (٣) الاعراف: ١٤١، ابراهيم: ٦، القصص: ٣ - ٦. (*)

من الذبح العام فعليها أن تضعه في ما يشبه الصندوق وتلقيه في اليم، وهكذا شاءت ارادة الله أن يلقيه اليم الى الساحل، وإذا بآل فرعون يلتقطونه فيعرفون أنه من أولاد بني اسرائيل، فتدخل امرأة فرعون في شأنه وتطلب أن يتركوه لها على أن تتخذه خادما أو ولدا تأنس به مع فرعون. وقد عاشت والدة موسى لحظات حرجة من حين القائه في اليم، فأمرت اخته أن تقص أثره وتتبع سير الصندوق فتتعرف على مصيره. ففعلت، وحين عرض الطفل على المرضعات أبى أن يقبل واحدة منهن، فانتهزت أخته هذه الفرصة، فعرضت على

آل فرعون أن تدلهم على امرأة مرضعة تتكفل رعايته وحضانته وارضاعه، وكانت هذه المرأة بطبيعة الحال هي ام موسى، وهكذا رجع الطفل الى امه ليطمئن قلبها وتعلم ان ما وعدها الله سبحانه من حفظه وارجاعه إليها حق لا شك فيه. ولقد شب موسى في البلاط الفرعوني حتى إذا بلغ أشده وهبه الله سبحانه العلم والحكمة (١). خروج موسى من مصر: ودخل موسى المدينة في يوم ما (على حين غفلة من أهلها) (متنكرا) فوجد فيها رجلا من شيعته (من الاسرائيليين) يقاتل رجلا آخر من اعدائه (الفرعونيين) فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه، فوكزه موسى فقضى عليه ولم يكن ينتظر موسى أن تؤدي هذه الضربة الى الموت، ولذلك ندم على هذا العمل المتسرع الذي انساق إليه، فاستغفر ربه عليه. وأصبح موسى في المدينة خائفا يترقب أن ينكشف أمره فيؤخذ بدم الفرعوني، فينزل الى المدينة مرة اخرى فإذا به يواجه قضية اخرى متشابهة، وإذا الذي استنصره بالامس فنصره يستصرخه اليوم أيضا، فعاتبه موسى على

---

(١) القصص: ٧ - ١٤، طه: ٣٧ - ٤٠. (*)

عمله ووصفه بأنه غوي مبين يريد توريطه واحراجه، ثم لما (أن أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما) (موسى والاسرائيلي) ظن الاسرائيلي أن موسى يقصد البطش به لا بالفرعوني، فقال لموسى: (أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالامس ان تريد إلا أن تكون جبارا في الارض) وبذلك كشف الاسرائيلي عن هوية قاتل الفرعوني الاول وفضح قتل موسى له، فعمل الملا وهم علية القوم على قتله بدم الفرعوني. (وجاء رجل من أقصى المدينة) وأعاليها يخبر موسى بالامر يقول له: (إن الملا يأتمرون بك ليقتلوك) وطلب منه المبادرة الى الخروج والهروب من الفرعونيين. فخرج موسى من المدينة خائفا يترقب ان يوافيه الطلب أو تصل إليه ايدي الفرعونيين فدعا ربه ان ينجيه من القوم الظالمين (١). موسى في أرض مدين: وانتهى السير بموسى الى أرض مدين فلما وصلها أحس بالامن وانتعش الامل في نفسه فقال: (عسى ربي ان يهديني سواء السبيل * ولما ورد ماء مدين وجد عليه امة من الناس) وهم الرعاة يسقون (ووجد من دونهم امرأتين) في حيرة من امرهما تذودان الاغنام وتجمعانها ولا تسقيان، فأخذه العطف عليهما فقال لهما: (ما خطبكما) ولماذا لا تسقيان ؟ قالتا له: (لا نسقي حتى يصدر الرعاء) وينتهوا من السقي لاننا امرأتان (وابونا شيخ كبير) لا يتمكن من القيام بهذه المهمة الشاقة. فتولى موسى عنهما هذه المهمة، فسقى لهما، ثم انصرف الى ناحية الظل وهو يشكو ألم الجوع والغربة والوحدة فقال: (رب اني لما انزلت الى من خير فقير).

---

(١) القصص: ١٥ - ٢١، وطه: ٤٠. (*)

ولما رجعت الامرأتان الى ابيهما الشيخ وعرف منهما قصة هذا الانسان الغريب الذي سقى لهما بعث الى موسى احداهما لتدعوه إليه فجاءته (تمشي على استحياء قالت إن ابي يدعوك ليجزيك أجر

ما سقيت لنا). فأجاب موسى الدعوة وحين انتهى الى الشيخ طلب منه ان يخبره عن حاله فقص موسى عليه قصة هربه وسببها وحينئذ آمنه الشيخ وقال له: (لا تخف نجوت من القوم الظالمين). وقد طلبت احدى ابنتي الشيخ من ابيها ان يستأجر موسى للعمل عنده وليقوم عنهما ببعض المهام الملقاة على عاتقهما نتيجة عجز الشيخ وضعفه وذلك نظرا لقوة موسى وقدرته على القيام بالعمل مع امانته وشرف نفسه. فقال له الشيخ: (اني اريد ان انكحك احدى ابنتي هاتين) شريطة ان تأجرني نفسك ثماني حجج (سنين) فإذا اتممتها عشرا فذلك من عندك، فوافق موسى على هذا الزواج وتم العقد بينهما (١). بعثة موسى (عليه السلام) ورجوعه الى مصر: وبعد أن قضى موسى الاجل (السنوات العشر) بينه وبين صهره سار بأهله فإذا به يشاهد نارا من جانب الطور الايمن وهو جبل صغير، وقد كان بحاجة إليها، (فقال لاهله امكثوا اني آنست نارا لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى * فلما أتاها) وجد شجرة وجاء نداء الله سبحانه من شاطئ الوادي الايمن في البقعة المباركة من جانب الشجرة: (أني انا الله رب العالمين * فاخلع نعليك انك بالوادي المقدس طوى * وأنا اخترتك (لوحي ورسالتي) فاستمع لما يوحى) اليك. ثم قال الله له: (ما تلك بيمينك يا موسى * قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب اخرى)، قال الله له: (ألقها يا موسى) فإذا هي تتحول الى (حية تسعى)، (فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب)

---

(١) القصص: ٢٢ - ٢٨، طه: ٤٠. (*)

فناداه الله (يا موسى أقبل ولا تخف انك من الامنين) (إني لا يخاف لدي المرسلون) (١) سنعيدها سيرتها الاولى. ثم قال له: (ادخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء) (٢) ومرض، فأدخل يده وإذا بها تخرج بيضاء، ثم ردها فعادت كما كانت. وبعد ذلك أمره الله سبحانه أن يذهب بهاتين الايتين المعجزتين الى فرعون وقومه ليدعوهم الى الله سبحانه، فخاف موسى من تحمل هذه المهمة، فقال: (ربي اني قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلوني * وأخي هارون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي) وذلك من أجل أن (يصدقني إني أخاف أن يكذبوني). قال الله له: (سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون اليكما) (فأتياه (فرعون) فقولا: إنا رسولا ربك فارسل معنا بني اسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك) (٣). وحينما عاد موسى الى مصر توجه مع أخيه هارون الى فرعون فقالا له: إنا رسولا من ربك رب العالمين، ولا يمكن أن نقول على الله غير الحق الذي أرسلنا به وقد جئناك ببينة من ربك فارسل (معنا بني اسرائيل) وارفع عنهم العذاب الذي تنزله فيهم، وقد قالا له ذلك بشكل لين وباسلوب استعطافي هادئ (٤). وكأن فرعون قد استغرب هذه الرسالة من موسى وأخيه لانه كان يعرف

---

(١) القصص: ٢١ والنمل: ١٠. (٢) النمل: ١٢. (٣) الاسراء: ٢ - ٣، طه: ٩ - ٤٧، الفرقان: ٣٥ - ٣٦، القصص: ٢٩ - ٣٥، الشعراء: ١٠ - ١٦، النازعات: ١٥ - ١٩. (٤) الاعراف: ١٠٤ - ١٠٥، الشعراء: ١٧ و ٣٢. (*)

موسى وأحواله، فقال لموسى: (ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين)، ثم بعد ذلك (فعلت فعلتك التي فعلت) بأن قتلت رجلا من الفرعونيين ؟ فأجابه موسى: نعم لقد فعلت ذلك، ولكني لما خفتكم على نفسي فررت منكم (فوهب لي ربي حكما وجعلني من المرسلين) (١). فرعون يجادل موسى في ربوبية الله: وبعد أن رأى فرعون اصرار موسى وهارون على الرسالة (قال فمن ربكما) قال له موسى (ربنا الذي اعطى كل شئ خلقه ثم هدى) وهو رب السماوات والارضين (وما بينهما وما تحت الثرى). قال فرعون (فما بال القرون الاولى) وما هي مصيرها ؟ فأجابه موسى (علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى)، وهو (الذي جعل لكم الارض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وانزل من السماء ماء فأخرجنا به ازواجا من نبات شتى) مختلف ألوانه واشكاله. وقد استنكر فرعون هذه الدعوة الجديدة وهو يعتقد بنفسه الالوهية فتوجه لمن حوله مستنكرا وقال: الا تسمعون ؟ ولما رأى الاصرار من موسى وأخيه اتهم موسى بالجنون وهدده بالسجن إذا اتخذ الها غيره (٢). ولم يستسلم موسى واخوه امام هذه التهمة والتهديد وانما حاولا ان يسلكا الى فرعون طريقا آخر لاقناعه أو احراجه، وهذا الطريق هو استثمار السلاح الذي وضعه الله بيد موسى (معجزة العصا واليد)، فقال موسى لفرعون: اني قد جئتك من ربي بآية تبين لك الحق الذي انا عليه، قال فرعون: إذا كنت صادقا فائت بهذه الاية والحجة (فالقى موسى عصاه فإذا هي ثعبان مبين * ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين). ولم يتمالك فرعون وملؤه انفسهم امام هذا الموقف الا ان اتهموه بالسحر والشعوذة

---

(١) الشعراء: ١٨ - ٢١. (٢) طه: ٤٩ - ٥٥، الشعراء: ٢٤ - ٢٩، (*)

وانه انما جاء بهذا السحر من أجل ان يخرجهم من ارضهم ويجلوهم عنها (١). مباراة موسى مع السحرة: وقد أشار قوم فرعون وخاصته عليه بأن يواجه موسى بالسحرة من بلاده فيجمعهم في يوم يشهده الناس جميعا ليتباروا، وسوف يغلبونه وهم كثيرون فيفتضح أمره ويترك دعوته، وعمل فرعون بهذه النصيحة فطلب من موسى وأخيه أن يعطياه مهلة الى وقت معين لمواجهته بالسحرة. وجمع فرعون كيده وحشد جميع السحرة من بلادهم وعرض عليهم الموقف وطلب منهم أن يحرجوا موسى ويغلبوه، وجمع الناس لهذه المباراة ظنا منه أنه سوف ينتصر، وقد شجعه على ذلك تأكيد السحرة أنهم سوف يغلبون موسى وما طلبه منه السحرة من أجر واعطيات إذا كانوا هم الغالبين. وحين اجتمع موسى بالسحرة خيروه بين أن يلقي قبلهم أو يكونوا هم الملقين قبله، فاختار أن يكونوا هم الملقين، فألقى السحرة (حبالهم وعصيهم) وإذا بها تبدو لاعين الناس - من سحرهم - كأنها تسعى كالحيات، وعندئذ أوجس موسى (في نفسه خيفة) إذ لم يكن ينتظر أن يواجه بالاسلوب الذي اتبعه في معجزته مع فرعون، فأوحى الله سبحانه له أن لا تخف فانك أنت الذي سوف تنتصر عليهم، وانما عليك ان تلقي عصاك وحينئذ تتحول الى حية تلقف جميع ما صنعوا، لان ما صنعوه ليس إلا (كيد ساحر ولا يفلح الساحر). وعندما رأى السحرة هذا الصنع من موسى انكشفت لهم الحقيقة التي ارسل بها، وأن هذا العمل ليس عمل ساحر وانما هو معجزة الهية، فآمنوا وقالوا: (آمنا برب هارون وموسى). وأمام هذا الموقف الرائع من السحرة في هذا المشهد العظيم من الناس وجد

---

(١) الاعراف: ١٠٦ - ١٠٩، الشعراء: ٣٠ - ٣٥، يونس: ٧٥ - ٧٨. (*)

فرعون نفسه في وضع مخز ومحرج، الامر الذي اضطره لان يلجأ الى الانذار والوعيد والتهديد باستخدام أساليب القمع والارهاب، فقال للسحرة: (آمنتم له قبل أن آذن لكم انه لكبيركم الذي علمكم السحر فلاقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولاصلبنكم في جذوع النخل ولتعلمن اينا أشد عذابا وأبقى)، ولم يكن موقف السحرة - بعد أن انكشفت لهم الحقيقة وهداهم الله إليها - إلا ليزداد صلابة وثباتا واستسلاما لله رجاء مغفرته ورحمته (١). اصرار فرعون وقومه على الكفر ومجئ موسى بالايات: وقد أصر فرعون وقومه على الكفر وصمموا على مواصلة خط اضطهاد بني اسرائيل وتعذيبهم، حيث قال الملا من قومه (أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الارض ويذرك وآلهتك ؟ قال سنقتل أبناءهم ونستحي نساءهم وانا فوقهم قاهرون). وواجه موسى وبنو اسرائيل ذلك بالصبر والثبات انتظارا للوقت الذي يحقق الله سبحانه فيه وعده لهم بوراثة الارض. ولكن الله سبحانه أمر موسى أن يعلن لفرعون وقومه بأن العذاب سوف ينزل بهم عقابا على تكذيبهم له وتعذيبهم لبني اسرائيل وامتناعهم عن اطلاقهم وارسالهم، فجاءت الايات السماوية يتلو بعضها بعضا فأصابهم الله بالجدب، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، وكانوا كلما وقع عليهم العذاب والرجز، (قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمن لك ولنرسلن معك بني اسرائيل * فلما كشفنا عنهم الرجز الى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون) (٢).

(١) الاعراف: ١١٠ - ١٢٦، يونس: ٨٠ - ٨٩، طه: ٥٧ - ٧٦، الشعراء: ٣٤ - ٥٢. (٢) الاعراف: ١٢٧ - ١٣٥، غافر: ٢٣ - ٢٧، الاسراء: ١٠١ - ١٠٢، طه: ٥٩، النمل: ١٣ - ١٤، القصص: ٣٦ - ٣٧، الزخرف: ٤٦ - ٥٠، القمر: ٤١ - ٤٢، النازعات: ٢٠ - ٢١. (*)

الائتمار بموسى (عليه السلام) لقتله وطغيان فرعون: وأمام هذه الايات المتتاليات التي جاء بها موسى لم يجد فرعون وقومه اسلوبا يعالج به الموقف، غير الائتمار بموسى لقتله وادعاء القدرة على مواجهة آلهته، فنجد فرعون يأمر هامان بأن يتخذ له صرحا ليطلع منه على أسباب السماوات ويتعرف على حقيقة إله موسى. ولكن فرعون يفشل في كلا الجانبين، فلم يتمكن من أن يحقق غايته من وراء بناء الصرح، كما لم تصل يده الى موسى، لان أحد المؤمنين من آل فرعون يقف فيعظهم ويؤنبهم على موقفهم من موسى، ويبادر الى اخباره بنبأ المؤامرة فينجو (١). خروج موسى (عليه السلام) ببني اسرائيل من مصر: وحين واجه موسى محاولة اغتياله ورأى اصرار فرعون وقومه على اضطهاد بني اسرائيل وتعذيبهم، ووجد أنه لم تنفع بهم الايات والمواعظ، صمم على الخروج ببني اسرائيل من مصر والعبور بهم الى جهة الارض المقدسة، وقد نفذ موسى هذه العملية وسار ببني اسرائيل متجها الى سيناء. ولم يقف فرعون - وقومه معه - امام هذه الهجرة مكتوف اليدين، بل جمع جنده من جميع المدائن وقرر ملاحقة موسى وبنى اسرائيل وارجاعهم الى عبوديته بالقوة. ووجد موسى وبنو اسرائيل نتيجة هذه المطاردة أنفسهم والبحر من امامهم وفرعون وجنوده من خلفهم، وارتاع بنو اسرائيل من هذا الموقف وكادوا يكذبون ما وعدهم به موسى من الخلاص، ولكن موسى بايمانه الوطيد اخبرهم أن الله سبحانه سوف

يهديه طريق النجاة، وتحقق ذلك - فعلا - إذ أوحى الله (الى موسى ان اضرب بعصاك البحر فانفلق كل فرق كالطود العظيم)، ويظهر بينهما طريق

---

(١) القصص: ٣٨، غافر: ٢٨ - ٤٦. (*)

يبس يعبر من خلاله بنو اسرائيل ويحاول فرعون وجنوده أن يتبعوهم من هذا الطريق أيضا، وإذا بجانبي البحر يلتقيان فيغرق مع جنده (١). موسى مع بني اسرائيل: وتتوالى بعد ذلك الاحداث على موسى وإذا به يواجه المشاكل الداخلية منفردا مع قومه بني اسرائيل، فيسمع طلبهم وهم يمرون على قوم يعبدون الاصنام بأن يتخذ لهم أصناما يعبدونها كما أن لهؤلاء اصناما، ثم بعد ذلك يتفضل الله سبحانه على بني اسرائيل عندما استسقوا موسى، فيأمره بضرب الحجر فتتفجر منه العيون كما ينزل عليهم المن والسلوى ويبدلهم عنه ببعض المآكل الاخرى، ويواجه موسى ردة من بني اسرائيل عند ذهابه لميقات ربه لتلقي الشريعة في ألواح التوراة، فيخبره الله تعالى بعبادتهم للعجل الذي صنعه السامري، فيرجع (الى قومه غضبان اسفا) ويعتب بقسوة على أخيه هارون، حيث كان قد استخلفه عليهم مدة ذهابه، ويطرد السامري ويفرض عليه عقوبة المقاطعة، ويحرق العجل وينسفه، ثم يتوب الله على بني اسرائيل بعد أن فرض عليهم عقابا صارما. وعلى هذا المنوال يذكر لنا القرآن الكريم أحداثا مختلفة عن حياة موسى مع بني اسرائيل، كقضية البقرة ونتق الجبل والدعوة للدخول الى الارض المقدسة وذهابهم للمواعدة عندما طلبوا رؤية الله جهرة، وقصة قارون وتآمره مع المنافقين على موسى، وفي بعض هذه الاحداث لا نجد القرآن الكريم يحدد المتقدم منها على الاحداث الاخرى بشكل واضح.

---

(١) الاعراف: ١٣٦ - ١٣٧، يونس: ٩٠ - ٩٢، الاسراء: ١٠٣ - ١٠٤، طه: ٧٧ - ٧٩، الشعراء: ٥٢ - ٦٦، القصص: ٣٩ - ٤٠، الزخرف: ٥٥ - ٥٦، الدخان: ١٧ - ٣١، الذاريات: ٣٨ - ٤٠. (*)

وبهذا القدر نكتفي من سرد القصة حسب تسلسلها الزمني (١). ٣ - دراسة عامة مختصرة لقصة موسى (عليه السلام): بعد أن انتهينا من بحث قصة موسى بحسب ذكرها في القرآن الكريم وعرضها بتسلسلها التأريخي، يجدر بنا أن ندرسها من جانبين يختلفان عن جانب دراستنا السابقة للقصة: الجانب الاول: هو ملاحظة ميزات وخصائص المراحل العامة التي مر بها موسى في حياته. الجانب الثاني: هو ملاحظة الموضوعات التي تحدثت عنها القصة بشكل عام. الاول: مراحل حياة موسى (عليه السلام): وبصدد الجانب الاول نجد موسى (عليه السلام) قد مر بمراحل ثلاث رئيسة خلال حياته، حيث تبدأ المرحلة الاولى بولادته وتنتهي ببعثته الى فرعون وقومه، وتبدأ الثانية من البعثة وتنتهي بالعبور، وتبدأ الثالثة بالخروج وتنتهي بنهاية حياته. ويعتمد هذا التحديد في المراحل الثلاث على المقدار الذي تحدث القرآن الكريم فيه عن حياة موسى (عليه السلام). وتتمثل المرحلة الاولى من حياة موسى في دورين: الاول: ينتهي بخروجه من مصر خائفا. الثاني: هو الذي ينتهي برؤيته النار عند

بعثته. وحين نلاحظ الظواهر العامة في هذين الدورين يبرز لنا موسى في شخصيته

---

(١) تراجع " قصص الانبياء " لعبد الوهاب النجار بصدد الاحداث التي وقعت لموسى مع قومه بني اسرائيل، وان كنا قد لا نتفق معه في بعض الخصوصيات التي يسردها. (*)

ذلك الانسان الذي يريد الله سبحانه أن يعده لاعباء مهمة تخليص بني اسرائيل من الظلم الاجتماعي الذي حاق بهم وتخليص شعب مصر من عبودية الاوثان وهدايتهم لوحدانية الله سبحانه. وتتلخص هذه الظواهر بميزات ثلاث لها دور كبير في شخصية الانسان القائد، وهي كالتالي: الاولى: المركز الاجتماعي الذي كان يتمتع به موسى دون بني اسرائيل نتيجة لتبني العائلة المالكة في مصر تربيته ورعايته. وهذا المركز الاجتماعي الفريد وان كان قد فقد تأثيره - الى حد كبير - بعد هروب موسى من مصر بسبب قتله الفرعوني، ولكننا يمكن أن نتصوره عاملا مهما في اظهار موسى - في المجتمع بشكل عام والاسرائيلي بشكل خاص - شخصية تتبنى قضية الدفاع عن بني اسرائيل وتعمل من أجلها. ولعل ضياع هذا المركز الاجتماعي المهم بسبب قتل الفرعوني هو الذي يفسر لنا نظرة موسى الى قتل الفرعوني - نظرته - الى ذنب يستحق الاستغفار والتوبة منه الى الله تعالى، حيث ضيع موسى بهذا العمل الارتجالي - الذي صدر منه بدوافع نبيلة وصحيحة - فرصة ثمينة كان من الممكن استثمارها في سبيل استنقاذ الشعب الاسرائيلي، خصوصا إذا أخذنا بنظر الاعتبار أن موسى كان يتصف بالعلم والحكمة في هذه المرحلة كما وصفه القرآن الكريم. الثانية: الشعور الانساني والحس النبيل الذي كان يحس به موسى بوصفه انسانا يتحلى بالاخلاق الكاملة، ويتمثل لنا هذا الخلق الانساني في ثلاثة مواقف لموسى جاءت ضمن هذه المرحلة من حياته، وهي: قتله الفرعوني، ومحاولته لضرب الفرعوني الاخر، وتبرعه بمعاونة ابنتي الشيخ الذي اصبح صهرا له بعد ذلك وما يشعر به وصف ابنة الشيخ له بأنه قوي أمين.

فان هذه المواقف تعبر عن المحتوى الداخلي والشعور الانساني الذي كان يعيشه موسى (عليه السلام)، فهو يبادر لنجدة المظلوم بالرغم من تربيته في البيت الفرعوني المالك، هذه التربية التي كان من الممكن أن تعطيه الشعور بالتميز الطبقي الذي يختلف عن عمله الانساني هذا، ثم لا يكتفي بأن يرتكب ذلك مصادفة بل يندفع ليقوم بنفس العمل حين يجد من يستصرخه إليه مع شعوره بحراجة موقفه الاجتماعي نتيجة لهذا العمل. وفي موقفه من ابنتي الشيخ نجد موسى تدفعه ذاته الخيرة النبيلة للسؤال عن تلكئهما في السقاية ويعرض المعاونة عليهما في حالة الحاجة إليها، ونجده يخف الى تنفيذ ذلك دون أن ينتظر منهما أجرا أو مثوبة مادية، على الرغم من ظروفه الموضوعية الخاصة الصعبة. الثالثة: القوة البدنية والشجاعة التي كان يتمتع بها موسى، ويكشف لنا عن ذلك موقفه من الفرعوني وقضاؤه عليه بوكزة واحدة، والالتزام الذي أخذه على نفسه بأن لا يكون ظهيرا للمجرمين حتى بعد قتله الفرعوني الاول وشعوره بحراجة موقفه، ووصف ابنة الشيخ له بأنه (قوي)، خصوصا إذا اخذنا بالتفسير الذي يقول: إن موسى حين سقى لابنتي الشيخ

طرد السقاة عن البئر من أجل أن يعجل بالسقاية لهما. وهذه الميزات الثلاث تحقق شروطا ضرورية لحمل أعباء الرسالة التي أراد الله سبحانه لنبيه موسى القيام بها، ولعل في الامداد الالهي في قصة مولده ونجاته من الذبح عاملا جديدا في خلق الاجواء النفسية والاجتماعية والروحية والظروف المناسبة لتأهيل هذا الانسان لقيادة شعبه المضطهد. وتمثل المرحلة الثانية مسؤوليتين: احداهما: هداية قوم فرعون الى وحدانية الله والايمان بربوبيته.

والاخرى: دعوة بني اسرائيل للخلاص من الاضطهاد والظلم الذي كانوا يعانونه في مصر. وقد توسل موسى من أجل تحقيق هذين الهدفين البارزين في حياة دعوته بأساليب مختلفة ومتعددة، كانت تبتدئ بالمناقشة الهادئة والكلام اللين والحجة التي تعتمد على المنطق والعقل، وتنتهي بالعذاب والرجز الذي أنزله الله سبحانه وتعالى عليهم في آيات عديدة. كما انه من جانب آخر كان يدعو بني اسرائيل الى الاستعانة بالله والصبر على المكاره ومواصلة الطريق من أجل الخلاص. والقرآن الكريم وإن كان لا يتحدث عن المدة التي عاشها موسى من أجل تحقيق ذلك، ولكن من الممكن أن نتبين أن هذه المدة كانت طويلة نسبيا، خصوصا إذا لاحظنا الايات القرآنية التي تشير الى المعجزات التي جاءت على يد موسى وأنها كانت في سنين متعددة. كما يؤيد ذلك أيضا أمر الله سبحانه لموسى بأن يتخذ بيوتا مع قومه ويجعلها قبلة تنطلق منها الدعوة. ويبدو أن موسى لم يصل الى نتيجة واضحة بصدد تحقيق الهدف الاول مع فرعون وقومه، لذا قرر الهجرة ببني اسرائيل والعبور بهم الى الجانب الاخر من البحر. ولا يشير القرآن بشكل قاطع الى أن هذه الحركة في بدايتها كانت برضا فرعون بعد أن شاهد هذه المعجزات وآيات العذاب، أو أنها كانت بدون رضاه، ولكن قد يكون في قصة مطاردة فرعون بجنوده لموسى وبني اسرائيل دلالة على أن الحركة كانت رغما على فرعون وبدون رضاه. ونحن يمكن ان نلاحظ في هذه المرحلة امورا ثلاثة:

الاول: أن بني اسرائيل كانوا يلتفون حول موسى دون أن يكون هناك خلاف في صفوفهم أو دون أن يبرز هذا الخلاف الى السطح الاجتماعي، والقرآن وان كان لا يصرح بشئ من ذلك، ولكن تدعونا الى هذا الحكم طبيعة الاشياء، حيث كان الاسرائيليون بالاصل أهل كتاب ونبوات، كما انهم كانوا يتعرضون لاشد ألوان العذاب، وبذلك هم ينشدون الخلاص. إضافة الى سكوت القرآن عن ابراز أي خلاف بين بني اسرائيل وبين موسى في هذه المرحلة، واستجابة بني اسرائيل الى متابعة موسى في هذه الهجرة من مصر. نعم يشير القرآن الى نقطتين قد يفهم الخلاف منهما، هما: قلة الاشخاص الذين آمنوا بموسى من قومه، واعتراضهم عليه بنزول الاذى، فيهم قبل موسى وبعده. الثاني: أن موسى كان يعمل بوسائل شتى من اجل انجاح دعوته، فكان يتوصل الى ذلك بالمناقشات الهادئة مرة وبالمعاجز والايات ذات الطابع الانتقامي الشديد ثانية، وبالصبر والصمود والانتظار ثالثة. وقد توصل نتيجة لذلك الى تحقيق بعض أهدافه، حيث نجد الدعوة تحقق نجاحا في صفوف بعض الفرعونيين أيضا كايمان السحرة له ووجود ظاهرة مؤمن آل فرعون وايمان زوجة فرعون. الثالث: أن موسى كان يعتمد للحماية من الغضب والانتقام الفرعوني على جهات متعددة يمكن ان نلحظ منها التفاف بني اسرائيل حوله وهم يمثلون امة كبيرة من الناس وان كانت مضطهدة،

ومركزه الاجتماعي السابق في البيت الفرعوني المتميز، واستجابة بعض الفرعونيين لدعوته وخصوصا زوجة فرعون، ولعل موقف مؤمن آل فرعون من الائتمار بموسى لقتله يشير الى العنصر الاخير من الحماية، وكذلك قبول فرعون بالدخول معه في مناقشة ومباراة تمثل العنصر الثاني، إضافة الى قضية الايات والمعاجز وايمان السحرة به.

وتمثل المرحلة الثالثة: جانب استقلال الجماعة والحكم وما يستتبعه من مضاعفات وخلافات، ذلك لان الدعوة في مرحلتها الاولى تعمل من أجل تحقيق أهداف عامة وترفع شعارات معينة، وفي هذه الاهداف والشعارات قد تلتقي آمال الشعب كله وتتجمع تدريجا، وأما حين يأتي دور تحديد هذه الاهداف في صيغ معينة وطريقة خاصة، وتطبيق هذه الشعارات في نهج واسلوب خاص وتجسيدها عمليا فقد نجد بعض الاعضاء في المجموعة لا يلتقي مع هذا التحديد والتطبيق في مصالحه الخاصة أو أفكاره وعقليته الاجتماعية، بل قد تتعارض المصالح الخاصة أو المنافع التي يحصل عليها الانسان في مسيرة عمله أو المواقع التي ينتهي إليها مع هذه الاهداف والشعارات، حيث إن الاهداف والشعارات الالهية الرسالية تنطلق من المبادئ ومتبنيات الفطرة الانسانية التي أودعها الله تعالى في الانسان وهي في البداية لا تبدو أنها متناقضة مع رغبات الانسان وميوله، بل هي محبوبة وحسنة في نظر الانسان خصوصا المظلومين من الناس. وأما في دور التطبيق والتجسيد حيث تتحول هذه المبادئ الى واقع خارجي وحدود وقيود لهذه الحركة أو ذلك الموقف أو لتلك المصلحة، فعندئذ تتناقض مع الهوى والشهوات والطموحات الذاتية للانسان. ولذلك نجد في هذه المرحلة بوادر الخلاف تبدو في الشعب الاسرائيلي، وتطفو على السطح اتجاهات شتى: فكرية ومصلحية ونفسية و... حتى إنها تتحول أحيانا الى المروق عن الدين أو الى التمرد على الجماعة والنظام. ففي جانب الفكر والعقيدة مثلا نجد تأثيرات المجتمع الوثني على الاسرائيليين تظهر بشكل واضح، حيث يطلبون من موسى - عندما مروا على جماعة يعبدون الاوثان - أن يتخذ لهم أصناما وآلهة كما لهؤلاء القوم آلهة، مع ان الاسرائيليين بالاصل هم ذرية إبراهيم وإسحاق ويعقوب الذين حملوا رسالة التوحيد ورفضوا

الوثنية والاصنام، كما تبرز هذه الرواسب والمخلفات مرة اخرى عندما اتخذوا العجل إلها لمجرد أنهم رأوا فيه ظاهرة غير طبيعية، وفي موقفهم في الميقات عند الاستغفار أيضا حينما طلبوا أن يروا الله جهرة. وفي جانب المصالح نجد موقف قارون وجماعته وايذاءهم موسى وتمردهم على أوامره وغير ذلك من الاشارات القرآنية التي تشير الى عوامل النفاق والمعارضة. وفي جانب الواقع الروحي والنفسي تشير قصة الدخول الى الارض المقدسة وغيرها من الاشارات القرآنية الى رواسب الضعف والاستخذاء والخوف. فالميزة الرئيسة لهذه المرحلة هي ظهور هذه الخلافات المتعددة ومعاناة النبي موسى منها على اختلاف اتجاهاتها ودوافعها، وهذه الظواهر هي من مستلزمات المجتمع الذي تتحكم فيه عقيدة جديدة ونظام جديد. ونجد موسى في كل هذه الخلافات مثال القائد الحكيم والنبي العطوف الذي يأخذ قومه بالشدة في مروقهم عن الدين كما في قضية العجل، وباللين في جوانب اخرى فيدعو الله سبحانه لهم بالرحمة والمغفرة كما في قضية الميقات. الثاني: موضوعات القصة: وبصدد الجانب الثاني من دراسة القصة: نجد القصة تحدثت عن ستة

موضوعات رئيسة، وهي كالتالي: ١ - بعثة موسى ومعاجزه. ٢ - أساليب الدعوة وأدلتها. ٣ - مواجهة الكافرين له من فرعون واتباعه. ٤ - التحريفية في العبادة. ٥ - الحياة الشخصية لموسى.

---

٦ - الاوضاع العامة للشعب الاسرائيلي. وقد جاءت هذه الموضوعات الرئيسة المتعددة في مواضع من القرآن مختلفة ومتفرقة، ويجدر بنا أن نشير الى الاهداف العامة التي توخاها القرآن الكريم من وراء الاشارة أو تأكيد هذه الموضوعات مع بيان المهم منها. ١ - بعثة موسى ومعاجزه: لا شك أن من الاهداف الرئيسة التي تواخاها القرآن الكريم هو ربط الانسان بعالم الغيب وتأكيد ايمانه وتوجيه فطرته الاصيلة التي فطره الله تعالى على الايمان به وجهة صحيحة، لان الانسان بدأ من الغيب وينتهي بعالم الاخرة الذي هو غيب ويبقى مرتبطا ومتفاعلا من الناحية الواقعية مع الغيب في كل أدوار حياته وشؤونها. ومن أجل هذا الهدف الرئيس نجد القرآن يتحدث في مواضع كثيرة عن عالم الغيب وجوانبه المتعددة وبعض القوانين العامة التي تتحكم فيه، والعلاقات التي تسوده، إضافة الى طرحه مفاهيم معينة عن هذا العالم قد لا يكون لها أثر كبير في حياته الدنيوية غير هذا الربط الذي يهدف إليه القرآن الكريم، كما عرفنا ذلك في طرح مفاهيم اللوح والقلم والكرسي والعرش عندما تناولنا تفسير المعنى. وعلى هذا الاساس يمكن أن نرى أن هذا الهدف مما استهدفه القران من قصة موسى. ولعل في هذا ما يبرر الاهتمام القرآني في تكرار هذا الموضوع واعطاء تفصيلات كثيرة عنه في القصة، وإذا أردنا أن نقارن بين الايات التي جاءت تتحدث عن هذا الموضوع والايات التي تحدثت عن بقية الموضوعات الاخرى في القصة لوجدنا هذا الموضوع يكاد يطغى على بقية الموضوعات، من حيث ما ذكر فيه من تفصيلات. فقد وجدنا أن هذا الموضوع يشار إليه في مواطن عديدة منها: كيفية البعثة،

وفي معجزة العصا واليد، وفي توالى الايات على الفرعونيين من الدم والجراد والقمل والطوفان ونقص السنين، وفي انفلاق البحر لبني اسرائيل، وفي موت الاشخاص الذين اختارهم موسى لميقات ربه ثم بعثهم، وفي قضية قارون وخسف الارض به، وفي نتق الجبل وغيرها من الايات الاخرى، وتكاد قصة موسى تستوعب هذه الامور أكثر من غيرها. وإضافة الى هذا الهدف القرآني العام لاحظنا في دراستنا السابقة أهدافا ثانوية فرضها السياق القرآني، وكان من أهمها: ايضاح فكرة أن صدود الكافرين عن الدعوة وعدم انخراطهم فيها لم يكن نتيجة سبب موضوعي مرتبط بالدعوة نفسها أو شخصية النبي، وإنما يكون بسبب الظروف النفسية والاجتماعية التي يعيشها الكافرون أنفسهم، حيث تتحول المواقف السلبية اليومية من خلال الصراع، أو العادات والتقاليد الموروثة، أو الانحرافات الجزئية، الى حالة نفسية تغلف القلب والعقل، وتختم عليه فيصبح الجحود هو الموقف العام دون أن يستخدم الانسان عقله أو فطرته. وبذلك يكون ايضاح هذا القانون الاجتماعي له تأثير كبير على فهم المواجهة بين المسلمين والكافرين أيام النبي محمد (صلى الله عليه وآله) وما بعدها. كما ان الاشارة الى تفاصيل الايات بشكل خاص في عصر موسى وغيره يبين بوضوح المبرر لعدم مجئ الايات في عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله)، كما أشار القرآن الكريم الى ذلك، حيث يصبح من الواضح أن الانبياء السابقين بالرغم من أنهم جاؤا بالايات ولكنهم لم يتمكنوا من خلالها أن يكسروا هذا الحاجز النفسي

والقلبي، وأن هذه الايات انما جاءت للعذاب والانتقام. ٢ - أساليب الدعوة وأدلتها: لا شك أن العقيدة في الدعوة الالهية تمثل جانبين:

الجانب الالهي فيها وهو الايمان بوجود الله تعالى ووحدانيته وصفاته، وهذا جانب يمكن أن يعتمد في معرفته على العقل والدليل والبرهان. والجانب الاخر الذي يعبر عن ارتباط الداعية (الرسول) بالله سبحانه وصدوره عن أمره تعالى، وهذا الجانب قد لا يمكن اثباته مبدئيا إلا عن طريق المعجزة (١)، فالمعجزة تعبير عن الاستجابة الى الحاجة في هذا الجانب من الدعوة - كما شرحنا ذلك في بحث المعجزة - بخلاف الجانب الاول الذي يمكن فيه الاعتماد على اسلوب الادلة والبراهين المنطقية والوجدانية. وعلى هذا الاساس أيضا لم يترك الانبياء هذه الادلة المنطقية والوجدانية في مخاطبتهم للناس بالدعوة الى الله وتوحيد الاله، ولم يكتفوا بالاتيان بالمعجزات على أساس أنها الدليل الوحيد لاثبات ذلك وإن كنا لا ننكر ما للمعجزة من تأثير كبير في الجانب الاول من العقيدة أيضا. وفي قصة موسى نجد في الموضوعات التي تحدثت عنها القصة هذه الاساليب والادلة وأكدتها في مواضع عديدة، حيث تناولت بعض الادلة والبراهين التي اعتمدها موسى في مخاطبة فرعون إضافة الى المعجزات. بل نجد أن هذه المخاطبة (مخاطبة العقل والوجدان) جاءت قبل أن يستند موسى الى دليل آخر من الايات والمعجزات لان التسلسل المنطقي للتفكير والانفعال كان يفرض ذلك، فان النبي يخاطب العقل والوجدان في بداية الامر، ثم يعمل بعد ذلك على كسر الحواجز النفسية والروحية التي تمنع العقل والوجدان من الادراك والفهم.

---

(١) قد يكون اخبار النبي وهو انسان عاقل وموثوق، وعلى مستوى عال من الكمال كافيا في تصديقه والايمان به، ولكن هذا الامر لا يمكن أن يكون عاما، لانه قد يكون في موضع الاتهام ولذا احتاج الانبياء الى المعجزة. (*)

كما نجد موسى في هذه المخاطبة يتبع الاساليب المختلفة التي كانت تتصف باللين والرفق تنفيذا لامر ربه، فكان يتوسل الى فرعون أحيانا، ويذكره بآيات الله أحيانا اخرى، كما قد يشير الى عذاب الاخرة وعاقبة الاصرار على الكفر والطغيان، كل ذلك من أجل أن يحقق النبي غاياته التي يرمي إليها وهي هداية الناس الى الله سبحانه. ويهدف القرآن الكريم من تناول هذا الموضوع في القصة وغيرها الى هدف من أهدافه الرئيسة وهو تأكيد أن مسألة الايمان بالله سبحانه ليست مسألة غريبة في حياة الانسان، غرابة المعاجز والايات، وانما هي شئ فطري ينبع من ذات الانسان ويهديه إليها عقله وحسه ووجد انه، ولذلك اعتمد الانبياء مخاطبة الناس عن هذا الطريق قبل أن يخاطبوهم عن طريق المعجزة والاية. كما انه يهدف أيضا الى أن الرسول (صلى الله عليه وآله) حين يدعو الناس الى الله لا يكتفي بطرح الفكرة فحسب، ويطلب منهم الايمان المقلد الساذج نتيجة لوجود المعجزة، وانما يحاول أن يصل إليهم ويتوسل الى ايمانهم عن طريق الدليل والبرهان العقلي والمخاطبة الوجدانية. وإضافة الى الادلة والبراهين نجد في القصة اشارات الى عدة قضايا مهمة ترتبط بالدعوة ونجاحها: الاولى: قضية الصبر والصمود والامل بالمستقبل والثقة بالله والتوكل عليه. الثانية: قضية الطاعة للقيادة والنظم في العمل. الثالثة: الاطلاع على موقف الاعداء وحركتهم، كما يظهر ذلك

في قضية مؤمن آل فرعون ومجئ الرجل من أقصى المدينة. ٣ - مواجهة الكافرين والمنافقين: يعطينا القرآن الكريم صورا وألوانا من المواجهة التي تحصل بين النبي وجماعته

من جانب، والكافرين بدعوته أو اولئك المنافقين المتظاهرين بقبولها، ولكنهم يعادونها في مواقفهم وأعمالهم من جانب آخر. وتتخذ هذه المواجهة صورا وألوانا مختلفة متفاوتة على اختلاف مدى نجاح النبي في الدعوة، وسعة أهدافه، ومقدار معارضته للمفاهيم الاجتماعية السائدة. وتكاد تكون هذه المواجهة شيئا طبيعيا نتيجة الصراع الذي يدور بين الفكرة الجديدة وأنصارها والفكرة السائدة في المجتمع وحماتها. والقرآن الكريم حين يعرض هذا الموضوع في قصة موسى يريد أن يؤكد هذا المفهوم الاجتماعي والسنة التأريخية في الصراع، وأن هذه المعارضة التي حصلت للنبي (صلى الله عليه وآله) ليست بدعا في التأريخ، وانما هي النتيجة الطبيعية للصراع الفكري والسياسي، كما اننا نجد في هذا العرض للموضوع في القصة ايضاحا للاعباء التي يتحملها النبي في سبيل الدعوة، وأنها ليست أعباء عادية يتمكن أي انسان من أن يتحملها، وانما هي تحتاج الى ارادة قوية وعزم شديد وتصميم عميق الجذور على السير في خط الدعوة حتى في أشد الظروف الموضوعية قسوة وأبعدها ملائمة، ويتعرض فيها الرسول الى ألوان من العذاب النفسي والجسدي والاخطار التي ترتبط بحياته وسمعته وشخصيته، بل قد ينتهي الامر بأن يتعرض النبي الى القتل والاغتيال نتيجة لذلك. وهذه الالام قد تكون بسبب الموقف الخارجي للاعداء الظاهرين العلنيين، وقد تكون من مرضى القلوب والنفوس أو ضعفاء الايمان والبسطاء والجهال من الناس. وحين يشير القرآن الى ألوان المواجهة وأساليبها في هذه القصة نجد أنفسنا أمام الواقع الاجتماعي الذي كان يواجه به النبي (صلى الله عليه وآله) في دعوته وأمام الاساليب

والالوان نفسها، فكأن قصة موسى (عليه السلام) انما هي تعبير عن مسيرة دعوة النبي وآلامه، ولعل هذا هو الذي يفسر لنا مجئ قصة موسى بهذا القدر من التفصيل في القرآن الكريم. ٤ - الجانب التحريفي في العبادة: من الموضوعات المهمة التي تعرضت لها القصة هو الجانب التحريفي في العبادة، فان بني اسرائيل وغيرهم - كما يبدو من انقيادهم لموسى - آمنوا به وبدعوته، ولكن هذا الايمان بالشعارات العامة التي كان يرفعها موسى لا يعني أنهم كانوا يعرفون محتواها الاصيل بأدق معانيه، الامر الذي لو حصل كان من الممكن أن يصدهم عن الانسياق وراء أفكار وثنية اخرى، لذلك نجدهم وهم قد خلصوا من عذاب فرعون ومطاردته تطفو على أفكارهم ومشاعرهم الكثير من الرواسب الوثنية ذات المدلول المنحرف، هذه الرواسب التي كانوا قد تأثروا بها في المجتمع الفرعوني الذي كانوا يعيشون فيه. وهي حين تطفو على السطح لا يعني أنهم كانوا قد تنازلوا عن شعاراتهم السابقة ومدلولاتها أو تخلوا عن عقيدة التوحيد، وانما يعني ذلك أنهم كانوا يفهمون مدلول الشعارات بالشكل الذي ينسجم مع هذا العمل المنحرف، فالعجل في نظرهم هو تجسيد للاله الذي دعا إليه موسى، والاصنام هي الوسائط المادية للتعبير عن العبادة للاله الذي دعا إليه موسى... وهكذا. ولعل القرآن الكريم يهدف في هذه الاشارة الى ناحيتين: الاولى: مناقشة أفكار الجاهليين المعاصرين لنزول القرآن، حين كانوا يقولون في أصنامهم ويعللون عبادتهم لها: بأنهم اتخذوها واسطة وزلفى الى الله. الثانية:

أن الانسان حين يؤمن بالرسول ويحظى بصحبته ويستمع إليه لا يعني انه قد تجرد دفعة واحدة عن جميع محتوياته الداخلية، وقضى على كل الرواسب

التي لا تلتقي في واقعها مع أصالة الرسالة والدعوة التي يدعو إليها الرسول، وانما غاية ما يدل عليه ذلك هو الايمان بالمدلول الحرفي للشعار مما أشار إليه القرآن في بعض الموارد حين ميز بين ادعاء الاسلام والايمان: (قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم...) (١). وهذه المظاهر من أخطر الظواهر التي واجهت الاديان الالهية حيث تعرضت للتحريف في العبادة والعلاقة مع الله تعالى مع الاحتفاظ بنفس المفاهيم والشعارات الاصلية، ووجد المحرفون دائما المسوغات والذرائع والعناوين التي يوجهون فيها هذه الانحرافات. ومن أجل ذلك تبنى الاسلام مبدأ التوقيفية في العبادة والتزم بأنها منهج معين يضعه الله سبحانه للانسان ليصوغ به غريزة التدين واحساسه بالدين، ويحدد فيه شكل العلاقة بالله تعالى وصيغتها، ولا يصح للانسان أن يتصرف في هذا الامر بحسب ميوله أو اجتهاده للتعبير عن هذه العلاقة، والسر في ذلك كله هو أن طبيعة هذه العلاقة بين الله تعالى والانسان إنما هي علاقة غيبية، لان طرفها الاخر هو الله تعالى ولا يمكن للانسان - وهو موجود مادي - أن يدرك الطريق الذي يوصله للتقرب الى الله تعالى بنفسه، فلا بد له من أجل تحقيق ذلك أن يشخص الله تعالى هذا الطريق، فقد يكون ما يتصوره الانسان مقربا الى الله مبعدا عنه، كما جاء ذلك في بعض النصوص التي وردت عن أهل البيت (عليهم السلام). ٥ - الحياة الشخصية لموسى: لقد تناولت الموضوعات السابقة من قصة موسى بعض التفاصيل عن الحياة والسيرة الشخصية لموسى خصوصا الوقت الذي سبق بعثته (عليه السلام).

---

(١) الحجرات: ١٤. (*)

ولعل القرآن الكريم استهدف من وراء عرض هذا الموضوع في قصة موسى هدفين: الاول: ما أشرنا إليه سابقا في تحليلنا مقاطع القصة من سورة القصص من أن هذه التفصيلات قد تدل على جانب من اعجاز القرآن، حيث يدل الاطلاع عليها على مدلول يختلف عن مدلول الاطلاع على أحوال موسى (الرسول) لان أحوال موسى (الرسول) كانت تتحرك في المجتمع العام، وبذلك تكون معروفة بشكل طبيعي ويتناقلها التأريخ، على خلاف أحوال موسى (الرسول) قبل البعثة، خصوصا إذا كانت هذه التفاصيل مما ينفرد به القرآن الكريم عن الكتب السماوية الاخرى. الثاني: ما أشرنا إليه في بحث مراحل الدعوة من أن هذا الجانب يبرز لنا موسى في صورة الانسان الذي قد أعده الله تعالى للقيام بأعباء الرسالة، وانه يتمكن بما يتمتع به من خلق وعاطفة وجرأة ومكانة على تحمل أعباء الدعوة. ويمكن أن نضيف الى ذلك أيضا أن من خلال تعرف حياة موسى الشخصية سوف تتكشف لنا بعض الاوضاع الاجتماعية السائدة حينذاك في المجتمع الفرعوني، ومستوى الظلم الذي كان يعاني منه الاسرائيليون واستسلامهم لهذا الواقع المرير، وما أنعم الله به سبحانه على بني اسرائيل عامة وموسى بشكل خاص. ٦ - الاوضاع العامة للشعب

الاسرائيلي: لقد تناول القرآن الكريم بعض الاوضاع والصفات العامة للشعب الاسرائيلي، وأشرنا الى بعضها عند دراستنا للمرحلة الثالثة من دعوة موسى، ويمكن أن نلخص ما تكشف عنه هذه الاوضاع والصفات التي تناولها القرآن في: أن الشعب الاسرائيلي كان يتصف بازدواجية مريعة نتيجة لمختلف الظروف التأريخية

---

[٤٣٥]

والاجتماعية التي مر بها، والتي تراكمت آثارها المتنوعة والعميقة في سلوكه الاجتماعي ومحتواه النفسي والروحي. وكانت تتمثل هذه الازدواجية في الشعور بالعظمة والامتياز والقربى من الله بوحي من تأريخه المجيد الذي عاشه أباؤه وأجداده، كتأريخ النبوات والمقام الاجتماعي المتميز الذي كان ليوسف (عليه السلام) وانقاذه للمجتمع من الكوارث الطبيعية، والتخطيط الاقتصادي الرائع الذي قام به، في الوقت الذي قاسى هذا الشعب حياة طويلة من الاضطهاد والاستعباد ورزح في ظل مستلزماتها من جهل وفقر وانحطاط خلقي ونفسي واجتماعي. ولعل هذه الازدواجية هي التي تفسر لنا تململ الاسرائيليين وعدم تحملهم لاعباء الرسالة وعملية الخلاص والانقاذ من ناحية، وتمادي الاسرائيليين في الطلبات وكثرة تمنياتهم على موسى وعدم استجابتهم للخط الذي رسمه لهم لانقاذهم من ناحية اخرى، على ما يتمتع به موسى من مكانة عظيمة عندهم لانه كان مخلصهم ومنقذهم من الظلم الفرعوني. وقد استهدف القرآن من وراء اعطاء هذه الصورة للشعب الاسرائيلي تسليط الاضواء على واقع اليهود الذين كانوا يعايشون المسلمين، وكان ينظر إليهم قبل ظهور الاسلام على أنهم أهل الكتاب والمعرفة بالاديان وبكل ما يتصل بعالم الغيب، وحيث تتكشف هذه الصورة الواقعية لهذا الشعب (الازدواجية) وتتضح معالمها فسوف يظهر للمسلمين مدى امكان الاعتماد عليهم وعلى نظرتهم للاشياء، ويتضح تفسير موقفهم من الرسالة والنبي (صلى الله عليه وآله). كما يمكن أن نلاحظ أيضا مدى الاثر الذي تركته سنوات الاضطهاد والظلم على الاوضاع النفسية والروحية للاسرائيليين، والشعور بالضعف والحذر، ومعاناة موسى (عليه السلام) في محاولة التغلب على ذلك. حيث يظهر هذا الامر بشكل واضح في

---

[٤٣٦]

قضية دعوة موسى قومه للدخول الى الارض المقدسة التي كانت هدفهم وأملهم، خصوصا أن هذه الدعوة جاءت بعد الانتصارات العظيمة التي حققها لهم موسى والاستقلال والعزة والكرامة الانسانية، ومع ذلك رفضوا هذه الدعوة بسبب الخوف. ويبدو هذا الامر واضحا - بالمقارنة - مع دعوة النبي للمسلمين الى قتال الروم في معركة " تبوك " حيث استجاب عامة المسلمين لذلك باستثناء نفر منهم كانوا يشعرون بهذا اللون من الخوف والضعف.

---

[٤٣٧]

فواتح السور (١) من الموضوعات القرآنية التي تناولها الباحثون هو فواتح السور، ونعني بفواتح السور هذه الحروف المقطعة الموجودة في فاتحة بعض السور القرآنية، وتزداد أهمية هذا الموضوع عندما نلاحظ ما اثير حوله من مشاكل وشبهات قد تؤدي الى الشبهة في

القرآن الكريم نفسه. وسوف يعالج هذا البحث تفسير هذه الظاهرة في القرآن الكريم، ومن خلال ذلك نعرف الجواب الاجمالي على الشبهات التي اثيرت حول هذا الموضوع، ونترك معالجة الشبهات حولها تفصيلا الى بحث قرآني آخر. وقد جاءت هذه الحروف المقطعة في سور متعددة من القرآن وعلى أشكال مختلفة: منها ما هو ذو حرف واحد مثل: (ص والقرآن ذي الذكر) و (ق والقرآن المجيد) و (ن والقلم وما يسطرون). ومنها ما هو ذو حرفين مثل: (طه * ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى) و (يس * والقرآن الحكيم) و (حم * تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم). ومنها ما هو ذو ثلاثة حروف أو أكثر مثل (ألم) و (المص) و (المر...)

---

(١) يراجع في هذا البحث: التبيان ١: ٤٧ - ٥١، والكشاف ١: ٢١ - ٢٥، والتفسير الكبير ٢: ٨٠٢، وابن كثير ١: ٦٤ - ٦٩، والمنار ١: ١٢٢ - ١٢٣، ومناهل العرفان ١: ٣١٩ - ٣٢٠، وتفسير القرآن لشلتوت ٣٥: ٦٤. (*)

و (كهيعص) و (حم * عسق) (١)... وحين نأتي لمعالجة هذه الظاهرة في القرآن الكريم لا نجد العرب قد عرفوا الاسلوب عند افتتاح كلامهم، كما اننا لا نجد لهذه الحروف معنى بازائها غير مسمياتها من الحروف الهجائية. ولم يؤثر عن الرسول (صلى الله عليه وآله) شئ صحيح في تفسير هذه الحروف بل يكاد لا يؤثر عنه شئ في ذلك مطلقا - إلا النزر القليل - ليكون هو القول الفصل فيها، ولعل هذا هو السبب في تعدد آراء العلماء واختلاف وجهات النظر فيما بينهم بصدد تفسير هذه الحروف الامر الذي زاد من غموض هذه الظاهرة. وهناك اتجاهان رئيسان في تفسير هذه الحروف: الاتجاه الاول: هو الذي يرى أن هذه الحروف من الاشياء التي استأثر الله سبحانه بعلمها، ولذا فليس من الممكن لاحد أن يصل الى معرفة المراد منها، ويؤيد هذا الاتجاه ما روي عن عدد من الصحابة والتابعين من أن الفواتح سر القرآن وأ نها سر الله فلا تطلبوه، وذهب إليه كثير من العلماء والمحققين، كما جاء ذلك أيضا في بعض الروايات عن طريق أهل البيت (عليهم السلام) (٢). والاتجاه الثاني: هو الذي يرى أنه ليس في القرآن الكريم شئ غير مفهوم لنا أو غير معروف لدى العلماء والمحققين، وذلك انطلاقا من حقيقة أن الله سبحانه وتعالى وصف القرآن الكريم بصفات متعددة لا تتفق مع هذا الخفاء والاستتار، فهو جاء (بلسان عربي مبين) (٣)، كما أنه نزل (... تبيانا لكل

---

(١) في السور الاتية على الترتيب: ص: ١، ق: ١، القلم: ١، طه: ١ - ٢، يس: ١ - ٢، الجاثية: ١ - ٢، البقرة: ١، الاعراف: ١، الرعد: ١، مريم: ١، الشورى: ١ - ٢. (٢) التبيان ١: ٤٨، مجمع البيان ١: ٣٢. (٣) الشعراء: ١٩٥. (*)

شئ...) (١) وهدى للناس وغير ذلك، وحين يكون القرآن بهذه الصفة لا يمكن إلا أن يكون مفهوما للناس وواضحا لهم. وقد نسب هذا الاتجاه الى المتكلمين من علماء الاسلام (٢). وعلى أساس هذا الاتجاه نجد كثيرا من العلماء يحاولون تفسير هذه الحروف المقطعة، الامر الذي استلزم تعدد مذاهبهم في ذلك، وقد ذكر الشيخ الطوسي مذاهب مختلفة في تفسير هذه الحروف، وعد منها الفخر

الرازي واحدا وعشرين تفسيرا، وسوف نقتصر على ذكر المهم منها، إضافة الى أن بعضها يمكن إرجاعه الى بعض الاخر. مذاهب تفسير فواتح السور: المذهب الاول: ما نسب الى ابن عباس من أن هذه الحروف ترمز الى بعض أسماء الله وصفاته وأفعاله، فقد روي عنه في (ألم): " أنا الله أعلم "، وفي (المر): " أنا الله أعلم وأرى " (٣) الى غير ذلك. ويؤيده ما روي عن معاوية بن قرة عن النبي (صلى الله عليه وآله) من أنها حروف من أسماء الله (٤). الثاني: أنها أسماء للقرآن الكريم كالكتاب والفرقان والذكر، والى هذا المذهب صار جماعة من التابعين كقتادة ومجاهد وابن جريج والكلبي والسدي (٥). ويناقش هذان المذهبان بأنهما لا يستندان الى دليل علمي أو قرينة معتمدة،

---

(١) النحل: ٨٩. (٢) التفسير الكبير ٢: ٣، وقد فصلنا هذا الموضوع في بحث التفسير. (٣) المصدر السابق: ٦. (٤) التبيان ١: ٥١. (٥) التفسير الكبير ٢: ٦، والتبيان ١: ٤٧. (*)

وانما هما من الرجم بالغيب فلا مناسبات الظروف الموضوعية، ولا مناسبات الكلام اللغوية هي التي تشير الى هذا المعنى، وحالهما حال كل تفسير أو فرضية اخرى يمكن أن تذكر في هذا المجال، شريطة أن لا تتنافى مع بديهيات العقيدة القرآنية. الثالث: أن هذه الحروف مقتطعة من أسماء لها دلالة معينة بحسب الواقع، وهي مجهولة لنا معلومة للنبي (صلى الله عليه وآله)، ويؤيد ذلك أن هذه الطريقة كانت معروفة لدى بعض العرب في مخاطباتهم وأحاديثهم، وقد روي ذلك عن ابن عباس وابن مسعود وجماعة من الصحابة (١). كما ان ما ذهب إليه الطبري وروي عن ابن أنس يكاد يتفق مع هذا المذهب ايضا، وهذا المذهب قريب الى المذهب الاول الذي روي عن ابن عباس أيضا. ويمكن ان يناقش هذا المذهب بنفس مناقشتنا للمذهبين السابقين. الرابع: انها اسماء للسور التي جاءت فيها، ف (الم) اسم لسورة البقرة و (كهيعص) اسم لسورة مريم و (ن) اسم لسورة القلم وهكذا... وقد أختار هذا الرأي اكثر المتكلمين وجماعة من اللغويين (٢) واستحسنه الشيخ الطوسي كما رجحه الطبرسي ودافعا عنه بعد ان أوردا عليه بعض الشبهات (٣) كما اختاره أيضا الشيخ محمد عبده (٤). وتحمس الفخر الرازي في تأييده وأطنب في بيان الشبهات التي أوردوها عليه

---

(١) التبيان ١: ٤٧ - ٤٨. (٢) التفسير الكبير ٢: ٥. (٣) التبيان ١: ٤٩. (٤) المنار ١: ١٢٢. (*)

ونقضها (١) وأهم ما اورد عليه الشبهتان التاليتان: الشبهة الاولى: أن الاسم انما يوضع للتمييز بين المسميات، وهذا لا يتفق مع تسمية عدة سور باسم واحد كما حدث في البقرة وآل عمران، فأنه ورد في اولهما (الم) وحدث في السجدة وغافر وفصلت فأنه في اولها (حم). الشبهة الثانية: أن الاسم لا بد ان يكون غير المسمى في الوقت الذي قام الاجماع على أن هذه الحروف جزء من السور التي جاءت فيها. وقد اجاب الشيخ الطوسي عن الشبهة الاولى: بأنه لا مانع من تسمية عدة أشياء باسم واحد مع التمييز بينهما

بعلامة مميزة، وقد وقع هذا في الاعلام الشخصية كثيرا. كما أجاب عن الشبهة الثانية بأنه لا مانع من تسمية الشئ ببعض ما فيه، كما حدث في تسمية سورة البقرة وآل عمران والاعراف من السور. ولكن مع كل هذا - قد يلاحظ على هذا الرأي -: ان الحروف تقرأ مقطعة بذكر أسمائها (ألف - لام - ميم) لا مسمياتها، وهذا لا يناسب أن تكون أسماء للسور، وإلا لكانت قراءتها بمسمياتها كما هي مكتوبة، وهذه الكيفية من القراءة تناسب أن تكون الحروف مقصودة في نفسها بالذكر لا أنها أسماء لاشياء اخرى وقد أشار الزمخشري (٢) الى هذه الملاحظة ولكن بصياغة اخرى ثم ردها. فقد قال الزمخشري: فان قلت فما بالها مكتوبة في المصحف على صور الحروف أنفسها لا على صور أساميها ؟

---

(١) التفسير الكبير ٢: ٨ - ١١. (٢) الكشاف ١: ٢٨. (*)

قلت: لان الكلم لما كانت مركبة من ذوات الحروف، واستمرت العادة حتى تهجيت، وحتى قيل للكاتب اكتب كيت وكيت أن يلفظ بالاسماء وتقع في الكتابة الحروف أنفسها عمل على تلك الشاكلة المألوفة في كتابة الفواتح (١). وهذا الرد الذي ذكره الزمخشري يؤكد ملاحظتنا - بصيغتها الصحيحة - في أن هذه الكيفية من النطق تعني أن الحروف هي المقصودة بذاتها لا أن المقصود الاشارة الى السورة المسماة بهذه الحروف، وإلا لنطقت الحروف بنفسها لا بأسمائها، ولذا نرى صحة هذه الملاحظة بهذه الصيغة. الخامس: أن هذه الحروف إنما جئ بها ليفتتح بها القرآن الكريم وليعلم بها ابتداء السورة وانقضاء ما قبلها، وقد اختار هذا الرأي البلخي وروي عن مجاهد أيضا، وذكر له الشيخ الطوسي بعض الامثلة من استعمالات العرب (٢)، ويؤيده قول أحمد ابن يحيى بن ثعلب: إن العرب إذا استأنفت كلاما فمن شأنهم أن يأتوا بشئ غير الكلام الذي يريدون استئنافه فيجعلونه تنبيها للمخاطبين على قطع الكلام الاول واستئناف الكلام الجديد (٣). وقد يلاحظ على هذا الرأي بعدم شمول هذه الطريقة لجميع سور القرآن الكريم، ويبقى الاختصاص حينئذ سرا نحتاج الى ايضاحه والكشف عنه. نعم قد يقال: إن هذه الطريقة انما كانت الحاجة إليها موجودة في السور الطوال التي كانت تنزل تدريجيا وليس في جميع سور القرآن الكريم، حيث كان بعضها ينزل دفعة واحدة، كما في السور القصار. ولكن الملاحظة الاساسية الاخرى على هذا الرأي هي أن البسملة يمكن أن

---

(١) الكشاف ١: ٢٨. (٢) التبيان ١: ٤٧. (٣) التفسير الكبير ٢: ٧. (*)

تقوم بهذا الدور في تمييز الانتهاء من السورة والشروع بالسورة الاخرى، حيث وردت الاحاديث التي تؤكد ان البسملة كان لها دور تمييز انقضاء السورة من ابتدائها (١). السادس: أنها أسماء للحروف الهجائية المعروفة، وإنما جئ بها تنبيها للناس على أن القرآن الكريم الذي عجزوا عن مباراته والاتيان بمثله ليس إلا مؤلفا من هذه الحروف ومركبا منها، فلم يكن التحدي به لا نه يحتوي على مادة غريبة عنهم وانما كان بشئ مركب من هذه الحروف التي يتكلمون

ويتحادثون بها، وقد عجز عن الاتيان بمثله أهل الفصاحة والبلاغة، وقد ذهب المبرد وجمع كبير من المحققين الى هذا المذهب (٢). وقد يناقش هذا المذهب بأن مجرد ذكر الحروف في أول السورة بهذا الشكل المتقطع لا يكفي في ايضاح هذه الحقيقة، وقد لا يشعر الناس بذلك فلا يحقق حينئذ القرآن هدفه من ذكرها، إلا إذا كانت القرائن الخارجية والحالية التي تحيط الكلام لها دور في الافهام وتحقيق هذا الهدف، وهذا ما لا يمكن أن نعرفه من نفس هذه الحروف. وقد كان من الممكن أن يصل القرآن الى ذلك عن طريق ايضاح الفكرة ببيان قضية عامة تستوعب هذا المضمون وتشرحه، فالفكرة التي يتبناها هذا المذهب

---

(١) الدر المنثور ١: ٧. أخرج أبو داود والبزار والطبراني والحاكم وصححه البيهقي في المعرفة عن ابن عباس، قال: كان النبي (صلى الله عليه وآله) لا يعرف فصل السورة (يعني خاتمتها) حتى تنزل (بسم الله الرحمن الرحيم) وزاد البزار والطبراني فإذا نزلت عرف أن السورة قد ختمت واستقبلت أو ابتدأت سورة اخرى، إضافة الى أحاديث اخرى لها مثل هذه الدلالة. (٢) ن. م ٢: ٦. (*)

وإن كانت صحيحة ولكنها تحتاج الى ابراز القرائن الحالية التي كانت تؤدي دور الافهام، كما سوف نشير الى ذلك. السابع: أن هذه الحروف انما جاءت في اول السور ليفتح القرآن اسماع المشركين الذين تواصوا بعدم الانصات إليه، كما أشار القرآن الكريم الى ذلك في قوله تعالى - على لسانهم -: (لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون) (١) فكانت هذه الحروف - بطريقة عرضها وغموضها - سببا للفت أنظار المشركين الى استماع القرآن الكريم رجاء أن يتضح لهم منه هذا الغموض والابهام عند استماعهم له. ويزداد هذا المذهب وضوحا إذا لاحظنا الحالة النفسية التي كان يعيشها المشركون آنذاك، حيث ينظرون الى القرآن الكريم على أنه صورة المعجزة المدعاة وانه ذو صلة بالغيب وعوالمه العجيبة، فهم ينتظرون في كل لحظة ان تحدث ظاهرة غريبة تفسر لهم الموقف وتأتيهم بالامور العجيبة. الثامن: أنها حروف من حساب الجمل، لان طريقة الحساب الابجدي المعروفة الان كانت متداولة بين أهل الكتاب آنذاك، فهذه الحروف تعبر عن آجال اقوام معينين. ومن هنا نجد - كما روي عن ابن عباس - ابا ياسر ابن اخطب اليهودي يحاول ان يتعرف على أجل الامة الاسلامية وعمرها من خلال هذه الحروف (٢). وقد لاحظ ابن كثير على هذا الرأي بقوله: " واما من زعم أنها دالة على معرفة العدد وأنه يستخرج من ذلك اوقات الحوادث والفتن والملاحم فقد ادعى ما ليس له، وطار في غير مطاره وقد ورد في ذلك حديث ضعيف، وهو مع ذلك

---

(١) فصلت: ٢٦. (٢) الدر المنثور ٢: ٧. (*)

ادل على بطلان هذه المسلك من التمسك به على صحته... " (١). كما لاحظ عليه السيد رشيد رضا بمثل هذه الملاحظة حيث قال: " إن اضعف ما قيل في هذه الحروف واسخفه إن المراد بها الاشارة باعداها في حساب الجمل الى مدة هذه الامة أو ما يشابه ذلك " (٢). التاسع: أن ذكر هذه الحروف في القرآن الكريم يدل على ناحية

اعجازية تشبه دلالة بقية الايات القرآنية، وذلك لان النطق بهذه الحروف وإن كان متيسرا بالنسبة الى كل من يتكلم العربية، ولكن أسماءها لم تكن تتيسر إلا للمتعلم من العرب، ولما كان النبي (صلى الله عليه وآله) اميا - كما يعرفه بذلك معاصروه - فقدرته على معرفة أسمائها قرينة على تلقيه ذلك من قبل الغيب، ويكون ذلك من قبيل ذكر القصص القرآني الذي لم يكن للنبي (صلى الله عليه وآله) طريق للاطلاع عليه غير الوحي الالهي لعدم اطلاع قريش عليه قبل هذا، وأيضا هو بمنزلة من يتكلم باللغة الاجنبية من دون أن يسمعها أو يتعلمها من أحد، ولعل هذا هو السبب في تقديم ذكرها على السورة كلها. وقد أوضح الزمخشري هذه الفكرة بابداء ملاحظة اخرى هي: أن ظاهرة غريبة تلاحظ حين نريد أن ندرس هذه الحروف بدقة تدعونا الى الحكم بأن هذه الحروف قد اختيرت بعناية فائقة لا تتوفر إلا لدى المتخصصين من علماء العربية، ذلك أن هذه الحروف تمثل نصف أسامي الحروف العربية، حيث إن عددها أربعة عشر، كما انها جاءت في تسع وعشرين سورة هي عدد حروف المعجم كلها باضافة الهمزة، ثم إذا نظرت في هذه الحروف الاربعة عشر وجدتها مشتملة على أنصاف اجناس الحروف من المهموسة والمجهورة، والشديدة والرخوة، والمطبقة

---

(١) تفسير القرآن العظيم ١: ٦٨. (٢) المنار ١: ١٣٢. (*)

والمنفتحة، والمستعلية والمنخفضة. وقد أضاف أحمد بن المنير في شرحه للكشاف اضافات اخرى عديدة (١). وهذه الملاحظة يمكن أن تكون مؤكدة هذه الفكرة، كما يمكن أن تؤيد أيضا القول السادس الذي أشار إليه الزمخشري أيضا، في ذيل هذه الملاحظة وكأنه حاول أن يوائم بين القول: السادس والتاسع (٢). العاشر: ما ذكره ابن كثير وأوضحه السيد رشيد رضا وحاصله: أن من الملاحظ أنه قد جاء بعد هذه الحروف ذكر الكتاب الكريم ونبأ تنزيله، ولم تتخلف عن ذلك إلا سور أربع هي مريم والعنكبوت والروم والقلم، وفي كل واحدة منها نجد أمرا مهما يشبه مسألة الكتاب وانزاله. فاننا نجد في فاتحة سورة مريم خلق يحيى من امرأة عاقر كبيرة ومن شيخ عجوز وهو أمر يخالف القوانين التجريبية السائدة، وفي فاتحة العنكبوت والروم نجد أمرين مهمين يرتبطان بالدعوة ومصيرها، حيث جاء في فاتحة العنكبوت بيان قانون اجتماعي وضعه الله لاختبار الناس وتمييز الصالح منهم عن غيره، ولهذا القانون تأثير كبير على سير الدعوة، حيث يوضح أن الفتنة والعذاب لا يمكن أن يكون دليلا على خذلان الله لاحبائه وانما هما اختبار لصدق ايمانهم ورسوخه. وفي فاتحة الروم قضية الاخبار بغلبة الروم على الفرس في بضع سنين. وفي فاتحة القلم وخاتمتها تبرئة الرسول من تهمة الجنون التي كانت من أول ما رمي به النبي (صلى الله عليه وآله) من تهم، كما ان السورة كانت من أول ما نزل من القرآن. ومن الواضح ان هذه القضايا ترتبط جميعا بالوحي الالهي أو الرسالة بصورة مباشرة، وهذا الارتباط بين الحروف المقطعة وبين تأكيد الكتاب وانزاله من

---

(١) الزمخشري، الكشاف ١: ٢٣ - ٢٤. واقرأ تعليق أحمد بن المنير الاسكندري أيضا.
(٢) المصدر السابق: ٢٩ - ٣٠. (*)

السماء والرسالة وعلاقتها بالسماء يدعونا للقول: إنه انما جئ بها لغاية قرع الاسماع وهز القلوب ودفع الناس الى استماع القرآن الكريم والانصات إليه (١). وهذا المذهب يكاد ينطلق من المذهب السابع - كما اعترف بذلك السيد رشيد رضا - كما ان السيد رشيد رضا يخطئ حين يتصور أنه انفرد به حيث سبقه للاشارة إليه ابن كثير، وان كان قد اختار تضعيفه. موقفنا من هذه المذاهب: وموقفنا من هذه المذاهب يتحدد في ضوء بعض الظواهر العامة التي عاشتها مسألة (فواتح السور) وهي: ١ - عدم ورود تفسير واضح للفواتح عن الرسول. ٢ - سكوت الصحابة بشكل عام عن سؤال الرسول بصدد هذا الموضوع. ٣ - عدم تعارف استعمال العرب لهذا الاسلوب في كلامهم. وهذه الظواهر الثلاث تجعلنا نؤمن بأن الموقف تجاه هذه الحروف من قبل معاصري الوحي والنبوة كان واضحا وجليا، الامر الذي أدى الى سكوت النبي عن بيانه والصحابة عن سؤاله، وحينئذ فاما أن يكون هذا الوضوح نتيجة توضيح النبي بأنها من المتشابهات التي يحسن السكوت عنها والتسليم بها. أو أنه كان نتيجة أن الغاية من استعمالها كانت جارية على نهج المذهب السادس أو السابع، فانهما المذهبان الوحيدان اللذان يفسران هذه الظاهرة بشكل ينسجم مع هذه الظواهر المسلمة بدون الحاجة الى السؤال والاستفسار.

---

(١) تفسير القرآن العظيم ١: ٦٨، والمنار ٨: ٢٥٦ - ٢٨٩. ولكن ابن كثير يذكر هذه الملاحظات بصدد التنبيه على ارتباط الحروف بالاعجاز كما ذكره في الوجه السادس حيث اختاره. (*)

أما المذهب السادس فباعتبار ان هذه الالفاظ هي أسماء للحروف ومن الطبيعي أن نفترض أن العرب كانوا يفهمون منها مسمياتها، وكانوا يفسرون ذكرها في أوائل السور على أساس هذا الترابط بين هذه الحروف وقضية التحدي في القرآن. وأما المذهب السابع فباعتبار أن هذا الاسلوب كان يمثل عملية خارجية يمارسها النبي (صلى الله عليه وآله) لاسكاتهم وإلفات أنظارهم وكانت بوجودها الخارجي والقرائن الحالية تدل على مضمونها وهدفها من دون حاجة الى تفسير، نظير بعض الاشارات باليد أو العين أو الافعال التي كان يقوم بها النبي (صلى الله عليه وآله) وكان يفهمها المشاهدون مباشرة دون حاجة الى سؤال أو استفسار أو شرح. ويكون هذا الاسلوب في الالفات من الاساليب التي برع القرآن في استعمالها.

استخلاف آدم (الانسان) (وإذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال: إني أعلم ما لا تعلمون * وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين * قالوا: سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم * قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم اني أعلم غيب السماوات والارض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون) (١). هذه الايات العشر تتحدث عن قضية استخلاف الله سبحانه لادم على الارض، وقضية الاستخلاف تشتمل على جانبين وفصلين: الفصل الاول منهما يتناول معنى الاستخلاف والحكمة والعلة فيه، وهذا الجانب من قصة آدم يكاد ينحصر ذكره

والحديث عنه في القرآن الكريم بهذا المقطع القرآني فقط (٢)، وإن كان من الممكن أن تكون جميع آيات الاستخلاف مؤكدة

---

(١) البقرة: ٣٠ - ٣٩. (٢) بالاضافة الى بعض الاشارات الاخرى مثل قوله تعالى: (إنا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا) الاحزاب: ٧٢، وأيضا قوله تعالى: (وهو الذي جعلكم خلائف الارض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما آتاكم إن ربك سريع العقاب وانه لغفور رحيم) الانعام: ١٦٥، وكذلك فاطر: ٣٩، وأيضا الزخرف: ٦٠، وغيرها. (*)

هذا المقطع وإن لم تكن بهذا الوضوح. والفصل الثاني يتناول العملية التي تم بها انجاز هذا الاستخلاف، وهذا الجانب تحدث عنه القرآن في مواضع متعددة لا بد من دراستها بشكل عام. الفصل الاول: الحكمة في استخلاف آدم: وهو ما يعنينا في دراسة هذا المقطع القرآني الشريف، البحث في هذا المقطع وما تضمنه من معلومات ومفاهيم له جانبان: الجانب الاول: تحديد الموقف العام تجاه دراسة هذا المقطع القرآني وتصوير ما يعنيه القرآن الكريم منه. الجانب الثاني: تحديد الموقف القرآني والاسلامي تجاه بعض المفاهيم التي جاءت في المقطع بالشكل الذي ينسجم مع المسلمات القرآنية والظهور اللفظي لهذا المقطع بالخصوص. وفيما يتعلق بالجانب الاول نجد الشيخ محمد عبدة تبعا لبعض الدارسين المتقدمين يذكر رأيين مختلفين بحسب الشكل وان كانا يتفقان في النهاية، حسب ما يقول: الرأي الاول: هو الذي سار عليه السلف واختاره الشيخ محمد عبدة نفسه أيضا، حيث يقول: " وأما ذلك الحوار في الايات فهو شأن من شؤون الله مع ملائكته، صوره لنا في هذه الفصول بالقول والمراجعة والسؤال والجواب، ونحن لا نعرف حقيقة ذلك القول، ولكننا نعلم أ نه ليس كما يكون منا، وان هناك معاني قصدت افادتها بهذه العبارات، وهي عبارة عن شأن من شؤونه تعالى قبل خلق آدم وأ نه كان يعد له الكون، وشأن مع الملائكة يتعلق بخلق نوع الانسان، وشأن آخر في بيان كرامة هذا النوع وفضله " (١).

---

(١) المنار ١: ٢٥٤. (*)

والرأي الثاني: الرأي الذي سار عليه الخلف من المحققين وعلماء الاسلام الذين بذلوا جهدهم في دراسة القرآن والتعرف على مقاصده، حيث يرون أن هذه القصة بمواقفها المختلفة انما جاءت على شكل التمثيل ومحاولة تقريب النشأة الادمية الانسانية واهميتها وفضيلتها، وأن جميع المواقف والمفاهيم التي جاءت فيها يمكن تحديد المعاني والاهداف التي قصدت منها. فالرأي الاول والثاني وان كانا يلتقيان في حقيقة تنزيه الله سبحانه وتعالى وعالم الغيب عن مشابهة المخلوقات المادية المحسوسة في هذه المواقف المختلفة، وكادا يتفقان أيضا في الاهداف والغايات العامة المقصودة من هذا المقطع القرآني ولكنهما مع ذلك يختلفان في امكانية تحديد بعض المفاهيم التي وردت في المقطع، كما سوف يتضح ذلك عند معالجتنا للمقطع القرآني من جانبه الاخر. وفيما يتعلق بالجانب الثاني نجد السلف انسجاما مع موقفهم في الجانب الاول يقفون من دراسة المقطع موقفا سلبيا، ويكتفون - في بعض

حالات الانفتاح - بذكر الفوائد الدينية التي تترتب على ذكر القرآن لهذا المقطع القرآني (المتشابه). وقد أشار الشيخ محمد عبدة الى بعض هذه الفوائد، ونكتفي بذكر فائدتين منها: الاولى: أن الله سبحانه وتعالى في عظمته وجلاله يرضى لعبيده ان يسألوه عن حكمته في صنعه وما يخفى عليهم من أسراره في خلقه. الثانية: أن الله سبحانه لطيف بعباده رحيم بهم، يعمل على معالجتهم بوجوه اللطف والرحمة، فهو يهدي الملائكة في حيرتهم ويجيبهم عن سؤالهم عندما يطلبون الدليل والحجة بعد ان يرشدهم الى واجبهم من الخضوع والتسليم: (... اني اعلم ما لا تعلمون * وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة...) (١). واما الخلف فقد حاولوا ايضاح المفاهيم التي وردت في هذا المقطع القرآني

---

(١) البقرة: ٣٠ - ٣١. (*)

ليتجلى بذلك معنى استخلاف الله سبحانه وتعالى لادم، وسوف نعرض هنا اهم هذه المفاهيم المرتبطة بقضية الاستخلاف، مع ذكر الاراء المختلفة فيها ثم نتحدث عن المعنى العام للمقطع القرآني: مفاهيم حول الاستخلاف: ١ - الخلافة: الخليفة بحسب اللغة: من خلف من كان قبله وقام مقامه وسد مسده، وتستعمل أيضا بمعنى النيابة (١)، ومن هذا المنطلق يطرح هذا السؤال: لماذا سمي آدم خليفة ؟ توجد هنا عدة آراء: الاول: أن آدم سمي خليفة لانه خلف مخلوقات الله سبحانه في الارض، وهذه المخلوقات إما أن تكون ملائكة أو يكونوا الجن الذين أفسدوا في الارض وسفكوا فيها الدماء، كما روي عن ابن عباس، أو يكونوا آدميين آخرين قبل آدم هذا. الثاني: أنه سمي خليفة لانه وابناءه يخلف بعضهم بعضا، فهم مخلوقات تتناسل ويخلف بعضها بعضا الاخر، وقد نسب هذا الرأي الى الحسن البصري. الثالث: أ نه سمي خليفة لانه يخلف الله سبحانه في الارض، وفي تفسير هذه الخلافة لله سبحانه وارتباطها بالمعنى اللغوي تعددت الاراء واختلفت: أ - انه يخلف الله في الحكم والفصل بين الخلق. ب - يخلف الله سبحانه في عمارة الارض واستثمارها، من انبات الزرع واخراج الثمار وشق الانهار وغير ذلك (٢).

---

(١) مفردات الراغب: مادة (خلف). (٢) هذا الرأي وما قبله ذكره الطوسي في التبيان ١: ١٣١. (*)

ج - يخلف الله سبحانه في العلم بالاسماء كما ذهب الى ذلك العلامة الطباطبائى (١). د - يخلف الله سبحانه في الارض بما نفخ الله فيه من روحه ووهبه من قوة غير محدودة، سواء في قابليتها أو شهواتها أو علومها، كما ذهب الى ذلك الشيخ محمد عبدة (٢). ولعل المذهب الثالث هو الصحيح من هذه المذاهب الثلاثة، خصوصا إذا أخذنا في مدلوله معنى واسعا لخلافة الله في الارض بحيث يشمل مجمل الاراء الاربعة التي أشرنا إليها في تفسيره، لان دور الانسان في خلافة الله في الارض يمكن أن يشمل جميع الابعاد والصور التي ذكرتها هذه الاراء، فهو يخلف الله في الحكم والفصل بين العباد بما منح الله هذا الانسان من صلاحية الحكم بين الناس

بالحق: (يا داود إنا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله...) (٣). وكذلك يخلفه في عمارة الارض واستثمارها من انبات الزرع واخراج الثمار والمعادن وتفجير المياه وشق الانهار وغير ذلك: (... فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور) (٤) ولعل أكثر موارد استعمال (خلائف وخلفاء واستخلاف) اريد منه هذا النوع من الاستخلاف: (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الارض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الارض مفسدين) (٥).

---

(١) الميزان ١: ١١٨. (٢) المنار ١: ٣٦٠. (٣) ص: ٢٦. (٤) الملك: ١٥. (٥) الاعراف: ٧٤. (*)

وكذلك يخلف الانسان الله في الارض بعلمه بالاسماء والمعارف والكمالات التي يتكامل من خلالها ويسير بها نحو الله تعالى. ولعل ما ذكره الشيخ محمد عبدة انما يمثل السر في منح الانسان هذه الخلافة لانه يتميز بهذه المواهب والقوى والقابليات. ٢ - كيف عرف الملائكة أن الخليفة يفسد في الارض: لقد ذكر المقطع القرآني أن جواب الملائكة على اخبارهم بجعل آدم خليفة في الارض أنهم تساءلوا عن سبب انتقاء هذا الخليفة الذي يفسد في الارض، فكيف عرف الملائكة هذه الخصيصة في هذا الخليفة، وهنا عدة آراء: الاول: أن الله سبحانه وتعالى أعلمهم بذلك، لان الملائكة لا يمكن أن يقولوا هذا القول رجما بالغيب وعملا بالظن (١). الثاني: أنهم قاسوا ذلك على المخلوقات التي سبقت هذا الخليفة الذي سوف يقوم مقامها، كما يشير الى ذلك بعض الروايات والتفاسير (٢). الثالث: أن طبيعة الخلافة تكشف عن ذلك بناء على الرأي الاول من المذهب الثالث في معنى الخلافة، حيث يفترض الاختلاف والنزاع، ولازمه الفساد في الارض وسفك الدماء، كما ذكر ذلك ابن كثير في تفسيره. الرابع: أن طبيعة الخليفة نفسه تقتضي ذلك، وهنا رأيان: أ - ان المزاج المادي والروحي لهذا المخلوق الذي يريد ان يجعله الله خليفة، والاساس الاجتماعي للعلاقات الارضية التي سوف تحصل بين ابناء هذه المخلوقات هي التي جعلت الملائكة يعرفون ذلك، يقول العلامة الطباطبائ " ان الموجود الارضي بما انه مادي مركب من القوى الغضبية والشهوية والدار

---

(١) التبيان ١: ١٣٢. (٢) المصدر السابق: ١٣٣. (*)

دار التزاحم محدودة الجهات وافرة المزاحمات، مركباتها في معرض الانحلال وانتظاماتها واصطلاحاتها مظنة الفساد ومصب البطلان، لا تتم الحياة فيها الا بالحياة النوعية ولا يكمل البقاء فيها الا بالاجتماع والتعاون فلا تخلو من الفساد وسفك الدماء " (١). ب - ان الارادة الانسانية بما اعطيت من اختيار يتحكم في توجيهه العقل بمعلوماته الناقصة هي التي تؤدي بالانسان الى أن يفسد في الارض ويسفك الدماء، قال محمد عبدة: " اخبر الله الملائكة بأنه جاعل في الارض خليفة، نفهم من ذلك أن الله يودع في فطرة هذا النوع الذي يجعله خليفة ان يكون ذا ارادة مطلقة واختيار في عمله غير محدود، وان

الترجيح بين ما يتعارض من الاعمال التي تعن له تكون بحسب علمه، وان العلم إذا لم يكن محيطا بوجوه المصالح والمنافع فقد يوجه الارادة الى خلاف المصلحة والحكمة، وذلك هو الفساد وهو معين لازم الوقوع لان العلم المحيط لا يكون إلا لله تعالى " (٢). ويبدو أن الرأي الاول هو الصحيح، حيث إنه تعالى لا بد وأ نه قد أعلم الملائكة بحال وطبيعة هذا المخلوق الذي ينتهي به الحال إلى هذه النتائج. وأما ما بين من هذه الطبيعة فلعل الصحيح هو بيان أمرين: أحدهما الخصوصية المادية التي أشار إليها العلامة الطباطبائي والهوى في طبيعة هذا الخليفة. والاخر: هو أن هذا الانسان مريد ومختار يعمل بارادته، كما ذكر الشيخ محمد عبدة، ويمكن أن نفهم ذلك من قرينة تعقيب الملائكة أنفسهم، الامر الذي استدعى التوضيح الالهي الذي يشتمل على بيان الخصوصية التي تجعل هذا

---

(١) الميزان ١: ١١٥، والتفسير الكبير ١: ١٢١، والميزان ١: ١١٩. (٢) المنار ١: ٢٥٦. (*)

الموجود مستحقا لهذه الخلافة وهو العلم. ٣ - الاسماء: والاسماء من المفاهيم التي وقع الخلاف فيها بين علماء التفسير حول حقيقتها والمراد منها، والاراء فيها تسير في الاتجاهين التاليين: الاول: أن المراد من الاسماء الالفاظ التي سمى الله سبحانه بها ما خلقه من أجناس وأنواع المحدثات وفي جميع اللغات، وهذا الرأي هو المذهب السائد عند علماء التفسير ونسب الى ابن عباس وبعض التابعين (١). وينطلق أصحاب هذا المذهب في تفكيرهم الى أن الله سبحانه كان قد علم آدم جميع اللغات الرئيسة. وقد كان ولده على هذه المعرفة، ثم تشعبت بعد ذلك واختص كل جماعة منهم بلغة غير لغة الجماعة الاخرى. الثاني: أن المراد من الاسماء: المسميات، أو صفاتها وخصائصها، لا الالفاظ وحينئذ فنحن بحاجة الى القرينة القرآنية أو العقلية التي تصرف اللفظ الى هذا المعنى الذي قد يبدو أنه يخالف ظاهر الاطلاق القرآني لكلمة (الاسماء) الدالة على الالفاظ. ويمكن ان نتصور هذه القرينة في الامور التالية: أ - كلمة (علم) التي تدل على أن الله سبحانه منح آدم (العلم) وبما " أن العلم الحقيقي انما هو ادراك المعلومات أنفسها والالفاظ الدالة عليها تختلف باختلاف اللغات التي تجري بالمواضعة والاصطلاح فهي تتغير وتختلف والمعنى لا تغيير فيه ولا اختلاف " (٢). فلا بد أن يكون هو المسميات التي هي المعلومات الحقيقية. ب - قضية التحدي المطروحة في الايات الكريمة، ذلك أن الاسماء حين يقصد منها الالفاظ واللغات فهي اذن من الاشياء التي لا يمكن تحصيلها إلا بالتعليم

---

(١) التبيان ١: ١٣٨، والتفسير الكبير ٢: ١٧٦. (٢) المنار ١: ٢٦٢. (*)

والاكتساب، فلا يحسن تحدي الملائكة بها، إذ لا دلالة في تعليمها آدم على وجود موهبة خاصة فيه يتمكن بها من معرفة الاسماء، وهذا على خلاف ما إذا قلنا: إن المقصود منها المسميات، فانها مما يمكن ادراكه ولو جزئيا - عن طريق اعمال العقل الذي يعد موهبة خاصة فيكون لمعرفة آدم بها دلالة على موهبة خاصة منحه الله

اياها. قال الطوسي: " إن الاسماء بلا معان لا فائدة فيها ولا وجه لايثاره الفضيلة بها " (١). وقال الرازي: " وذلك لان العقل لا طريق له الى معرفة اللغات البتة، بل ذلك لا يحصل الا بالتعليم فان حصل التعليم حصل العلم به والا فلا، اما العلم بحقائق الاشياء فالعقل متمكن من تحصيله فصح وقوع التحدي فيه " (٢). ج - عجز الملائكة عن مواجهة التحدي، لان هذه الاسماء لو كانت الفاظا لتوصل الملائكة الى معرفتها بانباء آدم لهم بها، وهم بذلك يتساوون مع آدم فلا تبقى له مزية وفضيلة عليهم، فلا بد لنا من ان نلتزم بأ نها أشياء تختلف مراتب العلم بها، الامر الذي أدى الى أن يعرفها آدم معرفة خاصة تختلف عن معرفة الملائكة لها حين اخباره لهم بها، وهذا يدعونا لان نقول إنها عبارة عن المسميات لا الالفاظ، قال العلامة الطباطبائي بصدد شرح هذه الفكرة: " ان قوله تعالى: (وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم...) يشعر بان هذه الاسماء أو ان مسمياتها كانت موجودات احياء عقلاء محجوبين تحت حجاب الغيب، وان العلم بأسمائهم كان غير العلم الذي عندنا بأسماء الاشياء والا كانت بانباء آدم اياهم بها عالمين بها وصائرين مثل آدم مساوين معه " (٣).

---

(١) التبيان ١: ١٣٨. (٢) التفسير الكبير ٢: ١٧٦. (٣) الميزان ١: ١١٧. (*)

وحين يصل اصحاب هذا الاتجاه الى هذه النقطة نجدهم يحاولون أن يتعرفوا على العلاقة التي صححت استعمال لفظ (الاسماء) محل لفظ (المسميات) ويذكرون لذلك قرائن متعددة: ١ - فالرازي يرى هذه المناسبة والعلاقة في مصدر اشتقاق الاسم، فانه اما أن يكون من السمه أو السمو " فان كان من السمة كان الاسم هو العلامة، وصفات الاشياء خصائصها دالة على ماهياتها، فصح ان يكون المراد من الاسماء: (الصفات) وان كان من السمو فكذلك لان دليل الشئ كالمرتفع على ذلك الشئ فان العلم بالدليل حاصل قبل العلم بالمدلول " (١) والصفات تدل على الموصوف وهي كالظاهر المرتفع بالنسبة الى الشئ. ٢ - والشيخ محمد عبدة يرى هذه العلاقة في " شدة الصلة بين المعنى واللفظ الموضوع له وسرعة الانتقال من احدهما الى الاخر ". ٣ - كما أنه يرى في ذلك وجها آخر يكاد يغنيه عن هذه العلاقة حيث: إن الاسم قد يطلق اطلاقا صحيحا على صورة المعلوم الذهنية (اي ما به يعلم الشئ عند العالم) فاسم الله مثلا هو ما به عرفناه في اذهاننا لا نفس اللفظ بحيث يقال: اننا نؤمن بوجوده ونسند إليه صفاته، فالاسماء هي ما يعلم بها الاشياء في الصور الذهنية وهي العلوم المطابقة للحقائق الخارجية الموضوعية، والاسم بهذا المعنى هو الذي جرى الخلاف بين الفلاسفة في انه عين المسمى أو غيره، الامر الذي يدعونا لان نقول: إن للاسم معنى آخر غير اللفظ إذ لا شك بان اللفظ غير المعنى. والاسم بهذا الاطلاق أيضا هو الذي يتبارك ويتقدس: (سبح اسم ربك الاعلى) (٢) إذ لا معنى لان يكون اللفظ هو الذي يتبارك ويتقدس (٣).

---

(١) المصدر السابق: الموضوع نفسه. (٢) الاعلى: ١. (٣) المنار ١: ٢٦٢. (*)

ماهي هذه الاسماء ؟ وبعد هذا كله نجدهم يختلفون في حقيقة هذه المسميات والمراد منها في الاية الكريمة: فالعلامة الطباطبائي يراها - كما في النص السابق - موجودات احياء عقلاء، ولعله يفهم هذه الحياة لها والعقل من قوله تعالى: (ثم عرضهم) حيث استعمل ضمير الجماعة المختص بمن يعقل، وهذا الاتجاه نجده في بعض الاراء المتقدمة على العلامة الطباطبائي نفسه، كما في حكاية الطبري عن الربيع بن زيد انهما قالا: علمه الله اسماء ذريته واسماء الملائكة (١). ولكن الشيخ الطوسي يناقش فكرة الاعتماد على الضمير بقوله: " وهذا غلط لما بيناه من التغليب وحسنه، كما قال تعالى: (والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على اربع...) (٢) ". والشيخ محمد عبدة يرى أنها تعني: جميع الاشياء وجميع ما يتعلق بعمارة الدين والدنيا من غير تحديد ولا تعيين (٣) ولعل هذا الاتجاه هو الذي يظهر من كلام الشيخ الطوسي والرازي في تفسيرهما (٤)، وحكاه الطبرسي هم ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وعليه اكثر المتأخرين. وهذا الرأي هو الصحيح الذي ينسجم مع واقع الانسان من ناحية وصحة التمييز به والفضل على الملائكة لانه يعبر عن خط التكامل الذي يمكن أن يسير به الانسان ويمتاز به على جميع المخلوقات.

---

(١) التبيان ١: ١٣٨. (٢) النور: ٤٥. (٣) المنار ١: ٢٦٢. (٤) التبيان ١: ١٣٨، والتفسير الكبير ٣: ١٧٦. (*)

نظرية الاستخلاف: بعد أن تعرفنا آراء العلماء المختلفة تجاه المفاهيم البارزة التي جاءت في هذا المقطع القرآني، لا بد لنا من معرفة الصورة الكاملة للمقطع القرآني لنستخلص نظرية استخلاف آدم منها. صورتان لهذه النظرية: وهنا صورتان لهذه النظرية بينهما كثير من وجوه الشبه: الاولى: الصورة التي ذكرها السيد رشيد رضا في تفسيره عن استاذه الشيخ محمد عبدة: حيث يرى أن القصة وردت مورد التمثيل لغرض تقريبها من تناول افهام الخلق لها لتحصل لهم الفائدة من معرفة حال النشأة الاولى. وعلى هذا الاساس يمكننا ان نفهم كثيرا من جوانب هذه المحاورة والالفاظ التي استعملت فيها دون ان نتقيد بالمعنى اللغوي العرفي لها: ١ - فالله سبحانه أخبر الملائكة بأنه بصدد أن يجعل في الارض خليفة عنه يودع في فطرته الارادة المطلقة التي تجعله قادرا على التصرف حسب قدرته ومعلوماته التي لا يمكن أن تصل الى مرتبة الكمال. وعلى أساس هذه الارادة المطلقة وهذا العلم الناقص عرف الملائكة ان هذا الخليفة سوف يسفك الدماء ويفسد في الارض لان ذلك نتيجة طبيعية لما يتمتع به من ارادة مطلقة يسير بها حسب علمه الذي يحيط بجميع جوانب المصالح والمنافع، الامر الذي قد يوجه الارادة الى خلاف الحكمة والمصلحة فيقع في الفساد. وحين عرف الملائكة ذلك تعجبوا من خلق الله لهذا النوع من الخلق الذي يسفك الدماء ويفسد في الارض فسألوا الله سبحانه (عن طريق النطق، أو الحال، أو غير ذلك) أن يتفضل عليهم باعلامهم عن ذلك وبيان الحكمة لهم. وكان الجواب لهم على ذلك هو بيان وجوب الخضوع والتسليم لمن هو بكل

شئ عليم، لان هذا هو موقف جميع المخلوقات تجاهه لانه العالم المحيط بكل المصالح والحكم. ٢ - على أن هذا النوع من الخضوع والتسليم الذي ينشأ من معرفة الملائكة باحاطة الله بكل شئ قد لا يذهب الحيرة ولا يزيل الاضطراب، وانما تسكن النفس باظهار الحكمة والسر الذي يختفي وراء الفعل الذي حصل منه تعجب الملائكة. ولذلك تفضل الله سبحانه على الملائكة بأن أوضح لهم السر، وأكمل علمهم ببيان الحكمة في هذا الخلق، فأودع في نفس آدم وفطرته علم جميع الاشياء من غير تحديد ولا تعيين الامر الذي جعل لادم امتيازا خاصا استحق به الخلافة عن الله في الارض. ويظهر هذا الامتياز حين نقارن بين الانسان وبين المخلوقات لله سبحانه، فقد نطق الوحي ودل العيان والاختبار على أن الله تعالى خلق العالم انواعا مختلفة وخص كل نوع منها بقدرات ومواهب، ولكن الانسان مع ذلك يختلف عنها في أنه لما منحه الله من قدرات ومواهب ليست لها حدود معينة لا يتعداها على خلاف بقية المخلوقات. فالملائكة - الذي لا تتمكن من معرفة حقيقتهم الا عن طريق الوحي - لهم وظائف محدودة - كما دلت الايات والاحاديث - فهم يسبحون الله ليلا ونهارا وهم صافون ويفعلون ما يؤمرون الى غير ذلك من الاعمال المحدودة. ٣ - وما نعرفه بالنظر والاختبار عن حال الحيوان والنبات والجماد، فانها بين ما يكون لا علم له ولا عمل كالجماد، أو يكون له عمل معين يختص به نفسه دون ان يكون له علم وارادة، ولو فرض ان له علما أو ارادة فهما لا أثر لهما في جعل عملهما مبينا لحكم الله وسنته في الخلق ولا وسيلة لبيان احكامه وتنفيذها.

فكل حي من الاحياء المحسوسة والغيبية - عدا الانسان - له استعداد محدود وعلم إلهامي محدود وما كان كذلك لا يصلح ان يكون خليفة عن الذي لا حد لعلمه وارادته. واما الانسان فقد خلقه الله ضعيفا وجاهلا ولكنه على ضعفه وجهله فهو يتصرف في الموجودات القوية، ويعلم جميع الاسماء بما وهبه الله من قدرة على النمو والتطور التدريجي في احساسه ومشاعره وادراكه، فتكون له السلطة على هذه الكائنات يسخرها ثم يذللها بعد ذلك كما تشاء قوته الغريبة التي يسمونها العقل ولا يعرفون حقيقتها ولا يدركون كنهها، فهذه القوة نجدها تغني الانسان عن كل ما وهب الله للحيوان في أصل الفطرة والالهام من الكساء والغذاء والاعضاء والقوة. فالانسان بهذه القوة غير محدود الاستعداد ولا محدود الرغائب ولا محدود العلم ولا محدود العمل. وكما اعطاه الله تعالى هذه المواهب اعطاه احكاما وشرائع حدد فيها اعماله واخلاقه، وهي في الوقت نفسه تساعده على بلوغ كماله لا نها مرشد للعقل الذي كان له كل تلك المزايا. وبهذا كله استحق الانسان خلافة الله في الارض وهو خلق المخلوقات بها، ونحن نشاهد في عصرنا آثار هذه الخلافة بما فعله الانسان من تطوير وسيطرة وتصرف في الكون. وحين أودع الله في فطرة آدم علم الاشياء من غير تحديد عرض الاشياء على الملائكة وأطلعهم عليها اطلاعا اجماليا، ثم طالبهم بمعرفتها والانباء بها وإذا بهم يظهرون التسليم والخضوع والعجز والاعتراف. وعند ذلك أمر الله آدم أن ينبئهم بالاشياء ففعل، وذلك لتتكشف لهم الحقيقة

باوضح صورها واشكالها. واما الصورة الثانية: فهي التي عرضها العلامة الطباطبائي وهي تختلف عن الصورة السابقة في بعض الجوانب، ونحن نقتصر على ذكر جوانب الخلاف التي سبق أن أشرنا الى بعضها: ١ - إن خليفة الله موجود مادي مركب من القوى الغضبية

والشهوية والدار دار تزاحم محدودة الجهات وافرة المزاحمات لا يمكن أن تتم فيها الحياة الا بايجاد العلاقات الاجتماعية وما يستتبعها من تصادم وتضاد في المصالح والرغبات، الامر الذي يؤدي الى الفساد وسفك الدماء. ٢ - إن الملائكة حين تعجبوا كانوا يرون أن الغاية من جعل الخلافة هي أن يحكي الخليفة مستخلفه بتسبيحه بحمده وتقديسه له بوجوده، والارضية اي الانتماء الى الارض وشهواتها لا تدعه يفعل ذلك بل تجره الى الفساد والشر والغاية من هذا الجعل يمكن ان تتحقق بتسبيحهم بحمد الله وتقديسهم له. ٣ - إن آدم استحق الخلافة لقدرته على تحمل السر الذي هو عبارة عن تعلم الاسماء التي هي اشياء حية عاقلة محجوبة تحت حجاب الغيب محفوظة عند الله. وقد انزل الله كل اسم في العالم بخيرها وبركتها واشتق كل ما في السماوات والارض من نورها وبهائها، وانهم على كثرتهم وتعددهم لا يتعددون تعدد الافراد وانما يتكاثرون بالمراتب والدرجات. الموازنة بين الصورتين: ويحسن بنا ان نوازن بين هاتين الصورتين لنخرج بالصورة الكاملة التي نراها صحيحة لتصوير هذا المقطع القرآني، ولنأخذ النقاط الثلاث التي خالف فيها العلامة الطباطبائي الشيخ محمد عبدة. ففي النقطة الاولى قد نجد العلامة الطباطبائي على جانب من الحق كما نجد

الشيخ محمد عبدة على جانب آخر منه، ذلك لان العلامة الطباطبائي أكد ما فطر عليه الانسان من غرائز وعواطف مختلفة، وهذا شئ صحيح لما لهذه الغرائز من تأثير كبير في حصول التزاحم والتنافس في المجتمع الانساني الامر الذي يؤدي الى الفساد وسفك الدماء، واساس هذه الغرائز غريزة حب الذات التي جاءت الاديان السماوية ومنها الاسلام من اجل توجيهها توجيها صالحا يدفعها الى تجنب الفساد والسفك للدماء، ولذلك نجد القرآن الكريم يؤكد دور الهوى في الفساد وسفك الدماء. والشيخ محمد عبدة حين يغفل هذا الجانب - في مسألة معرفة الملائكة للفساد وسفك الدماء - يؤكد جانبا آخر له دور كبير أيضا في الفساد وسفك الدماء، وهو الارادة المطلقة والمعرفة الناقصة فلولا هذه الارادة ولولا هذا النقص في العلم لما كان السفك والفساد. وعلى هذا الاساس يمكن ان نعتبر كلا الجانبين مؤثرا في معرفة الملائكة لنتيجة هذا الخليفة. وفي النقطة الثانية نجد الشيخ محمد عبدة يحاول أن يذكر ان الشئ الذي أثار السؤال لدى الملائكة هو قضية أن هذا المخلوق المريد ذا العلم الناقص لا بد أن يكون مفسدا في الارض وسافكا للدماء، ومن ثم فلا مبرر لجعله خليفة مع ترتب هذه الاثار على وجوده. وأما العلامة الطباطبائي فهو يحاول أن يذكر في أن الشئ الذي أثار السؤال هو أن الخليفة لا بد أن يكون حاكيا للمستخلف (الله) بخلاف الملائكة، حيث يمكن أن يحكوا المستخلف من خلال تسبيحهم وحمدهم. وفي هذه النقطة قد يكون الحق الى جانب العلامة الطباطبائي، ذلك لان التفسير الالهي لهذه الخلافة كان من خلال بيان امتياز هذا الخليفة بالعلم، كما قد

يفهم من الاية، وأشار إليه الشيخ محمد عبدة، مع أن هذا التفسير لا ينسجم مع النقطة التي ذكرها الشيخ عبدة لانه افترض في أصل إثارة السؤال وجود العلم الناقص الى جانب الادارة، فكيف يكون هذا العلم - بالشكل الذي ذكره الشيخ محمد عبدة، وهو علم ناقص على أي حال - جوابا لهذا السؤال ؟ نعم لو افترضنا أن العلم الذي علمه الله تعالى لادم هو الرسالات الالهية الهادية للصلاح والرشاد

والحق والكمال - كما أشار الشيخ محمد عبدة الى ذلك في النقطة الثالثة - فقد يكون جوابا لسؤال الملائكة، لان مثل هذا العلم يمكن أن يصلح شأن الارادة والاختيار الذي أثار المخاوف، ولكن هذا خلال الظاهر، حيث يفهم من ذيل هذا المقطع الشريف: (... فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) (١) أن هذا الهدى الذي هو الرسالات الالهية الهادية جاء بعد هذا التعليم لادم. وأما لو افترضنا أن الذي أثار السؤال لدى الملائكة هو الارادة والاختيار فقط - كما اختاره أستاذنا الشهيد الصدر (قدس سره) - أصبح بيان الامتياز بالعلم والمعرفة جوابا للسؤال وتهدئة للمخاوف التي انثارت لدى الملائكة، لان هذا العلم يهدي الى الله تعالى ويتمكن هذا الانسان بفطرته من أن يسير في طريق التكامل. وأما العلامة الطباطبائي فقد اعتبر الانتماء الى الارض والتزاحم بين المصالح فيها هو الذي يؤدي الى الفساد، ويكون العلم بالاسماء طريقا وعلاجا لتجنب هذه الاخطار، لان الاسماء بنظره موجودات عاقلة حية. وفي النقطة الثالثة يفترض الشيخ محمد عبدة أن العلم هو الذي جعل الانسان مستحقا للخلافة، وهذا العلم ذو بعدين: أحدهما: العلوم الطبيعية التي يمكن للانسان أن يحصل عليها من خلال

---

(١) البقرة: ٣٨. (*)

التجارب والبحث، والتي يتمكن الانسان بواسطتها من الهيمنة على العالم المادي الذي يعيش فيه، كما نشاهد ذلك في التأريخ وفي عصرنا الحاضر بشكل خاص. والاخر: العلم الالهي المنزل من خلال الشريعة، والذي يمكن للانسان من خلاله أن يعرف طريقه الى الكمالات الالهية ويشخص المصالح والمفاسد والخير والشر. وهذا التصور ينسجم مع اطلاق كلمة العلم في الاية الكريمة، ومع فرضية أن الجواب الالهي للملائكة انما هو تفسير لجعل الانسان خليفة، لان الجواب ذكر خصوصية (العلم) كامتياز لادم على الملائكة. كما ينسجم هذا التصور مع ما أكده القرآن الكريم في مواضع متعددة من دور العقل ومدركاته في حياة الانسان ومسيرته وتسخير الطبيعة له، وكذلك دور الشريعة في تكامل الانسان ووصوله الى أهدافه. ولكن هذا التصور نلاحظ عليه - ما ذكرنا - من أن الشريعة قد افترض نزولها في هذا المقطع الشريف بعد هذا الحوار: (... فاما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون). كما أن الظاهر أن الارادة والاختيار يمثلان ميزة اخرى لادم والانسان بشكل عام على الملائكة، وأن هذه الخصوصية هي التي أثارت مخاوف الملائكة وسؤالهم، كما نبهنا عليه وأشار إليه الشيخ محمد عبدة. وبذلك يكون استحقاق آدم للخلافة وجود هاتين الخصوصيتين فيه. وأما العلامة الطباطبائي فهو افترض أن هذا الاستحقاق انما كان باعتبار العلم بالاسماء، ولكنه فسر الاسماء بأنها موجودات عاقلة لها مراتب من الوجود، حيث يمكن من خلال العلم بها أن يسير الانسان في طريق التكامل. ولكن هذا التفسير فيه شئ من الغموض ولعله يعتمد على بعض المذاهب

الفلسفية التي تؤمن بوجود العقول التي هي واسطة في العلم والخلق والتكامل بين الله تعالى والوجود ومنه الانسان. نعم هناك

فرضية تشير إليها بعض الروايات المروية عن أهل البيت (عليهم السلام) وهي أن الاسماء عبارة عن أسماء العناصر والذوات الانسانية الموجودة في سلسلة امتداد الجنس البشري من الانبياء والربانيين والاحبار الذين جعلهم الله تعالى شهودا على البشرية والانسانية، واستحفظهم الله تعالى على كتبه ورسالاته (١)، ويكون وجود هذا الخط الانساني الالهي الكامل هو الضمان الذي أعده الله تعالى لهداية البشرية والسيطرة على الهوى وتوجيه الارادة نحو الخير والصلاح والكمال. ويكون العلم بهذه الاسماء معناه تحقق وجودها في الخارج باعتبار مطابقة العلم للمعلوم، وتعليم آدم الاسماء انما هو اخباره بوجودها. أو يكون العلم بالاسماء معناه معرفة هذه الكمالات التي يتصف بها هؤلاء المخلوقون وهي صفات وكمالات تمثل نفحة من الصفات والكمالات الالهية، خصوصا إذا أخذنا بنظر الاعتبار أن كلمة الاسماء في القرآن تطلق على الصفات الالهية بنحو من الاطلاق. والظاهر أن هذه الفرضية هي التي ذهب إليها استاذنا الشهيد الصدر (قدس سره). الفصل الثاني: مسيرة الاستخلاف: وهي مسيرة تحقق الخلافة في الارض، فيقع الكلام فيه أيضا في جانبين: الاول: تشخيص مجموعة من المفاهيم والتصورات التي وردت في القرآن

---

(١) (انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين اسلموا للذين هادوا والربانيون والاحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء...) المائدة: ٤٤. (*)

الكريم حول هذه المسيرة. الثاني: بيان الصورة النظرية الكاملة حول هذه المسيرة. السجود لادم: في البداية يواجهنا السؤال عن الامر الالهي للملائكة في السجود لادم، حيث إنه في الشريعة المقدسة يحرم السجود لغير الله تعالى، فكيف صح أن يطلب من الملائكة السجود لادم ؟ وما هو المقصود من هذا السجود ؟ وهذا السؤال ينطلق من فكرة وهي أن السجود بحد ذاته عبادة، والعبادة لغير الله شرك وحرام، حيث تقسم الافعال العبادية الى قسمين: احدهما: الافعال التي تتقوم عباديتها بالنية وقصد القربة كالانفاق (الزكاة والخمس) أو الطواف بالبيت الحرام أو القتال، أو غير ذلك، فان هذه الافعال إذا توفرت فيها نية القربة وقصد رضا الله تعالى تكون عبادة لله تعالى، وبدون ذلك لا تكون عبادة، ومن ثم فهي تتبع نيتها في تشخيص طبيعتها. والاخر: الافعال التي تكون بذاتها عبادة ويذكر (السجود) منها، حيث إنه عبادة بذاته، ولذا يحرم السجود لغير الله لانه يكون بذاته عبادة لغير الله. ولكن هذا التصور غير صحيح، فان السجود شأنه شأن الافعال الاخرى التي تتقوم عباديتها بالقصد والنية، ولذا فقد يكون السجود سخرية واستهزاء، وقد يكون لمجرد التعظيم، وقد يكون عبادة إذا كان بنيتها. ولذا نجد في القرآن الكريم في بعض الموارد الصحيحة يستخدم السجود تعبيرا عن التعظيم كما في قصة اخوة يوسف، قال تعالى: (ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا...) (١).

---

(١) يوسف: ١٠٠. (*)

وانما كان السجود لغير الله حراما لانه يستخدم عادة في العبادة، فاريد للانسان المسلم أن يتنزه عما يوهم العبادة لغير الله تعالى. وأما إذا كان السجود للتعظيم وبأمر من الله تعالى، فلا يكون حراما، بل يكون واجبا. ولكن يبقى السؤال: أن هذا السجود ماذا كان يعني ؟ فقد ذكر بعض المفسرين - انطلاقا من فكرة أن هذا الحديث لا يراد منه إلا التربية والتمثيل وليس المصاديق المادية لمفرداته ومعانيه - أن السجود المطلوب انما هو خضوع هذه القوى المتمثلة بالملائكة للانسان، بحيث إن الله تعالى أودع في شخصية هذا الانسان وطبيعته من المواهب ما تخضع له هذه القوى الغيبية وتتأثر بفعله وارادته: (ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا...) (١). كما أنه يمكن أن يكون هذا السجود سجودا حقيقيا بالشكل الذي يتناسب مع الملائكة، ويكون طلب السجود منهم لادم من أجل أن يعبروا بهذا السجود عن خضوعهم أو تقديسهم لهذا المخلوق الالهي المتميز، بما أودع الله فيه من روحه ووهبه العلم والارادة والقدرة على التكامل والصعود الى الدرجات الكمالية العالية. ولعل هذا المعنى الثاني هو الظاهر من مجموعة الصور والايات القرآنية التي تحدثت عن هذا الموضوع، حيث نلاحظ أن امتناع ابليس عن السجود انما كان بسبب الاستكبار لتفضيل هذا المخلوق، حيث كان يطرح في تفسير عدم السجود أنه أفضل من آدم: (... قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين) (٢)، كما أن

---

(١) فصلت: ٣٠. (٢) الاعراف: ١٢. (*)

القرآن الكريم يشير الى أن الانسان الصالح المخلص يكون خارجا عن قدرة ابليس ومكره، ومن ثم فهو مهيمن على هذه القوة الشيطانية: (قال فبعزتك لاغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين) (١). ابليس من الملائكة أم لا: وهناك سؤال آخر عن حقيقة ابليس وأ نه من الملائكة أو الجن، حيث ورد في القرآن الكريم وصفه بكلا هذين العنوانين: فإذا كان من الملائكة فكيف يعصي الله تعالى، وقد وصف الله تعالى الملائكة بأنهم (... عباد مكرمون) (٢) لا يخالفون و (لا يعصون الله ما أمرهم) (٣)، وهم بأمره يعملون. وإذا كان من الجن فلماذا وضع الى جانب الملائكة في هذه القصة ؟ وتذكر عادة للاستدلال على ان ابليس من الجن وليس من الملائكة ويختلف عن طبيعة الملائكة عدة شواهد، إضافة الى وصف القرآن الكريم له بذلك، ومن هذه الشواهد أن أوصاف الملائكة لا تنطبق على ابليس، حيث إنهم وصفوا بالطاعة وقد تمرد ابليس، ووصفوا بأ نهم رسل: (... جاعل الملائكة رسلا اولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع...) (٤)، ومن هذه الشواهد أن الملائكة لا ذرية لهم، إذ لا يتناسلون ولا شهوة لهم، وأما ابليس فله ذرية كما أشار القرآن الكريم الى ذلك: (أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني...) (٥).

---

(١) ص: ٨٢ - ٨٣. (٢) الانبياء: ٢٦. (٣) التحريم: ٦. (٤) فاطر: ١. (٥) الكهف: ٥٠. (*)

ولكن هذه الشواهد لا تكفي في عد ابليس من الجن في مقابل الملائكة، وذلك لان وصف القرآن الكريم لابليس بأ نه من الجن يمكن أن يكون من ناحية أن بعض الملائكة يوصف بأنه جن، إن لم يكن هذا الوصف عاما لهم، لان الجن مأخوذ من الخفاء والستر، والملائكة مستورون عن عوالمنا ومشاهدنا. كما نلاحظ هذا الوصف في نسبة الملائكة الى الله تعالى عند المشركين، حيث افترضوا ان الملائكة هم بنات الله - على ما ورد في القرآن الكريم - وفي نفس الوقت يصف القرآن الكريم هؤلاء الملائكة بأنهم جنة: (وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا...) (١). كما أن الطاعة ليست صفة لازمة لعنوان الملائكة، بل نلاحظ في القرآن الكريم حصول التمرد لدى بعض الملائكة كما في الملكين هاروت وماروت (٢). وكذلك موضوع (الذرية) فانها يمكن أن تكون من الخصوصيات التي اختص بها ابليس ليقوم بهذا الدور الخاص له في حياة الانسان. نعم يوجد في بعض الروايات ما يشير الى أن ابليس كان من الجن وليس من الملائكة، وانما كان يعاشرهم وانهم كانوا يظنون أنه منهم، ولكن لا يمكن الاعتماد على مثل هذه الروايات. هل خلق آدم للجنة أم للارض ؟ وهناك سؤال آخر وهو أن آدم هل خلق للارض كما يبدو ذلك في أول المقطع الشريف: (وإذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة...) (٣)، أو انه مخلوق للجنة وبعد العصيان طرد للارض، كما يفهم ذلك من القسم الثاني من هذا

---

(١) الصافات: ١٥٨. (٢) البقرة: ١٠٢. (٣) البقرة: ٣٠. (*)

المقطع الشريف: (وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين). وقد حاول بعض الملحدين أن يثير الشبهات حول هذا الموضوع بدعوى أن هذا المقطع القرآني يبدو وكأن ادخال آدم للجنة والتوبة عن فعله انما هما عملية شكلية وصورية لطرده منها وانزاله الى الارض. ولكن الجواب عن هذا السؤال واضح وهو: أن آدم انما خلق للارض وخلافة الله فيها، وكان وجوده في الجنة هو مرحلة متقدمة (تأهيلية) تؤهله للقيام بدور الخلافة، حيث لم يكن من الممكن لادم أن يقوم بهذا الدور بدون هذا التأهيل والتجربة التي خاضها في الجنة، على ما سوف نوضح هذا الامر في بيان الجانب الاخر. على أن هذه الجنة يمكن أن تكون جنة أرضية وليست جنة (الخلد)، إذ لا يوجد دليل على أنها جنة الخلد، وكان هبوطه واخراجه منها يعني بداية دور تحمل المسؤولية والتعب والجهد من أجل الحياة واستمرارها، فهو منذ البداية كان على الارض ولكن في مكان منها لا تعب ولا عناء فيه، وقد تهيأت له جميع أسباب العيش والراحة والاستقرار، وبعد المعصية بدأت حياة جديدة تختلف عن الحياة السابقة في خصوصياتها ومواصفاتها وان كانت على الارض أيضا. وبذلك يمكن أن نجيب على سؤال آخر هو أنه كيف تسنى لابليس أن يغوي آدم في الجنة مع أن دخولها محرضم على ابليس ؟ حيث يمكن أن تكون هذه الجنة أرضية ولم يمنع من دخولها، ولعل ضمير الجمع في قوله تعالى: (... وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو...) (١) يشير الى ذلك. على أن عملية الاغواء يمكن أن تكون من خلال وجوده في خارج الجنة، لان

---

(١) البقرة: ٣٦. (*)

الخطاب بين أهل الجنة وغيرهم ممن هو في خارج الجنة ميسور، كما دل على ذلك القرآن الكريم في خطاب أهل الجنة وأهل النار: (ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا ان الله حرمهما على الكافرين) (١). وفي خطاب أصحاب الجنة لاصحاب النار: (ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار ان قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا قالوا نعم فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين) (٢). خطيئة آدم: والسؤال الاخر هو عن خطيئة آدم وغوايته وعصيانه: (... وعصى آدم ربه فغوى) (٣). حيث دلت بعض الروايات على أن آدم كان نبيا، وان لم يذكر ذلك في القرآن الكريم، والانبياء معصومون من الذنب والزلل والغواية منذ بداية حياتهم. ومع غض النظر عن الشك والمناقشة في صحة هذه الفرضيات (فرضية أن يكون آدم نبيا) و (فرضية أن يكون الانبياء معصومين من الذنب منذ بداية حياتهم)، يمكن أن نفسر جدية هذه المخالفة والعصيان على أساس اتجاهين: الاتجاه الاول: أن يكون النهي الالهي هنا هو نهي (ارشادي) (٤) اريد منه

(١) الاعراف: ٥٠. (٢) الاعراف ٤٤. (٣) طه: ١٢١. (٤) تقسم الاوامر والنواهي في الشريعة الى قسمين: مولوي وارشادي، والمراد من (المولوي) ما يصدر من المولى، باعتباره مولى له حق الطاعة ويكون فيه ارادة جديدة للطلب والتحرك نحو المطلوب أو الزجر عن المنهي عنه، كما في أوامر الصلاة والزكاة والجهاد والحج والنهي عن شرب الخمر والزنا والسرقة، و (الارشادي) هو الذي يكون للارشاد إلى المصلحة أو المفسدة، كما في الاوامر والنواهي في موارد المعاملات غالبا، حيث يكون ارشادا لبطلان المعاملة أو صحتها، أو كما في أوامر الاطباء والمهندسين والعلماء التجريبين فانهم لا يستحقون الطاعة بما هم سادة، واولوا الامر والولاية، بل لان متعلقات أوامرهم ونواهيهم فيها مصالح ومفاسد، فعندما يأمر بشرب الدواء فهذا يعني أن شرب الدواء فيه مصلحة، وكذا عندما ينهي عن أكل شئ فانه يعني أن أكله فيه ضرر ومفسدة. (*)

الارشاد الى المفاسد الموجودة في أكل الشجرة وليس نهيا (مولويا) يراد منه التحريك والطلب الجدية والمعصية المستحيلة على الانبياء والتي توجب العقاب هي في الاوامر المولوية وليست الارشادية. الاتجاه الثاني: أن يكون النهي الالهي هنا نهيا مولويا كما - هو الظاهر - وحينئذ فيفترض بأن الانبياء معصومون من الذنوب المتعلقة بالاوامر والنواهي التي يشتركون فيها مع الناس، وأ ما الاوامر والنواهي الخاصة بهم فلا يمتنع عليهم صدور الذنب بعصيانها وليسوا معصومين تجاهها، وهذا النهي الذي صدر لادم انما هو خاص به، ولذا لم يحرم على ذريته من بعده أكل الشجرة. ومن هنا نجد القرآن الكريم ينسب الظلم والذنب أحيانا لبعض الانبياء باعتبار هذه الاوامر الخاصة، كما حصل لموسى (عليه السلام): (قال ربي اني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له انه هو الغفور الرحيم) (١). مع أن قتل الفرعوني الظالم الكافر ليس ذنبا وحراما على الناس بشكل عام، وانما كان حراما على موسى لخصوصية في وضعه. ومن هنا ورد أن حسنات الابرار سيئات المقربين باعتبار أن لهم تكاليف خاصة بهم تتناسب مع مستوى الكمالات التي يتصفون بها. وهذا التفسير للعصمة أمر عرفي قائم في فهم العقلاء لمراتب الناس، فبعض

(١) القصص: ١٦. (*)

الامور هي من العلماء والفضلاء ذنب يؤاخذون عليه، ولكنه ليس كذلك بالنسبة الى العامة من الناس، وبعض الانفاقات القليلة ذنب من الاغنياء يؤاخذون عليها وليست كذلك بالنسبة الى الفقراء. الفصل الثاني: التصور العام لمسيرة الخلافة: وهنا نشير الى تصورين: التصور الاول: ما ذكره العلامة الطباطبائي (قدس سره) في الميزان، حيث يفترض أن هذه المسيرة بدأت من وضع آدم وزوجه في الجنة من أجل أن ينتقل الى الارض بعد ذلك، وكان لا بد له من التعرض الى المعصية من أجل أن يتحقق هذا النزول الى الارض، إذ لا يمكن أن يحصل على التكامل الانساني الذي يؤهله لهذه الخلافة ما لم يتعرض الى المعصية والنزول الى الارض بعد ذلك. وذلك لان تكامل الانسان انما يحصل من خلال توفر عنصرين وعاملين أساسيين: أحدهما: شعور الانسان بالفقر والحاجة والمسكنة والذلة، أو بتعبير آخر شعور الانسان بالعبودية لله تعالى الذي يدفعه للحركة والتوجه الى الله تعالى والمصير إليه. والاخر: هو عفو الله تعالى ورضوانه ورحمته وتوفيقه لهذا الانسان، وامداده بالعطاء والفضل الالهي. فشعور الانسان بالحاجة يجعله يتحرك لسد هذه الحاجة، والفضل والعطاء الالهي هو الذي يحقق الغنى النسبي للانسان ويسد النقص والحاجات لدى هذا الانسان فيتكامل. وإذا لم يشعر الانسان بالحاجة فلا يسعى الى الكمال حتى لو كان محتاجا في واقع الحال، وإذا لم يتفضل الله على هذا الانسان بالعفو والرحمة والعطاء يبقى هذا

الانسان ناقصا ومتخلفا في حركته. وما ذكر في قصة آدم إنما يمثل هذين الامرين معا. فلو لم ينزل الانسان الى الارض لا يشعر بالحاجة، حيث كان يعيش في الجنة يأكل ويشرب بدون تعب أو عناء، فطبيعة هذه الجنة: (ان لك ألا تجوع فيها ولا تعرى * وانك لا تظمأ فيها ولا تضحى) (١). ولو لم تصدر من آدم المعصية فلا يمكن أن يحصل على تلك الدرجات العالية من الرحمة والمغفرة التي حصل عليها الانسان في حالات الرجوع والتوبة، حيث يفترض العلامة الطباطبائي وجود درجات من الرحمة والمغفرة مرهونة بالتوبة والانابة، قال: " فلله تعالى صفات من عفو ومغفرة وتوبة وستر وفضل ورأفة ورحمة لا ينالها إلا المذنبون... فهذه التوبة هي التي استدعت تشريع الطريق الذي يتوقع سلوكه وتنظيف المنزل الذي يرجى سكونه، فوراءها تشريع الدين وتقويم الملة " (٢). فالقصة وراءها قضاءان قضاهما الله تعالى في آدم: القضاء الاول: الهبوط والخروج من الجنة والاستقرار على الارض وحياة الشقاء فيها، وهذا القضاء لازم حتمي لاكل الشجرة، حيث بدت سوآتهما، وظهور السوءة لا يناسب حياة الجنة، بل الحياة الارضية، ومن هنا كان اخراجهما من الجنة بعد العفو عنهما، ولولا ذلك لكان مقتضى العفو هو بقاؤهما في الجنة. القضاء الثاني: اكرام آدم بالتوبة حيث طيب الله تعالى بها الحياة الارضية التي هي شقاء وعناء، وبها ترتبت الهداية الى العبودية الحقيقية، فتآلفت الحياة من

---

(١) طه: ١١٨ - ١١٩. (٢) تفسير الميزان ١: ١٣٤، طبعة جماعة المدرسين - قم. (*)

حياة أرضية وحياة سماوية (١). فنزول آدم الى الارض وإن كان فيه ظلم للنفس وشقاء، إلا أنه هيأ لنفسه بنزوله درجة من السعادة ومنزلة من الكمال ما كان ينالها لو لم ينزل، وكذلك ما كان ينالها لو نزل من غير خطيئة. التصور الثاني: ما ذكره أستاذنا الشهيد الصدر (قدس سره): أن الله سبحانه قدر لادم الذي يمثل أصل الجنس البشري أن يمر بدور الحضانة التي يمر بها كل طفل ليتعلم الحياة وتجاربها، فكانت هذه الجنة الارضية التي وجدت من أجل تربية الاحساس الخلقي لدى الانسان والشعور بالمسؤولية وتعميقه من خلال امتحانه بما يوحيه إليه من تكاليف وأوامر. وقد كان النهي عن تناول الشجرة هو أول تكليف يوجه الى هذا الخليفة ليتحكم في نزواته وشهواته، فيتكامل بذلك ولا ينساق مع غريزة الحرص وشهوة حب الدنيا التي كانت الاساس لكل ما يشهده مسرح التأريخ الانساني من ألوان الاستغلال والصراع. وقد كانت المعصية التي ارتكبها آدم هي العامل الذي يولد في نفسه الاحساس بالمسؤولية من خلال مشاعر الندم فتكامل وعيه بهذا الاحساس، في الوقت الذي كانت قد نضجت لديه خبرات الحياة من خلال وجوده في الجنة. وكان الهدى الالهي يتمثل بخط الشهادة وهو الوحي الالهي الذي يتحمل مسؤوليته الانبياء لهداية البشرية. وبذلك تتكامل المسيرة البشرية ويتطور الانسان ويسمو على المخلوقات من خلال التعليم الرباني والهدى الالهي الذي يجسده شهيد رباني معصوم من الذنب يحمله الى الناس من أجل تحصينهم من الضلال: (فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع

---

(١) المصدر نفسه. (*)

هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) (١). ويمكن أن نشير في نهاية هذا العرض لهذين التصورين الى عدة ملاحظات: الملاحظة الاولى: انه يمكن تكميل الصورة: بأن الاسكان في الجنة في الوقت الذي يمثل مرحلة الاعداد والتهيؤ يعبر في نفس الوقت عن هدف إلهي وهو: أن مقتضى الرحمة الالهية بالانسان هو أن يعيش حياة الاستقرار والسعادة بعيدا عن الشقاء، وأن مسيرة الشقاء انما هي اختيار الانسان، ولذا بدأ الله تعالى حياة الانسان بالجنة وشمله برحمته الواسعة من خلال التوبة والسداد الالهي بالهدى الذي أنزله على الانبياء. كما أن الخطيئة هي التي فجرت في الانسان - إضافة الى احساسه بالمسؤولية - ادراكه للحسن والقبح والخير والشر، ولعل هذا هو الذي أشار إليه القرآن الكريم بقوله تعالى: (... فبدت لهما سوأتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة...). وكان هذا الادراك ضروريا للانسان من أجل أن يكون قادرا على مواجهة مشكلات الحياة وألوان الصراع فيها وتمييز الحق من الباطل، والخير من الشر، والمصلحة من المضرة، ويخلق فيه حالة التوازن الروحي والنفسي في مقابل ضغوط الشهوات والغرائز. وقد كان من الممكن أن يحصل هذا الادراك من خلال الحضانة الطويلة والتجربة الذاتية في حياته في الجنة، ولعل هذا هو الهدف من وضعه في الجنة ليمر بهذه الحضانة الطويلة، كما يحصل للانسان في تجاربه في الطفولة، حيث تنمو فيه هذه المعرفة تدريجا، ولكن كان هناك طريق أقصر محفوف بالمخاطر وبالخطيئة والذنب.

---

(١) البقرة: ٣٨. (*)

ولم يكن الله سبحانه وتعالى ليختار للانسان طريق الخطيئة بالرغم من قصره لانه طريق خطير، ولكن عندما اختار الانسان ذلك وأصبح يدرك هذه الحقائق صار مؤهلا للبدء في الحياة الدنيا. وقد فتح الله سبحانه وتعالى امامه باب التوبة والرجوع إليه ليتمكن الانسان من مواصلة طريقه عندما يضعف ويقع في الخطيئة، وبذلك يتكامل عندما يكون قادرا على التغلب على شهواته والسيطرة على رغباته. الملاحظة الثانية: أن العلامة الطباطبائي لم يوضح دور الخطيئة في معرفة السوءات، كما لم يوضح عدم انسجام السوءات مع حياة الجنة، ولعله يريد من دور الخطيئة في معرفة السوءات ما أشرنا إليه من دورها في الاحساس الخلقي للانسان في ادراكه للحسن والقبح، وكذلك لان حياة الجنة يراها حياة طاهرة ونظيفة لا تنسجم مع السوءات، وهو معنى عرفاني حيث لم يشر القرآن الكريم الى أن آدم (عليه السلام) لم تكن لديه سوءة قبل الخطيئة، أو أنها وجدت بعد الخطيئة، وانما أشار الى أن ادراكه للسوءة انما كان بعد الخطيئة والذنب. الملاحظة الثالثة: أن الشهيد الصدر (قدس سره) لم يذكر في تكون مسار الخلافة على الارض دور التوبة في هذا المسار، مع أن التوبة لها دور أساس يمكن من خلاله أن يستأنف الانسان عمله وتجربته في هذه الحياة ويصعد بسببها في مدارج الكمال. الملاحظة الرابعة: أن الكمالات الانسانية يمكن أن نتصورها بدون خطيئة ويتكامل فيها الانسان من خلال الطاعة والاحساس بالعبودية لله سبحانه وتعالى، إلا إذا كان مقصوده من الخطيئة ليس مجرد المخالفة، وانما احساس الانسان بالحاجة والتقصير في حق الله تعالى وشكره لنعمه، الامر الذي يدفعه الى الاستزادة من الاعمال الصالحة والرجوع الى الله تعالى والانابة إليه.

الملاحظة الخامسة: أن العلامة الطباطبائي (قدس سره) تصور ان الجنة سماوية، والشهيد الصدر (قدس سره) تصورها أرضية، وهذا التصور الثاني في الوقت الذي ينسجم مع بعض الروايات، يتوافق أيضا مع فرضية خلق الانسان للارض، والله سبحانه أعلم (١).

(١) الاسلام يقود الحياة: ١٥٢ - ١٥٣. (*)

مكتبة يعسوب الدين عليه السلام الإلكترونية